روبرت بالمر

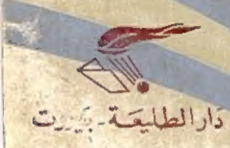
الثورات الكبرى في التاريخ

١٧٨٩

# الثورة الفرنسية وامتداداتها

ـة :

عبّودي



دار الطليعة - بيروت

**١٧٨٩**

**الثورة الفرنسية وامتداداتها**

بيروت ـ لبنان
ص . ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى
تشرين الثاني ( نوفمبر ) ١٩٨٢

رُوبرْت بالمر

الثورات الكبرى في التاريخ

# ١٧٨٩
# الثورة الفرنسية وامتداداتها

ترجمة :
هنريت عبودي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمــة كتاب

1789

LES REVOLUTIONS DE LA

LIBERTE ET DE L'EGALITE

PAR

ROBERT PALMER

CALMANN - LEVY

PARIS 1968

# ملاحظات تمهيدية

بعض التواريخ تبدو وكأنها تشير الى منعطف في التاريخ، وتتحول الى رموز مشحونة بالمعاني . فعام ١٠٦٦ مثلا هو عام الغزو النورماندي بالنسبة الى الانكليز . وعام ١٤٩٢ ، عام « اكتشاف » اميركا ، اي بتعبير آخر بداية طبعها بالطابع الاوروبي ، له وقع الرقم السحري بالنسبة الى الاميركيين . وعام ١٧٨٩ يرمز هو الآخر الى شيء عظيم بالنسبة الى الفرنسيين ؟ بل بالنسبة الى العالم برمته . فهو فجر **الحرية والمساواة** ، او بكلمات اكثر واقعية ، نقطة الانتقال من **النظام القديم** الى المجتمع الحديث . ومن الاهداف التي يرمي اليها هذا الكتاب توضيح الاسباب التي حتمت ان يأخذ هذا الانتقال شكل ثورة . فمما لا شك فيه ان هذا الانتقال جاء ثوريا ، بل انه كان وراء ابتكار الثورة ؟ وراء الترويج للعقيدة ـ بعضهم قد يقول « الاسطورة » ـ الداعية الى حل المشكلات الانسانية من خلال تلك الظاهرة العظيمة والرحبة الافق ، التي عرفت في التاريخ العالمي باسم « الثورة » . وما من احد كان طرح مثل هذه الفرضية قبل عام ١٧٨٩ ؟ بل انها غابت حتى عن اذهان اولئك الفرنسيين

الذيـن اصبحوا ثوريين خلال مجرى الاحداث .

اطلقت صدمة ١٧٨٩ سلسلة من الموجات توزعت في جميع الاتجاهات ـ عبر المجتمع ، عبر المكان وعبر الزمان . ولئن كانت حركـة ١٧٨٩ قد استهلت ، من المنظور الاجتماعي ، من قبـل الطبقات الراقيـة والمثقفـة ، فانهـا سرعان ما انتقلت الـى طبقات الشعب الفرنسي قاطبة . وقد ايقظت على العمل السياسي وعلى الوعي السياسي اعمق شرائح المجتمع ، وعلى مستوى لـم يعرف من قبل . وفي عام ١٧٩٢ شهد العالم للمرة الاولى قيـام جمهورية ، وصفهـا قادتهـا بانهـا « ديمقراطية » ، في بلد متقدم يقطنه زهاء خمسة وعشرين مليون نسمة .

احدث انفجار ١٧٨٩ ، على صعيد المكان ، هزات مباشرة اجتاحت اوروبا وجميع مناطق العالم التي كانت عصرئذ علـى علاقة وثيقة بهذه الاخيرة . فقد اقترن العنف في فرنسا بفورات اقل حدة ، وبتطورات ثورية طغى عليها الطابع المحلي ، انطلقت ، بمعزل عن تأثير احداث فرنسا ، في كل من هولندا ، وبلجيكا ، وسويسرا ، وايرلندا ، وبولونيا . وسرعان ما امتصت ثورة ١٧٨٩ الفرنسية آثار الثورة الاميركية ، التي سبقتها بخمسـة عشر عاما ، وتجاوزتها . فبعد الحرب الكبرى التي نشبت في عـام ١٧٩٢ بين فرنسا الثورة والدول الاوروبية الكبرى ، وبعد الانتصارات التـي أحرزتها الجمهورية الفرنسية ، قامت مجموعة من الدول الثورية الجديدة في اوروبا : جمهورية باتافيا في هولندا عام ١٧٩٥ ، جمهوريـة جبـال الالب الغربيـة ، والجمهوريـة الليغوريـة ، والرومانية ، والنابولية في ايطاليا بين ١٧٩٦ و ١٧٩٩ ، الجمهورية الهلفيسية في سويسرا عام ١٧٩٨ . وفي اثناء حرب ١٧٩٢ ، انتهت الحركة الاصلاحية في بولونيا الى هزيمة الثورة التي قادها كوزيوسكو . وفي ايرلندا ، وحّد أبناء الشعب صفوفهم وحاولوا عبثا اقامة جمهورية مستقلة . وتضاعفت في انكلترا واسكوتلندا اعداد مؤيدي الثورة الفرنسية ، فراحوا يطالبون بتغييرات جذرية

في مؤسسات بريطانيا العظمى . وفي الولايات المتحدة حيث بدىء بتطبيق الدستور الاتحادي الجديد ، تحدد الطابع السياسي للبلد الجديد على ضوء المواقف المتعارضة من الثورة الفرنسية . وفي بلاد الهند الغربية ، في مستعمرة سان ـ دومنغ الفرنسية ، أسفرت الاحداث عن اعلان قيام جمهورية هايتي المستقلة . فللمرة الاولى في تاريخ الاستعمار اقدم شعب زنجي على الاطاحة بحكامه البيض وطردهم . وفي أميركا الاسبانية والبرتغالية حدثت اضطرابات اقل اهمية مهدت للاستقلال الذي لم يتم انتزاعه الا من قبل أبناء الجيل التالي . وبعد عام ١٨٠٠ ، وفي إعقاب الانتصارات التي حققها الفرنسيون بقيادة نابليون ، بادرت ادارات اصلاحية في المانيا ، ايطاليا ، هولندا ، سويسرا ، بولونيا ، وفي اسبانيا ايضا الى حد ما ، الى التعاون مع الفرنسيين ، واستغلت هذه الفرصة لتحديث اقطارهـا وفق المبادىء التي طرحتها ثورة ١٧٨٩ الفرنسية .

لكن في السياسة ، ان لم يكن في الهيدروغرافيا أو الفيزياء ، تترافق الموجات بتيارات معاكسة . والواقع ان ثمة تيارات مناهضة للثورة ، أو محافظة على الاقل ، توطدت وتعززت خلال تلك السنوات بالذات . وفي فرنسا عينها لعبت المقاومة المحافظة دورها الكبير في دفع الثورة أشواطا الى الامام ، وجرّها الى مواقف متطرفة لم تكن في الحسبان . وفي انكلترا نجحت الطبقة الحاكمة التقليدية ، بعد صراع طويل لا ضد فرنسا الثورة فحسب ، وانما ايضا ضد الساخطين والمتذمرين من الانكليز والاسكوتلانديين وضد المتمردين الايرلنديين ، نجحت في تعزيز مكانتها الى حد عجزت معه جميع الاصلاحات البرلمانية ، التي تم انجازها في القرن اللاحق ، عن النيل من سلطانها او تهديدها تهديدا جديا . وفي المانيا توطد اتجاه فكري مناهض لفرنسا ، عارض بشدة النزعات الليبرالية ، والفردية ، والدستورية السائدة في الغرب . وفي اوروبا الشرقية ، الخاضعة لحكم آل هابسبورغ

وآل هوهنزوليرن وآل رومانوف ، تمكنت الثورة المضادة من حسم الموقف لصالحها منذ عام ١٧٩٠ . وفي هذه المنطقة من الشرق الاوروبي ، اتخذت الحكومات والمجتمعات ، التي افزعتها الثورة الفرنسية المنداحة موجتها على جناح السرعة في اوروبا الغربية ، واعتملت فيها الرغبة في خنق الثورة البولونية في مهدها ، اتخذت طابعا عسكريا وزراعيا محافظا ، وحافظت عليه حتى سقوط الملكيات الثلاث ابان الحرب العالمية الاولى . وهكذا فان الخط الفاصل في اوروبا بين غرب ليبرالي وغرب اوتوقراطي يعود في الواقع الى أحداث ١٧٨٩ .

لقد انتشرت الامواج عبر الزمن ايضا . صحيح ان بعضهم ذهب الى الاعتقاد ، في فترات محددة ، ان ثورة ١٧٨٩ قد « انتهت » ، وان انجازاتها قد اكتملت ، او على الاقل اخذت شكلها النهائي . فبعضهم توهم ان **الثورة** ، بحصر المعنى ، « انتهت » في عام ١٧٩١ ، في حين اعتبر بعضهم الآخر ان تاريخ انتهائها هو عام ١٧٩٥ . وقد خيل لفريق آخر ان نابليون وضع حدا نهائيا لها في عام ١٧٩٩ ، وان أبقى في الواقع على أهم ابتكاراتها وأكثر تجديداتها جوهرية . وقد « انتهت » الثورة مجددا في عام ١٨١٥ ، مع عودة آل بوربون الى الحكم ، ثم في عام ١٨٣٠ مع طرد هذه الاسرة من جديد . بيد ان « الثورة » ظلت مستمرة رغما عن ذلك ، او ظل مستمرا بالاحرى السخط الثوري الذي انفجر مجددا في اجزاء واسعة من اوروبا في عام ١٨٤٨ ، وفي فرنسا في عام ١٨٧١ ، وفي مناطق اخرى من العالم على فترات متقطعة .

في الواقع ، لم تقع بعد عام ١٨٤٨ في اوروبا الوسطى والغربية ثورات واسعة النطاق ، كما لم يعقد ازار النصر لاية ثورة منذ العقد الصاخب الذي اعقب عام ١٧٨٩ . فقد سحقت عامية باريس وحصرت ضمن حدودها الضيقة ، وتميزت جمهورية فيمار بغياب الحماسة الثورية ، ولم تأت الاضطرابات والانظمة

الجديدة التي اعقبت الحربيـن العالميتين في اوروبـا الوسـطى والغربية حصيلة انتفاضـات ثوريـة حقيقية . ان الثورة العظمى للحضارة الغربية ـ او ما جـرى الاتفاق على تسـميته بالثـورة الاطلسية منذ ان انضمت اليها الثـورة الاميركية لعـام ١٧٧٦ ـ حصلت في اواخر القرن الثامن عشر . ومنذ ذلك التاريخ لم يقـع حدث بمثل وزنها في الاقطار الغربية .

ان الثورة ، بحد ذاتها ، لم تستمر في القرن التاسع عشر ، وانما الذي استمر هو فكرتها ، أو المثل الاعلى الثوري . ما بقـي من الثورة هو التنظيم ، والتخطيط ، وعادة الكتابة والمناقشة حول الثورة ، تهجما عليها او دفاعا عنها ، وهذا على نحو لم يعهد حقا في ابان ثورة ١٧٨٩ . فالثورة بالنسبة الى بعضهم ، وعلى الاخص بالنسبة الى ذوي الدخل الثابت والى اصحاب الاملاك ، أصغيرة كانت ام كبيرة ، أمست ذكرى مجيدة مـن ذكريـات الماضي أو ضرورة مؤسفة من ضروراته . كانت أشبه بحرب لم تربح الا كي يعقبها سلم . بيد ان هذه الحرب ، بالنسبة الى بعضهـم الآخـر ، لم تكن قد انتهت بعد ، فهي لم تفض الى سلم اجتماعي ، ولم تلغ ضرورة الثورة في المستقبل ، هذا ما كان يؤمن به فريق مـن المثقفين ، والصحفيين ، ومن القادة السياسيين والناطقين بلسان الطبقات الكادحة ، بالاضافة طبعا الى أعداد ضخمة من العمـال الذين لم تحقق لهم ثورة ١٧٨٩ الآمال الكبرى التي كانت وعدتهم بها . ان انقساما من هذا القبيل ، بين العاملين على تثبيت الاوضاع وبين المؤمنين بأن الثورة لم تستكمل ولم تنجز مهامها بعد ، برز في صفوف ثوار ١٧٨٩ بعد انقضاء أشهر معدودة على الاستيلاء على سجن الباستيل . وقد ساهم هذا الانقسـام في فرض ايقـاع متسارع على الثورة ، حتى عام ١٧٩٣ على الاقل .

بعد ثورة ١٨٣٠ التي بـدت وكأنها ضمنت مكاسب ١٧٨٩ ( ولكن ليس مكاسب ١٧٩٣ ) برزت هـذه الانقسامات مجـددا . فأصحاب الامتيازات في المجتمع ، بمـن فيهم المستفيدون مـن

تغييرات ١٧٨٩ ، نزعوا مجددا الى اعتبار الثورة حدثا تاريخيا طويت صفحته نهائيا . أما الآخرون ، أي الذين لا امتيازات لهم ، فقد عبروا مجددا عن سخطهم وتذمرهم ، ولاسباب وجيهة : فسنوات التصنيع الاولى في فرنسا كانت صعبة للغاية بالنسبة الى الطبقات الكادحة ، ان بالنسبة الى العمال الذين عملوا على الآلات الجديدة أو بالنسبة الى العمال الذين فقدوا مهنهم وأعمالهم القديمة بسبب ظهور الآلة الحديثة . وكان من المحتم أن يحصل عهدئذ تجديد في الفكر الاجتماعي . فثمة فئات واسعة من الناس كانت لا تزال تترقب اندماجها في المجتمع . وقد أخذ هذا الفكر الاجتماعي ، في نظر الكثيرين ، شكل ايمان في « الثورة » ، في ضرب من معجزة مستقبلة تقلب العالم رأسا على عقب ، معجزة ما كان ليقدر لها ان تحدث يوما لولا مثال ١٧٨٩ العظيم . واكثر ما كان يثير مخيلة القادة الجدد هو ذكرى جمهورية ديموقراطية كبرى في عهد روبسبيير عام ١٧٩٣ ، وان تكن صورتها في أذهانهم مرسومة في الحق بألوان مثالية .

ان الكلمات التي كانت تلهب المخيلات في عام ١٧٨٩ وفي عام ١٧٩٣ هي « الدستور » ، « الشعب » ، « الامة » ، « حقوق الانسان » ، « القانون » ، « المواطن » ، « ابن الوطن » . وبعد عام ١٨٣٠ ، لجأت الحركة الثورية الجديدة الى استخدام مصطلحات جديدة ، استعانت بها لتشخيص الاوضاع الاجتماعية ، وللتنبوء بالمستقبل ، ولشرح الماضي . ومن بين هذه المصطلحات « الاشتراكية » ، « البورجوازية » ، «الراديكالية»، « النزعة المحافظة » و « الرجعية » . وانه لامر يبعث في الحقيقة على العجب الا يكون اي مصطلح من هذه المصطلحات استخدم من قبل في العقد الثوري الممتد من ١٧٨٩ الى ١٧٩٩ . فكلمات « اليسار » ، « اليمين » ، « الراسماليون » ، « البروليتاريون » ، لم تجد من يتلفظ بها في التسعينات من القرن الثامن عشر ، مع انها لم تكن مجهولة من الفرنسيين .

والاشخاص الذيـن صنعوا فعـلا الثورة الفرنسية ، وكذلـك الاشخاص الذيـن عارضوها وتصدوا لها ، مرّوا بتجربة الثورة من بدايتهـا الى نهايتهـا بدون استخدام المصطلحات التي يتعذر اليوم بدونهـا اجراء أي نقاش حول الثورة . بـل ان كلمـة « بورجوازي » الفرنسيـة القديمـة آلت الى مصطلح بال وسقطت من قاموس الكلمـات المتداولة في ابان الثورة الفرنسية على وجه التحديد . ولم تعاود ظهورهـا من جديد الا بعـد عـام ١٨٣٠، لتنتقل من الفرنسية الى بقيـة لغات العالم . ولم يتحدد معناها الجديد بالوضوح المنشود ، كمـا انه لم يحقق اجماعا من حوله . لكـن بالنسبة الى الماركسيـة الكلاسيكيـة على الاقل ، تشير كلمة « بورجوازية » الى تلك الطبقـة من الناس التي رأى فيها ماركس المحرّك الاساسي للثورة الفرنسية والمستفيد الاول منها ، وعلـى الاخص من القوانين الجديدة للملكيـة التي انبثقت عـن هـذه الثورة والتي يفترض فيهـا ان تزول مـع ثورة الغد .

ثورة الغد المرتقبة لم تقم لا في فرنسـا ولا في اي بلد آخر من بلدان الغرب الصناعية . فمـن الماركسية ، انتقلت الفكرة الى لينين ، الذي عزّز الحركـة الثوريـة التي رأت النور في روسيا بايديولوجيا قائمة على دراسة ماركس والثورة الفرنسية ، تلك الثورة التي ظلت ، حتى الانتصار الذي أحرزه لينين في عـام ١٩١٧ ، السابقـة الاعظم والمثال المحتذى لكل ثورة . فبعد الثورة الروسيـة تراجعت اهميـة الثورة الفرنسية بعض الشيء بالنسبة الى دعـاة القضاء على المجتمع الراهـن . بيـد ان آثار تلـك العاصفـة الكبرى التي هبّت في قلب الحضارة الغربية ، الـذي كانت تشغله فرنسا عام ١٧٨٩ ، لا تزال ماثلة وملموسة حتـى ايامنـا هذه .

ليس الهدف من هذا الكتاب عرض تاريخ الثـورة الفرنسية بقدر ما هـو استعراض « الموجـة » الثوريـة التـي تمخضت عنهـا ، ودراسـة وقعهـا على اوروبـا واميركا المعاصرتين بوجه

خاص ، بدون ان ننسى الطاقة المستمرة لهذه الثورة وشحنتها المتفجرة في الازمان التالية .

* * *

اتسمت الثورة الفرنسية ، كما نوّه بذلك توكفيل ،بطابع المفاجأة والمباغتة . وقد استقبلها العالم بموجة من الذهول. فمن كان يتصور قبل اعوام من انفجارها ، بل قبل اشهر معدودة فحسب ، ان ملكية فرساي بكل ابهتها سوف تنهار ، وان جمعية تأسيسية سوف تنعقد في باريس ، وان الطبقة الفلاحية سوف تنتفض من أقصى فرنسا الى اقصاها ، وان حرفيي المدن واصحاب الحوانيت سوف يخوضون معترك النضال السياسي . ويمكننا تفسير هذا الطابع المباغت ، ولو جزئيا، بتخلف العلوم الاجتماعية والملاحظة التجريبية الدقيقة للمجتمع عصرئذ . فقد كانت الطبقات الاجتماعية تعيش في جهل مطبق بشؤون بعضها بعضا . ولم يكن ثمة حزب ثوري ، قبل عام ١٧٨٩ ، ينادي بفضائل الثورة الصاعدة ، او يناضل في السر من اجل تفجيرها . ولئن ذهب بعض المحافظين المذعورين من امثال بارّويل في فرنسا او روبيسون في انكلترا ، الى الادعاء ، غب الثورة ، بأن هذه الاخيرة كانت حصيلة سنوات من التآمر السري ، فهذا ما يعطي الدليل لا على اندهاش هؤلاء المراقبين وذهولهم امام الحدث الكبير فحسب ، وانما ايضا على عجزهم عن فهمه وعن ادراك اسبابه حتى بعد حصوله . فليس الثوار هم الذين صنعوا ثورة ١٧٨٩ . وانما الثورة هي التي صنعت الثوار . وهذا الكلام قد ينطبق في الواقع على جميع الثورات الكبرى .

ان الطابع المباغت للثورة يوحي بفكرتين متفارقتين . فلئن خرجت الثورة ، اولا ، ذلك الخروج الكامل والمطلق عن نطاق

جميع التوقعات المعقولة ، فربما لانها كانت مجرد حادث تاريخي ، ناجم عن اسباب عارضة وعابرة . فلو لم يواجه الحكم الفرنسي ازمة مالية في عام ١٧٨٦، ولو بادر الى تبني بعض الخيارات والمواقف ، ولو قبل بتقديم بعض التنازلات ، لما برزت الحاجة الملحة الى الثورة . وقد يبدو هذا الكلام صائبا، لكن عند التفكير يتضح ان اسباب الازمة المالية ، والاسباب التي حالت دون ان يوافق الحكم على تقديم بعض التنازلات ، هي من صلب طبيعة الملكية الفرنسية ، ومن صلب بنية المجتمع الفرنسي ، وعلى صلة وثيقة بالعلاقات القائمة بين الطبقات، وبنمط تفكير الزمر الاجتماعية وبأهدافها المتضاربة . باختصار، ان الاهمية التي نوليها للاعتبارات الوجودية والعابرة لا تعفينا ، في سعينا لفهم الثورة ، من استعراض المسببات الجوهرية التي فعلت فعلها على امتداد حقبة مديدة من الزمن .

اما الملاحظة الثانية فهي كالآتي : ان الاشخاص الذين شاركوا مشاركة فعالة في الثورة كانوا يدركون تماما ، منذ البداية ، ماذا يريدون على وجه التحديد ؟ وان كانت احداث ١٧٨٩ اتسمت بالمباغتة وافتقرت الى كل اعداد او تهيئة . فالنواب الذين جمعهم الملك لويس السادس عشر كيما يساعدوه على موازنة الميزانية ، بادروا الى اعادة تحديد الوظيفة الملكية ، والى تعديل البنية الضريبية ، والى اعادة تنظيم الحكم برمته وفق مبادىء جديدة ، والى اضفاء صورة جديدة على البلاد بأسرها. وقد كانوا ، من هذا المنظور ، « ثوريين » مذاك . وكيما نفهم هذه الظاهرة ؟ ينبغي ان نتخطى الآثار السلبية لحكم فقد كل مصداقيته ، وان ناخذ بعين الاعتبار الوقع الايجابي لثورة ثقافية قامت على الحركة الفلسفية للقرن الثامن عشر . هذه الحركة ــ المعروفة باسم « الانوار » ــ تمخضت عن حالة ترقب . لا ترقب ثورة ، وانما ترقب حضارة مستقبلية تتحقق في الغد القريب ؟ وتكون اكثر عقلانية ، وتقدمية ، وفعالية ،

وانصافا من الاوضاع السائدة داخل الكنيسة والدولة .والفلاحون الذين ثاروا في عام ١٧٨٩ ، والذين اذهلت ثورتهم الجمعية التأسيسية ، فدعمتها وأذعرتها في آن معا ، هؤلاء الفلاحون كانوا يعرفون هم ايضا بجلاء ماذا يريدون . فقد كانوا يتطلعون الى التحرر من النظام الاقطاعي ، الى التوقف عن تسديد الضرائب النقدية والعينية الى سادتهم ، الى تحسين اوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بفضل نشاطهم بالذات . وهنا ايضا يتعين علينا البحث عن الاسباب الجوهرية .

تبقى مسألة التجاوب الشامل ، المذهل والمباغت ، مع الثورة الفرنسية في الاقطار الاخرى . فما الذي يفسر هذه الموجة، او بالاحرى هذه « العدوى » كما سميت آنذاك ؟ ان الجواب عن هذا السؤال يكمن في تجانس الحضارة الغربية وتواصلها في ذلك العصر . فلئن لم تكن الشروط الاجتماعية والسياسية في تلك الاقطار ، ومستوى التطور الاقتصادي ، وسوية الاعداد الفكري التي وفرتها فلسفة « الانوار » ،مطابقة لتلك التي سادت في فرنسا ، فانها كانت مشابهة لها بما فيه الكفاية لتكون للتطورات التي حدثت في فرنسا انعكاساتها المحتومة في تلك البلدان . وكيما نفهم موجات الثورة ــ والثورة المضادة ــ يتعين علينا أن ندرس العالم الاوروبي برمته في مرحلة ما قبل ١٧٨٩ .

## الفصل الاول

# النظام القديم

لم يمس **النظام القديم** « قديما » الا بعد زواله . فقد كان العالم آنئذ عالم شباب . فثوريو ١٧٨٩ كانوا في غالبيتهم في مقتبل العمر . روبسبيير كان لا يزال في الواحدة والثلاثين عندما جاء الى باريس في ذلك العام ، وكان ميرابو والاب سييس باعوامهما الاربعين يبدوان شيخين مسنين وسط رجالات الثورة . وكان المسكون بزمام السلطة من الشباب ايضا في كثير من الاحيان : فالامبراطور جوزيف الثاني تقاسم العرش مع امه وهو في الرابعة والعشرين ، وويليام بت ترأس الحكومة البريطانية وهو في السن عينها ، وكان نصف اعضاء برلمان باريس المحافظ دون الخامسة والثلاثين . وعندما صعد الملك لويس السادس عشر وزوجته ماري انطوانيت الى المقصلة ، بعد ان حكما فرنسا زهاء عشرين عاما ، ما كانا احتفلا بعد بالذكرى الاربعين لميلادهما .

حفل **النظام القديم** بالتطورات الجديدة والافكار الجديدة .

فللمرة الاولى منذ العصر الوسيط حصل تكاثر ملحوظ في عـدد السكان ، لكـن بما ان هذا النمـو السكاني كان شبه واحد فـي الصيـن كمـا في اوروبـا ، في ايطاليـا الجنوبية كما في فرنسا او انكلترا ، لذا يصعب اعتباره من العوامل النوعية التي اثرت في مجرى الاحـداث . بيـد ان تزايـد عدد البشر ، اذا ما إقتـرن بشروط اخرى ؟ قـد يتمخض عـن نتائج خطيرة . فان كان هذا التزايـد كفيـلا بتأميـن المزيـد من الزبائن للتجار ، والمزيد من المكلفيـن بالضرائب للحكـم ، فانه بالمقابل ، بتضخيمه الزمـــر الشابة ، قميـن بزرع العراقيل والصعوبات في وجه الشباب من ابناء الطبقات المثقفة ؟ الساعين وراء منصب او وظيفة ، وبافقار جزء كبير من سكـان الريف بتشديده الضغط علـى الارض . وقد توسعت الحياة المدينية وترافقت بنمو في الوعي . عدد سكان لندن وصل الى المليـون وعدد سكان باريس الى ستمئة الف . وقد توطدت هيمنـة هاتيـن المدينتيـن على بلديهمـا بوصفهما مركزيـن للثقافة ، للموضة ، للفكـر ، للحكم وللاعمال . لكـن ما كـان اعظم اهميـة بعـد مـــن هذيـن التجمعين السكانيين ( فالقسطنطينية كانت على الارجح اضخم تعدادا بشريا واوسع مساحة ) هو شبكـة المدن الصغيرة التي غطت اوروبا الوسطـى والغربيـة . وقد اتسمت هذه المدن ، التي ادت دور المراكـــز الادارية ؟ والقضائية ، والتربويـة ، والتجاريـة ، والاسكانية ، بحيويـة لم تعرفهـا في العصور اللاحقـة التي طغى فيها عليها طابـع المركزيـة . وقـد تحسنت المواصـلات ، ورصفت بعض الطرقات الكبرى ؟ وغدت شبكـة الطرق ، على الرغم من بدائيتها، خيـر ما عرفت اوروبـا منذ عهـد الرومـان . وتأمنت الخدمات البريديـة على نحـو منتظم ، وباتت عربات السفـر تلبي طلبات الجمهور وفق جدول مواعيد محدد .

ثمة امور عديدة تبدو لنـا اليوم بائدة وقديمة كانت جديدة تماما على جيل مـا قبل الثورة . فقـد تم تشييد او اعـــادة

بناء مدن مثل باث ومانهايم . ولم تكن العاصمة الروسية سان ـ بطرسبورغ ( اليوم لينتغراد ) اقدم من فيلادلفيا . وقد تزينت مدن المقاطعات الفرنسية بأبنية حكومية جديدة وجميلة ، وبمساكن مدينية لكبار الملاكين العقاريين وللتجار ولرجال القضاء . وهنالك من قدر ، في عام ١٧٨٨، ان زهاء عشرة آلاف بناء جديد قد شيد في باريس خلال الاعوام الثلاثين السابقة . وقد تردد الحديث حول هدم سجن الباستيل القديم في وقت كان فيه المهندس المعماري الشهير غبرييل يبني المدرسة الحربية ويخطط للساحة الضخمة المعروفة باسم شان ـ دو ـ مارس التي قدر لها ان تصبح فيما بعد مسرحا للعديد من الاعياد والاحتفالات الثورية . وقد هجر العباد ، بل رجال الدين ايضا ، الكنائس القديمة ، بما فيها كنيستا مون سان ميشال ونوتردام ، لانها على وجه التحديد « قديمة » ، وتوجهت الانظار الى الكنائس الجديدة التي كانت ترتفع هنا وهناك ، وقد بنيت وفق الذوق الحديث او الكلاسيكي . ومن بين تلك الكنائس الجديدة كنيسة القديسة جنفياف التي تحولت فيما بعد الى مبنى **البانتيون** . ولم يكن قصر فرساي بالذات ، عندما هجرته الاسرة المالكة في عام ١٧٨٩، اقدم من مبنى **الكابيتول** في الولايات المتحدة اليوم . وكانت « الساحات الملكية » ، ومنها ساحة لويس الخامس عشر الرائعة ( تعرف اليوم باسم ساحة كونكورد ) والانشاءات المدينية المماثلة في نانسي وتورينو ، تشهد على قوة المؤسسة الملكية وحيويتها .

لم يكن هذا النمو الجديد سيتحقق بوجه عام لولا التغييرات التي احدثتها الثورة التجارية التي حولت اوروبا ، منذ بضعة قرون ، الى اقتصاد مال وسوق . الارستقراطيات الاقطاعية القديمة باتت تعاني من حاجة ملحة الى المال ـ ولاسيما ان البذخ والخدمات العديدة التي كان يوفرها هذا المال لم تكف عن التضخم والتزايد ـ وكانت تحاول الحصول

عليه من مؤاكريهـا . اما الفقراء ، فحاجتهم الى هذا المال كانت اكثر الحاحا بعد . وكـان ثمة تبايـن بين سلوك الفلاح الـذي ما كان يعيش الا من محاصيل الارض فيكـاد يقضي جوعا ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، اذا جاء الموسـم اعجف ، وبيـن الفلاح الموسر الذي ما كـان يحصل على حاجته من السيولة المالية ، في حـال انخفاض اسعار منتجاته ،ليسدد بدل ايجاره او ضرائبه .وكان سكـان المدن يتأثرون من تقلبات اسعار الخبز . وكانت الحكومات تبتلع الاموال بنهم . فالملوك كانوا لا يفتـأون يشيدون القصـور الباهظة التكاليف ، وكـان نمط الحياة السائد في البلاطات الملكية مكلفا الى حـد غير معقول . ولئن كان دمـار الحروب قد خفّ بالمقارنـة مع الماضي ، فـان نفقات هذه الحروب ارتفعت بالمقابل، اذ بات من الضروري تأميـن التدريب الجيد للجنود ،وبالتالـي ابقاؤهم في خدمة العلم لسنوات ، اي اطعامهم وايواؤهم فـي ثكنات جديدة وتخصيص جراية ماليـة لهم . وكـان لا بد ايضا من الانفاق على الاساطيل البحريـة . فبنيـة التجارة مع اميركا وآسيـا كانت تعتمد ، برمتهـا ، على القوة البحريـة قـدر اعتمادهـا على المنشآت والتوظيفات التجارية . وكانت الضرائب تزداد باستمرار ، بيـد ان مردودهـا بقي غير كاف . وكانـت الحكومـات لا تكف عن الاقتراض ، وتتحمل بصعوبة عبء ديونها. وكانت اكثر الظواهـر شيوعـا في القرن الثامـن عشر ، بدءا من المستعمرات الاميركية وانتهاء بأمبراطورية آل هابسبورغ ، ظاهرة الازمـات الدستوريـة والسياسية الناجمـة عن مشكـلات الحكومـات الماليـة .

ان توسع اقتصاد المال والسوق على مـدى بضعـة قرون أوجـد اربع مناطق متميزة تمامـا في حقل الحضارة الاوروبية. وتشكل انكلترا احدى هذه المناطق ، ويشكل القسم الممتد مـن شمالي اسبانيـا الى ايطاليـا الوسطى في اوروبـا الغربيـة منطقة ثانية ، واوروبا الشرقية منطقة ثالثـة . امـا المنطقـة

الرابعــة فهي منطقــة الاستعمار او الاستغلال الاوروبي فيما وراء الاطلسي . وقد تفاوتت ردود فعــل هــذه المناطــق الاربع ازاء الثورة الفرنسيــة .

كانت انكلترا ، في الظروف السائدة في القرن الثامن عشر، البلد الاكثر تقدمــا وازدهارا . كانت عاشت ثورتها الكبرى قبــل قرن من الزمن ، ثورة طهرانية أعدم الملك في اثنائها . لكن ذكرى تــلك الاحداث كادت تغيب كليــا عــن الاذهان ،وعندمــا كان يؤتى بذكرهــا كانت توصف بأنهــا تمرد لا ثورة . فمصطلــح « الثورة » في انكلترا كــان يشيــر الى الاجراءات التي اعتمدها البرلمان لاحلال غليوم وماري محل الملك جاك الثاني في عام ١٦٨٩ . وكــان الشعب قد حصل على العديد من الحريات الدستورية، ومنهــا الغاء الاعتقالات التعسفية ، والتسامح معالبروتستانتيين الذيــن لا ينتمون الى كنيسة انكلترا بدون منحهم مع ذلك المساواة في الحقوق . واهم ما ترتب من نتائج على الاضطرابات التي وقعت في انكلترا في القرن الثامــن عشر تمثل في تفوق البرلمان علــى العرش ، وفــي تفوق الارستقراطيــة الاقطاعية البريطانية( كانت اسكوتلندا قــد ضمت الى انكلترا في عام ١٧٠٧ ) داخل البرلمان. ومع ان العضويــة فــي مجلس اللوردات كانت تنتقل بالوراثــة ( الا بالنسبة الى الاساقفــة ) في حيــن ان اعضاء مجلس العموم كانوا ينتخبون مبدئيا ، فــان التفــاوت بين المجلسين لــم يكن ذا اهميــة تذكــر . فكلاهمــا كــان يقوم على اساس الملكيــــة العقاريــة ؛ وكــان افراد الاسر الواحدة يتوزعون على المجلسين. وكان اعضاء مجلسي اللوردات والعموم يسددون الضرائب عينها. ولئن كــان الملاكــون الاقطاعيــون الذيــن يحكمون البلاد يجنحون باطــراد الى احالة عبء الضرائب الى كاهل الآخريــن ، فقــد وافقــوا بالمقابل مبدئيــا على تسديد الضرائب عن الريــع الــذي يجنونه من وراء تأجيــر اراضيهم . وفي ظل مثل هذه الشروط كانت هنالــك ارستقراطيــة بالمعنى الحقيقي للكلمة ، اي طبقــة

سائدة وراثيــة تحكم بالفعل ، لكــن لــم تكــن هنالك عمليــا طبقة نبلاء كالتي عرفتهــا اوروبــا القارية . ولم يكن يتعذر على الملاكين العقاريين التعامل مع اشخاص اصابوا ثراء من وراء التجــارة ، ولاسيما اذا بادر هؤلاء الاشخاص الى تملك الاراضي والى تبني عادات الارستقراطيــة او احترامها .

بفضل مؤسسة البرلمان ، حصل في انكلترا تطابق بيــــن السلطتين الاقتصاديــة والسياسية ، فكانت نخبة اوساط المــال والحكم تتالف من الاشخاص انفسهم . هذه الواقعــــة الخاصة بانكلترا اسفرت عــن نتائج عديدة وهامة . فقد جعلت الحكــم ، اولا ، قويــا للغايــة على الصعيد المالي . فمن الاسباب الاساسية التي كانت وراء تأسيس مصرف انكلترا في عام ١٦٩٤، السمــاح لغليوم الثالث بالتصرف بالثروات الخاصة ليموّل حروبه ضــد لويس الرابع عشر . والواقع ان الاغنياء لا يتوانون عــن اقراض الحكــم اذا ما ضمنوا لانفسهم الاشراف على سياسته وعلـــى امواله . وخلافــا لما كــان حاصــلا فــي فرنسا ، فان الحكم في انكلترا كــان قادرا على ان يغرف من خيرات البلاد كافة . ان الرصيد الذي كان يتمتع به الحكم البريطانــي ، والذي بـــدا غير محدود في ظاهره ، تحول الى احجيــة بالنسبة الــى بقيــة اقطار العالم ، حيث لم تكــن اوالية الاعتماد واضحة بالنسبة الى الجميع . ولطالما توقع بعضهم «ابــان الحروب الثورية الفرنسية» أن تنهار انكلترا تحت اكداس من الاوراق والمستندات المجردة من كل قيمة » بيد أن الائتمان البريطاني لعب دوره الفعال لا فــي قهر لويس الرابع عشر وحده وانمــا نابوليــون ايضا .

وما دام الاثرياء من الانكليز ، او الذيــــن يتأملون فــي ان يصبحوا من اصحاب الثروات ، يتمتعون بالغالبية في البرلمان ، فقد كانوا قادريــن على تسخيــر السلطة السياسية لدعم التقدم الاقتصادي . وقــد شيدوا ، خلال سلسلة الحروب الطويلة مع فرنسا ، امبراطوريــة استعماريــة لا مثيل لهــا » واسطــولا

بحريا ضخما لتوسيع رقعة هذه الامبراطورية وفرض النظام والامن فيها . وقد تزايد حجم تجارة انكلترا مع اميركا وآسيا واوروبا بسرعة فائقة ، كما تزايد في الوقت نفسه حجم الاموال السائلة التي تبحث عن توظيفات جديدة . وبفضل القوانين التي أقرها البرلمان ، امسى في مستطاع المالكين العقاريين الغاء الحقوق المشاعية القديمة على الارض ، وتحويل الحقول المشاعية الى املاك خاصة ؟ وتسييج الحقول المباحة للجميع سابقا ، وشراء الملكيات الصغيرة . وهكذا غدا الجزء الاعظم من الاراضي في انكلترا ملكا لبضعة آلاف اسرة . وكان المالكون العقاريون يؤجرون اراضيهم الى مزارعين صغار من ابناء الطبقة الوسطى ، محولين الجماهير الريفية الى عمال زراعيين . ولم يكن في انكلترا ، كما في المناطق المجاورة لها من القارة ، طبقة فلاحية مالكة ؟ أو اعداد ضخمة من المزارعين الصغار العاملين في قطع اراضيهم الصغيرة . وقد انجز المالكون العقاريون الكبار ، المتمتعون بالرساميل الضخمة ، والمنفتحون على الافكار الجديدة ، والطامعون في تحقيق المزيد من الارباح ، انجزوا ثورة زراعية ضاعفت انتاجية الارض وقلصت عدد العمال الزراعيين . وهكذا ارتفع مخزون المواد الغذائية ارتفاعا ملحوظا ، في وقت تفاقمت فيه هجرة الريفيين الى المدن بحثا عن عمل جديد في المصانع الجديدة . ولئن هجر ابناء الريف اكواخهم بلا حسرة ، فلانهم ما كانوا مشدودين الى أرضهم لا بقوة الملكية ولا بقوة التقاليد . لقد تضافر اذن الراسمال ، والعمل ، والسلع الغذائية ؟ والافكار الجديدة ، وروح المبادرة ، وحافز الربح ، والقدرة على تمويل الاختراعات مثل الآلة البخارية ، لتجعل من انكلترا اول بلد ينطلق في سيرورة التصنيع ، بدون الاعتماد على نموذج سابق يقتدي به ؟ ويحقق الثورة الصناعية الشهيرة التي غدت آثارها ملموسة حوالي ١٧٦٠ او ١٧٨٠ .

بداية التصنيع هذه كانت ، بلا ادنى ريب ، بالغة الاهمية بالنسبة الى المستقبل . وقد أسفرت عن نتائجها ، وان على نحو غير مباشر ، في ابان الثورة الفرنسية . ان ارباب عمل المصانع الجديدة ومستخدميها كانوا محددوين عدديا ، ولم يلعبوا اي دور سياسي مميز . وقبل عام ١٨٠٠ ، بل بعده ايضا ، لم تحصل اي ثورة في المواصلات والنقل . وفي انكلترا ، وفي الاقطار الاخرى ايضا ، كانت السفن لا تزال تصنع من الخشب . وباستثناء بعض التحسينات التي ادخلت على المدفع ، والتي دلل فيها الفرنسيون على براعة ، كانت الاسلحة النارية التي تستخدمها الجيوش كافة مماثلة لتلك التي ستستخدم في الحروب الثورية والنابوليونية ، ومن ثم في حرب الخلافة الاسبانية . والواقع انه ما من قرن مثل القرن الثامن عشر دلل ، منذ اكتشاف البارود ، على مثل هذا الركود والاستقرار في التكنولوجيا العسكرية . وفي حقل النسيج بوجه خاص، ولاسيما في حقل النسيج القطني ، أسفر استخدام الآلات الجديدة والبخار عن انخفاض في اسعار الكلفة وعن زيادة مرموقة فيحجم الانتاج في انكلترا . وبعد عام ١٧٦٠ تقريبا ارتفع حجم الصادرات البريطانية من المنتجات القطنية ارتفاعا خياليا ، واستمر ذلك لاجيال عدة . وقد انضافت الارباح المجتناة من هذه الصادرات الى الريع المجتنى من الزراعة والتجارة الدولية القديمة ، ومن اعادة بيع السكر المستورد من اميركا ، والتبغ والشاي والقهوة المستوردة من آسيا ، في الاسواق الاوروبية . وبالمقارنة مع اكثر بلدان القارة الاوروبية تطورا ، كانت ميزة انكلترا الاقتصادية تتمثل في الانتاجية العالية لاراضيها وبالتالي في ثراء طبقاتها الاجتماعية العليا ، وكذلك في مؤسساتها المصرفية ، وفي قوتها البحرية وتجارتها الخارجية اللتين ضاعفتا الثروة التي كان في مستطاع الخزينة البريطانية الاعتماد عليها .

لكن انكلترا في القرن الثامن عشر كانت بسبب نجاحاتها الباهرة على وجه التحديد ، بسبب ثرائها ، وامبراطوريتها ، وتسامحها ، ومستوى الحياة الراقي لطبقاتها العليا ، وتماهيها مع نخبتها الاقتصادية والسياسية ،وثورتها التي امست اسيرة الماضي ، كانت انكلترا اذن ، بسبب هذه المعطيات كافة ، بلدا محافظا اشد المحافظة ، اي على صورة الولايات المتحدة بعض الشيء بعد قرنين من الزمن . الدستور البريطاني كان مصدر رضى ذاتي عظيم . ولئن كانت بريطانيا مرنة وتوسعية على الصعيد الاقتصادي ، فقد كانت بالمقابل متشنجة للغاية على الصعيد السياسي . وقد عجزت عن التجاوب مع متطلبات مستعمراتها الاميركية التي خسرتها في ابان الثورة الاميركية . وقد دللت على المزيد من التفهم في ايرلندا ، بيد انها ما ارضت في الواقع سوى الانكلو — ارلنديين وسكان الجزيرة الذين هم من « اصل » انغليكاني . ولم يفلح الاصلاحيون الانكليز ، بمن فيهم وليم بت عندما اصبح رئيسا للحكومة ، في توسيع قاعدة اختيار اعضاء مجلس العموم . وفي عام ۱۷۸۹ ، قوبلت مطالب البروتستانتيين غير الانغليكانيين في الحصول على المساواة في الحقوق السياسية برفض جديد ، وذلك في وقت حصل فيه الفرنسيون غير الكثالكة على هذه المساواة في بلادهم . حتى القوانين المتعلقة بالصيد ، لم تلتطف او تخفف . وقد لعبت النزعة المحافظة البريطانية ، في عالم الثورة الفرنسية ، دور العامل الثابت .

اما المنطقة الثانية فكانت تضم فرنسا ، والمانيا حتى نهر الالب وحدود بوهيميا ، وايطاليا الشمالية ، والمناطق الهولندية والبلجيكية والسويسرية . وفي هذه المنطقة ايضا كان التطور التجاري والمديني بارزاً ، وعلى الاخص في الموانىء البحرية الممتدة من هامبورغ وامستردام حتى نانت وبوردو ومرسيليا ، وكانت طبقة التجار واصحاب المهن الحرة عظيمة التعداد،

كما في انكلترا . بيد ان هذه المنطقة كانت تختلف عن انكلترا على صعيدين اثنين . فمن المنظور السياسي ، كان الفرنسيون الشعب الوحيد الذي توصل الى تحقيق تلك الوحدة القومية على نطاق واسع وفي ظل ملكية وصفت بأنها مطلقة. اما بقية اقطار هذه المنطقة فكانت مجزأة الى دويلات صغيرة شديدة التأثر بالعوامل الخارجية . الاقاليم المتحدة (الهولندية) كانت غنية للغاية ، غير انها كانت تابعة ، على اكثر من صعيد ، لانكلترا حيث كانت وظفت جزءا كبيرا من ثروتها .وكانت الاقاليم البلجيكية ( او البلدان الواطئة النمساوية ) قد الحقت، أسوة بدوقيتي ميلانو وتوسكانا ، بامبراطورية آل هابسبورغ، حيث كانت تنعم في ظلها بنسب متفاوتة من الاستقلال الذاتي . وكانت جينوى والبندقية جمهوريتين يحكمهما نبلاء ،وكانت البيمونت ملكية صغيرة متلاحمة عاصمتها تورينو . وغربي نهر الالب كانت المانيا تشكل فسيفساء من الكيانات السياسية الخاضعة لانظمة قانونية متباينة : كانت هنالك مدن حرة ، مثل هامبورغ ، وملكيات صغيرة كملكية هانوفر التابعة لملك انكلترا ، وملكية بافاريا ، المتحالفة على وجه العموم مع فرنسا ، وابرشيات وبطريركيات يسوسها رجال الدين . وكانت هذه الكيانات على تفاوتها تجتمع لتشكل الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ، وهي عبارة عن منظمة بائدة يترأسها سليل آل هابسبورغ الحاكم .

بيد ان الطابع المميز لهذه المنطقة الثانية كان يكمن ، بغض النظر عن الاشكال السياسية ، في استثمار ارضها . فانتشار اقتصاد المال والسوق ابقى على طبقة فلاحية قوية، متمسكة بارضها ، كانت تؤمن لطبقة النبلاء مداخيلهم بما تسدده لهم من بدلات ايجار واتاوات مختلفة . كان الفلاحون،من الناحية القانونية ، احرارا لا اقنانا كما في اوروبا الشرقية، ولا عمالا زراعيين كما في انكلترا . وكان بعضهم يملك قطعا

صغيرة من الارض ، وكان من حقهم ان يبيعوها او يشتروها ، ان يوصوا بها او يورثوها او يؤجروها حسب رغبتهم . وكان من حقهم ايضا ان يبيعوا منتجاتها ، بشرط ان يسددوا للنبيل السيد الاتاوات المعهودة ، التي كانت غير ذات اهمية تذكر اذا ما سددت نقدا ــ بسبب هبوط قيمة النقود منذ العصر الوسيط ــ والتي كانت ثقيلة الوطأة بالمقابل اذا ما سددت عينا . وثمة فلاحون آخرون ، ومنهم فلاحون مالكون ايضا ، كانوا يزرعون بالمكاراة مساحات من الارض ، لفترات متفاوتة قد تصل الى تسعة اعوام ، ويسددون قيمة الايجار نقدا . وكان عقد المكاراة قابلا للتجديد ، لكن بعد ان يتم التفاوض عليه مجددا. وكان فريق آخر من الفلاحين يعمل على اساس تقاسم محاصيل ارضه مع السيد المولى . وكان عدد كبير من بينهم فلاحين بلا ارض ، مضطرين الى البحث عن عمل لدى فلاحين آخرين ، او لدى السيد المولى ، او في الصناعات الحرفية المتمركزة في الارياف وان كانت تدار من المدن . لقد كانت الزراعة ، في مطلق الاحوال ، بين ايدي فلاحين ، جماعات قروية او افراد . لذلك كانت تقليدية ، وضعيفة الانتاج نسبيا . ان توظيف الاموال واختبار الاساليب الجديدة ، وهما اللذان احدثا ثورة حقيقية في الزراعة الانكليزية ، كانا نادرين في القارة الاوروبية ، ان لم نقل مجهولين . من جهة اخرى ، كان الفلاح في هذه المنطقة الثانية اكثر حساسية بالحياة الاجتماعية من العامل الزراعي الانكليزي او الارلندي او من قن اوروبا الوسطى . فقد كان يقصد المدينة لبيع منتجاته ، وكان يتأثر مباشرة بتقلبات الاسعار والاجور الزراعية ، وببدل الايجار وعبء الضرائب المتزايد . كان ، على العموم ، اميا ، وقلما كان يستفيد من انوار حضارة القرن الثامن عشر ، بيد انه لم يكن معزولا عن القوى الاجتماعية المحيطة .

في ظل هذا النظام الزراعي لم يكن السيد المولى يجني

ارباحه من الاستغلال المباشر لاراضيه بقدر ما كان يجنيها من جمع اتاوات وبدلات ايجار مختلفة . وقد حافظ على بعض من سلطاته القضائية السابقة . فقد كان مخولا صلاحية عقد محكمة عدل ، للبت في المشاحنات والدعاوى ، واسناد رئاسة هذه المحكمة لوكيل من وكلائه - منحاز الى جانبه بالضرورة - او كان ينفرد في امتياز امتلاك طاحونة او فرن يؤجره لقاء مبلغ من المال الى طحّان او فرّان . وكان السيد المولى نبيلا يدعي الانحدار من صلب فرسان القرون الوسطى ، بيد ان النظام برمته كان في الحقيقة نظام ملكية لا يدر الايرادات فحسب ، وانما يمنح ايضا تفوقا ، ووضعا قانونيا مميزا ، ومكانة مرموقة لا يمنحها المال المجتنى من وراء التجارة او ممارسة المهن الحرة. ففي فرنسا كان في مستطاع اي شخص ثري ، حتى وان كان بورجوازيا او فلاحا مغتنيا ، ان يشتري قصرا وان ينعم بايراد مولوي . وحيثما كان النبلاء يمثلون قلة نادرة ، او غير ذات شأن ، كما في هولندا وسويسرا على سبيل المثال ، او في بعض مدن المانيا الحرة ، كان الاغنياء من سكان المدن يتقاضون من سكان الريف المجاور ايرادات مماثلة . وكانت الكنائس ، والابرشيات ، والاديرة ، والجامعات ، والمدارس ، والمستشفيات ، مؤهلة هي الاخرى لان تلعب دور السيد المولى. لكن ان كان النظام المولوي شكلا من الملكية ، من المنظور الاقتصادي ، فانه ما عاد يضطلع بوظيفة نفعية . فالسيد ما كان يؤدي اي دور في الانتاج ، كما انه ما كان يتخذ الا القليل من القرارات ولا يقدم الا القليل من الرساميل لتحسين شروط الاستثمار ، هذا اذا ما قدم مثل هذه الرساميل . وعلاوة على ذلك كان يتغيب باستمرار . لذلك راح الفلاح ينظر الى هذا النظام على انه بنية فوقية غير مجدية . وقد الغته الثورة بصورة عامة ، بدون ان يتأثر الانتاج سلبا على المدى القريب ، علما بان الملكية الفلاحية الصغيرة اثارت ، على المدى البعيد ، مشكلات

عدة على صعيد تحديث الزراعة وعصرنتها .

اما المنطقة الثالثة فقد تألفت من اوروبا الشرقية، باستثناء البلقان التي كانت ملكا لتركيا ، واسكندنافيا التي كان تاريخها مختلفا . هنا أيضا حصلت تغييرات عظمى ، كما في الغرب الاوروبي ، وانما باتجاه معاكس . ففي العصر الوسيط كانت بولونيا وبوهيميا والمجر تقاسمت مع العالم المسيحي اللاتيني شروط حياة واحدة . لكن مع تغير اتجاه التجارة الخارجية، من جراء افتتاح الطرق الاطلسية ، ذلك التغير الذي كفل الازدهار لاوروبا الغربية ، تراجعت اهمية مدن اوروبا الشرقية وانحطت مكانتها نسبيا . وكانت هذه المدن بعيدة جدا عن بعضها بعضا ، كما كانت قليلة التعداد ، وصغيرة للغاية باستثناء قلة منها . وكثيرا ما كانت ، علاوة على ذلك ، مختلفة من حيث قوميتها عن البلد المحيط بها . ففي الاقاليم البلطيقية في روسيا ، وفي بوهيميا والمجر ، كانت هذه المدن تمثل « جزرا » المانية . وفي بولونيا وروسيا ، كان العديد من التجار ، واصحاب الحوانيت ، والمهندسين المعماريين ، او موظفي الحكومة ، يحملون الجنسية الالمانية ، او الفرنسية ، او الانكليزية ، او الاسكوتلندية . وكان الاتصال بين المدينة والريف محدودا للغاية . وفي الواقع ، كان العداء المكشوف، او الارتياب ، أمرا معهودا في العلاقات بين الطرفين . ففي بوهيميا وبولونيا ، على سبيل المثال ، حيث كانت المدن حظيت بحق التمثيل في الجمعيات السياسية ــ او « الدييت » ــ حتى عام ١٥٠٠ تقريبا ، تم في وقت لاحق تجريدها من هذا الحق بسبب خلافات دينية واثنية قديمة ، وعلى الاخص بسبب انتصار العقلية الزراعية والمناهضة للتجارة التي كانت تسود في صفوف السادة والنبلاء الريفيين .

ذلك ان انتشار اقتصاد المال والسوق في اوروبا الشرقية جاء مؤاتيا لمصلحة المالكين العقاريين والحكومات اكثر مما

عاد بالفائدة على البورجوازيين . اما بالنسبة الى الفلاحين فكانت نتائجه مأساوية . فقد توطدت دعائم الملكيتين البروسية والروسية وملكية آل هابسبورغ منذ مطلع القرن السابق ، وعظم شأنها. وعرفت كيف تضمن لنفسها ، من خلال تطويرها أنظمتها المالية ، وجيوشها ، وسياساتها التوسعية ، تأييد طبقة النبلاء العاصية ؛ على حساب التضحية بمصالح الطبقة الفلاحية . وقد قبل النبيل بالسلطة العليا لهذا النوع الجديد من الحكم ، بشرط ان تتوقف هذه السلطة عند حدود املاكه حيث كان له سلطان مطلق على « رعاياه » . وخلافا لنظيره في المنطقة الثانية ، كان النبيل هنا يعيش ، اسوة الى حد ما بالمالك العقاري البريطاني ، من ريع املاك يشرف بنفسه على ادارتها. بيد انه كان يختلف عن نظيره البريطاني ايضا باعتماده على العمل القسري .

باختصار ، كانت الطبقة الفلاحية في اوروبا الشرقية سقطت في القنانة التي كانت ، في القرن الثامن عشر ، لا تزال تمتد وتتسع في روسيا ، في حين سعى الحكم ، في امبراطورية آل هابسبورغ ؟ الى فرض بعض القيود على انتشارها . وكان الفلاح ، على وجه العموم ، يعمل ستة ايام في الاسبوع بامرة السيد او وكيله ، وتحت تهديد السوط او السجن . وكان القن ، المحروم من الارض ومن الامان ، مقيدا بأملاك سيده ، بمعنى انه كان يباع ويشرى معها . وفي بعض المناطق البولونية والروسية كان القن يباع بدون الارض ، او يرسل للعمل في المدينة او في منجم ، مما كان يجعل وضعه القانوني مشابها جدا لوضع العبد في اميركا . ولم يكن يحق للقن ، في الاحوال الطبيعية ؟ أن يغادر املاك سيده ، او ان يتزوج من خارجها ، او ان يتعلم مهنة جديدة بدون موافقة سيده . واذا « أبق » ولاذ بالفرار ، حق لسيده ملاحقته قانونيا . كانت حركيته الجغرافية والاجتماعية منعدمة

تماما ؛ وخاضعة كليا لحسن ارادة سيده . ومع بداية بزوغ الراسمالية في اوروبا الشرقية ـ عندما كان السيد يسعى مثلا الى زيادة ايراداته عن طريق تطوير زراعته بالطرق العقلانية، او تصدير الخشب وثروات ارضه المنجمية ـ كان هذا السيد يؤدي دور المقاول في جو ابوي من العمل الرقي .

في ظل هذه الشروط ، كان تخطي الحواجز المنصوبة بين الطبقات الاجتماعية الاساسية الثلاث ـ المالكين العقاريين، الفلاحين ، وسكان المدن ـ صعبا للغاية ، قياسا الى بريطانيا او اوروبا الغربية . ولم يكن يحق لا للفلاحين ولا لاهل المدن تملك الاراضي الزراعية التي كانت وقفا على النبلاء . بالمقابل كان كل من يباح له تملك مساحات شاسعة من الاراضي كان يعتبر نبيلا . وهكذا فان نسبة « النبلاء » ، الذين كانوا يمثلون اكثر من عشر السكان في بولونيا والمجر على سبيل المثال ؛ كانت اعلى بكثير من نسبتهم في الغرب . وبعكس الاوضاع القائمة في الغرب ، كانت طبقة النبلاء تسحق البورجوازية بقوتها العددية اولا . فطبقة النبلاء هذه كانت تنقسم الى اقلية ضئيلة من اصحاب الثروات الطائلة من جهة ، والى طوابير من اشباه النبلاء من جهة اخرى . نبلاء بالاسم فقط ، وبعضهم يتخبط في فقر مدقع ، ولا يتميز عن الفلاحين الا من حيث شعوره بتفوق وضعه القانوني . في بولونيا وروسيا ، كان النبلاء من ذوي الاصل العريق ، واصحاب الثروات الطائلة ، متأثرين بالغرب الى أبعد الحدود : فكانوا يتكلمون الفرنسية فيما بينهم ، ويستقدمون من فرنسا الاساتذة والبستانيين والطباخين ، ويطالعون الكتب الفرنسية ؛ ويستوردون من الغرب الكماليات ، ويسافرون باستمرار الى الخارج . كانوا يحيطون برعايتهم النبلاء الاقل منهم شأنا ، ويفرضون عليهم وصايتهم ، فما كان يندر ان يضمر لهم هؤلاء حقدا ومقتا ، بيد ان كلتا الفئتين من النبلاء كانت

تحتقر البورجوازيين والتجار . وكان مالكو الاراضي وسكان المدن يعتبرون الفلاحين كائنات فظة وبهيمية ، تعيش على هامش الحياة الحضارية . اما الفلاحون ، المحصورون في قراهم والمحكوم عليهم ان يعيشوا حياة الاقنان ، فكانوا ينظرون الى النبلاء والبورجوازيين نظرتهم الى كائنات غريبة بعيدة . ومع جماهير فلاحية غارقة في الذل والجهل ، وطبقات وسطى ومدينية متخلفة ومضغوطة عدديا ، كان النبلاء وحدهم قادرين على ممارسة تأثير على الحكم . بيد ان نفوذهم ، الاميل الى ان يكون سلبيا وهدّاما ، كان يفرض حدودا يتعذر على الملك ، حتى ولو كان محبا للاصلاح ، تخطيها . هكذا كانت امواج الثورة تفقد من زخمها وعنفوانها مع بلوغها شواطىء اوروبا الشرقية . وكانت الامواج المضادة تتكشف عن انها اقوى واعتى منها .

اما المنطقة الرابعة ، المتمثلة ببلاد ما وراء البحار التي استعمرها واستغلها الاوروبيون ، والتي كانت سفن ذلك العصر تحتاج الى اسابيع واشهر للوصول اليها ، فقد لعبت دورا بالغ الاهمية في شؤون اوروبا . فثمة روابط مباشرة كانت تشدها الى الشعوب الاطلسية : الاسبانيين ، البرتغاليين ، الفرنسيين ، الهولنديين ، الانكليز ، وحتى الدانماركيين الذين كانوا يملكون ، هم ايضا ، بعض الجزر الصغيرة . ان الحروب المزمنة التي دارت رحاها بين فرنسا وانكلترا ، من عام ١٦٨٩ الى عام ١٨١٥ ، نشبت بسبب تنافس البلدين على السيطرة على تلك المناطق المستعمرة . وبما ان البريطانيين هزموا الفرنسيين في الهند واميركا ، فقد تخوف الهولنديون والاسبانيون من ان يأتي تجردهم فيه بريطانيا من مستعمراتهم ايضا . وكانت لهذه الواقعة اهميتها في ابان حروب الثورة الفرنسية . وكانت المنطقة الرابعة تضم المراكز التجارية المؤسسة شرقي رأس الرجاء الصالح ، وشطآن افريقيا

الغربية ، حيث كان الاوروبيون يمارسون تجارة الرقيق بواسطة الزعماء الافارقة ، ولحساب الاقطار الاميركية . وكانت الهند والمناطق المعروفة باسم بلاد الهند الغربية مسرح نشاط تجاري يدر ارباحا طائلة . وقد دانت مدن اوروبية معروفة ، مثل ليفربول وبوردو ، بالجزء الاكبر من ازدهارها لتجارة النخاسة . بيد ان اهمية الاميركيتين بالنسبة الى الازدهار الاوروبي كانت اعظم بكثير .

لقد صب على اوروبا ، من المكسيك والبرازيل ، نهر من الذهب والفضة تضخم مجراه في القرن الثامن عشر بفضل حفر مناجم جديدة واستخدام وسائل علمية مبتكرة في معالجة فلزات المعدنين الثمينين . وقد اسفر تزايد حجم الاحتياطي من السيولة المالية عن تضخم نقدي تدريجي لم يزد من ارباح التجار فحسب بل انعكس ايجابا ايضا ، حتى حوالي عام ١٧٧٠ ، على اوضاع بعض الفلاحين ، بمن فيهم الفلاحون الفرنسيون الذين كانوا يبيعون منتجاتهم فيجدون اسعارها ترتفع بسرعة تفوق سرعة ارتفاع بدلات الايجار والاتاوات المولوية الملزمين بتسديدها . وكان الاستهلاك المتنامي للمواد الغذائية المستوردة من اميركا ، كالذرة التي كانت تطعم بها الدواجن ، والبطاطا التي كان يستهلكها المواطنون في المناطق الفقيرة ، سببا من اسباب تزايد عدد السكان ، ذلك التزايد الذي غدا مصدر ازدهار في المناطق المحتاجة الى المزيد من اليد العاملة . اما في المناطق التي كانت تشكو اساسا من تردي الاوضاع الاجتماعية الداخلية ، في ارلندا وايطاليا الجنوبية على سبيل المثال ، فقد لعب هذا التزايد السكاني دوره السلبي في تأزيم الاوضاع . وفي مطلق الاحوال ، كان للقهوة ، المستوردة من اميركا ، تأثيرها التحريضي على مزاج الاوروبي وسلوكه . ومن المؤكد انها روجت لانتشار « المقاهي » ، حيث راح الناس يجتمعون ، ويتكلمون ، ويعبرون عن آرائهم في الشؤون العامة .

في مزارع قصب السكر ، في بلاد الهند الغربية ، كان الاوروبيون يستخدمون اعدادا كبيرة من العبيد الافارقة . وكان السكر ، في الشروط السائدة في المرحلة ما قبل الصناعية ، من اهم مواد التجارة الخارجية . وكانت الجزر الرئيسية المنتجة له هي جزيرة سان ـ دومينغ الفرنسية ، وجزيرة جامايكا البريطانية ، وبعض الجزر الصغيرة الاخرى الاقل اهمية . وكان اصحاب مزارع قصب السكر يعودون ، بعد جنيهم الثروات الخيالية ، الى انكلترا وفرنسا بوجه عام ، حيث كانت اموالهم ، ونزعتهم الى البذخ والانفاق ، وعادة اصدار الاومر التي اكتسبوها في المستعمرات ، وشعورهم بالعجب بالذات ، تتضافر لتحيط اشخاصهم بقدر من السطوة والنفوذ. ومقابل بلاد الهند الغربية كانت هنالك مستعمرات الجنوب ـ وقد اصبحت فيما بعد جزءا من الولايات المتحدة ـ الممتدة من ماريلاند الى جيورجيا مرورا بفيرجينيا وولايتي كارولينا، حيث كان تصدير المحاصيل يتأمن بفضل عمل العبيد الافارقة المسترقين تحت اشراف عين من أعيان الريف . وكانت الزراعتان الرئيسيتان هما زراعة التبغ وشجرة النيلة . لكن سرعان ما انتشرت زراعة القطن وازدهرت تلبية لطلبات الصناعاتالنسيجية الجديدة في انكلترا . ومن نافل القول ان الثورة الصناعية ما كانت لتقوم في انكلترا لولا هذه المزارع الاميركية ولولا عمل العبيد المستوردين من افريقيا .

الى الشمال من منطقة المزارع ، من بنسيلفانيا الى انكلترا ـ الجديدة (١)، كانت تمتد منطقة فريدة من نوعها في العالم ،

---

(١) اسم يطلق على الولايات الاميركية الست التي كانت سابقا مستعمرات بريطانية اسسها الانكليز في القرن السابع عشر . وهذه الولايات هي: ماين ، نيوهامبشاير ، فيرمونت ، ماساشوسيتس ، رود ايلند ، وكونكتيكوت . «م» .

اذ كانت تقطنها غالبية من الاوروبيين البيض واقلية ضئيلة جدا من الهنود الحمر والزنوج. وتجدر الاشارة الى ان التواجد الكثيف للمزارعين البيض في فيرجينيا والجنوب جعل الجزء الجنوبي من البلاد اقرب الى شمالها منه الى الهند الغربية. وقد اكتشفت القارة الاوروبية هؤلاء « الاميركيين » – اي هؤلاء الاوروبيين المهاجرين – في عصر الثورة الاميركية . وقد تبين لها ان انتماءهم الى الحضارة الاوروبية لم يحتم عليهم العيش في ظل بعض المؤسسات الاوروبية ، ولاسيما في ظل نظام مولوي ، وكنائس تتراتب فيها السلطة هرميا ، وبلاطات ملكية ، وطبقة نبلاء صاحبة القاب ، وجيوش نظامية. وقد اثارت الثورة الاميركية ، التي اندلعت مع اعتلاء الملك لويس السادس عشر عرش فرنسا ، اصداء قوية ومباشرة في فرنسا وفي اجزاء واسعة من اوروبا ، لا لانها كانت تمثل تمردا على البريطانيين فحسب ، بل ايضا لانها قرنت برنامجها بفلسفة كانت اوروبا قادرة على فهمها ، فلسفة قمينة باثارة حماسة فئات واسعة من الناس . وعلاوة على ذلك ، فان مشاركة فرنسا في حرب الاستقلال الاميركية – حرب اخرى من الحروب الانكليزية الفرنسية – كبدت الخزينة الفرنسية اعباء ثقيلة ساهمت في خلق الازمة المالية التي مهدت الطريق امام الثورة .

بعد توطد الاستقلال الاميركي ، تبلور الانقسام في الولايات المتحدة . فالشمال ، بموانئه البحرية حيث النشاط الدائب ، وبمدنه الداخلية ، وصغار فلاحيه المالكين ، وصيادي الاسماك الذين يتعاطون التجارة ، وبناة السفن وتجارها ، هذا الشمال كان يشبه اذن اوروبا الغربية . وبالمقابل كان الجنوب ، الخالي تقريبا من المدن ومن التجار المنتمين الى الطبقة الوسطى ، والواقع تحت سيطرة كبار مالكي الارض الذين كانوا في الوقت نفسه سادة العمل الرقي ، الجنوب الذي كان يعيش على استيراد المواد

المصنعة من اوروبا مقابل تصدير محاصيله من المواد الخام ، ويحتقر النشاط التجاري ويكره الحكم المركزي ، هذا الجنوب كان اقرب الى المنطقة الثالثة التي اسلفنا وصفها ، وعلى الاخص بولونيا . وكانت المنطقتان ـ الشمال والجنوب ـ تبديان عن ردود فعل متفاوتة ازاء الاحداث الخارجية ، وقد كادت الولايات المتحدة الفتية ان تتمزق الى دولتين تحت ضغط الثورة الفرنسية والامبراطورية النابوليونية .

ان بريطانيا ، التي كانت تهيمن على البحار ، لاقت في وجود القارتين الاميركيتين فائدة عظمى لها في صراعها مع فرنسا في زمن الثورة الفرنسية . فقد تمكن البريطانيون ، الذين كانوا يستخدمون قطن الولايات المتحدة الخام ويحرمون منه القارة الاوروبية ، من انجاز سيرورة تصنيعهم . وعندما حاول الفرنسيون هزيمتهم بمحاصرة طرق صادراتهم الى اوروبا ، عوض البريطانيون عن الخسارة التي لحقت بهم بتوسيع اسواقهم لتشمل اميركا الاسبانية . ولم يبد الاوروبيون اي استعداد للاستغناء عن السكر والبن الاميركي المصدر والمشحونين عبر الطرق البريطانية ، عندما فرض نابوليون حصاره على البر الاوروبي . بل ان موجة التذمر والسوق السوداء اللتين نجمتا عن هذا الحصار ، كانا من جملة الاسباب التي حالت دون استتباب النفوذ الفرنسي في اوروبا .



اذا القينا نظرة شاملة على المؤسسات السائدة في اوروبا في القرن الثامن عشر الفيناها تنقسم الى ثلاث فئات : الملكية ، الكنيسة ، والتراتب الاجتماعي المشار اليه بفكرة « الطبقات » Etats . لنبدأ بالملكية .

لئن كانت الملكية اكثر المؤسسات الثلاث استقطابا للانظار ، فقد كانت بالمقابل اقلها شمولية . فكثيرا ما يغيب عن اذهاننا ان

ثمة مناطق عديدة في اوروبا لم تكن تحكم من قبل ملوك قبل عام ١٧٨٩ ، وأنه لم ينصَر الى الاعلان عن « الطابع البائد » للجمهوريات الا بعد الثورة الفرنسية ، وفي مؤتمر فيينا على وجه التحديد . قبل الثورة ، كانت هنالك عدة جمهوريات من النوع التقليدي ، ولم تكن تعتبر أقل مشروعية من الانظمة الملكية ، وهذه الجمهوريات هي : جمهورية البندقية ، مع المناطق القارية التابعة لها ، جمهورية جينوى ، الولايات الجمهورية للاتحاد الكونفدرالي السويسري ، الجمهورية الهولندية او الاقاليم — المتحدة ،وجمهورية بولونيا العجيبة التي كانت تضم « المملكة » البولونية — وكان يترأسها ملك لا سلطة له — ودوقية ليتوانيا الكبرى . وثمة مناطق اخرى كانت تعيش في ظل ملكيات نائية عنها، وتقي نفسها من السلطة الملكية بالحريات الاقليمية التي كانت تتمتع بها . ومن بين هذه المناطق : الاقاليم العشرة للبلدان الواطئة النمساوية ، مقاطعة ميلانو ، المستعمرات الانكلو — اميركية ، والمدن الخمسون الحرة في المانيا ، والعديد من الدويلات الكنسية . وفي بريطانيا كان دور الملك قد أمسى مقيدا ومحدودا . وعدد الملوك الحقيقيين في اوروبا ، قبل عام ١٧٨٩ ، لم يكن ينيف على عدد اصابع اليدين الاثنتين : ملوك فرنسا ، اسبانيا والبرتغال ، ملك السويد والدانمارك ( التي كانت تملك النروج آنذاك ) ، ملك سردينيا ونابولي ، وعواهل الشرق الثلاثة العظام ، أي قيصر روسيا ( الامبراطورة كاترين الثانية آنذاك ) ، وملك بروسيا ، وملك المجر وبوهيميا ودالماسيا وكرواتيا ، الخ ، أرشيدوق النمسا، الذي كان يحمل في الوقت نفسه لقب امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة .

لكن باستثناء انكلترا ، فان الملكية كانت المؤسسة الحكومية السائدة الاكثر دينامية وتقدمية في آن معا . كانت نموذجا يقتدى به ، وكان الدوقات و « ناخبو » المانيا ( أي الامراء التسعة الذين يحق لهم انتخاب الامبراطور ) يسعون جاهدين الى محاكاتها .

وكانت الانظمة الملكية وحدها ( حتى البرلمان البريطاني كان يحرص على العمل من خلال حكومة صاحب الجلالة ) تجيش الجيوش القوية وتلعب دورا هاما في الصراعات الدولية .

كانت الملكية وراثية ومطلقة. اما حيثما لم تعد الملكية وراثية، أو حيثما كانت الاعراف القديمة حول الملكية الانتخابية لا تزال سائدة ، كما في بولونيا او الامبراطورية الرومانية المقدسة على سبيل المثال، فان وظيفة الملك كانت غير فعالة، وكان لها معنى اجتماعي وقانوني اكثر مما كان لها مضمون سلطوي. وكانت الملكيات الوراثية عبارة عن سلالات تعرف باسم الاسرة . وكان الملوك يعتبرون املاكهم ميراثا عائليا يتعين عليهم الحفاظ عليه ، تطويره أو توسيعه ، أسوة باملاك أية اسرة غنية ؛ وذلك عن طريق الحذاقة، والصبر ، والزواج ، او عن طريق القوة اذا ما اقتضى الامر . وكانت الحروب ، في البر الاوروبي على الاقل ، حروبا بين سلالات ملكية اكثر منها حروبا بين دول . ولم تكن هنالك بعد أمم ، بالمفهوم الحديث والسياسي للكلمة . وكانت الحروب تنتهي بالسهولة عينها التي تعلن بها . وكانت اتفاقيات السلم تبرم مقابل تبادل يسير في الاراضي، بدون استشارة سكانها . ومن ذلك انه عندما أبرم آل بوربون وآل هابسبورغ معاهدة صلح في عام ١٧٣٨ ، حصل ملك فرنسا على مقاطعة اللورين في حين ذهبت مقاطعة توسكانا الى أسرة هابسبورغ . وكان الملوك ، ولاسيما في القرن الثامن عشر، يعتبرون انفسهم شخصيات عامة ، مكلفة بتأمين رفاهية شعوبها ودولها . وكانوا يعتقدون ان الوظيفة الملكية حق اختصهم به الله او نسبهم الملكي، لذلك كانوا يرفضون التخلي بأي صورة من الصور عن سلطاتهم لصالح أي مؤسسة أخرى . وكان معظمهم — حتى لويس الخامس عشر في بعض الاحيان — يحمل وظائفه الملكية على محمل من الجد . وكان الخلط بين الميراث الخاص والسلطة العامة من الخصائص المميزة للمجتمع برمته . ولم يكن هذا الخلط وقفا على الملك فحسب ؛ وانما كان يشمل

ايضا جميع الذين يشغلون وظيفـة ذات شأن،بمن فيهم السادة النبلاء وحتى رؤساء الاتحادات الحرفية .

كان مصطلح « الملكية المطلقة » أو المستبدة يستخدم من قبل المؤرخين اكثر منه من قبل الملوك ورعاياهم . ولم يكن العاهل يلجأ الى التأكيد ، بحماسة وانفعال ، على سلطته المطلقة او حقه الالهي الا في أصعب الحالات وأشدها تأزما ، كما فعل لويس الخامس عشر امام برلمان باريس في عام ١٧٦٦ . فالى الغرب من روسيا كان الملوك كافة يسلّمون بأهمية القوانين والمشرّعين ويعترفون ، ولو مبدئيا ، بوجود حريات لشعوبهم . والواقع أن تاريخ الملكية منذ العصر الوسيط ، وعلى الاخص في القرن الثامن عشر ، كان تاريخ صراع الملوك مع النبلاء أو الكنيسة او الاقاليم المستقلة ذاتيا ، وكان كل يتذرع بحقوقه التاريخية . لكن بغية ضمان السلم الاجتماعي وارساء القاعدة التي على اساسها تبرم القرارات النهائية ، غدت السلطة الملكية في القرن الثامن عشر « مطلقة » شرعا على وجه العموم ، اي مستقلة عن ارادة اي شخص وعن اي هيئة داخل الدولة . ان قرنين من التنظير السياسي بعد بودان (٢) ، وقرنين من تبلور الرأي العام بعد فظاعات الحروب الدينية ، اوجدا مفهوم السيادة ، اي مفهوم السلطة العليا المخولة حق التشريع وحق اعلان الحرب والسلم . وقد عهد بهذه السلطة الى الملوك بادىء الامر قبل ان تنقل من بعدهم الى الامم او الشعوب .

لكن السلطة الملكية المطلقة كانت في الواقع محدودة ، حتى على الصعيد النظري . فان كان ملك فرنسا على سبيل المثال يتمتع شرعا بسلطة مطلقة ، فان سلطته ، كما يقول بوسويه (٣) ،

---

(٢) جان بودان : اقتصادي وكاتب سياسي فرنسي ( ١٥٣٠ — ١٥٩٦ ) ، مؤلف كتاب **الجمهورية** ، وفيه يعرض فوائد نظام ملكي معتدل ودستوري . «م» .

(٣) جاك بوسويه: اسقف فرنسي (١٦٢٧ — ١٧٠٤) ، خطيب وكاتب محافظ ،=

لم تكن تعسفية او اعتباطية . لم يكن يحق له ان يفعل ما يشاء ، او ان يدعي تجسيد قدر الامة التاريخي او الارادة القومية. كان عاهلا مسيحيا ، يحكم ضمن نطاق القوانين والدين والكنيسة . وكانت السلطة الملكية محدودة فعلا وعمليا ، لا لان اكثر الملوك جدارة كانوا يخضعون لمحيطهم ومستشاريهم فحسب ، بل لان المملكة كانت ايضا بناء مركبا من طبقات واقاليم متباينة ، كل منها محبو بوضع قانوني مميز وبامتيازات تضاف اليها السلطة الملكية من فوق بدون ان تتعدى عليها . ولم يكن للوحدة الداخلية او للمواطنية المشتركة، اللتين ميزتا فيما بعد الدولة الحديثة ، من وجود . وكانت انكلترا ، على هذا الصعيد ايضا ، البلد الاكثر تقدما . فلئن كان لها قانون عام ، لا جملة من القوانين الاقليمية ، فذلك لان العرش فيها كان فيما مضى عظيم الشأن .

كان قوام دور الملوك في سائر أرجاء اوروبا ، لفترة مديدة من الزمن ، ترويض طبقة النبلاء ، التي كانت اقطاعية سابقا ، واخضاعها وتحويل افرادها الى رعايا عاديين ، يطبق القانون بحقهم ويخضعون كسواهم لمقتضيات الامن العام . بيد ان العاهل كثيرا ما كان يضطر ، في سعيه لفرض سلطانه ، الى تقديم تنازلات أدت، في نهاية المطاف ، الى وضعه تحت سيطرة هؤلاء النبلاء بالذات . فقد كان في مستطاع لويس الرابع عشر ، على سبيل المثال ، ان يبني القصور الشاسعة والحدائق الخلابة ، وان يفرض في بلاطه طقوسا معقدة ليبهر كبار نبلائه وحملهم على الطاعة . بيد انه وجد نفسه مضطرا الى الانفاق بجنون ، لان المفروض بالملك ان يكون أثرى الاثرياء . وبما أنه كان محاطا باستمرار بافراد الحاشية، فقد غدا أسير الدائرة السحرية التي رسمها بنفسه . والحال ،

= مؤلف **خطاب في التاريخ الكوني** ، أيد السياسة الدينية للويس الرابع عشر وحارب البروتستانتية ، له مواعظ وتآبين ومؤلفات لاهوتية تبوئه مكانة مرموقة بين الكتاب الكلاسيكيين . « م » .

لم يتوصل الملوك الى فرض انفسهم ، علنا او ضمنا ، الا بمنحهم الامتيازات الخاصة لاولئك الذين كانوا يملكون من القوة ما يسمح لهم بانتزاع هذه الامتيازات . وقد اسلفنا الاشارة الى الاوضاع التي سادت في اوروبا الشرقية ، حيث اضطر الملوك الى التنازل لصالح النبلاء عن حقهم في تطبيق قوانينهم على فلاحيهم . فان كان هؤلاء الفلاحون يعتبرون ، مبدئيا ، من « رعايا » الملك ، فقد كانوا فعليا أقنان السيد النبيل . في فرنسا ، بالمقابل ، كان الجميع ، من نبلاء وغير نبلاء ، يعدون من رعايا الملك . لكن في جميع الاقطار ، وفي فرنسا على الاخص ، كانت طبقة النبلاء تتمتع بعدد من الامتيازات ، وفي مقدمتها الاعفاء من تسديد الضرائب . وكانت مناطق بأكملها تتمتع بامتيازات مماثلة في بعض الممالك : فمقاطعتا بروتانيا والالزاس كانتا تدفعان ضرائب أقل من بقية مقاطعات فرنسا الداخلية . وكانت بلجيكا ولومبارديا والمجر تتحمل وزرا ضريبيا أخف من الوزر الذي تتحمله النمسا بحصر المعنى . وكانت هذه الاعفاءات تمثل مزية كبرى للمستفيدين منها ، غير انها كانت تشكل ايضا قيدا فعليا على النظام الملكي ، ان لم نقل نقطة ضعف قاتلة .

من جهة اخرى كانت ملامح الدولة الحديثة — اي ملامح الحضارة الغربية — قد بدأت تتكون وتتبلور في ظل الانظمة الملكية . فالعمليات العسكرية الخاصة أمست في القرن الثامن عشر ذكرى من ذكريات الماضي . وفي الجيوش النظامية بات آلضباط ، شأنهم في ذلك شأن الجنود العاديين ، يخضعون للقوانين العسكرية الصارمة . ومع ان النظام الضريبي ما كان يعتمد مبدأ المساواة ، فقد كان يبدو طبيعيا في نظر الجميع وكان مقبولا منهم على السواء . وقد سجلت الوظائف الرسمية ، والوزارات ومجالس الدولة ، — أداة السلطة الملكية — تزايدا ملحوظا في عددها . وكانت تشغل ، جزئيا ، من قبل النبلاء الذين تحولوا ، من جراء عملهم هذا ، الى موظفين لدى الدولة بدلا من ان يكونوا سادة فحسب . كما كانت

هذه الوظائف تشغل ايضا على نطاق اوسع من قبل أبناء الطبقة الوسطى الذين ازدادوا ، في البر الاوروبي ، قوة وتعدادا بفضل تآزرهم مع الحكم اكثر مما بفضل نشاطهم الاقتصادي المحض . هذه الاجهزة الحكومية ، مع مِلاكها مـن الموظفين المتمرسـين ، المتقاضين اجرا ثابتا ، والعاملين بكامل اوقاتهم ، انتشرت وتوسعت في الملكيات الكبرى — في فرنسا ، بروسيا ، نواة « الاقاليـم الوراثية » في الامبراطورية النمساوية — أكثر منها في الاقطار غير الملكية أو في الاقطار الاكثر تقدما ، كانكلترا وهولندا حيث كانت المشاركة العابرة وعلى طريقة « الهواة » في شؤون الحياة العامة هي الرائجة .



في وسعنا ان ننظر الى مجتمع القرن الثامن عشر من منظور آخر : من منظور الكنيسة . فلطالما أكدت الكنيسة ، بصفتها سلطة روحية ، ان ميدانها — العناية بالنفوس — لا يقع في حال مـن الاحوال تحت سلطة الحكم . بيد ان الدين المسيحي ارتبط ارتباطا وثيقا ، منذ القرون الاخيرة من حياة الامبراطورية الرومانية ، بالسلطة الزمنية . وكان يفترض في جميع الاوروبيين ( باستثناء اليهود طبعا ) ان يكونوا مسيحيين بعد آخر موجات التنصير التي انتهت في القرن الحادي عشر . وهكذا أدخلت المسيحية عنصر تجانس هام الى الحياة الاوروبية ، عنصرا افتقدته ، على سبيل المثال ، حضارات الهند والصين الكبرى . بيـد ان ادخـال هذا العنصر كلف ثمنا لا يستهان به ، اذ كان ينطوي على مبدأ الانتماء الالزامي الى هيئة او جسم من المؤمنين . وفي الفترة التي نحن بصددها ، كان هذا الجسم قد تخلع بعض الشيء ، اذ ان بعض الاوروبيين كانوا كثالكة ، وبعضهم الآخر لوثريين أو كالفينيين او انغليكانيين . لكن ما من دولة ، أصغيرة كانت أم كبيرة ، أملكيـة

كانت أم جمهورية ، أذات نظام استبدادي أم دستوري، الا وكانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بديانتها الرسمية . وبالمقابل ، كانت الكنيسة تمنح بركتها للدولة ، وتدعو المؤمنين الى طاعة السلطة الشرعية ، وتفرض رقابتها على الاخلاق ، وتسعى ، في افضل الاحوال ، الى اضفاء الطابع المسيحي على ممارسة السلطة ، وفي اسوئها ، الى حماية مصالحها الزمنية الخاصة . في انكلترا ، كان الاساقفة الانغليكانيون يشغلون مقاعد خاصة بهم في مجلس اللوردات . وفي المجر وبولونيا كان للمطارنة الكثالكة مقاعدهم في المجالس التمثيلية، أي « الديبت » . وفي امستردام وجنيف كان القساوسة البروتستانتيون يمارسون نفوذا عظيما ، اذ ان العلمانيين البروتستانتيين كانوا وحدهم اهلا لدخول مجالس الحكم . وكان رجال الاكليروس يمثلون ، تقليديا ، الطبقة الاولى . وهذا التصور لا يزال سائدا في أوساط الكثالكة ، وعلى الاخص في فرنسا . وكانت العلاقة بين الكنيسة والدولة في ظل الانظمة الملكية يرمز اليها بالتتويج – بالتكريس في فرنسا – وهو عبارة عن احتفال ديني يقسم الملك في اثنائه بالدفاع عن حياض الدين وبانصاف رعاياه . وكان المجتمع والحكم « مسيحيين » . فعن ملك فرنسا كان يقال ، رسميا ، انه **الملك المسيحي جدا** ، وعن ملك اسبانيا انه **الملك الكاثوليكي** . وقد حافظ ملك انكلترا ، حتى بعد خروج هذا البلد من حظيرة الكثلكة ، على لقب كان أحد الباباوات قد منحه فيما مضى لاحد ملوك الانكليز : **حامي الايمان** .

في بريطانيا ، وفي الاقاليم – المتحدة ، وفي بعض مناطق المانيا ، كان يسود تسامح ديني شرعي ، لكن كان هنالك ايضا اجماع على التسليم – على الصعيد العملي على الاقل – بأن السلطة العامة وقف على الاشخاص الذين ينتمون الى الدين الرسمي . وكان هذا التقليد حصيلة العواصف الدينية التي هبّت على اوروبا قبل قرن او قرنين من الزمن . ولئن تعزز هذا التقليد وتوطد في القرن الثامن عشر ، فانما بفعل التفاوتات الاجتماعية

لا الحمية الدينية ، وذلك لان الاقليات الدينية جنحت ، مع مرور الزمن ، الى تشكيل فئـات من مستوى اجتمـاعـــي دون . فالبروتستانتيون غير الانفليكانيين في انكلترا ، والمينونيون (٤) والكثالكة في الاقاليم ــ المتحدة ، والبروتستانتيون في فرنسا ، كانوا يعدون ، بوجه عام ، اشخاصا متوحشين وغريبي الاطوار . وفي انكلترا ، كان الانفليكانيون وحدهم اهلا لشغل وظيفة فـي القوات المسلحة ، ولتولي ادارة مصرف انكلترا وشركـة الهنـد وللانضمام الى اتحاد حرفي ، وللحصول على شهادة من جامعـة اوكسفورد او كامبردج . وثمة حواجز مماثلة كانت تحمي مصالح البروتستانتيين اللوثريين في الاقاليم ــ المتحدة . وفي مدينـة فرانكفورت الحرة ، كان السكان على مختلف أديانهم وطوائفهم يعيشون في أمن وسلام ، لكن اللوثريين وحدهم كانوا يشاركون مشاركة فعالة في ادارة شؤون المدينة . وثمة مثل كان يقول ان اللوثريين يحكمون ، والكثالكة يصلون ، والكالفينيين يثرون . وقد اسقط هذا القول المأثور من الحساب اليهود مع ان عددهم لم يكن ضئيلا . اما في فرنسا ، حيث كان هنري الرابع قد سخر سلطته المطلقة لفرض سياسة تسامح وحلم ازاء البروتستانتيين في عام ١٥٩٨ ، وحيث عمد لويس الرابع عشر بدوره الى استخدام سلطته في عام ١٦٨٥ لفرض الامتثال للكثلكة ، فلم يكـن للبروتستانتيين من وجود شرعي حتى القرن الثامن عشر ، وما كان لهم بالتالي حق في الزواج وفي الارث مع انهم كانوا يمثلون خمس السكان تقريبا . لكن بعد عام ١٧٥٠ ، خفتت حـدة العـداءات الدينية في سائـر الانحاء . وقد استغل فولتير في عام١٧٦٢ قضية كالاس الشهيرة، اي قضية اتهام جان كالاس بقتل ابنه ليمنعه من اعتناق المـذهب الكاثوليكي ، ليشن هجوما على الكنيسة الكاثوليكية ، وليدعو الى

(٤) المينونيون ، انصار بدعة طالبت بتجديد المعمودية ، نادى بها مينو سيمونز في القرن السادس عشر . « م » .

الحلم والتسامح ، وليطالب باصلاح اصول المحاكمات المتبعة من قبل المحاكم الجنائية في فرنسا . ولنا من الاسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن ادانة كالاس كانت تعبر عن خوف من تململ اجتماعي أكثر منها عن رغبة في التحريض والاستعداء الديني . فقد كان شعور بمثل هذا الخوف راود الفرنسيين في تولوز عندما ثار الفلاحون البروتستانتيون احتجاجا على الحرب ضد انكلترا وبروسيا البروتستانتيتين . والواقع انه بعد هذه القضية اهتدت المحاكم الفرنسية الى وسيلة تسمح لها بالاعتراف بزواج البروتستانتيين وبحقهم في الارث ، الى ان أقر النظام الملكي هذين الحقين في عام ۱۷۸۷ . بيد ان المساواة الكاملة امام القانون بين ابناء الاديان المختلفة لم يكن معترفا بها في أي دولة من دول اوروبا قبل عام ۱۷۸۹ .

على الرغم من صعوبات التعميم في هذا الميدان ، يسعنا ان نقول ان البلدان البروتستانتية والكاثوليكية كانت تتشابه على اكثر من صعيد آخر . فالكنيسة هي التي كانت تصادق على الزواج في جميع الاقطار الاوروبية . ولم يكن هنالك زواج مدني أو طلاق . وكانت دور الايتام والمستشفيات تدار من قبل رجال الدين . وكانت الكنيسة تسعى الى فرض رقابتها على الفكر والاخلاق . وقد أجمعت جينيف البروتستانتية وفرنسا الكاثوليكية على ادانة مؤلفات روسو بعنف متماثل . وكان التعليم، هو الآخر ، باشراف رجال الدين . ولئن كانت الجامعات في ايطاليا والمانيا تتمتع بقدر من الاستقرار ، فقد كانت في فرنسا عبارة عن مؤسسات كاثوليكية ، تماما كما كانت اوكسفورد وكامبردج مؤسستين انغليكانيتين . وفي انكلترا وفرنسا كان الحكم هو الذي يعين الاساقفة ، كما أن تعيين كهنة الابرشيات كان ، في كثير من الاحيان ، من صلاحيات العلمانيين او نبلاء المنطقة ، ولم يكن يخضع للكنيسة . وفي فرنسا ، كان صغار الكهنة من اصل فلاحي على وجه العموم ، في حين كان قساوسة الريف في انكلترا اقرب

الى طبقة النبلاء . لكن في البلدين كليهما كانت المطرانيات تسند الى أبناء الطبقات العليا . وهكذا كانت الاسقفيات الانغليكانية، في عام ١٧٨٩ ، وقفا على الارستقراطية العليا ، كما كان أساقفة فرنسا – وعددهم مئة تقريبا – من النبلاء جميعا .

كانت الكنيسة ، كمؤسسة ، اقوى في البلدان الكاثوليكية منها في البلدان البروتستانتية ، حيث فقدت الكنائس أملاكها اثناء حملة الاصلاح البرتستانتي وغدت تابعة اكثر لحكوماتها الخاصة . وبما أن الاكليروس البرتستانتي كان يتكون ، علاوة على ذلك ، من رجال متزوجين واصحاب أسر ، فانه ما كان يتميز كثيرا عن بقية المجتمع من حيث السلوك والآراء . وقد عانت الكنائس البروتستانتية من التشرذم المتكرر . ففي انكلترا ، كان هنالك ، الى جانب الكنيسة الانغليكانية ، طوائف الكويكرز ، والابرشانيون (٥) ، والكالفانيون ، والمعمدانيون ، والميتوديون (٦) . وفي البر الاوروبي كانت هنالك طوائف المورافيين (٧) ، والمينونيين ، واللوثريين . وهذه التعددية الطوائفية ، التي بلغت اقصاها في اميركا البريطانية ، جعلت المواقف – من المسائل اللاهوتية على الاقل – أكثر تسامحا في البلدان البروتستانتية منها في البلدان الكاثوليكية .

كان للكنيسة الكاثوليكية مصادر قوة وضعف أخرى . كانت تقوم على اساس تنظيم هرمي قوي ، يتربع على قمته الحبر الاعظم . وان كانت عصمة البابا عن الخطأ لم تقر بعد كعقيدة من عقائد المذهب الكاثوليكي ، فان المكانة التي كان يتمتع بها الحبر الاعظم كانت تجعل منه مرجعا للاساقفة في نزاعاتهم مع حكومات

---

(٥) طائفة بروتستانتية تدعو الى ان يكون لكل ابرشية استقلال ذاتي . «م» .

(٦) انصار الحركة الاصلاحية البروتستانتية التي قادها تشارلز وجون ويزلي في عام ١٧٢٩ وسعت الى احياء كنيسة انكلترا . « م » .

(٧) انصار بدعة ظهرت في بوهيميا في القرن الخامس عشر . «م»

بلادهم . وكان الاساقفة كافة يُعدون ، في كـل مكان ، مـن الشخصيات العامة المرموقة . وكان أسقف روما ، بصفته بابا ، عاهلا دنيويا ، يحكم ايطاليا الوسطى والولايات البابوية . وكـان يملك ايضا افينيون ، تلك الارض البابوية المحصورة ، الواقعـة في جنوب فرنسا . وكان الاساقفة الالمان هم ايضا من الحكـام الدنيويين ، وعلى الاخص رؤساء أساقفة كولونيا ، ماينز ، تريفن، وكذلك بطريرك سالزبورغ ، وآخرين .

في العالم الكاثوليكي كان هنالك ، الى جانب الاساقفـة والكهنة ، رهبانيات للذكور وللاناث ، تقيم عناصرها في الاديـرة، او تبذل نشاطاتها بين الناس ، كاليسوعيين الذين كانوا يشرفون على ادارة العديد من المدارس . وكان الاكليروس ، ككل ، يملك ثروات طائلة . لكن ان كان الاساقفـة ورؤساء الاديـرة ينعمون بمداخيل كبيرة ، فان صغار الكهنة والرهبان كانوا بالمقابل يعيشون في حالة من الفقر . وكانت ثروة الكنيسة الطائلة تزج بها طرفـا في صفقات مالية متنوعة ، الامر الذي جعل مـن بعض رجالات الكنيسة رجال أعمال لا دين لهم ... وكانت أملاك الكنيسة معفاة من الضرائب بصورة عامـة . وكـان للكنيسة قانـونها الكنسي ومحاكمها الكنسية ، بغية تأمين حماية املاكها ، وفـرض رقابتها على رجال الدين ، وتوجيه المؤمنين . وكانت الكنيسة الكاثوليكية اكثر عدوانية من الكنيسة البروتستانتية فيما يتعلق بفرض الرقابة على الآراء المعلنة ، وبمنع المؤلفات التي تعتبرها ضارة ، وبتطبيق العقيدة . مع ذلك فان محاكم التفتيش لم تلعب دورا هاما الا في اسبانيا .

غير ان هذه الايجابيات ـ الثروة ، السلطة،التنظيم ، روح التضامن والاستقلالية ـ كانت في الوقت نفسه نقطة ضعف ، اذ انها كانت تجر الكنيسة الكاثوليكية الى الدخول في صراعات دائمة مع الحكام ومع الراي العام . وهكذا كان الشعور المناهض لرجـال الدين ، بل للدين بوجه عام ، اكثر حدة في البلدان الكاثوليكيـة

منه في البلدان البروتستانتية . وقد راح صغار الكهنة ، ممن يعيشون مع أبناء رعيتهم ويقاسمونهم حياة البؤس والشقاء ، يوجهون انتقاداتهم الشديدة لكبار رجال الدين ، الارستقراطيي النشأة . وقد دخلت الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا وايطاليا في صراع مع الجنسينية (٨) ، تلك الحركة المعقدة المدعومة من قبل بعض الاساقفة المعارضين للسلطة البابوية ، ومن قبل بعض اللاهوتيين الاوغسطينيين ومن قبل اعداد كبيرة من المؤمنين الذين كانوا يأخذون على الكنيسة اثراءها المفرط ، وانغماسها في حياة الدور والقصور ، بل فسادها ايضا . ومع صدور البراءة البابوية التي اتهمت الجنسينيين بالهرطقة ، وذلك في عام ١٧١٣ ، ازداد هذا الصراع عنفا وحدة . وقد كان للاجراءات التي تم اتخاذها طيلة خمسين عاما في فرنسا لتأمين تطبيق هذه البراءة البابوية ، اثر سلبي على سمعة الكاثوليكية ضاهى في خطورته اثر كتابات فولتير و**الموسوعة** . ولعبت الضغوط الجانسينية دورها في طرد اليسوعيين من فرنسا في عام ١٧٦٣ ، ثم في حل رهبانيتهم من قبل البابا في عام ١٧٧٣ ، بتحريض من الحكومات الكاثوليكية . وفي المانيا حارب رؤساء الاساقفة البابا في اطار الحركة المعروفة باسم **الفيرونيانية** . وفي امبراطورية آل هابسبورغ ، شن الامبراطور جوزيف الثاني حملة مناهضة للكثلكة ، استبقت الثورة الفرنسية بفترة قصيرة . فدور الكنيسة في المجتمع تحول الى مشكلة شائكة في كل ارجاء اوروبا ، وكانت هذه المشكلة تزداد حدة مع تنامي نفوذ الكنيسة وتعاظم سلطانها .

★ ★ ★

مجموعة أخرى من المؤسسات ، تضاهي الكنيسة في قوة انتشارها ، وتتفوق على النظام الملكي في شموليتها ، تواجدت في

---

(٨) مذهب اخلاقي مسيحي متشدد يقول بالجبرية وبان النعمة الالهية وقف على فئة دون اخرى . وقد إسس هذه الحركة الدينية جنسينوس . «م» .

شتى أرجاء اوروبا دونما استثناء . ويصعب علينا فهمها اليوم لانها مثلت ، على وجه التحديد ، ما اطاحته الثورة وقضت عليه . وهذه المؤسسات ، التي كان يجمع بينها تصور مشترك ، كانت تبدو في المظهر المتنوع التالي : اقطاع ، سلطات وسيطة ، هيئات نظامية ، طبقات ، امتيازات ، رتب ، اوضاع قانونية ، وحريات .

ان ما اتفق الجيل اللاحق على تسميته باللامساواة كان من لحمة نسيج المجتمع بالذات . وكان يتلخص في توزيع متفاوت للادوار وللامتيازات في اطار نظام تراتبي . فكان الناس ، في كل مرتبة من المراتب ، يعلنون عن احترامهم للذين هم في مرتبة أعلى . وكان للناس جميعا حقوق معترف بها من قبل القانون او من قبل الاعراف ، غير ان هذه الحقوق كانت تتباين وتتفاوت . كانت رهن الفئة الاجتماعية التي ينتمي اليها الشخص . فكانت نوعية وعينية . فثمة حقوق متباينة كانت تترتب على تباين الانتماء المذهبي ، وكذلك على الانتماء المهني . فلم يكن يحق للنبلاء ، مثلا ، ان يكونوا اعضاء في الروابط الحرفية ولا ان يمارسوا تجارة المفرق عن طريق فتح الدكاكين : فمشاربهم من جهة ، ونفور البورجوازيين من منافستهم من جهة اخرى ، كانت تحرّم عليهم ذلك . وكان الرأي السائد ان النبلاء جبلوا على قيادة البشر ، وان مهمتهم تنحصر في ريادة الناس ، ان في القيادة العسكرية وان من خلال مناصب الدولة والكنيسة العليا . ولم يكن يحق للفلاح ان يشيد طاحونا في قريته، لان هذا الحق كان وقفا على السيد المولى . وكان اعضاء الروابط الحرفية يتمتعون وحدهم بحق ممارسة مهنهم الخاصة : لم يكن يحق لشخص من الاشخاص ان يفتح ورشة خياطة او بناء ما لم يكن عضوا في رابطة حرفية . وازالة هذه الحواجز في انكلترا في القرن السابع عشر كانت من جملة الاسباب التي أدت الى تفوق نشاطها الاقتصادي في القرن الثامن عشر . وكانت حقوق الملكية العقارية تخضع هي الاخرى لتفاوتات نوعية . ففي انكلترا كان

حق انتخاب نائب للبرلمان وقفا على الملاكين الاحرار .وفي فرنسا كان للفلاح المالك وللسيد المولى حقوق مختلفة في الارض الواحدة. وفي أوروبا الشرقية كانت حقوق ملكية البورجوازيين والنبلاء متباينة ، ولم تكن قابلة للتبادل فيما بينها .

في **تعليقات على قوانين انكلترا** ٦ ذكر السير وليم بلاكستون ، في معرض تحليله « حقوق الشخص الانساني » ، ما يقارب اربعين مستوى للاوضاع الشخصية ، تتراوح بين وضع الشغيل وبين وضع الدوق . وقبل الثورة ٦ كانت القوانين الفرنسية ، المختلفة اساسا من مقاطعة الى اخرى ، تضع تصنيفات مماثلة مستوحاة من مفهوم الطبقات الثلاث : طبقة رجال الدين، طبقة النبلاء ، والطبقة « الثالثة » . وقد كرّس القانون البروسي الذي نشر في عام ١٧٩١ ــ كان بوشر بتدوينه في عهد فردريك الاكبر ــ فصولا على حدة لحقوق النبلاء ، وسكان المدن ، والفلاحين ، ورجال الاكليروس ، والموظفين ، وغيرهم من المواطنين . وقد نص القانون البروسي ، الذي لم يكن يختلف على هذا الصعيد عن قوانين معظم اقطار اوروبا ، على ان حقوق الشخص تابعة « لمولده ٦ او لوضعه، او لعمله الرئيسي » ٦ وعلى ان الاشخاص الذين تتماثل شروطهم، والذين يتمتعون بالتالي بحقوق متساوية ، يشكلون طبقة داخل الدولة . بيد ان حقوق هذه الطبقات المختلفة لم تكن متساوية .

كان يحق للملك او للحكومات ان تمنح الحقوق بل ان تبيعها. بيد ان الحقوق كانت ، مبدئيا، تتوارث في غالبيتها . كان من المسلم به ان املاك الفرد ــ حتى ولو كان هو الملك بالذات ــ ووضعه القانوني ، ومرتبته ، ومكانته في الحياة ، وعمله ، هي امور موروثة عن والده . ومن نافل القول ان هذا المبدأ ما كان ينطبق على المناطق التي تأثرت اكثر من غيرها بالتغيير ، وباقتصاد المال والحراك الاجتماعي ٦ كانكلترا على سبيل المثال ، او العديد من المناطق الفرنسية والمدن الكبرى مثل امستردام او فيينا . ولم يكن هذا المبدأ يتناسب مع تطور الادوار الاجتماعية الجديدة في

حقل الصحافة ، والعمل الادبي ، والمهن الحرة ، والعلم ، وعالم المال ، والاشكال الجديدة للمنشأة الاقتصادية . ولم تكن فكرة الارث او المكانة الاجتماعية تتمشى ايضا مع فكرة النوعية او الفعالية ، حتى في مضمار الانشطة القديمة كالحكم او الزراعة . فعدم جدارة الملوك الذين يرثون العروش عن آبائهم كان موضع تهكم وسخرية من قبل نقاد النظام القائم ، الذين كانوا يقعون احيانا في المبالغة .

كان الناس على درجات ، في ارجاء اوروبا كافة ، وكانت مساهمتهم في الشؤون العامة متفاوتة، تتباين بين مرتبة وأخرى. ففي جينيف ، المدينة ــ الدولة المستقلة التي كانت تعد ٢٥ الف نسمة، كان هنالك **مواطنون** يتمتعون بحق ممارسة الوظائف العامة ، **وبورجوازيون** لا يتمتعون الا بحق الانتخاب ، **وسكان** مخولون حق ممارسة بعض المهن وانما مجردون من كل حق سياسي ، واشخاص **من مواليد** المدينة كانت حقوقهم محدودة اكثر بعد ، واخيرا **فلاحون رعايا** يعيشون خارج جدران المدينة. وكان المجلس الحاكم في امستردام يتألف من ستة وثلاثين شخصا يحكمون مدى الحياة، ويختارون بأنفسهم ورثتهم. وفي البندقية، التي كانت تعد ١٣٠ الف نسمة ، كانت ممارسة الوظائف الرسمية وقفا على النبلاء . والحال لم يكن هنالك سوى ١١١ اسرة نبيلة في عام ١٧٩٦، أي أقل من نصف العدد الذي كان موجودا في اوج العصر الوسيط . وفي مقاطعة الفرتبمورغ ، التي اشتهرت بفعالية حياتها السياسية ، كان الف وخمسمائة شخص فحسب من أصل ستمئة الف نسمة، يختارون النواب .

كانت الجمهوريات الارستقراطية والمدن الحرة الاوليغارشية (٩) أقل مواءمة لصعود اشخاص جدد من انكلترا على سبيل المثال ، او من الممالك الكبرى في البر الاوروبي . وفي انكلترا

---

(٩) الاوليغارشية : كلمة يونانية الاصل وتعني حكم الاقلية . «م» .

كان عدد المواطنين المساهمين في الحياة العامة محدودا للغاية ، وأغلب الظن انه كان دون عددهم في المجر . فآرثر يونغ قدر عدد الناخبين البريطانيين بمئتي وخمسين الف شخص فحسب ، وفي عام ١٧٧٦ أعلن ريتشارد برايس ، بعد دراسة دقيقة وممحصة ، ان نصف اعضاء مجلس العموم انتخبوا من قبل ٥٧٢٣ شخصا جلهم من الارستقراطيين ، وان وجد بينهم مع ذلك بعض الوجوه الجديدة . وليم بت نفسه ، ابن الكونت شاتهام الشهير ، كان في الواقع من أحفاد شخص مغامر ، كان الشرق مسرح اعماله الباهرة. وفي الدوائر الحكومية للملكيات المطلقة لم تكن المهام الوظيفية تؤدي بمثل روح التزمت المهيمنة على الادارات الحكومية في فرانكفورت وجينيف . لذلك كانت الجدارة الشخصية تضاهي ، في بعض الاحيان ، عراقة المنشأ في ترقية الموظف . وثمة ادارات بيروقراطية ، كادارة الطرق والجسور في وزارة الاشغال العامة الفرنسية ، التي كانت تستخدم اشخاصا يتمتعون بجدارات عالية ويتنقلون باستمرار من اقصى البلاد الى اقصاها ، كانت توفر للطبقات الوسطى فرصا عديدة للتطور والتثقف .

ان الهوة الشاسعة الفاصلة بين ابناء الشعب الواحد كانت تلك التي تفصل بين طبقة النبلاء وبين سواد الشعب . فطبقة النبلاء لم تكن دخلت طور الانحطاط في القرن الثامن عشر . ويمكننا اعتبار طبقة النبلاء الفرنسية ، التي ما كانت تمثل سوى ٢ بالمئة من مجمل السكان ، بما فيها الرجال والنساء والاطفال ، النموذج الكلاسيكي لمعشر النبلاء في اوروبا . وكان بعض النبلاء يحملون القابا ، كلقب دوق او كونت مثلا ، بيد ان معظمهم ما كان يتميز عن سواد الشعب الا بأداة التعريف المضافة الى اسمه : **دو** بالفرنسية ، **فون** في الالمانية ، الخ . في انكلترا كان العظماء المئتان ، من رؤساء الاسر الكبرى والاعضاء في مجلس اللوردات ، ينعمون وحدهم بامتيازات طبقة النبلاء الفعلية. بيد ان كل نبيل ريفي كان يعتبر نفسه ندا للفارس الفرنسي ،

او **للهيدالغو** الاسباني ، او **لليونكر** الالماني . وفي القارة الاوروبية كان هنالك ميل الى الصاق صفة النبل بالاسر الكريمة التي لا تعيش من وراء التجارة او ممارسة المهن الحرة . وفي فرنسا بالذات ، بات كبار القضاة او اعضاء البرلمانات ، المنحدرون من أسر بورجوازية ، يتحلون بالالقاب ، بل يتزعمون طبقة النبلاء . وكان السادة الهولنديون وشرفاء بيرن وبال ، ووجهاء البندقية ، والاسر الحاكمة في نورمبورغ ، ممن كانوا يحظرون على المواطنين العاديين اعتماد القبعات المزينة بالارياش وحمل السيوف ، ويغرفون من الخزينة العامة لدفع مهور بناتهم ولتسديد نفقات رحلات ابنائهم ، كان هؤلاء يعيشون حياة هي أقرب الى نمط حياة النبلاء منها الى نمط حياة البورجوازيين . وفي المانيا ، اي في الامبراطورية الرومانية المقدسة ، كانت طبقة النبلاء العليا تتمتع بحق السيادة ، وكانت تأتي مرتبتها مباشرة بعد الامبراطور ، في حين كان صغار النبلاء أترابا للاعيان الريفيين فيفرنسا.اما في اوروبا الشرقية، حيث كانت النبالة تمثل من خمسة الى عشرة بالمئة من مجمل السكان ، فان هذه الطبقة كانت تضم ما هب ودب ، خلافا لطبقات النبلاء في الغربالتي طالما تاقت الى التشبه بها.وقد نص الدستور البولوني لعام ١٧٩١ على ان نبلاء بولونيا لا يتساوون فيما بينهم فحسب ، بل يقفون ايضا على قدم من المساواة مع نبلاء « بقية الاقطار كافة » . وفي **ميثاق النبلاء** الذي أقر في عام ١٧٨٥ ، وعدت كاترين الثانية بأن تضمن «لجميع الاشخاص العريقي المنشأ» منظومة من الحقوق المستوحاة من حقوق النبلاء في الغرب ، كالاعفاء من بعض الضرائب ، وحق النبيل في ان يحمل اسم الاراضي التي يملكها .

كانت كلمة « نبيل » تعني في اوسع معانيها « عدم الانتماء الى العامة»،اي الى سواد الشعب. وكان الناس يسعون جاهدين للخروج من صفوف العامة . ففي انكلترا ، كان أي شخص حسن المظهر ولائق التصرف ومهذب الكلام ، يُعد « جنتلمانا » على صعيد

العلاقات الاجتماعية العادية على الاقل . اما في المدن السويسرية، حيث كان الجميع يعرفون اصول بعضهم بعضا، فكان يتعذر على غير النبلاء ادعاء اصالة النسب . في المانيا ، كان البورجوازيون ميالين الى الاحتفاظ بوضعيتهم الاصلية ، كما كانت اتصالاتهم بطبقة النبلاء العقاريين محدودة . في فرنسا ، كان الوضع اكثر دقة . ففي هذا البلد الكبير ، الذي راجت فيه عادة الاختلاط بالاجانب ، والذي كان البورجوازيون المثقفون فيه ، والحائزون على تربية مماثلة لتربية النبلاء ، أكثر من ان يحصوا ، ارتفعت أصوات عديدة ، منذ عهد لويس الرابع عشر ، تشتكي من الذين يدعون زورا الانتماء الى طبقة النبلاء ويحملون بهتانا لقبا من الالقاب . فالمدعو ب. أ. كارون ، وكان ابنا لساعاتي ، ما كان يشعر بالارتياح الا في الاوساط الراقية التي دخلها تحت اسم كارون دو بومارشيه (١٠) . و ب. أ. دوبون ، الذي كان هو الآخر ابن ساعاتي باريسي، والذي عرف كرجل اقتصاد، وكثوري معتدل ، وكمؤسس للاسرة الصناعية الاميركية الشهيرة ، اختار بدوره لنفسه اسم دوبون دو نومور . وقد استمات لازار كارنو (١١) كيما يعثر في شجرة عائلته على اسم نبيل يسمح له بالزواج من فتاة كانت ارقى منه مرتبة اجتماعية . وعندما باءت جهوده بالفشل ، تحول الى نصير متحمس للجمهورية وعقد على فتاته .

خارج انكلترا ، كان القانون هو الذي يحدد وضع النبلاء المقترن بحقوق وامتيازات نوعية خاصة . كان بعضها فخريا، كحق حمل السيف مثلا ، او وضع شعار النسب على عربة النبيل

---

(١٠) كارون دو بومارشيه ( ١٧٣٢ — ١٧٩٩ ) كاتب فرنسي اشتهر بمغامراته ومضارباته ، مؤلف **حلاق اشبيليا** و **زواج فيغارو** . « م » .

(١١) لازار كارنو ( ١٧٥٣ — ١٨٢٣ ) ، من رجالات الثورة الفرنسية ورياضي شهير . كان من رواد الهندسة الحديثة ، ومن مؤسسي جيش الجمهورية الفرنسية باعتباره عضوا في لجنة السلامة العامة . « م »

الشخصية ، او الانفراد بمركع في الكنيسة . وكان بعضها الآخر ذا فائدة عملية . وكانت هذه الحقوق تختلف من قطر الى آخر ، وكانت تتوقف على النفوذ الشخصي اكثر منها على الاوضاع القانونية الفعلية. ومن جملة هذه الحقوق: الاعفاء من الضريبة ( او تسديد ضرائب تختلف عن تلك التي يسددها الناس عامة )، وأفضلية الحصول على المناصب القيادية في الجيش والبحرية والدبلوماسية والحكم ، وحق مقاضاة الفلاحين ومحاكمتهم ( كان هذا الحق اكثر شمولا في قصور النبلاء منه في القصور التي يملكها بورجوازيون محدثو نعمة ) ، وحق التقاضي امام المحاكم العليا ، وحق البكورية الذي كان يسمح للاسر الارستقراطية بالاستمرار وبتجنب تجزئة املاكها ، اذ ان الابن البكر كان يرث وحده هذه الاملاك ، في حين كان اشقاؤه يتوظفون له او ينخرطون في صفوف الاكليروس ، وشقيقاته يحصلن على مهر محدد او يجبرن على الدخول الى الدير .

بيد ان اكثر هذه الامتيازات اهمية وفخرية كان حق النبيل في ان يكون من رجالات الحكم . وكان هذا الحق يرتدي اشكالا مختلفة . ففي الجمهوريات والمدن الحرة ، كانت طبقة الاشراف تنفرد في شغل « المجالس » ـ مجالس العشرة ، او الخمسة والعشرين ، او الستين او المئتين ، نظرا الى تباين عدد اعضاء المجالس من مدينة الى أخرى . وفي بولونيا وبوهيميا والمجر ، كان مجلس الاعيان وقفا على العظماء والاساقفة ، والبرلمان وقفا على النبلاء المنتخبين من قبل اقرانهم فحسب . وفي انكلترا ، كان عظماء المملكة يحتكرون مقاعد مجلس اللوردات بموجب حق شخصي ووراثي . وفي مجلس العموم ، كانت أسر معروفة تنفرد في تمثيل مقاطعاتها جيلا بعد جيل بفضل نفوذها السياسي او صكوك ملكيتها . وفي فرنسا كادت البرلمانات ، التي كانت تدعي حق ممارسة ضرب من السلطة التشريعية المنبثقة عن مهامها القضائية ، ان تكون وراثية مئة بالمئة من جراء تطبيق مبدأ الملكية

عليها . فمقاعد هذه البرلمانات ، التي كانت خاضعة للبيع وللشراء، كانت تنتقل من شخص الى آخر عن طريق الوراثة بوجه عام، بحيث ما كان شاغلوها لا يعينون تعيينا ، ولا ينتخبون انتخابا ، لذلك وجدناهم يفاخرون باستقلاليتهم ويتباهون . وفي مقاطعتين فرنسيتين، هما مقاطعة بروتانيا ومقاطعة لانغدوك ظلت الهيئات التمثيلية القروسطية القديمة تعقد جلساتها طوال القرن الثامن عشر . وكانت بعض المدن الحرة تمثل الطبقة الثالثة . وفي لانغدوك، كانت الغلبة للاساقفة، غير انهم كانوا ينتمون جميعهم الى أسر نبيلة. وفي بروتانيا، كان يحق لجميع نبلاء المقاطعة ان يشاركوا شخصيا في أعمال تلك الهيئات التمثيلية . لكن في فرنسا ، بمجملها ، لم يُطرح امتياز الوصول الى الحكم على نحو حاد قبل عام ١٧٨٩ . فهيئة الطبقات الثلاث لم تجتمع منذ عام ١٦١٥ ، وكانت البلاد تتقبل بلا تذمر مبدأ انفراد الملك ووزرائه في حكمها . وقد أدى بعث نظام الطبقات الثلاث من جهة اولى ، والحاح طبقة النبلاء من جهة اخرى ، وهي ثاني طبقة في المملكة ، على المطالبة في عام ١٧٨٩ بتأليف مجلس منفصل من النبلاء بالوراثة والمنتخبين من قبل أقرانهم فحسب ، أدى هذان السببان مجتمعين الى التعجيل في انفجار الثورة .

ان الهيئات التمثيلية والطبقية ، والمجالس ، والبرلمانات ، والكنيسة الفاعلة من خلال اساقفتها ، والسلطات المحلية في الاقاليم المستقلة ذاتيا والمدن الحرة ، كل ذلك كان يؤلف ما اسماه مونتسكيو في كتابه **روح الشرائع** « السلطات الوسيطة » . كانت تشكل هيئات نظامية ، وراثية الى حد كبير ، ترسي اسس شرعيتها في التقاليد او في المواثيق المبرمة في الماضي . ولم تكن هذه الهيئات خاضعة لا لانتخاب من الاسفل ولا لتعيين من الاعلى . وكانت هي التي تضطلع بمهام الحكم في الجمهوريات وفي المدن الحرة . اما في الممالك فكانت هذه الهيئات النظامية هي « الوسيط » بين الملك ورعاياه، وكانت تعتبر نفسها من جراء ذلك

مكلفة بصيانة الحرية من الاستبداد . فقد كتب مونتسكيو ( وكان من النبلاء ، وعضوا في برلمان بوردو ) يقول : « الغوا امتيازات السادة والاكليروس والنبلاء والمدن في الملكيات تحصلوا ، بسرعة، امّا على دولة شعبية واما على دولة مستبدة».وقد غدا هـــذا المذهب ، خلال العقود التي سبقت الثورة ، العقيدة السياسية للطبقة الارستقراطية في اوروبا برمتها ، وألّف ، بعد قرن من الزمن ، جوهر فكر الكسي توكفيل . كان هذا المذهب عبارة عـــن نظرية تقول بالتعدديـــة السياسية او بلامركزية السلطة الداخلية ، بل بأكثر من ذلك ايضا ، اذ كانت تلح بوضوح على وراثية المنصب ، وعلى الحقوق الخصوصية ، وعلى الاشكال «المستقلة» للسلطة . وكان ايضا مذهبا محافظا ، اذ ان السلطات الوسيطة كانت تقف حجر عثرة فيوجه معظم الاصلاحاتالتي يقترحها الملوكووزراؤهم، ان في مضمار السياسة الضريبية في فرنسا ، وان في مضمـــار القضاء والمحاكم في ميلانـــو ، او القنانـــة في امبراطوريـــة آل هابسبورغ .

كان دعاة الإصلاح في القرن الثامن عشر قد أوجدوا مصطلحا ــ له مدلول ترذيلي ــ لنعت مجمل تلـــك السلطات الوسيطة ، المضطلعة بدور هدّام بوجه عام ، والقائمة على مبدأ اصالـــة المنشأ والمرتبة والوراثة والنظام الزراعي المولوي . كان هذا المصطلح هو : « الفيودالية » (١٢) . وكان يشير ، في وقت واحد ، الى نسيج الحياة والى المؤسسات القوية التي كانت تنتصب بين العاهـــل ورعاياه وتحول دون تحديث الدولة واقرار المساواة بين المواطنين امام القانون .وهذه « الفيودالية » هي ما ستقضي عليه الثـــورة في فرنسا واوروبا ، عندما ستحصر مبدأ الوراثة بالملكية الخاصة وحدها ، وعندما ستشرع ابواب الحياة العامة امام التنافس الحر « للفضائل والمواهب » وامام امكانات التطور التي بـــاتت توفرها انوار العصر .

---

(١٢) الاقطـــاع .

مع انه من العسير تعريف كلمة « انوار » ، فمن المؤكد ان نوعا من الثورة الثقافية حصل في القرن الثامن عشر . وقد اقترنت هذه الثورة باسماء عدد كبير من الفلاسفة :مونتسكيو، فولتير ، ديدرو ، روسو ، هلفسيوس ، ودولباخ في فرنسا ، هيوم وغيبون في انكلترا ، بيكاريا وفيلانجييري في ايطاليا ، ليسينغ وكانط في المانيا ، لومونوسوف في روسيا ، فرانكلين وجيفرسون في اميركا . بيد ان **الانوار** ذهبت الى ابعد بكثير من هذه الاسماء الكبيرة وتأثيرها . فقد تمخضت عن خلق جيل راح ينتقد بعنف وحدة المؤسسات التي اسلفنا الاشارة اليها . ولم تكن المشاعر التي تحرّك هذا الجيل هي مشاعر تذمر سلبي ، وانما كان يحدوه ايمان بقدرته على اقامة مجتمع افضل في مستقبل قريب . وربما كانت فكرة التقدم هي في اساس هذه العقلية الجديدة .

ادانت **الانوار** بوجودها ، ولو في حدود ، للثورة العلمية التي كانت قامت في القرن السابق ، اي لعصر غاليليو وديكارت ونيوتن المبدع والخلاّق . وكان ثمة اجماع على الاعتقاد بأن نتائج عملية هامة سوف تترتب على العلم ، وقد امسى اسم فرانسيس بيكون ذائعا بهذا الصدد ، بيد ان وقع العلم المباشر على الابتكار والاختراع كان لا يزال في الحقيقة غير ذي اهمية. وقد اسلفنا الاشارة الى عدم حصول اي تغيير في التجهيزات العسكرية . وعلى الرغم من بعض المبتكرات النموذجية ، كالآلة البخارية ومقياس الزمن والمنطاد والطعم ضد الجدري ، فان دور العلم كان لا يزال ضئيلا ومحدودا .

ان ما انبثق عن الاكتشافات العلمية الكبرى كان في الواقع ضربا من الايمان الجديد في قدرات الفكر البشري ، في قدرات الذكاء او « العقل » . كان نوعا من النظرة النقدية الجديدة للامور ، محورها ضرورة البرهان والملاحظة . وكان هنالك ، بوجه عام ، اجماع على تأييد ما قاله لوك في **مقال**

في الفهم البشري ، اي التأكيد بأن الاحساس او الادراك الفردي للمحيط هو مصدر الافكار كافة . وثمة نتيجة طبيعية كانت تترتب على هذا الادعاء : فمعظم ما يعتقد به اكثر الناس تابع في الحقيقة لما تعلموه في طفولتهم ممن يكبرونهم سنا ، او من ذوي الشأن والنفوذ لاحقا . ومثل هذا الاساس لا يصلح ، على ما كان يرى فلاسفة الانوار ، للمعرفة الصحيحة او النافعة. وهذه الرؤية الجديدة كانت تقوض دعائم الموروث ، وتنال ، في نظر الساخطين كافة ، من مكانة المؤسسات التي كانت تبرر وجودها بالتذرع بالماضي ، وبالتراث ، وبالوضع الاجتماعي المتعارف عليه ، وبالعرف ، او كذلك بالرجوع الى حكمة الاجداد .

كانت الكنيسة ، العظيمة الشأن كمؤسسة وكتنظيم ، الخاسرة الكبرى من جراء انتشار هذه النظرة الجديدة . فبالحاحها الدائب على وحي تاريخي ، وعلى مأثور الخلافة الرسولية ، وعلى ضرورة السر وحتميته ،وعلى الادلة المستقاة من الكتاب المقدس ، تلك الادلة التي راحت تفقد مصداقيتها باطراد ، غدت الكنيسة تتكلم لغة غريبة على الآذان الحديثة . وكانت ذكرى حروب الدين ، وتاريخ الكنيسة الحافل بحملات الاضطهاد وبالمواقف المتشنجة التي لا تحسب للحلم والتسامح حسابا ، ما يزالان ماثلين في الاذهان . وحتى الاشخاص الذين كانوا يترددون على الكنيسة ويدعون انهم مسيحيون ــ هكذا كان شأن اكثرية الناس في الحقيقة ــ كانوا يسلمون بأن الدين تسبب في احداث قلاقل جمة ، وان اقل ما يقال في بعض مذاهبه انها غريبة . وقد اعتنقت الطبقة المثقفة نوعا من الربوبية (١٣).

---

(١٣) الربوبية : الاعتقاد بوجود اله كسبب اولي لا شخصي للعالم . ويعتبر هربرت اوف تشربوري ( ١٥٨٣ ــ ١٦٤٨ ) « أبا الربوبية » . وكان انصار الربوبية في فرنسا فولتير وروسو ، وفي انكلترا لوك ونيوتن وغيرهما ، وفي روسيا راديشيف وا. بينين وا. بيبرنوف وغيرهم . «م» .

وكان اشد نقاد الدين انفعالا وحماسة يعدّونه مجرد اختراع بشري ، او ظاهرة اجتماعية تقوم على اساس من الخوف ، او التطير ، او الاحتيال . وقد حاولت الكنيسة ، بكل ما تملكه من قوة ، ان تقضي على هذه الافكار ، بيد انها ما ونت تنتشر ، في فرنسا على الاخص ، في صورة كتابات كانت تنتقل سرا من يد الى اخرى ، ثم في صورة مؤلفات مطبوعة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

من هذا المنظور الجديد كان يتعين استبعاد كل معرفة مزعومة وخاطئة ، والاكتفاء بالمعرفة المتصلة بالحقيقة . ولئن كان الخطأ والشر ينجمان ، في معظم الاحيان ، عن المحيط الفاسد والتربية الخاطئة ، فمن الاهمية بمكان تغيير هذا المحيط وتوفير تربية افضل . وقد اتسم العديد من المؤلفات بالطابع التربوي ، ان لم نقل الدعائي . واعيد نشر اعمال سابقة تتسم بمثل هذا الطابع . وكرست بعض المؤلفات بتمامها لمسألة التربية . ففي كتاب **اميل** ، على سبيل المثال ، وصف روسو كيف ينبغي ان يربى المراهق حسب ناموس « الطبيعة » وبيّن ضرورة حمايته من الافكار المضللة التي تبثها التربية التقليدية.

اما النظام التعليمي فبقي على حاله. كانت المدارس الابتدائية نادرة ، وكان التعليم الثانوي ، الموقوف على نخبة من النبلاء والطبقات الوسطى ، ينشر الاخلاق والدراسات الكلاسيكية التي جرى تطويرها في عصر النهضة ، وقد تمكن من الاستمرار في ممارسة تأثيره حتى القرن العشرين . وبعد حل رهبانية اليسوعيين ، تمّ ادخال بعض الاصلاحات على مدارسهم ، من فرنسا حتى بولونيا . وكانت هذه الاصلاحات ترمي الى وضع اسس تربية اكثر مدنية ، واكثر « وطنية » ، واكثر اتصافا بالنزعة الاجتماعية . وعلى المستوى الجامعي ، كان بعض الاساتذة يدرّسون العلوم والفلسفة الحديثة والشؤون العامة في كل من المانيا وايطاليا واسكوتلندا . اما جامعات انكلترا

وفرنسا واسبانيا ، المرتبطة بالكنيسة ، فقد ظلت تقليدية للغاية في فروع تعليمها. وقد تخطت حركة **الانوار** ، بوجه عام ، حدود الجامعات . وكانت مؤسستها المميزة هي الاكاديمية ، مثل اكاديمية **رويال سوسايتي** الانكليزية ، او **الاكاديمية الفرنسية للعلوم** ، او **اكاديمية دي لنجي** الايطالية .

عرفت الاكاديميات انتشارا واسعا وسريعا في القرن الثامن عشر . وارتفع عددها في المقاطعات الفرنسية . وفي عام ١٧٥٠ اذاعت اكاديمية مدينة ديجون صيت روسو حينما منحته جائزة باسمها على موضوع كانت طرحته في مسابقة . وكان بحث روسو ، **مقال في الفنون والعلوم** عبارة عن نقد **للانوار**. فقد بيّن فيه كيف ان العقل وحده والمعرفة والحضارة المعقدة امور لا تكفي لان تجعل العالم قابلا للعيش . لكن لئن اعتبرت آراؤه هذه « مخالفة » للمألوف ، فهذا ما يؤكد قوة المعتقدات التي تنطع لنقدها . وقد ظهرت اكاديميات اخرى في البلدان التي كانت تشغل مكانة ثانوية في اوروبا الثقافية : في بروسيا ، وفي روسيا ، وفي فيلادلفيا مع الجمعية الفلسفية الاميركية التي جعلت هدفها « تشجيع المعرفة المفيدة ». وكان اعضاء هذه الاكاديميات يتبادلون رسائل مطولة حول المواضيع العلمية ، وينتخبون اعضاء اجانب ، وينشرون كشوفهم في مجلات واسعة الانتشار ، ويؤلفون شبكة واسعة من الفكر الجديد ، مماثلة الى حد كبير لشبكة اساتذة الجامعات في فترة لاحقة .

سجلت الصحافة ايضا نموا سريعا . واقبل الناشرون على نشر الكتب باقدام لم يسبق له مثيل . وكان اكثر هذه المؤلفات مكتوبا باسلوب ادنى الى ان يكون شعبيا ، وباتت اللاتينية ، التي بطل استخدامها ، مقصورة على ابحاث مجردة ولاهوتية . وقد بقيت الطبقات الشعبية اميّة ــ او شبه اميّة ــ في معظم ارجاء اوروبا . لكن في اوساط الطبقتين

الوسطى والعليا ، انكب اولئك الذين كانوا فيما مضى لا يطالعون سوى الكتب المقدسة او روايات الفروسية ، والذين ما كانوا يفيدون من معرفتهم القراءة والكتابة الا في مسك دفاتر حساباتهم المنزلية والتجارية ، انكب هؤلاء على مطالعة شتى الصحف والمجلات ، الموجهة الى جمهور جديد ، او على مطالعة الكتب الموضوعة من قبل مؤلفين ، من امثال فولتير ، كانوا يعبرون بسخرية لاذعة عن الافكار الاساسية السائدة . وأقبلت النساء بدورهن على المطالعة . وافتتحت بعض السيدات صالونات ادبية كانت تدور فيها احاديث ومناقشات حول شتى المواضيع. وتضاعف عدد الرجال المنتمين الى المحافل الماسونية التي انتشرت انتشارا واسعا في سائر ارجاء اوروبا بعد عام ١٧٠٠. وكانت هذه المحافل مسرحا لمناقشة الافكار الجديدة . وكان يشارك في مساجلاتها رجال دين وعلمانيون ، نبلاء وبورجوازيون على حد سواء . وفيما كان رجال العلم يشيدون اكاديمياتهم ، كان الاشخاص العاديون يؤسسون اندية للمطالعة في عدد من المدن الاوروبية ، وذلك بعيد عام ١٧٧٠ . وكان تأسيس هذه الاندية يتم على النحو الآتي : مجموعة من المواطنين تبادر الى استئجار غرفة او اثنتين ، وتدفع اشتراكا شهريا، وتشترك جماعيا بمجلات او بصحف ، وتشتري بعض الكتب، وتعقد اجتماعات بين الحين والآخر لمناقشة مضامينها .

أمست المقالة اكثر وسائل التعبير شعبية . وبدءا من منتصف القرن راحت البرلمانات الفرنسية ، الداخلة في صراع مع الملك ، تنشر احتجاجاتها الرسمية او « شكاواها » ، كيما تتاح للجميع فرصة مطالعتها . وفي السبعينات من القرن الثامن عشر بدأت تنشر على الملأ في انكلترا المساجلات التي تدور بين جدران البرلمان . وفي جميع الاقطار الدينامية ،شرعت قوة جديدة تنمو وتتعاظم شأنا ، دعيت بـ « الرأي العام » . مصطلح جديد لظاهرة جديدة . ومؤداه ان الاشخاص الذين

يجيدون القراءة اصبحوا يهتمون بشؤون الدولة ، وينتقدون مبدأ السرية في مضمار الحكم ـ سواء أجاءت هذه السرية من الملوك والوزراء والبيروقراطيين ام من المجالس والجمعيات المنعقدة في جلسات مغلقة ـ ويتطلعون الى المشاركة في هذا الحكم ؛ ويطرحون تصورهم للمصلحة العامة ؛ ويكتشفون ان هنالك اشخاصا مثلهم ، كثرا ومجهولين وبعيدين ، يطالعون النشرات والمؤلفات عينها ، ويهتمون بالمسائل والقضايا ذاتها .

كانت الحركة الفكرية الجديدة عظيمة التنوع من حيث مضمونها . وكانت تنتقد بشدة الدين المنزل والمنظم ، بيد ان هذا النقد لم يحل دون ان يكون عدد من « المستنيرين » من المسيحيين المؤمنين . ففي جينيف ، كان الاساقفة انفسهم يميلون الى الاعتقاد بأن كالفن غلا وشط الى ابعد مما يجب . وكان بعض الاساقفة الفرنسيين من الفلاسفة الاجتماعيين . وقد حاول بعضهم بكل نزاهة ان ينقي الدين ويطهره من شوائبه . وفي ايطاليا ؛ وبفعل التأثير المشترك للجنسينية ولحركة **الانوار** ، دعا عدد من رجال الدين الى اصلاح الكنيسة والدولة . وفي انكلترا ؛ كان هيوم وغيبون ثوريين في مضمار الدين ، ومحافظين للغاية في مضمار السياسة . وفي فرنسا ، يجدر بنا ان نصنّف مونتسكيو في عداد الارستقراطيين النيرين ، المناصرين لامتيازات الطبقات . اما فولتير فكان من انصار الملكية في مجال الشؤون الفرنسية ، لانه كان يطمح في سلطة ملكية قوية بما فيه الكفاية لتقوى على التصدي للكنيسة ، ولطبقة النبلاء ، ولمطالب برلمان باريس المشبوهة . لكن عندما كتب من جينيف ، اصبح اميل الى الجمهورية ، وامتدح المساواة ؛ والاخلاق المدنية ؛ والحياة البسيطة . وكان روسو ديمقراطيا ، وانما وفق مفهوم خاص يتعين علينا تحديده . فهو لم يكن يعير اي اهتمام لحق الاقتراع العام او للمؤسسات التمثيلية ، بيد انه حاول في

**العقد الاجتماعي** ، ان يثبت كيف انه يستحيل في المجتمع الحر ان يتحكم اي انسان من قبل اي انسان آخر ، وكيف ان كل فرد هو في آن معا رعية ومواطن ، وان السلطة الشرعية لا بد ان تنبثق عن موافقة المحكومين ، وان السيادة تكمن في الارادة العامة ( في اجماع الامة ، وان الذين يشغلون منصبا عاما لا يؤدون مهامهم بمقتضى حقهم الخاص ، او حق موروث ، وانما بمقتضى سلطة اوكل بها اليهم ، سلطة تمنح وتسحب. وكانت مثل هذه الافكار قمينة بقلب اوضاع مؤسسات القرن الثامن عشر كافة . لذا قوبلت بالانتقاد والادانة في جينيف كما في باريس . كذلك اثار بحث روسو **مقال في اصول اللامساواة** موجة من الاستنكار والاستهجان في الاوساط المحافظة . وان الاشتراكيين المحدثين ، الذين أعجبهم في هذا الكتاب النقد الذي يوجهه روسو للملكية الخاصة ، ينزعون الى اغفال رسالته الاساسية ، ذات النزعة الاخلاقية الرفيعة ، والقائلة ان رغبة الانسان في السيطرة ( وفي التملك ) وفي خطف الانظار ، وفي التباهي والعجب بالذات ، وفي ارضاء نزواته ، جميع هذه الرغائب التي تيسرها الحياة المتحضرة ، هي المصدر الرئيسي لمصائب الانسان ومحنه . اما **الموسوعة** الشهيرة التي بادر ديدرو الى اصدارها ابتداء من عام ١٧٥١ ، فكانت عبارة عن مستودع من المعارف والآراء حول مواضيع شتى . معارف وآراء جاءت ، في معظمها ، مناهضة للمؤسسات القائمة وللمعتقدات السائدة ( وانما متصلة في غالبيتها بموضوعيات عملية : الكيفية المثلى لتشغيل مدبغة على سبيل المثال ( او لبناء جسر. وكان عنصر الجدة فيها يكمن في التصور العقلاني لاشياء هي على هذا قدر من الابتذال ، وفي الكشف عن « سر » المهن العادية، وفي تعميم افضل الطرق والمناهج المتبعة من قبل اهل الخبرة العالية بغية تحقيق المزيد من الثراء والرفاهية للبشرية.

كان الهدف عينه ــ اي زيادة الثروة وحفز الانتاج ــ يوجه

الفكـر الاقتصادي . وقـد تجلى لدى آدم سميث ، الذي صدر كتابـه **ثروة الامم** في عام ١٧٧٦ ، ولـدى الفيزيوقراطييـن الفرنسيين ، ولدى تورغـو وغيره من الاداريين الاصلاحييـن العامليـن في خدمة العديد من الانظمـة الملكية . وبما ان اشكال الرقابة الاقتصاديـة القائمة ( الروابط الحرفية ، الشركـات التجاريـة لما وراء البحار ، الشركـات الاحتكاريـة والممتـازة ، انظمة حماية المدن والمقاطعات ، الجمارك المحليـة ، الرقابـة المفروضـة على تجارة الحبوب واسعارها ، المتطلبات النوعيـة المفروضة على المعامل اليدويـة ) كانت توفـر الحمايـة لمصالـح قديمة الوجود واقل جدوى وفعاليـة ، فقـد اجمع دعاة الاصلاح على المطالبـة بتشجيع الاقتصار الحـر . والفيزيوقراطيـون الفرنسيون هم اول من استخدم مصطلح **دعه يعمل** ، الـذي لـم يعرف في الواقع رواجـا فعليـا الا بعـد مضي قرن من الزمن.

وكانت الآراء الجديدة ترمي الى حفز الانتاج باطلاق حريـة العمل والتنافس امام قوى السوق ، وباغراء المنتجيـن بطعم الربـح ، وباجتذاب اشخاص جدد الى انـواع جديدة مـن المشاريـع الاقتصادية ، وبتسهيل استئجار اليد العاملة مـن قبـل ارباب العمل ، وبتوسيع حقل التجارة بتخفيض التعرفات الجمركيـة الاقليميـة ، وبالغاء ضريبة العبور المفروضة على الانهر والطرقات، تلك الضريبة التـي كانت تحد من حركة البضائع وتزيد فـي اسعارهـا ، وتؤمّن بالتالي مصدرا للدخل للنبلاء تـارة وللمدن طورا . وكان من الضرورة بمكـان في نظـر الاصلاحيين قاطبة، سواء أكانوا في الحكم أم خارجه ، تصحيح النظـام الضريبـي وتبسيطه وزيادة مردوديته عن طريق الغاء الامتيازات وانتـاج ثروات جديدة . وكانت هذه التغيرات تعني بوجه عام احالـة العبء الضريبي الى كاهل مالك الارض . اما الحكم فقد غدا مطالبا بان يعامل رعاياه لا كنبلاء او كعامة لهم اوضاع قانونية متمايزة ، وانمـا كمكلفيـن ومالكيـن يتباينـون كميـا بحسـب اهمية

ثروتهم ، لا نوعا حسب مرتبتهم او طبقتهم .

على اننا لن نحسن صنعا اذا ما ختمنا عرضنا المقتضب هذا للانوار بتعليق على الاقتصاد . فقبل عام ١٧٨٩ ، كانت العقلية السائدة لدى جيل بأكمله تقوم على الفيرية والترقب المطاء . ولئن لم يكن النظام القديم آل حقا الى الشيخوخة، فان العديد من ممارساته بدت بالمقابل بالية بائدة . وكانت كلمتا « الحرية » و « المساواة » تترددان على كل شفة ولسان ، وكانتا قويتين بما فيه الكفاية لابتعاث سخرية المشككين . وكان هنالك اهتمام عظيم بالانسان والانسانية ، وكان التيار الانساني النزعة متأصلا وعميق الجذور . وكان التعذيب الجسدي مستفظعا من الجميع ، لا لانه وسيلة حقيرة ومخزية لانتزاع الاعترافات فحسب ، بل كذلك لانه بات يُعد اسلوبا همجيا منكرا في معاملة الكائنات البشرية . وبدا ان السعي وراء السعادة ــ « السعادة المشتركة » ــ هو هدف الحياة الدنيا . وقد أصدر المركيز دوشاستلوكس ، وهو ضابط فرنسي شارك في حرب الاستقلال الاميركية ، كتابا حمل العنوان المميز التالي : **حول الهناء العام** . وبعد الثورة الاميركية ، وبعد ان نشرت في اوروبا دساتير الولايات الجديدة ، برز اهتمام شديد بمسألة اقامة انظمة حكم على اساس دستوري . فنزعة البيروقراطيين الابوية اضحت تثير النفور ، والنزعة الاستبدادية باتت تقابل بالعداء. وتبلوت لدى ابناء الطبقة الوسطى رغبة جماعية في المشاركة في حياة المجتمع ،وفي التحلي بصفات « المواطن » . وبزغ مفهوم جديد لتاريخ العالم عبّر عنه كوندورسيه ، الذي حكم عليه بالنفي في عام ١٧٩٣ ، في بحثه **مشروع لوحة تاريخية لتقدم العقل البشري** . وكانت الكلمة السحرية الرائجة قبل عام ١٧٨٩ هي كلمة « الكمالية » ــ اي **قابلية الجنس البشري للكمال** . ولم تكن تعني ترقبا لكمال مستقبلي بقدر ما كانت تعبر عن ايمان راسخ بقوة التقدم التي لا تهزم .

## الفصل الثاني

# الثورة الفرنسية ، ١٧٨٩ ـ ١٧٩٢

يتيح لنا تماثل المؤسسات ، والافكار ، والشروط الاجتماعية بين الاقطار الاوروبية ، ان ندرك اسباب انتشار الثورة حالما تتفجر في قطر من الاقطار . لكن ما يصعب علينا بالمقابل هو تعليل اسباب انفجار الثورة في قطر دون آخر . فلماذا ثار البركان في فرنسا على وجه التحديد ؟ لماذا كان هذا الانعطاف في التاريخ الاوروبي برمته يعرف ـ ولا يزال ـ بحق باسم الثورة الفرنسية ؟

ان هذا السؤال لفي محله نظرا الى ان الثورة ، منظورا اليها في مجملها ، لم تنطلق من فرنسا . فعندما حل عام ١٧٨٩، كان قد انقضى خمسة عشر عاما على الثورة الاميركية . وفي اواخر العقد السابع من القرن عينه كان **المتطوعون** الارلنديون، **والوطنيون** الهولنديون ، المسلحون والمنظمون ، قد رفعوا راية التمرد على حكامهم . وفي جينيف ، حصلت بعد عام ١٧٦٣ ثورة صغيرة استمرت لفترة من الزمن . وفي بولونا كان **« دييت »** **الاعوام الاربعة** قد اقر اصلاحات ثورية في عام ١٧٨٨ . لكن،

باستثناء اميركا ، لم يكلل اي مشروع من هذه المشاريع الثورية بالنجاح . فالبريطانيون ظلوا مشددين قبضتهم على ارلندا ، والنمساويون على بلجيكا ، وفي جينيف والاقاليم - المتحدة وبولونيا تم القضاء على العناصر المتمردة بفضل تدخل خارجي وبقوة المحافظين المحليين . وما يميز ثورة ١٧٨٩ ، من هذه الزاوية ، هو قدرتها على دعم نفسها بنفسها . فالزعماء الباريسيون كانوا مؤيدين من قبل الجماهير الشعبية في شتى ارجاء البلاد . وكانت فرنسا ، بملايينها الخمسة والعشرين التي وحدت صفوفها وكلمتها من اجل بناء نظام جديد ، اعظم شأنا وارحب مساحة من ان ينال منها تدخل خارجي . وعندما حصل مثل هذا التدخل في عام ١٧٩٢ ، باء بالفشل في نهاية المطاف ، على الرغم من انه كان قاب قوسين او ادنى من النجاح .

ان لم يكن الشعب الفرنسي السبّاق الى القيام بثورة ، فانه لم يكن لا اكثر عنفا ولا اصعب حكما من غيره من الشعوب . فالانتفاضات الشعبية المتفرقة كانت تقع باستمرار في مختلف الاقطار . والاضطرابات التي شجّع عليها غوردون في عام ١٧٨٠ الحقت بلندن ، خلال اسبوع من الزمن ، اضرارا مادية فاقت تلك التي الحقتها الاحداث الثورية بباريس على مدى عشرة اعوام . وكان الفقر الشديد والبطالة يتسببان ، في كل مكان ، في اثارة الشغب . وكانت بعض المناطق ، بالنظر الى بدائية طرق المواصلات ، تعاني من المجاعة حتى في السنوات التي يكون فيها المحصول جيدا . وكان الحكام يفرضون رقابة على اسعار الحبوب في المدن للحؤول دون الاقتتال على الخبز . وفي المناطق الريفية ، كان العمال المياومون والحرفيون لا ينتجون ما يكفي لسد رمقهم ، وكان صغار المزارعين ، القادرون على تأمين حاجاتهم ، يعيشون في خوف دائم من المتشردين والمتسكعين والشحاذين والصيادين

المعتدين على حرمة اراضيهم ، وكذلك من الغرباء وعابري السبيل . وقد تزعزعت اركان روسيا في عام ١٧٧٤ ، وبوهيميا في عام ١٧٧٥، والمجر في عام ١٧٩٠، من جراء ثورات فلاحية واسعة النطاق ، عكست حالة التذمر الاجتماعي . صحيح ان فرنسا عانت ، في عام ١٧٨٩ ، من فاقة في الخبز ومن ارتفاع في اسعار المواد الغذائية لم تشهد لهما مثيلا منذ وفاة الملك لويس الرابع عشر . وصحيح ايضا ان الطبقة الفلاحية الفرنسية رفعت راية العصيان ، وان دهماء باريس نظموا مسيرة الى قصر فرساي تطالب الملك بالخبز . لكن ان كانت هذه الوقائع قد زادت الثورة قوة ، فانها لم تكن، في حال من الاحوال ، علتها الرئيسية ، ولا حتى سمتها المميزة .

ربما كانت الظروف السائدة في اوروبا ، والتي اتينا بوصفها في الفصل السابق ، اكثر حدة في فرنسا منها في اي قطر اوروبي آخر . ولو كانت المقارنة واردة في هذا المضمار ، لقلنا ان التفاوت بين فرنسا والاقطار الاخرى كان كميا اكثر منه نوعيا ، وان الهوة الفاصلة بين الطبقات الاجتماعية ، بين الثورة الفكرية ووسائل العمل ، بين حاجات الحكم وامتيازات رعاياه، بين اجر الشغيلة المتدني والعبء المتنامي للايجارات والضرائب والاتاوات المولوية، هذه الهوة — وان لم تنفرد بها فرنسا دون سواها — كانت اوسع واعمق في هذا البلد ، وعلى الاخص ابتداء من ثمانينات القرن الثامن عشر . ونلمس كذلك في فرنسا سيرورة مميزة ادت الى التسييس المفاجىء للشروط الاجتماعية غير الشخصية ، والى طرح اسئلة نوعية حملت اشخاصا هم من لحم ودم على اتخاذ قرارات محددة بشأنها ، وعلى المبادرة الى العمل ، وعلى طلب النجدة ، وعلى الخوض في المساجلة الدائرة . وكان افلاس الحكم العلة المباشرة للثورة الفرنسية . فقد مادت الارض تحت قدمي النظام الملكي الذي حكم

عليه بالجمـود .

كانت حرب الاستقلال الاميركيـة اسفرت عن زيادة ملحوظة في حجم الديـن القومي للمتصارعيـن الرئيسيين ، بريطانيـا وفرنسا . وقد قدر الدين الفرنسي ، بعـد انتهاء الحرب ، بأكثر من اربعة مليارات من الفرنكات ، في حيـن بلغ الديـن البريطاني زهـاء ستة مليارات من الفرنكات . وكـان الدخل السنـوي للحكومتين ، الفرنسية والبريطانية ، يعادل حجم ديونهمـا تقريبا . وكانت فائدة الديون ، في كـلا البلدين ، كفيلة وحدها بالتهام ما يقارب من نصف دخلهمـا السنوي . وقد غرقت الملكية الفرنسية في دوامة الديون .

ومن نافل القول انه لم يكن ثمة دَين « قومي » في فرنسا قبل الثورة . فمـا من هيئة تمثيلية كانت وافقت قط على مبـدأ الديـن العام . فالديـن كـان شأنـا من شؤون الملك ، ولـم تتضح أبعـاده الفعليـة الا بعـد الحرب الاميركية ، عندما تبين لمفتشين عامين ، همـا نكّير وكالون على التوالي ، انـه امسى من المستحيل زيادة القروض او مردود الضرائب في حدود كافيـة . وكان النظام الملكي فيمـا مضى يتخلص من مثل هذه الورطـة برفضه الاعتراف بديونه او بتخفيض العملة . لكـن لا وزراء لويس السادس عشر ، ولا الجمعيات التمثيلية الثورية التي تعاقبت على سدة الحكـم ( لغايـة عام ١٧٩٦ ) فكرت في مثل هذه الحلول. فالمصالح المالية كانت اصبحت اعظم شأنا مـن أن يمس بهـا . وعلاوة على ذلك ، فـان بعض كبار الشخصيات ، من رعايا الملك، أبت أن تمد يد العـون لـه بل رأت ، على العكس ، في الازمـة الماليـة ، فرصـة مناسبة للتحرك من اجـل احـداث تغيير سياسي ، وتحويل الملكية المستبدة والمطلقة الى ملكية دستوريـة . هكذا غدا الديـن القومي ، علـى حـد تعبيـر ميرابو ، كنـزا للامـة .

على الرغم من وجود ثروات طائلة فـي فرنسا ــ ثروات

الامراء والعظماء ــ فان الصعوبة كانت تكمن في استحالة زيادة مردود الضرائب ، اذ كـان الفقراء يرزحـون اساسا تحت عبء الضرائب الساحق ، في حيـن كـان الاغنياء ، بل الطبقـات الوسطى ايضا ، يفلتون ، بهـذا القدر او ذاك ، من قبضة جباة الضريبة . فقد كان النبلاء معفين ، مـن حيث المبدأ ، من بعض الضرائب . بيد انهم كانوا يسخرون نفوذهم للتملص من تسديد الضرائب التي كـان يتعيـن عليهم دفعها . وكان البورجوازيـون الاغنيـاء يستفيدون بدورهم من بعض الاحكام والتدابير الخاصة على الصعيـد الضريبي . امـا الكنيسـة ، التي كانت تملـك بين خمسة وعشرة بالمئة من مجمل الملكية العقاريـة في البلاد ، فكانت تقدم للحكم ، فـي اوقات منتظمـة ، « هبة مجانية » تقوم مقـام الضريبة . بيـد ان هذه الهبة كانت ، على الدوام ، دون الضريبة التي كان يكمن ان تفرض على اراضي الكنيسة واوقافهـا . وكانت اقاليم برمتهـا تستفيد من امتيازات خاصـة منحت لهـا منذ القرن الخامس عشر . وكانت حقـوق الرعايـا الخاصة او امتيازاتهم تقف حاجزا منيعـا بينهم وبيـن جباة الضريبة . وهكذا لم تكـن اكبر مملكـة في اوروبـا سوى اتحاد من مدن ، واقاليم ، ومناطق ، ومؤسسـات كنسية ، وطبقات اجتماعيـة ، يحاول كل منهـا ان يفرض على الحكم شروطه الخاصة . لذلك كان محتمـا ان تتحول الازمة الماليـة فيها ، على نحو آلي ، الى ازمـة فـي البنيـة السياسيـة .

كالون ، الذي اصبح مفتشا عامـا في عام عام ١٧٨٦ ، وضع برنامجـا بدا متناسبا مع الحاجات الفورية والمباشرة . وقـد تضمـن ضريبة عقاريـة تصاعديـة تتناسب وقيمـة الارض ، ويخضع لها الجميع بغض النظـر عن انتمائهم الطبقي او عـن مكان اقامتهم . كمـا لحظ ايضـا بيع بعض املاك الكنيسة والاراضي الخاصة ، وجعل الضريبة على الملح والتبغ واحدة في ارجاء المملكة كافة ، ونص على الغاء بعض الرسوم الجمركية الداخليـة التـي

كانت تقف حجر عثرة في وجه التطور الاقتصادي . وقد اقترح كالون ايضا ، في سعيه الى معالجة الامور في العمق ، اشراك المكلفين في شؤون الحكم عن طريق انشاء جمعيات تمثيلية اقليمية تناط بها مهمة تحديد الضرائب في مناطقها . وكان مفروضا في هذه الجمعيات ان تنتخب من قبل المالكين ،بصفتهم مالكين ، ودونما اعتبار لانتمائهم الى طبقة بعينها من الطبقات الثلاث .

كان محتما على مشروع كهذا لا يفرّق بين النبلاء والعامة ان يصطدم بمصاعب جمة ، اذ ان التفاوت بين الطبقات الاجتماعية كان تعزز على نحو ملحوظ منذ جيل على الاقل . فما من أسقف ، قبيل الثورة ، وما من مدير مقاطعة ، وما من وزير في الحكومة الملكية ( باستثناء نكير ، ابن جينيف الثري ) الا وكان من أصل نبيل . وكانت برلمانات المملكة تشترط في اعضائها ان يكونوا نبلاء منذ اربعة اجيال على الاقل . وقد أبدى برلمان باريس ، بمعارضته الاصلاحات الضريبية منذ عام ١٧٥١ ، وبمقاومته اصلاحات تورغو في عام ١٧٧٦ ، عن دفاع مستميت عن مجتمع تراتبي وارستقراطي . وكان النبلاء كافة ، أمدنيين كانوا ام عسكريين ، أمن سكان المدن أم الريف ، يسعون جاهدين لتوطيد مكانة طبقتهم العليا والمميزة . ومع ان الجيش الفرنسي كان يعد في صفوفه ومنذ زمن بعيد ، ضباطا من اصل شعبي ، فقد صدر قرار في عام ١٧٨١ ينص على ان رتبة الضباط لن تمنح الا لابناء الاسر النبيلة منذ أربعة اجيال . وعندما اقترح الحكم انشاء مدرسة عسكرية جديدة تشرع ابوابها امام الشباب كافة ، أمن النبلاء كانوا أم من العامة ، احتج برلمان باريس على هذا المشروع .

لم يمس الوضع قابلا للانفجار في فرنسا بسبب صعود طبقة وسطى وافول طبقة اقطاعية ، وانما بسبب تعارض اهداف مجموعتين متمايزتين قانونيا . فطبقة النبلاء ، التي استشعرت الخطر المحدق بها ، باتت تعي ذاتها اكثر فاكثر وتلح على انقاذ

مكانتها . اما الشريحة العليا من الطبقة الثالثة فكانت ترى في ذلك تحديـا لها .

كان كالون يدرك سلفا ان البرلمان سيعارض كل تجديد ، فسعى الى الفوز بالتأييد العام بطريقة اخرى . دعا الى عقد جمعية من الوجهاء تتألف ٦ اساسا ، من كبار النبلاء والاساقفة . وقـد وافق الوجهاء مبدئيا ، بعد طول شجار ، وبعد نقد شديد وجهوه للحكم بسبب اسرافـه وتبذيـره ، على المســاواة في الخضـوع للضريبة ، ولكنهم ألحو على ضرورة الابقاء على التمييز بين رجـال الدين والنبلاء والعامة ، وأعلنوا انهم غير مخولين ، في مطلق الاحوال ، حق التكلم باسم الوطن او الزامه . لذلك احالوا المسألة الى برلمان باريس الذي أعلن ، بعد سنة اخـرى مـن المداولات والنقاش ، ان كل نظام ضريبي جديد يقتضي انعقاد الهيئة التمثيلية للطبقات الثلاث على صعيد المملكة برمتها ، علما بان هذه الهيئة لم تكن قد انعقدت منذ عام ١٦١٥ .

تعلّم الشعب الفرنسي لغـة المطالبـة الثورية عـن طريق المساجلات مع السلطات القائمة ، وقد عرفت هذه المساجـلات مـع مؤلفـات الكتـاب المعارضيـن رواجـا عظيمـا . فقـد ادان كالـون الحقـوق التـي دافـع عنهـا الاعيـان ودمغهـا بأنها « امتيازات » غير مبررة . وقد ذهب لويس السادس عشر نفسه الى نعت البرلمان بأنه « ارستقراطية » تعمل ضد مصالـح « الامة » . اما البرلمان فقد لمح ، على غرار الوجهاء والاعيـان ، الى « استبدادية » الحكم . وقد أكـد باصرار على ضرورة منح فرنسا « دستورا » يحمي حقوق « المواطنين » . كما دافـع عن « حقوق الانسان » ، مستخدما هذين المصطلحين بالذات ، وادان الاعتقالات الكيفية والضرائب التعسفية ، وطالب بحكم تمثيلي .

نجح البرلمان حينذاك في الحصول على التأييد الساحـق من قبل جميع المهتمين بشؤون السياسة ، بغض النظر عن انتمائهم الطبقي . أي نجح في الحصول على تأييد النبلاء والعامة في آن معا . وهكذا حصل اجماع شـبه قومي ضـد الملكية المسـتبدة

التقليدية ولصالح نظام دستوري وتمثيلي . وفي تموز ۱۷۸۸ ، اعلن لويس السادس عشر ، الذي كان لا يزال يتخبط في ضائقة مالية لا أمل له في الخروج منها ، ان هيئة الطبقات الثلاث ستنعقد في العام التالي .

حينذاك طرح السؤال الخطير التالي : اذا انعقدت تلك الهيئة التمثيلية القومية ، فاي شكل تراها تأخذ ؟ هل تمارس طبقتا رجال الدين والنبلاء حقهما التاريخي القديم في التمثيل الخاص ، بحيث تكون لكل طبقة منهما هيئة خاصة منتخبة من قبل افرادها فقط ، على ان تكون كل من هاتين الهيئتين مساوية للهيئة المنتخبة من قبل الطبقة الثالثة التي تمثل سبعة وتسعين بالمئة من الفرنسيين ؟ فلو حصل ذلك ، ولو قام الدستور الدائم المرتقب الذي كان يطالب به الجميع على هذا الاساس ، لكان هذا معناه اعطاء طبقتي رجال الدين والنبلاء ، المنظمتين ، سلطات وصلاحيات لم يسبق ان حصلتا عليها طيلة تاريخ فرنسا . وكانت الطلبات المتعاظمة لطبقة النبلاء ستبلغ حدا أعظم بعد . وفي هذا الاتجاه عمل برلمان باريس عندما أقر ، في ايلول ۱۷۸۸ ، بان هيئة الطبقات الثلاث القادمة ستجتمع على غرار ما فعلته في عام ١٦١٤ ــ ١٦١٥ ، أي على شكل هيئات ثلاث منفصلة . وانعقدت جمعية ثانية للاعيان ، فتبنت موقفا مماثلا ، واضافت ، بحدة وانفعال ، ان طبقتي رجال الدين والنبلاء قد تلجآن ، اذا ما اصرت الطبقة الثالثة على موقفها ، الى اعلان انفصالهما ، والى التنكر لهيئة الطبقات الثلاث ، والى اصدار توصية بعدم تسديد الضرائب والى تنظيم المقاومة . وهكذا بدت نذر الثورة المضادة تلوح في الافق .

عندئذ تيقظ الوعي الطبقي وتعمّق لدى ممثلي الطبقة الثالثة ــ محامين ، موظفين حكوميين ، مستخدمين ، كتّاب ، اطباء ، تجار ، وجهاء مدن ، والعائشين من دخل املاكهم ــ واعتملت في نفوسهم مشاعر العداء الشديد للنبلاء . الاب سييس ،

الذي كان يجني دخلا وفيرا من الكنيسة ، وانما كان ابن موظف في البريد ، كتب آنذاك مقالته الشهيرة : **ما الطبقة الثالثة ؟** وقد بيّن في هذه المقالة كيف ان الامة هي صاحبة السيادة ، وان الطبقة الثالثة هي التي تجسّد الامة ، في حين لا تعدو طبقة النبلاء كونها اقلية ضيئلة ، معتدة وغير مجدية ، طبقة يمكن القضاء عليها بدون أي ضرر . وقد اقترحت الحكومة ، التي كان نيكر من جديد الوزير الرئيسي فيها ، حلا وسطا لم يسفر الا عن المماطلة في حسم المشكلة وعن تفاقمها واستفحالها . فقد تضمن اقتراحا برفع عدد نواب الطبقة الثالثة ، في ابان انعقاد الاجتماع المرتقب لهيئة الطبقات الثلاث ، بحيث يغدو معادلا لعدد نواب الطبقتين الاخريين مجتمعتين . وعندما تعقد الهيئة اجتماعها ، يتم الاتفاق حولما اذا كان النواب سيجتمعون ويصوتون في اطار ثلاثة مجالس منفصلة ( عند ذاك لن يكون لعدد الاشخاص المجتمعين في كل مجلس من المجالس الثلاثة أي اهمية ) .

جرت الانتخابات في آذار ونيسان من عام ١٧٨٩ . اجتمع النبلاء على حدة لانتخاب ممثليهم من النبلاء . وعقد رجال الدين ، بمن فيهم كهنة الخورانيات ، اجتماعاتهم الخاصة ، وانتخبوا نوابا عنهم عددا من الاساقفة ، جلهم من ذوي الاتجاه الليبرالي ، وعددا كبيرا من الخوارنة ، الوضيعي المنشأ ، ممن كانت لهم مآخذ على الكنيسة ، وآراء حول حاجات البلاد ، الامر الذي ادى الى قيام جسر من التعاطف بين ممثلي الطبقة الاولى من جهة والطبقة الثالثة من جهة اخرى .وعقدت الطبقة الثالثة اجتماعاتها في اطار ما يقارب من اربعين ألف جمعية ، تدرجت من مستوى القرية والرابطة الحرفية الى أعلى المستويات ، واختارت زهاء ستمئة نائب قومي . ونظرا الى انعدام وجود الاحزاب ، لم يكن ثمة مرشحون معروفون او معينون ، ولم يكن الافراد يدلون بأصواتهم . بل كانت كل جمعية من الجمعيات تتداول حول فضائل الاشخاص المقترحة اسماؤهم ، ثم تعمل ، وفق تقليد طبق منذ عام

١٦١٤ – ١٦١٥ ، على تحرير دفتر شكاوى ، تعرض فيه مآخذها ، وآراءها ، وتمنياتها بصدد الشؤون المحلية وبصدد سياسة البلاد برمتها ، وكان يفترض في النواب ان يحملوا معهم هذه الدفاتر الى الجمعية العامة لهيئة الطبقات الثلاث المنعقدة في فرساي .

هذه المداولات والمساجلات تمخضت عن نمو ملحوظ للوعي السياسي في البلاد بأسرها . كان يحق لكل رجل سجّل في جدول الضرائب وتجاوز الخامسة والعشرين من العمر ، أن يحضر مجالس جمعيات القرى . والواقع ، لم تشهد فرنسا لا في ابان الثورة ، ولا خلال العقود التالية لها ، كما لم تشهد اوروبا برمتها في تلك الفترة بالذات أو في العهود السابقة ، انتخابات جاءت على ذلك القدر من « الديمقراطية » والشمول كالانتخابات التي أمر بها لويس السادس عشر في عام ١٧٨٩ . لكن كيف قدر لبلد يعد خمسة وعشرين مليون نسمة ان يصبح ، على حين غرة ، على ذلك القدر من الحيوية والتسييس والاهتمام بالشؤون العامة ، ولا سيما ان الشروط السائدة في فرنسا ، من تنوع شديد في المناطق ، الى انتشار الامية ، الى تخلّف طرق المواصلات ، الى غياب كل توجيه او تحريض مسبق ، لم تكن مؤاتية اطلاقا لمثل هذا التحول ؟ هذه المسألة لا تزال لغزا في الحقيقة . وقد نجد ما يبررها في ذلك السيل الهادر من المقالات التي ذاعت في كل مكان بعد الاعلان الاول عن برنامج كالون ، او في الآلاف من الجمعيات الانتخابية التي انعقدت في ربيع ١٧٨٩ . فمن أقصى البلاد الى اقصاها كان الرجال ، على مختلف طبقاتهم الاجتماعية ، يلتقون لتبادل الآراء حول مشكلاتهم ومشكلات البلاد عامة ، ولاختيار نوابهم الى فرساي ، مزودين بشكاواهم التي سجلت كتابيا . وقد أحدثت اوالية الانتخابات بالذات يقظة وحركة استقطاب في صفوف الطبقات الشعبية الحقيقية ، كما افسحت في المجال ، بفضل تصفية المنتخبين من جمعية الى اخرى ، امام بروز من هم اكثر ثقافة وتصميما وقدرة، وجعلت منهم نواب الامة المكلفين بالمشاركة في أعمال هيئة الطبقات

الثلاث في فرساي . فلو انتخب فلاحون وحانوتيون وعمـال ، لكانت الطبقة الثالثة التزمت بموقف اكثر وداعة وخنوعا في اجتماع ايار . غير ان نوابها الستمئة والثمانية والاربعين تألفوا على النحو التالي : ٢٧٨ موظفا حكوميـا ، ١٦٦ محاميا ، ٨٥ تاجـرا ، ٦٧ مالكا يعيشون من ريع املاكهم ، و٣١ نائبا يعملون في مهن شتى ، بينهم عدد كبير من الاطباء . ولم يكن هؤلاء الاشخاص يمثلون ، في تلك الحقبة من الزمن ، نمطا من المواطنين الميالين الى الرضوخ للطبقة الثانية الممثلـة بثلاثمئة نبيـل ، جلهم ـ باسـتثناء بعض الليبراليين البارزين امثال لافاييت ـ من الريفيين غير المطلعين كافي الاطلاع على التطورات الحديثة .

كانت الاسابيع الاولى من اعمال هيئة الطبقات الثلاث ، التي استهلت اجتماعاتها في الرابع من ايار ، مخيبة للآمال . فقد قضى بروتوكول بائد بأن يرتدي رجال الدين والنبلاء ، في اليوم الاول ، ملابس احتفالية بينما اكتفى ممثلو الطبقة الثالثة بارتداء بـزة البورجوازي السوداء . ولنا ان نتصور طبيعة المشاعر التي اعترت اولئك الذين دعوا الى تأمين بزة بلاط لهذه المناسبة. بعد ذلك طالبت طبقة النبلاء بان تنعقد الاجتماعات في ثلاث قاعات منفصلة ، وان تقترع كل طبقة على حـدة . فبادرت الطبقة الثالثـة الى تبني مواقف جريئة ، ورفضت هذين المطلبين، وألحت على ان تجتمع الطبقات الثلاث وان تتداول معا وكأنها تؤلف مجلسا واحدا ، وان يجري التصويت على اساس فردي . وكان المطلب الاخير قمينا بان يضمن للطبقة الثالثة غالبية ساحقة ، اذ ان عـدد ممثليها كـان يساوي ضعف عـدد ممثلي طبقـة النبلاء ، ناهيـك عـن النواب المتعاطفين مع قضيتها في صفوف رجال الدين . وقد قابل النبلاء بدورهم هذا المطلب بالرفض . ذلك انه كان يعرّض للخطر وضعهم القانوني المميز وسلطاتهم المنفصلة . عند هذا الحد فـرغ صبر الطبقة الثالثة ، فأعلنت نفسها « جمعية وطنية » في ١٧ حزيران، ودعت رجال الدين والنبلاء الى الانضمام اليها . واعلان السيادة

هذا كان بمثابة تدشين للتحدي الكبير، وبه بـدأ تاريـخ الثورة الفرنسية. فقد أمر الملك باغلاق القاعة المخصصة للطبقة الثالثة، فالتجأ ممثلوها الى قاعة **لعبة الراحة** Jeu de Paume حيث اقسموا قسمهم الشهير ، واعلنوا « ان الجمعية الوطنية تكون قائمة حيث يلتقي ممثلو الطبقة الثالثة » ، وقطعوا عهدا على انفسهم بألا يتفرقوا « قبل ان يقر دستور المملكة على أسس متينة » .

عند ذاك تقـدم لـويس السادس عشر بحـل وسـط . كان قد أبدى ، حتى ذلـك التاريـــخ ، عـن ضعف شديد . ففي بادىء الامر أيد كالون ، لكنه تخاذل بعد عـام ١٧٨٧ امـام معارضة النبلاء والاساقفة ، وتراجع عن مواقفه . وبعيد افتتاح الجمعية العامة لهيئة الطبقات الثلاث ، توفي ابنه الاصغر . ولم يعد بعد هذه الفاجعـة يبدي اهتمامـا بالمـداولات السياسيـة ، ولاسيما انه كان يتعذر عليه أن يقف طرفا الى جانب طبقة النبلاء او الطبقة الثالثة ، بدون ان يجعل من احداهما عدوا لدودا لا سبيل الى قهره الا بالقوة .

جمع الملك ممثلي الطبقات الثلاث في ٢٣ حزيران . وقـد وعد ، خلال جلسة الافتتاح الملكية ، بان يحكم من الآن فصاعدا من خلال الجمعية العامة لهيئة الطبقات الثلاث ، التي ستدعى الـى الانعقـاد في اوقات منتظمة ، وستخول حق الموافقـة علـى فرض الضرائب . كما اقترح بعض الاصلاحات التفصيلية وضمن بعض الحقوق المدنية الفردية . وبالاختصار ، عرض الملك ان يصبح عاهلا دستوريا . لكـن على اساس أي دستور ؟ فقـد رفض الاعتراف بالجمعية الوطنية الجديدة وألح على ضرورة الابقاء على « التمييز القديم بين الطبقات الثلاث ، لان هذا التمييز هو جوهر بنيـان المملكة». وسوف يكون لفرنسا نوع من الحكم التمثيلي والدستوري، يكون فيه لكل من الطبقة النبيلة والكنيسة المنظمتين دور خاص مساو لدور الآخرين . هكذا أمسى وريث عرش فرنسا الذي أدى عبر القرون ، وعلى طريقته ، دور حامي سواد الشعب من الطبقات صاحبة الامتيازات ، أمسى مضطرا الى الانحياز . وقـد انحاز

الى جانب اصحاب الامتيازات . وقد بادر الملك ايضا الى تجميع قواته حول باريس وفرساي ، بهدف تشتيت شمل الجمعية المتمردة ، وربما بأمل تشكيل جمعية اخرى ، يتم اختيار اعضائها على نحو افضل ، اذ ان مشكلته المالية كانت لا تزال مستعصية على كل حل .

ان العرض الذي تقدم به الملك في الثالث والعشرين من حزيران جدير بان يظل ماثلا في اذهاننا . فقد كان لهذا العرض جانبه الليبرالي . ولو قدّر لفرنسا ان تحكم عن طريق جمعية الطبقات الثلاث لاصبحت ، مع الايام ، على شاكلة انكلترا التي يحكمها مجلس لوردات ومجلس عموم . وكان مشروع الملك يشكل في الحقيقة جزءا لا يتجزأ من فلسفة الثورة المضادة التي انتشرت بعد عام ١٧٨٩ ، وقد كان لفكرة شراكة من الهيئات النظامية جاذبيتها الدائمة بالنسبة الى الاوساط المحافظة . بيد ان الطبقة الثالثة ، او بالاحرى نوابها الستمئة والثمانية والاربعين المجتمعين في قصر فرساي ؟ ما كانوا يرون الى الامور من هذا المنظار . ولا يسعنا التكهن بما كانوا سيطالبون به ؟ او بما كانوا سيفعلونه ، لو لم يتدخل العنف الشعبي والثورة الحقيقية . لقد عارضوا الاقتراح الملكي لان التجربة علمتهم ان يحذروا من النبلاء ومن كبار رجال الدين الذين خصهم المشروع الملكي بسلطات جديدة. فالشعور الذي كان يعتمل في صدور الفرنسيين من العامة حيال النبلاء كان شعورا بالتمييز ، بالاستبعاد ، بالاذلال ، بالسخط — بل بالكراهية كما اتضح في عام ١٧٨٩ — ولم يكن شعور كهذا يراود « العامة في انكلترا حيال « اللوردات » . وان كانت كلمة « مساواة » قد ارتدت تلك الاهمية التي ارتدتها في مستهل الثورة، فلانها كانت تعني ، قبل اي شيء آخر ، زوال التفرقة والتمييز بين النبلاء وغير النبلاء .

★ ★ ★

ارتفع صوت الشعب مدويا في تلك المرحلة بالذات . فحركة الاحياء القومي ، التي لم تكن حتى ذلك الحين قد تخطت حدود الكلام والمناورات القانونية ، والتي كان الملك تغاضى عنها حتى تاريخ السابع عشر من نيسان ، تحولت الى تمرد جماهيري حقيقي . فالشروط الاقتصادية السائدة لم تكن تسمح بمزيد من الصبر على الضائقة الخانقة ، كما انها لم تكن مؤاتية للمحافظة على النظام . فمنذ عام ١٧٧٠ ، لم تكف العلاقة بين الاسعار الزراعية والايجارات عن التفاقم بالنسبة الى الفلاحين . ومنذ عام ١٧٤٠ ، لم تزدد اجور شغيلة المدن والارياف الا بنسبة ٢٢ بالمئة تقريبا في حين سجلت الاسعار ارتفاعا بنسبة ٦٥ بالمئة . وكان الوضع عشية الثورة مأساويا فعلا . فالمحاصيل الزراعية لعام ١٧٨٨ كانت رديئة في اوروبا الغربية قاطبة . فسجلت اسعار الحبوب ، من جراء ذلك ، ارتفاعا مطردا . وفي تموز ١٧٨٩ بلغت الفاقة حدا أمسى معه العامل ، صاحب الاسرة المتوسطة ، مضطرا الى انفاق نصف اجره لشراء الخبز ــ هذا اذا ما توفر له اساسا . ونستشف هنا مظهرا من مظاهر سخرية التاريخ . ففي عهد لويس الخامس عشر ، الملك الضحل على أكثر من صعيد ، قيّض لجماهير الشعب الفرنسي ان تعيش في شروط اقتصادية معقولة نسبيا . اما في عهد لويس السادس عشر ، الذي كان افضل من سلفه بما لا يقاس ، فقد كتب على الشعب أن يعاني من أقسى ضروب الحرمان .

بيد ان البؤس وحده لا يفسر قيام الثورة . وانما في عام ١٧٨٩ تسيست الضائقة الاقتصادية ، أسوة ببقية الامور ، وغدت تهدد بالانفجار . والمعانون من تدهور الشروط الاقتصادي عزوا هذا التدهور الى اسباب سياسية . وقد بادروا في ربيع ١٧٨٩ كما رأينا ، وبأمر من الملك ، الى عرض متاعبهم كتابة ، وارسلوا نوابهم الى فرساي ليعملوا على حل المشكلات العامة . وقد ايقظت هيئة الطبقات الثلاث حماسة الجميع وابتعثت فيهم أعظم

الآمال . ولكن ها هو هذا المؤتمر القومي الكبير يتعثر في اغلال الجمود التي قيده بها النبلاء المجتمعون على حدة ، أي الاغنياء في نظر سواد سكان باريس والمدن الاخرى ، والسادة في نظر الفلاحين . فكيف لا يتحمل النبلاء واعوانهم مسؤولية فاقة المواد الغذائية ؟ كيف لا توجه اليهم تهمة العمل على تجويع الشعب لحمله على الرضوخ والاستسلام ؟ وكيف لا ينقلب الحقد على الارستقراطيين وعلى مستشاري النحس المحيطين بالملك الصالح ؟

لما شاع نبأ تجمع القوات حول العاصمة ، هاجت باريس وماجت . وفي الواقع ، لم تكن القوات العسكرية تبلغت أوامر واضحة . ما من احد كان يعرف سلفا كيف سيتصرف ، ولم يكن لويس السادس عشر ، في مطلق الاحوال ، ذلك الرجل القادر على اصدار أوامر باطلاق النار على رعاياه . ومنذ الثاني عشر من تموز وقعت مصادمات بين مفارز من الجند وبعض التجمعات من المدنيين . وبقيادة زعماء افرزتهم الاحداث على حين غرة ، توجهت زرافات من المدنيين الى الترسانة والى الانفاليد (١) للاستيلاء على اسلحة، تحسبا للاذى الذي قد ينزل بهم على يدي الجيش. وراجت شائعة مفادها ان هنالك كمية ضخمة من الاسلحة في سجن الباستيل . والحق أن هذه القلعة القديمة ، المحملة بالذكريات التاريخية ، كانت تقوم لباريس مقام **البرج** للندن ، لا اكثر . ولم تكن تحتوي آنذاك الا على سبعة سجناء ، اوقفوا جميعا لاسباب مشروعة ، ان لم يكن بمقتضى اجراءات قانونية تماما . ومهما يكن من أمر ، فان الحشود التي حاصرت الباستيل في الرابع عشر من تموز ما كانت مهتمة بمصير السجناء . بل كانت تحتج على القوى الشريرة الغامضة التي تهدد الشعب ، وكانت تبحث على اسلحة للدفاع عن نفسها . أفلم يكن المفكرون المتقدمون يرددون ، شيمتهم

(١) بناء ضخم شيد في باريس في عهد لويس الرابع عشر لايواء الجنود والضباط المعاقين . « م »

في ذلك شيمة واضعي دستور الولايات المتحدة الجديد ، ان المواطنية المسلحة هي خير ضمانة ضد تسلط العسكر ؟ ولم يكن يسهر على حراسة الباستيل سوى عشرين حارسا سويسريا (٢) وثمانين جنديا متقاعدا امتنعوا ، في بادىء الامر ، عن اطلاق النار على المهاجمين . لكن عندما احتل هؤلاء الاخيرون باحة السجن الداخلية ، فتحوا نيران اسلحتهم ، وقتلوا ما يقارب من مئة شخص . وكان بعض جنود الحرس الفرنسي قد انضموا الى الجماهير المهاجمة ، حاملين معهم خمسة مدافع . وما ان علم حرّاس الباستيل بوجود هذه المدافع حتى سارعوا الى الاستسلام. لكن ما ان شاهدت الجماهير ضحاياها ، من قتلى وجرحى ، حتى انقضت على الحرّاس وقتلت ستة منهم . وضربت الفوضى اطنابها وانداحت موجتها خلال الايام التالية ، ووقعت تعديات على عدد من الرسميين الذين كانوا ، في نظر الدهماء ، متواطئين مع الارستقراطيين ومسؤولين عن فاقة الخبز . فقتل بعضهم ، وقطعت رؤوسهم ، وطاف بها الناس في الطرقات مشكوكة على رؤوس الرماح .

سجل الاستيلاء على الباستيل انعطافا حاسما في مسيرة الثورة ، وصار بمثابة رمز اليها . وبدا واضحا جليا ان الملك وحكومته قد آلا الى حالة من العجز التام . فقد امتنعا عن الاستنجاد بالقوات المسلحة لقمع هذا التمرد . والواقع انه لو صدرت أوامر الى هذه القوات بقمع التمرد ، لكانت تفككت صفوفها في أرجح التقدير . وفيما كانت السلطة القديمة تتزعزع وتنهار ، كان الباريسيون يسعون جاهدين الى اعادة النظام الى مدينتهم . فقد اعلنت الجمعية الوطنية نفسها حكومة بلدية ، وعينت الفلكي

(٢) جرت العادة في فرنسا ، منذ عهد الملك شارل الثامن ، على ان ينتقي افراد الحرس الملكي من بين عناصر سويسرية . ولا يزال حراس البابا حتى ايامنا هذه من السويسريين . « م » .

بايي رئيسا لبلدية باريس ، ونظمت الحرس الوطني،وعهدت بقيادته الى المركيز دو لافاييت . وقد اختار هذا الاخير للحرس الوطني علما ثلاثي الالوان ، امتزج فيه لونا مدينة باريس ، الاحمر والازرق، بلون الاسرة المالكة الابيض . وكان أمل لافاييت ان يجعل من هذا العلم رمزا لانصهار النظامين ، القديم والجديد ، معا .

غداة سقوط سجن الباستيل بين ايدي الثوار ، مثل لويس السادس عشر امام الجمعية الوطنية في فرساي ، وتراجع ضمنا عن الاوامر التي اصدرها في ٢٣ حزيران ، وأكد على حسن نياته . وفي السابع عشر من تموز قصد باريس للقاء السلطات البلدية . وقد خيمت على اللقاء اجواء من الضيق والارتياب ، بيد ان الملك وافق اخيرا على العلم الثلاثي الالوان . وازاء موجة الفرح العام التي رافقت هذه الخطوة ، تأمل بعضهم ان تكون الثورة قد بلغت نهاية مطافها .

لكنها في الواقع كانت لا تزال في بدايتها . فمع ذيوع اخبار الاحداث التي وقعت في باريس ، بادرت المدن الفرنسية قاطبة الى اعلان ثورتها البلدية ، بالطرق السلمية تارة وبالعنف طورا ، وحلت لجان المواطنين محل السلطات القديمة . وأعلنت هذه اللجان عن تضامنها مع العاصمة ومع الجمعية الوطنية الجديدة ، ونظمت حرسها الوطني الخاص ، وسعت ، بهذا القدر او ذاك من التعاطف ، الى ايجاد حلّ لمشكلة غلاء سعر الخبز وفقدانه ، وهي المشكلة التي كان يعاني منها بوجه خاص فقراء المدن . وقد تخلى ممثلو النظام القديم عن وظائفهم وهجروا مراكز عملهم لان الاحداث تجاوزتهم من جهة ، ولانهم ما عادوا ، من جهة اخرى ، يتلقون توجيهات وتعليمات . وقد نجمت عن ذلك ، وعلى حد تعبير تين (٣) « فوضى عفوية » ، فوضى كان الجميع يترقب ، من خلالها ،

---

(٣) هيبوليت تين ( ١٨٢٩ - ١٨٩٣ ) : فيلسوف ومؤرخ وناقد فرنسي ، من اهم اعماله : **اصول فرنسا المعاصرة** . « م » .

دستورا جديدا وحكومة قادرة على العمل .

سكان الريف بدورهم شقوا عصا الطاعة . فالحياة في الريف كانت اصبحت أصعب واشق بكثير مما كانت عليه قبل عشرين عاما بالنسبة الى العمال الزراعيين ، وصغار المزارعين ، والمواكرين ، والحياكين ، والحدادين ، وعمال المناجم ، وسائقي المجلات ، الخ . فقد انخفضت أسعار المواد الزراعية فيما زادت وطأة الضرائب . وقد انقاد اصحاب القصور ، في ذلك المجتمع الذي كان قد جعل من حياة البذخ والترف الهدف الاسمى للطبقات العليا ، الى مضاعفة الاتاوات المولوية لسد حاجاتهم وتغطية نفقاتهم . وقد ساد التذمر والاستياء صفوف الميسورين من الفلاحين ، والاملاق والبؤس صفوف الفقراء من بينهم . وعقد الفلاحون بدورهم اللقاءات والاجتماعات ، وتداولوا فيما بينهم ، ووضعوا لوائح بشكاواهم ، واوفدوا نوابهم الى فرساي في آذار ١٧٨٩ . وقد تجلى عداء شديد نحو السادة في اثناء الاجتماعات القروية . وراح الفلاحون ، شأنهم في ذلك شأن الفرنسيين قاطبة، يترقبون اخبار الهيئة التمثيلية للطبقات الثلاث . وما كانوا معزولين على الاطلاق . فكثيرا ما كان الفلاح يتردد الى المدينة ليعود منها بالاخبار والشائعات . وكان ، على غرار « البورجوازيين » والشرائح العليا من الطبقة الثالثة ، يرى في طبقة النبلاء الخصم والعدو . وهذا التلاقي في المصالح ( تلاق لم يحصل مثله في الانتفاضات الفلاحية في اوروبا الشرقية التي كادت ان تواكب الثورة الفرنسية ، وكان مرده في فرنسا الى العناصر الاساسية للبنية الاجتماعية والى الوضع السياسي الطارىء الذي نجم عن تجميد اعمال جمعية الطبقات الثلاث ) هو الذي أفسح في المجال امام قيام الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ .

بدأ التمرد الفلاحي في ايار وفي شمال فرنسا . وقد اتسع نطاقه بالتدريج مع تفاقم الازمة الغذائية وتضاعف عدد الفقراء والمشردين الهائمين على وجوههم على الطرقات وانتشار خبر

سقوط الباستيل واقدام المدن على الاطاحة بالسلطات القديمة . وفي أواخر تموز اقترنت حركات التمرد الفلاحية بما يسمى ب « الرعب الكبير » ، فعمّ الذعر مناطق شاسعة من البلاد ، محمولا على اجنحة الشائعات والاخبار الملفقة حول قدوم قطاع الطرق واللصوص ، وحول الجرائم المروعة التي تقترف هنا وهناك والمؤامرات التي تحوكها الارستقراطية لتفرض قبضتها من جديد على البلاد . وبادر الفلاحون ، الذين طار الخوف بأفئدتهم ، الى التسلح والى تنظيم انفسهم جماعات جماعات . لكن ينبغي ان نميز بين التمرد والذعر ، ولاسيما ان الاول سبق الثاني . وقد اقدم الفلاحون على احتلال القصور ، وطالبوا بالغاء الاتاوات المولوية ، واحرقوا الحجج والصكوك المكتوبة لهذه الاتاوات ، ودمروا سجلات الاقطاعيين ومحفوظاتهم . وقد اضرمت النار في العديد من القصور الريفية ولاذ اصحابها بالفرار . غير ان الدماء لم تهرق - والحق يقال - بغزارة ، بالقياس الى اتساع رقعة الاضطرابات . على ان النظام الاجتماعي والاقتصادي لفرنسا الريفية كان في اوج تفككه وانحلاله .

ان الجمعية الوطنية ، التي حظيت باعتراف رسمي من قبل الملك ، جعلت هدفها الاساسي وضع دستور مكتوب . ولا شك في ان الاهتمام الشديد الذي كانت الثورة الاميركية ابتعثته في فرنسا ، حمل واضعي ذلك الدستور على الالحاح على الاولويات القانونية . وقد اطلقت الجمعية الوطنية مذاك على نفسها اسم الجمعية التاسيسية . بيد ان الشروط السائدة في البلاد لم تكن مؤاتية على الاطلاق لصياغة دستور . فقد عمت الفوضى ، وافلت الفلاحون من عقالهم ، واضحت المدن بين ايدي جماعات من المواطنين العديمي الخبرة والتجربة . وبدأت الهجرة الى الخارج . الكونت دارتوا ، شقيق الملك ( اصبح في عام ١٨٢٤ ملكا على فرنسا وعرف باسم شارل العاشر ) رحل بصحبة عدد من الامراء والعظماء سعيا وراء دعم خارجي . وفي الجمعية التاسيسية ؟

التي اصبحت تعقد جلساتها باعتبارها مجلسا واحدا ، كان النبلاء ورجال الدين الذين مثلوا طبقتيهما في جمعية الطبقات الثلاث لا يزالون يحضرون الجلسات . لكن ، مع الايام ، تخلّف معظمهم عن الحضور . والواقع أنه بقدر ما كان وجودهم يزيد في صعوبة التفاهم والاتفاق ، ساعد غيابهم بالقدر نفسه على تقوية الثورة المضادة . وفيما كانت الجمعية التأسيسية مأخوذة في دوامة المداولات والمساجلات ، كان جهاز الحكم يتداعى ويتلاشى . لكن لويس السادس عشر بقي ، مع ذلك ، رئيسا للدولة . غير أنه لم يعد في مستطاعه لا ان يحكم ولا ان يسوس البلاد . كانت الجماهير لا تزال تستقبله بالهتاف ، بيد ان الموقف الذي ينم عن خياراته الصميمة هو ذاك الذي اعلن عنه في الثالث والعشرين من حزيران لا في السابع عشر من تموز . ذلك انه ما كان يؤيد في الواقع الجمعية التأسيسية . غير ان هذه الجمعية ما كانت لا قادرة ، ولا راغبة أصلا في أن تنيط بشخص آخر مسؤوليات رئاسة السلطة التنفيذية . وهنا على وجه التحديد يبرز التباين بين هذه الجمعية وبين مؤتمر فيلادلفيا الدستوري لعام ١٧٨٧ .

كانت تهدئة البلاد عن طريق القوة امرا مستحيلا . لكن حتى لو سلّمنا جزافا بقدرة الجيش على فرض الامن ، فان الاستنجاد به ضد الفلاحين وسكان المدن المتمردين ما كان من شأنه الا أن يعزز مكانة الملك ويقوض دعائم الجمعية التأسيسية . وفي مطلق الاحوال ، كان الجيش عنصرا غير مضمون . فبعض الضباط كان ينتمي الى العامة ، كما ان الجزء الاكبر من الضباط المنتمين الى طبقة صغار النبلاء كان يكن العداء والكراهية لنبلاء البلاط الذين كانوا يحتكرون أرقى المناصب وأعظمها وجاهة . اما العساكر المجندون فكانوا أبناء المتمردين واخواتهم . ففيما كانت فرنسا تسير قدما على طريق التحول الى امة كان جيشها ، بالمقارنة مع الجيشين البروسي والنمساوي المعتمدين بصورة اساسية على تجنيد العناصر الغريبة ، جيشا من المواطنين في

المقام الاول . صحيح انه كان يضم بعض الفيالق الاجنبية ، كالفيلق السويسري والفيلق الملكي الالماني ، لكن لو اصدرت اليها الاوامر بالهجوم على الفرنسيين لكانت هذه الخطوة هي الحماقة بعينها .

كان لا مفر اذن من تقديم بعض التنازلات ومن بناء رمزية جديدة . وكيما تحافظ الجمعية التأسيسية على هالة وقارها وعلى قدرتها على المبادرة ، كان عليها ، في ظل وضع شارف على الغرق في الفوضى وفي بلد انتفض عفويا من الاسفل ، ان تقوم بعمل درامي ما ، عمل خارق وقادر على تعبئة الجماهير . عندما اجتمع النواب للمرة الاولى في فرساي قبل ثلاثة أشهر ، كانوا غرباء واحدهم عن الآخر . لكن بعد انقضاء هذه الفترة قامت اتصالات وتوطدت بينهم علاقات مشتركة . وقد انبثقت ، من بين صفوف مجموعة من النواب تماثلت آراؤهم ، نواة حزب وطني أطلق على نفسه اسم النادي البروتوني . ولئن كان معظم نواب الطبقة الثالثة لا يزالون يشعرون بشيء من الخجل والارتباك في الحياة العامة ، فان معظم قادة الفريق المصمم على العمل كانوا حينذاك من النبلاء — نبلاء « تنكروا لطبقتهم » من امثال ميرابو ، او نبلاء ليبراليين من امثال لافاييت ، ونواي وكوندورسيه ولاروشفوكو — ليانكور ، او اساقفة نبلاء من امثال شامبيون دوسيسه ، أسقف مدينة بوردو ، وبواجولان ، أسقف مدينة اكس — ان — بروفانس . وبتحريض منهم قررت الجمعية الوطنية ، صبيحة يوم الرابع من آب ، ان تتوجه الى الشعب بنشرها **اعلان حقوق** . وعشية ذلك اليوم بالذات ، وبفضل نوع من المناورة البرلمانية تمكنت من الاقدام على عمل خارق بكل معنى الكلمة .

ان ليلة الرابع من آب ، التي بات يضرب بها المثل ، هي رمز التخلي الطوعي عن الامتيازات . فقد كان الفلاحون رفضوا في الواقع تسديد الضرائب الاقطاعية . فصادقت الجمعية على ما استحال عليها منعه . وهكذا وقف نوابها من نبلاء ليبراليين ليعلنوا عن

تخليهم عن جميع امتيازاتهم الضريبية . وقد ألغيت كذلك العشور التي كانت تتقاضاها الكنيسة . والحق أن النظام الاقطاعي برمته ، هو الذي تمت الاطاحة به ، فألغيت القنانة الفلاحية ، والعدالة المولوية ، وحقوق الصيد ، وامتيازات الاقاليم ، كما اعلن عن حق المواطنين قاطبة في شغل الوظائف العامة ، بغض النظر عن انتمائهم الطبقي .

في السادس والعشرين من آب نشرت الجمعية التأسيسية **اعلان حقوق الانسان والمواطن** . وباستثناء بعض المفكرين من امثال ادموند بورك (٤) ، كان الجميع يقرون بأن لـ « الانسان » حقوقا . وقد اعترف بذلك برلمان باريس بالذات . لكن بقي تحديد هوية هذه الحقوق . وتجدر الاشارة الى ان **الاعلان** خص«المواطن» و « الانسان » بهذه الحقوق . وقد جاء ، في جوهره ، تلخيصا لفلسفة الانوار ، وتأكيدا على موقف اخلاقي ، ودليلا اخلاقيا لمجتمع مدني منظم ، وليس لكائنات بشرية تعيش على سليقتها . وكان هذا الاعلان يرمي الى اكتساب تأييد الشعب ، والى توطيد الثقة بالجمعية التأسيسية خلال المناقشات الطويلة والشائكة حول الدستور ، والى انتباذ اللامساواة التي كان النظام القديم قد اقرها شرعا ، وتبرير العصيان والتمرد الحاصلين . وكان هذا الاعلان ، الذي اقتصر على سبعة عشر بندا ولم يتجاوز الثلاثمئة كلمة ، قابلا لان يطبع على ورقة واحدة . وقد علّق في سائر انحاء فرنسا ، وترجم الى جميع اللغات الاوروبية ، وصار حديث الناس في الندوات والمقاهي ، وأمسى الرمز الاساسي للنظام الجديد . وفي الواقع ، يشكل هذا الاعلان ، اهم وثيقة صدرت عن ثورة القرن الثامن عشر .

---

(٤) ادموند بورك : كاتب وخطيب بريطاني ( ١٧٢٩ - ١٧٩٧ ) ، مؤلف **تأملات في الثورة الفرنسية** ، وهو كتاب عرف في حينه رواجا كبيرا ، وقد تجسدت فيه كل نظريات الثورة المضادة . « م » .

« ان البشر يخلقون ويبقون احرارا ومتساوين في الحقوق. ولا يمكن للفوارق الاجتماعية ان تقوم الا على اساس المصلحة المشتركة » . هذا ما جاء في البند الاول من الاعلان . اما الحقوق الاساسية فقد عددتها الوثيقة على النحو الآتي : « الحرية ، الملكية ، الامن ، ومقاومة الاضطهاد » . وكانت الحرية تتلخص في القدرة على القيام بما لا يضر الآخرين ، وبما يحدده القانون . وبما ان القانون يعبّر عن الارادة العامة، فمفروض فيه ان يكون واحدا بالنسبة الى الجميع ، كما يحق لجميع المواطنين ان يشاركوا « اما بانفسهم واما عن طريق ممثليهم » في صنعه . ولا يجوز اعتقال اي شخص او سجنه الا في الحالات التي يحددها القانون . ويعتبر كل شخص بريئا الى ان يثبت جرمه ، وكل قسوة في معاملته لا تقتضيها ضرورات ضمان احتجازه تقع تحت طائلة العقوبات القانونية. ولا يجوز التعرض لاي شخص بالسوء بسبب آرائه ، « حتى الدينية، منها » ، ما دام الافصاح عنها لا يخل بالنظام العام الذي وطده القانون . وبما ان الملكية حق لا يجوز المساس به ، فليس يجوز تجريد اي كان منها ، الا عندما تقتضي المصلحة العامة ذلك وبشرط تعويض صاحب الحق ، وعلى ان يكون التعويض منصفا ومسبقا . ويحق للمجتمع ان يحاسب كل مسؤول عام على حسن ادارته او سوئها . وجدارة المواطن ومواهبه هي وحدها التي تبرر ارتقاءه الى الوظائف والمناصب العامة .اخيرا، ( حسب ما ورد في البند الثالث ) ، فان « مبدأ كل سيادة يكمن اساسا في الامة . ولا يحق لاي هيئة ، ولاي فرد ( حتى ولو كان الملك ) ان يمارس السلطة ما لم تكن منبثقة صراحة عنها » .

كانت فكرة هذه الحقوق وليدة الثورة الفكرية والاشمئزاز من المؤسسات التعسفية ، السرية والوحشية احيانا ، التي كانت تسوس الفرنسيين في عام ١٧٨٩ .

اما فكرة تقنين هذه الحقوق وتدوينها في عدد صغير من البنود المقتضبة ، وربطها بدستور مكتوب ، وبأصل الحكم وصلاحياته وحدوده ، فقد كانت مستوحاة دون ادنى ريب من المثال الاميركي ، وعلى الاخص من نموذج فيرجينيا الذي طالما استشهد به المستشهدون في المساجلات الفرنسية . وكانت اعلانات الحقوق الاميركية اكثر عيانية وتجريبية ، وحافلة بأصداء الماضي الانكليزي ، ولهذا السبب كيل لها المديح بسخاء. بيد ان الاعلان الفرنسي يتفوق عليها بارسائه القواعد الاخلاقية لنوع جديد من المجتمع والدولة . وهذا الاعلان ، المركز والواضح، الموجه الى المواطن والانسان على حد سواء، والمعترف بضرورة الحكم والقانون وبوسائل الاحتماء منهما في آن معا،والمرتبط ارتباطا وثيقا بالمسائل العلمية مع اتسامه بالتجريد والشمولية في صياغته، هذا الاعلان كان قابلا لان يحمل على موجة من الحماسة الثورية ولان يمارس جذبا قويا على الاقطار الاخرى . وقد طرأت عليه تعديلات ، في فرنسا بالذات ، لجهة تطويره . ففي عام ١٧٩٣، على سبيل المثال ، عرّفت المساواة بمزيد من الوضوح كحق قائم بذاته ، وكذلك الحق في التعليم وفي الحصول على سبل العيش .

انكبت الجمعية بعد ذلك على وضع الخطوط العريضة للدستور الجديد . واول مشكلة واجهتها كانت متعلقة بتحديد دور الملك . فهل يعتبر الملك ، بمقتضى حقه التاريخي او السلالي ، شخصية مستقلة يتعين على الجمعية ان تتفاوض معها مفاوضة الند للند ، بحيث يكون الدستور نوعا من العقد المبرم بينهما ؟ ام ان الجمعية ، باعتبارها هيئة تشريعية تمارس السيادة القومية ، مدعوة الى خلق الوظيفة الملكية والى تحديدها ودعوة لويس السادس عشر فيما بعد الى شغلها ؟ ألزام على الجمعية الا تدون في الدستور الا ما يأمر به الملك ، ام على الملك ان يوافق على كل ما تقرر الجمعية

تدوينه فيه ؟ باختصار ، هل الملك هو السائد ، ام انــه رئيس السلطة التنفيذية فحسب ؟ وهل السلطة الملكية سلطة ذاتية ام انها سلطة موكلة ؟ كانت المسألة على قدر كبير من الخطورة والاهمية على الصعيد النظري،وقد ازدادت تعقيدا من جراء تأبي لويس السادس عشر عن القبول باعلان حقوق الانسان والمواطن وبالمراسيم التي اعقبت ليلة الرابع من آب . وقــد أيد المتضررون من الاحداث مبــدأ سلطــة ملكيــة مستقلــة .

كان هنالك شبه اتفاق على خص الوظيفــة الملكية ، بعــد تاسيسها ، بنوع من حق « الفيتو » . وكــان بعضهم يؤيــد مبدأ « الفيتو » المطلق ، في حيــن كان بعضهم الاخر يؤثر ان يكون هذا « الفيتو » قابلا للنقض من قبل الجمعيــة . وثمة مسألة اخـرى وضعت على بساط البحث : هل تحافظ الجمعية على طابعهــا الاحادي ، ام تنقسم الى مجلسين ، كمــا في الولايات المتحــدة وفي انكلترا ؟ كــان الحزب الوطني ــ هكذا أصرت الطليعة الثورية على تسميــة نفسهــا ــ يؤيــد بقوة فكرة المجلس الواحد . اذ ان كل حل آخــر ،على حــد ادعاء سييس ،كان قمينــا بانتهاك مبدأ الانتخاب الفردي ، وباعادة نظام الطبقات ، وبمحاباة النبلاء ومصالحهــم . وعندما طرحت هذه المسألة على التصويت ، فــي التاســع من ايلول ، صوت ٨٩ نائبا لصالح صيغة المجلسين ،في حيــن صوت ٨٩٤ نائبا لصالح صيغــة المجلس الواحد . وفي الحادي عشر من ايلول قررت الجمعية منح الملك حق « فيتــو » معطل . بتعبيــر آخر ، اعطي الملك حق تعطيل قرارات السلطة التشريعية ، لكــن اذا ما أقرت ثلاثة مجالس نيابية على التوالــي الاجراء عينه ، كــان على الملك الرضوخ لارادة ممثلي الشعب . وبذلــك يكون اعطي ، ان جاز التعبيــر ، صلاحية المراوغــة ، وهي صلاحيــة اتضــح مــدى خطورتها عندما عمــد الــى ممارستها في اجواء التشنج والاثارة التي سادت في عام ١٧٩٢. وقــد ظل وضعه ، من حيث الجوهر ، يتسم بالالتباس والغموض .

كان عرض ان يكون ملكا دستوريا وفق شروط تناسبه . ويوم طرحت مسألة هوية الملكية على بساط البحث ، عبّرت البلاد باسرها عن رغبتها في ان تكون الملكية دستورية . لكن لا لويس السادس عشر ، ولا الجماعات المحافظة التي أمست تعارض الثورة ، وافقا على دور الملك الدستوري كما تصورته الجمعية التأسيسية .

ازاء هذه المقاومة صعّد الحزب الوطني في الجمعية التأسيسية ، التي كانت لا تزال منعقدة في فرساي ، نشاطه الثوري . وكانت تشكلت في باريس ، في اثناء ذلك ، فصائل من المناضلين على مستوى الحي . وكانت الصحافة قد شهدت ، خلال الاشهر السابقة ، ثورة حقيقية . فقبل عام ١٧٨٩ ، لم تكن في فرنسا صحف او مجلات سياسية . وفي ايلول ، دوّت في باريس اصوات الصحفيين من كل حدب وصوب ( خلال السنوات العشر التالية صدر ما يقارب ألف صحيفة ومجلة سياسية ) . وقد اشتبه زعماء الجمعية التأسيسية بعداء الملك والبلاط لمجلسهم ، فخططوا لنقل مقره الى باريس . وكانت حالة الهيجان السائدة في باريس مؤاتية لمشروعهم تماما . ففي باريس كانت جميع شرائح الطبقة الثالثة ، بدءا بالصيارفة وانتهاء بالشحاذين ، مأخوذة جميعها في دوامة العمل السياسي ، ولاوتارها رنين واحد . كان الجميع يهابون معارضة الارستقراطيين ويحسبون لها الف حساب . وبما ان الاغنياء هجروا المدينة ، فقد لبث الفقراء بدون عمل . ومع ان محصول عام ١٧٨٩ كان جيدا ، فانه لم يكن قد نزل الى الاسواق بعد . وقد توقف توزيع المؤن بسبب حالة الذعر والفوضى الضاربة أطنابها في الاقاليم . وبات الخبز في باريس نادرا وباهظ الثمن .

في الثالث من تشرين الاول ، تناهى الى سكان باريس ان الملكة واصدقاءها الارستقراطيين اهانوا العلم الثلاثي ، في اثناء

مأدبة اقيمت في قصر فرساي، وتكلموا بازدراء عن الشعب والثورة. فظهرت في العاصمة تحشدات ، وجلّها من النساء ، تطالب بالخبز وتلعن الارستقراطيين ، ثم زحفت جميعها في تظاهرة واحدة، ضمت سبعة آلاف أو ثمانية آلاف شخص ، نحو فرساي . وقد رافق التظاهرة بضع مئات من الرجال المسلحين ، وسار في مؤخرتها المركيز دولافاييت بالذات . وتحولت المظاهرة الى سيل بشري عرم . وحاول قادة البلدية الثورية تهدئة المتظاهرين، لكنهم في صميمهم كانوا يرحبون بثورة الغضب هذه ويتطلعون الى تسخيرها للضغط على الملك والملكيين .

في السادس من تشرين الاول ، وبعد ليلة في العراء ، اقتحمت حشود البؤساء والصعاليك قصر فرساي ، واحتلت الاجنحة الملكية ، وقتلت ثلاثة حراس أو اربعة وهي تصرخ وتصيح: « نريد خبزا ! » وقد أخلى افراد الحرس الوطني المكان ، بيد انهم لم ينجحوا في اقناع المتظاهرين بأن يقفلوا عائدين الى باريس. وارتفعت صيحة هادرة تطالب بالملك . وراح الناس يهتفون :« الملك الى باريس ! » . وبعد الظهر تشكل موكب ضخم ، يضم ما يناهز ستين الف شخص ، سار فيه الحرس الوطني ، وبعض الحراس السويسريين ، وزهاء مئة عضو من الجمعية التأسيسية ،وحشود من النساء المبتهجات ، اللواتي تقدمن العربة الملكية وهن يرقصن وينشدون ويهتفن : « عدنا بالفرّان والفرانة وصبيهما » .

هكذا غادرت الاسرة المالكة قصر لويس الرابع عشر الى غير عودة . ففي ذلك اليوم انتهى عصر فرساي . ونزلت الاسرة المالكة في قصر التويلوري ، الذي كان لويس الرابع عشر هجره قبل قرن من الزمن بسبب قدمه . واستقبل الملك بالهتاف والتصفيق لدى عودته الى باريس ، بصفته ولي نعمة الشعب . لكنه كان امسى في الواقع رهينة بين ايدي الشعب . انه سجين الثورة ، وبالتالي عدوها بالسر . ولم تمض ايام معدودة حتى انتقلت الجمعية التأسيسية بدورها الى باريس . وتكرر في تشرين الاول ما كان

حصل في تمـوز : فانتفاضة الشارع عززت موقفهـا ازاء الملـك الحرون .

لقد أرست الثورة الآن قواعدها ، فأمست قادرة علـــى الاستمرار ومتابعـة مسيرتها . لكـن الثورة المضادة تمكنت هـي الاخرى ، في اثناء ذلـك ، من تعزيز مواقعها . وثمة شخصيات وطنيـة ، كانت صوتت لصالح اعلان حقوق الانسان والمواطـن ، راحت تتخوف مما اعتبرته ضربا من حكم الرعاع . وقد غادر بعضها باريس ، واختار بعضهـا الآخر الهجرة عـن فرنسا . وانقسمت فرنسا على نفسهـا . واضطرت جميع الحكومـات التـي تعاقبت خلال السنوت التاليـة الى التصدي للمشكلة نفسها : الحؤول من جهـة دون احياء النظام القديم ، والسعي من جهة اخرى الـى تلبيـة مطالب سواد الشعب المتيقظ والمناضل ، او التحكم بهـا او الالتفاف عليهـا .

استمرت الجمعية التأسيسية في عقد جلساتها خلال العامين التاليين ، لغايـة ايلول ١٧٩١ . وقـد ارست الاسس لفرنسا عصرية ، مبدئيـا وفكريـا على الاقل . وصاغت نظامـا ضريبيـا جديدا يعتمد الضريبة المباشرة التي الزم جميع الفرنسيين بدفعها ، على أن تتحدد تبعا لثرواتهم وممتلكاتهم . كمـا ألغت الطوائف المهنيـة والروابط الحرفيـة وسائـــر التنظيمـات الاقتصادية ، واطلقت امام الجميع حريـة العمل فـي المنشآت والمهـن قاطبة . وانطلاقـا من رغبتهـا في تشجيع صغـــار التجار والحرفيين ، واعتقادا منها ، أسوة بآدم سميث، بأن الجمعيات المهنيـة كافـة تشكل ، في نهايـة المطاف ، ضربا من التآمر على مصلحة الجمهور، فقـد أسقطت طابع الشرعيـة عـن هـــذه الجمعيات ، وحظرت النقابات العماليـة ، شأنهـا في ذلـك شأن جميع حكومـــات ذلك العصر. وبقضائها على النظام المولوي وعلى ضريبة العشور التي كانت تتقاضاها الكنيسة فرضت تصورا للملكية اكثر حداثة وعصرية،

تصورا حرر المالك من جميع آثار التبعية ولم يلزمه الا بدفـع الضريبة للدولة .

الغت الجمعية التأسيسية كذلك امتيازات الاقاليم ووحدت القانون والحقوق والواجبات في جميع أرجاء البلاد . وكان ورد في اعلان حقوق الانسان انه من حق كل مواطـن ان يشارك « ان شخصيا وان عـن طريق ممثليه » في صياغـة القوانين . ولم يكن ثمة شك في ان الفرنسيين جميعـا مواطنـون يتمتعون بالحقـوق المدنيـة عينهـا . وفي فرنسا ، وفي المستعمرات الفرنسية ، أقر بصفـة المواطنيـة للزنـوج غير العبيـد في عام ١٧٩١ . ولم تعد هنالك خلافات بصدد الحقوق السياسية ، اي بصدد حق الاقتراع ومدلول التمثيل النيابـي . وبالمقابل ، كان هناك خلاف حول مدى عموميـة حق الانتخاب . فقـد كـان عـدد محدود جـدا مـن الاشخاص ، ومنهم روبسبيير ، يدافعون في الجمعية التأسيسية عـن مبدأ الاقتراع العام ، اي عـن حق جميع الرجال البالغين في الانتخاب . لكـن معظم النواب عارضوا هذه الفكرة متذرعين بشتى الحجـج : فالمواطنـون الفقراء اكثر اميـة وجهلا من ان يناط بهم مثل هذا الحق . ولو اعطي لهم ، لعرّضوا النظام والملكية للخطر . اذ قد يبادرون ، نتيجـة لجهلهم ولامبالاتهم ، الى بيع اصواتهم او الى الانصياع لاوامر ارباب عملهم . وما كـان يحصل في انكلترا ، في الدوائر المحدودة التي طبقت مبدأ الاقتراع العام ، لم يكن يشكل في الواقع حجة في صالح الانتخابات الديمقراطية . وفي اميركا ، نادرا مـا كانت تصل نسبة الناخبين الذيـن يقترعون فعلا ، فـي الولايات التي اخذت بمبدأ الاقتراع شبه العام ، الى اربعين بالمئة. وقد تبنت الجمعية التأسيسية بهذا الصدد سلسلة من الحلـول الوسط . قسّمت المواطنيـن الى مواطنين « فعالين » ومواطنين « غير فعالين » . ففعالون هم المواطنون الذين يدفعون نسبة معينة من الضرائب ، بشرط ان يكونوا قـد تجاوزوا الخامسة والعشرين ، وان يكون مضى على اقامتهم في مسكنهم عام واحد علـى الاقل ،

والا يكونوا من الخدم . وقد قدّر عددهم آنذاك بما يقارب اربعة ملايين وثلاثمئة الف مواطن .وقد منحوا حق الانتخاب، بيد انهم ما كانوا ينتخبون سوى « ناخبين » . وكان كل مئة مواطن فعّال يختارون ناخبا واحدا . وكان الاختيار يقع ، بوجه عام ، على الاغنياء والميسورين . ونظرا الى عدم وجود احزاب تتولى وضع لوائح باسماء المرشحين وتعرضها على الجسم الانتخابي، كان الناخبون يجتمعون فيما بينهم ويتداولون في شأن اختيار المسؤولين الاقليميين واعضاء المجلس التشريعي القومي . وبالنسبة الى هؤلاء الاخيرين ، اي بالنسبة الى المرشحين ليكونوا نوابا على مستوى الامة ، كان يشترط فيهم ان يكونوا من فئة المواطنين التي تدفع ضريبة قدرها ٥٤ ليرة على عقار يدر ريعا سنويا قدره بضع مئات من الليرات . وكان عدد المواطنين الذين يتوافر فيهم هذا الشرط يتراوح بين ستين الفا وثمانين الفا. وكان هذا العدد لا يتجاوز الا بقليل عدد النبلاء الراشدين قبل الثورة .

كانت الجمعية التأسيسية عقدت عزمها على اسناد النشاط السياسي ، على الصعيد القومي ، الى نخبة من الاغنياء ، المنتقين من بين صفوف النبلاء القدامى او الجماعات المتمتعة بدخل سنوي مرتفع . وكانت هذه الاجراءات تبدو ، في نظر بقية الاقطار الاوروبية ، غاية في الديمقراطية . فالبلدان التي كانت تجري فيها انتخابات كانت نادرة جدا . ففي انكلترا ، على سبيل المثال ، كان يفترض في الناخب أن يكون صاحب دخل عقاري سنوي يعادل خمسة عشر ألف ليرة فرنسية . أما أن تعد فرنسا اكثر من اربعة ملايين مواطن فعال يتمتعون بحق انتخابي ، وأن محدود ، فهذا كان بحق امرا خارقا عصرئذ . ومع ذلك ، بقي عدد كبير من المواطنين محروما من هذا الحق ، ولم يكونوا كلهم من الفقراء . فبعض المواطنين ما كانوا يدفعون ضرائب لانهم يعيشون مع ذويهم ، وبعضهم الآخر لم يقم مدة عام في المكان نفسه ، أضف الى ذلك من لم يبلغوا الخامسة والعشرين من العمر

ومن كانوا مع ذلك في سن تؤهلهم للمشاركة على نحو فعال في حياة البلاد السياسية ؟ ولاسيما في تلك الظروف الثورية التي شحذت الحس السياسي عند الناس. وهكذا قضي على ثلاثة ملايين رجل، بينهم عدد كبير من الشبان ، بأن يبقوا أسرى خانة المواطنين « غير الفعالين » . وقد احدثت تنحيتهم عن الحياة السياسية في مثل ذلك الظرف تذمرا شديدا في صفوف قوى لا تخلو من فاعلية . على أن العديد من المواطنين « غير الفاعلين » تسللوا في الواقع الى صفوف « الفاعلين » ؟ الى أن سقط هذا التمييز نهائيا في عام ١٧٩٢ .

لم يكن من المستغرب ان تواجه الجمعية التأسيسية مصاعب جمة مع الدين ، نظرا الى الدور الذي لعبته الكنيسة قبل الثورة . هذا لا يعني ان غالبية اعضاء هذه الجمعية كانوا من مؤيدي الآراء الفولتيرية او من انصار العقلانية المتحمسين . فقد بقي العديد منهم اوفياء للخط الجنسيني ، وكان من رأيهم ان تحافظ الكنيسة الفرنسية على قدر من الاستقلال عن روما ، وأن تخفف من غلوائها الارستقراطية ، ومن احتكار بعض رجالاتها لثرواتها الطائلة دون بقية رجال الاكليروس ، ومن لامبالاتها بالفقراء ، ومن عدم اهتمامها، بالقدر المطلوب ، بشؤون الدين . وكانت الحركة من اجل اصلاح الكنيسة تشكل جزءا لا يتجزأ من الحركة الثورية . وكان رجال الدين برهنوا في ايار وحزيران ١٧٨٩ على تعاطف قوي مع الطبقة الثالثة . لكن امورا كثيرة وقعت بعد ذلك تعذر عليهم تأييدها . ومن ذلك أن رجال الدين كانوا عارضوا قبيل الثورة ، مبدأ منح البروتستانتيين حقوقا مدنية ، ودافعوا عن امتياز الاعفاء الضريبي الذي كانوا يتمتعون به . بيد انهم جردوا ؟ في آب ١٧٨٩، من حقهم في العشور ، واضطروا الى القبول بمبدأ اسناد وظائف عامة الى مواطنين غير كثالكة ، ذلك المبدأ الذي أقره اعلان حقوق الانسان . وقد وجهت اليهم ضربة اشد قسوة وايلاما بعد في تشرين الثاني . فقد قدر أن ثروة الكنيسة تعادل تقريبا مجمل الدين القومي .

وكانت العادة جرت بالفعل في فرنسا ، منذ العصر الوسيط ، ان يصادر الحكام بعض املاك الكنيسة بين الحين والآخر . اما في تشرين الثاني من عام ١٧٨٩ ، فقد صودرت ممتلكات الكنيسة في جملتها ، دفعة واحدة . وقد تجاوزت هذه الخطوة حتى ما كان حصل في انكلترا في عهد آل تيودور .

احتل نقل ملكية اوقاف الكنيسة واملاكها موقع الصدارة في سياسة الثورة المالية والاجتماعية . فقد انتقل عشرة بالمئة من مجمل ثروات البلاد اللامنقولة ، من اراض وعقارات ، الى ايدي مالكين جدد . وكانت الطريقة المتبعة هي التالية : اصدار الحكومة « حوالات » ، عدت في البداية نوعا من السندات ، ثم اصبحت ضربا من العملة بضمانة اراضي الكنيسة . وتمكنت الدولة، باصدارها هذه الحوالات ، من تمويل نفسها بنفسها في ظل الانهيار العام لنظام جباية الضرائب . وكان في مستطاع الحائزين على هذه الحوالات ان يستخدموها لشراء عقارات ريفية او مدينية كانت فيما مضى ملكا للكنيسة . وبما أن الهدف الرئيسي لهذه العملية كان ماليا ، فان تلك العقارات كانت تباع لاصحاب الحوالات ولا توهب لهم . بيد ان اسعار البيع وشروطه كانت مؤاتية الى حد كبير ، وكانت تحقق فوائد جمة للذين يملكون من الاموال ما يسمح لهم بعقد مثل هذه الصفقات . ومن نافل القول انه ليس الفقراء او العمال الزراعيون هم من استفادوا من هذه العمليات التجارية التي استمرت زهاء اعوام عشرة . وعلى هذا النحو اتيحت للفلاحين المقتصدين والميسورين الفرصة لتوسيع رقعة اراضيهم ، ولاهالي المدن الامكانية لشراء اديرة مشيدة في المدن او مزارع حققت لهم دخلا اضافيا. وبادر النبلاء القدامى بدورهم الى شراء بعض ممتلكات الكنيسة . وفي تلك المرحلة من التضخم النقدي ، لم يكن يتعذر حتى على بسطاء الناس ان يقلبوا حوالاتهم الى اراض . وهكذا غدت أعداد ضخمة من الاشخاص ، من اصول اجتماعية شتى ، معنية بصورة مادية مباشرة بمصير الثورة وبنجاحها .

بعد ان عمدت الجمعية التأسيسية الى تجريد الكنيسة من ممتلكاتها ومن مداخيل أراضيها والعشور ، تنطعت لاصلاحها ايمانا منها بأن الدين ضرورة اجتماعية . ومع ان اعضاء الجمعية التأسيسية طالبوا بقوة بحرية المعتقد ، وبالمساواة في الحقوق المدنية لغير الكثالكة ، وبضرورة اشراف سلطات مدنية على الزواج والاسرة والتربية ، فانهم لم يوافقوا على فصل الكنيسة عن الدولة . فقد كانت الكنيسة ، في نظرهم ، اداة المجتمع الاخلاقية . والدين ، على حد زعمهم ، اهم واخطر شأنا من ان يترك في عهدة الكهنة وحدهم . وكانوا ، في موقفهم هذا ، يسيرون على الطريق التي رسمها ملك النمسا جوزيف الثاني ، ومن قبله ملك انكلترا هنري الثامن .

في عام ١٧٩٠ أقرت الجمعية التأسيسية اذن الدستور المدني لرجال الدين . وكان هذا الدستور وثيقة ثورية بكل معنى الكلمة ، وان كان بعض الاساقفة الليبراليين قد أيدوه باديء الامر . وقد عبّر هذا الدستور ، الذي لم يجر التفاوض عليه مع الحبر الاعظم ، عن اقتناع راسخ ، بأن للشعب الفرنسي ، صاحب السيادة ، الحق في ادخال تعديلات ، لا على العقيدة المسيحية ، وانما على الجوانب « المدنية » والخارجية للقطاع الفرنسي من الكنيسة المسيحية. وقد استعاضت الجمعية التأسيسية عن الابرشيات المئة والثلاثين بثلاث وثمانين ابرشية تغطي كل واحدة منها مقاطعة من المقاطعات الجديدة التي تم استحداثها ، وكان المقصود من ذلك تحويل الاسقف الى موظف مدني بنوع ما . وغدا رجال الدين كافة يتقاضون اجرا من الدولة . وفيما كان دخل الاسقف يتراوح فيما مضى بين خمسة آلاف وستة آلاف ليرة ، وقد يصل في بعض الاحيان الى نصف مليون ليرة ، فانه اضحى اكثر معقولية الآن ، وان ظل مرتفعا نسبيا. اما كهنة الخورانيات الذين كانوا يتقاضون فيما مضى ٧٥٠ ليرة سنويا ، فقد اصبحوا يتقاضون ١٢٠٠ ليرة . وقد طغى الطابع الثوري ايضا على طريقة انتخاب رجال الدين . فقد امسى كهنة الخورانيات ينتخبون من قبل المواطنين الفعالين في الجمعيات

المحلية ، والاساقفة مـن قبـل ناخبي المقاطعات . وبما أن هـذه الانتخابات تترافق بقداس الهي ، فان وجود غير الكثالكة لـم يكن مرغوبا فيه . وكان يشترط في الكاهن المنتخب ان يحظى برضى الاسقف وموافقته . امـا الاساقفة ، فكـان عليهم ان يعلموا البابا بانتخابهم ، بدون أن يطلبوا موافقته . وقد حظر نشر أي رسالـة بابوية او تداولها داخل الاراضي الفرنسية بدون اذن مسبق مـن السلطة . والحق أن الملوك كانوا يتمتعون بسلطات مماثلة في ظل النظام القديم : فقد كانوا يعينون الاساقفة شخصيا ، اما كهنـة الخورانيات فكانوا يعينون عموما مـن قبـل العلمانيين . لم يكـن التجديد في هذا المضمار يتمثل اذن في تدخل السلطة الزمنيـة في شؤون الكنيسة ، وانما في اضفاء طابع ديمقراطي على اختيـار رجال الدين .

كان الدستور المدني ينطبق على الخوارنة فقط ، اي على رجال الدين الذي يمارسون وظيفة رعوية . اما الرهبانيات فقد ألغيت ، وأخذت الدولة على عاتقها أن تدفع جعالة للرهبـان والراهبات . وكانت الرهبانيات دخلت ، منذ زمن بعيد ، في مرحلة افول فـي فرنسا وصارت موضوعا للتندر المعادي لرجال الدين . وحتى قبـل عام ١٧٨٩ ، كانت المؤسسات التربوية ومؤسسات مساعفة الفقراء والعناية بالمرضى والخدمات الاجتماعية قد وضعت بالتدريج تحت اشراف مدني . وقد تم في سنة ١٧٩٠ انجاز هذه السيرورة دفعة واحدة وبصورة شاملة . والواقع أن مؤسسات التربية والمساعفة الاجتماعية عانت طويلا ، بعد ان تولت الدولة أمرها ، من الفوضى الناجمة عن الثورة والحرب والتضخم النقدي .

ادى اتخاذ هذه الاجراءات كافة ، بطبيعة الحال ، الى نشوب خلافات في داخل الجمعية التأسيسية وفي داخل البلاد عامة في آن معا . وقد واكب مسيرة الاحداث ظهور تنظيمات ثورية ، نخطىء اذا اطلقنا عليها اسم احزاب . وانتصب في مواجهة هذه التنظيمات دعاة « الثورة الاخرى » ، او الثورة المضادة الكفيلة بتحويل مجرى

الاحداث ( اطلق على الفريقين ، لفترة من الزمن ، اسم **اليسار واليمين** تبعا للمكان الذي كانا يحتلانه داخل الجمعية التأسيسية، ثم اهملت هاتان التسميتان وبطل استعمالهما الى ان بعثتا من جديد في القرن التالي )، وكان للفريقين حتى عام ١٧٩٢ ( ومن عام ١٧٩٥ الى ١٧٩٩ ) صحفهما وانديتهما . وكان أشهر الاندية الثورية على الاطلاق نادي اليعاقبة ، الذي عرف بهذا الاسم لانه كان يعقد اجتماعاته ـ العامة على كل حال ـ في قاعة كبرى كانت فيما مضى تخص الرهبان اليعاقبة . اما اسم هذا النادي الاصلي فكان ، لغاية ١٧٩٢ ، « أصدقاء الدستور » ليصبح ابتداء من عام ١٧٩٢ وحتى تاريخ حله في أواخر ١٧٩٤ « اصدقاء الحرية والمساواة » . وكان اليعاقبة ، في غالبيتهم ، ينتمون الى الشرائح الميسورة والمثقفة من الطبقة الثالثة السابقة . وقد جرى تنظيم عدد كبير من الاندية في مختلف احياء باريس للمواطنين الاقل ثراء او العديمي التأثير على الجمعية التأسيسية . وكان أشهر تلك الاندية نادي الكورديليين (٥) . وقد شهدت بقية المدن الفرنسية ظهور الآلاف من الاندية المماثلة . وقد بلغ عدد اعضائها في عام ١٧٩٣ نصف مليون عضو تقريبا . وكانت هذه الاندية تراسل نادي اليعاقبة في باريس ، وتعتبره « الجمعية الام » . ولم تكن انشطة هذه الاندية الثورية سرية او تآمرية . بل كانت ترمي الى ممارسة دور توجيهي ظاهر ، والبقاء على اتصال بالنواب القوميين ، وشرح قرارات الجمعية التأسيسية لعامة الناس ، واعطاء المثال الصالح عن المواطنية ، وتعطيل تحركات « الارستقراطيين » . وسرعان ما توترت الاجواء بين الفريقين ـ اي بين « اليسار » و « اليمين » ـ وساد الارتياب والحذر حتى داخل صفوف الفريق الواحد .

---

(٥) ناد ثوري اسسه دانتون ومارا وكامي ديمولين في باريس في عام ١٧٩٠ . عرف بهذا الاسم لان اعضاءه كانوا يجتمعون في دير للرهبان الفرنسيسكانيين الذين يعرفون باسم « كوردوليه » لانهم كانوا يتزنرون بالحبال . « م » .

ففي صفوف اليسار زالتحظوة ليبراليي١٧٨٩،واقدم اليعاقبة ، غير مرة ، على « تطهير » صفوفهم ، أي على تصفية العديد من عناصرهم . أما في صفوف اليمين ، فقد غدت أبسط اشكال الليبرالية ضربا من اللعب بنار الثورة ان في نظر المهاجرين ، الذين كان عددهم يتزايد باطراد ، وان في نظر المحافظين ، الذين آثروا البقاء في فرنسا . وقد وجد بين اهل اليمين من اعتقد بأن لويس السادس عشر نفسه خدع من قبل اليعاقبة وسقط في احابيلهم .

أصبح وضع الملك ، وبالتالي وضع دعاة اقامة ملكية دستورية ، حرجا للغاية . وجاءت الاضطرابات الدينية لتزيده حراجة . فقد أدان البابا بيوس السادس ، في وقت متأخر ، الدستور المدني لرجال الدين ، بعد ان وافق عليه نصف كهنة الخورانيات تقريبا ( لكن بدون ان يحظى بموافقة اسقف واحد ) وبعد ان صادق عليه رسميا ، وان تحت الضغوط الشديدة ، الملك لويس السادس عشر . وأحدثت ادانة البابا له انقساما في صفوف رجال الدين والمؤمنين على حد سواء . وقد طلب الى رجال الدين أن يقسموا باحترام الدستور الجديد وبالاخلاص له، ففعل بعضهم ٤ وامتنع بعضهم الثاني ، في حين تملص فريق ثالث وتهرّب . وهكذا امسى للكنيسة كهنة « محلّفون » و « غير محلفين » ، دستوريون وعصاة ٤ وكان الاولون يعتبرون انفسهم مسيحيين صالحين وقوميين ، في حين كان الاخرون يعتقدون أنهم أكثر تعلقا بالكاثوليكية ، فانحازوا من ثم اكثر فأكثر الى قوى الثورة المضادة . وعندما اختار لويس السادس عشر مرشدا روحيا له كاهنا غير محلف ، حام حول شخصه المزيد من الشبهة في نظر انصار الثورة . غير أن زوجته ماري انطوانيت ،التي كانت اقوى شكيمة وتصميما منه ، حاولت ، بمساعدة ما تبقى من حزب البلاط ، ان تدفع بزوجها الى تبني موقف أكثر ايجابية . وكانت ماري انطوانيت سليلة آل هابسبورغ . وكان شقيقها ، ليوبولد الثاني ٤ قد أمسى آنذاك امبراطورا . ولم ينفك ليوبولد الثاني في

الواقع ، وهو واحد من اكثر ملوك القرن الثامن عشر استنارة ، عن دعوة شقيقته وزوجها الملك الى التفاوض مع الثورة . لكن امام مطالب الثوار المتعاظمة باطراد ، رأى لويس السادس عشر ان المخرج الوحيد هو مغادرة البلاد ، والالتحاق بالمهاجرين الفرنسيين، والحصول على المساعدة من الخارج .

في ٢٠ حزيران ١٧٩٠ ، توجهت الاسرة المالكة سرا ، في ثياب تنكرية ، نحو الحدود الشرقية . لكنها اوقفت في فارين ، غير بعيد عن الحدود ، وارغمت على العودة الى باريس . وافتضح امر نيات الملك وخططه بعد هذه المغامرة العاثرة : فقد كان ينوي العودة الى فرنسا على راس الجيش النمساوي ، وان يحل الجمعية التأسيسية والاندية ، وان يعيد الاوضاع الى ما كانت عليه قبل عام ١٧٨٩ . وقد اصبح الآن عدو الثورة وسجينها في آن معا . كما باتت احتمالات نجاح الملكية الدستورية في فرنسا شبه معدومة . وثمة حزب جمهوري كان تألف للتو . وقد تنادى اعضاؤه لاجتماع في ساحة شان — دو — مارس ، للتوقيع على عريضة جمهورية ، فهاجمهم الحرس الوطني ، وفتح النار عليهم متسببا في سقوط زهاء خمسين ضحية . وتعمقت الانشقاقات في داخل نادي اليعاقبة ، واعلن بعض اعضائه انفصالهم عنه . وبادر المنشقون ، الذين كانوا مقتنعين بضرورة المحافظة على الرموز الملكية ، وان فقدت الكثير من اعتبارها وقيمتها ، لانها وحدها الكفيلة بحماية البلاد من الفوضى ومن الهيجان الشعبي ، بادروا الى تأسيس ناد خاص بهم ، عرف باسم نادي الفويان Club des feuillants . بعد هذا الانشقاق طغى الثوريون المتحمسون بنفوذهم على نادي اليعاقبة الذي كانت الزعامة فيه لروبسبيير .

في ٣٠ ايلول ١٧٩١ ، حلت الجمعية التأسيسية نفسها ، معلنة عن انجازها المهمة التي كانت عهد بها اليها . وانتخبت جمعية تشريعية جديدة عقدت اجتماعاتها على الفور . ومرة اخرى بدا

الملك وكأنه يقبل بالوضع المستجد . غير ان الملكية الدستورية، التي تنكر لها عاهلها قبل ان تأخذ شكلها النهائي ، لم تعش الا عشرة أشهر بعد اقرارها الرسمي . فقد كانت اول ضحية لحروب الثورة الفرنسية .

★ ★ ★

كان من الواضح للعيان ان لويس السادس عشر محتجز في فرنسا رغما عن ارادته . لذلك بات من العسير اسكات الاصوات المطالبة بتدخل من الخارج . وراح المهاجرون يهددون بالعودة من موقع قوة ، الامر الذي ألهب الحمية الثورية في باريس . ولم يكن الامبراطور ليوبولد الثاني بكل تأكيد من المعجبين بالطبقات صاحبة الامتيازات في اوروبا ، والتي كان يدأب على كبحها ولجمها في المناطق الواقعة تحت سيطرته . بيد انه وجد نفسه محط شكاوى المهاجرين الفرنسيين ، وتضرعات شقيقته ، وتظلمات امراء الامبراطورية المقدسة الذين فقدوا ، بنتيجة مقررات الجمعية التأسيسية ، وحقوقهم المولوية في مقاطعة الالزاس . والتقى ملك بروسيا في بلنيتز في بوهيميا . وجاء بصريح العبارة في اعلان بلنيتز الصادر في ٢٧ آب ١٧٩١ ان الدولتين قد تلجآن الى التدخل المسلح لاعادة الحقوق الملكية الى صاحبها اذا ما انضمت الدول العظمى الاخرى اليهما . وكان ليوبولد يرجو من هذا الشرط الحصول على مهلة ، ولاسيما ان الحكومات الاوروبية الاخرى ، وفي مقدمتها الحكومة البريطانية ، لم تكن آنذاك مستعدة على الاطلاق للتدخل عسكريا . ولم يكن ليوبولد يرغب في الحرب ، كما ان الطبقات الوسطى والدنيا في معظم ارجاء اوروبا كانت تعارض بشدة مبدأ التدخل في شؤون الثورة الفرنسية . بالمقابل ، فان اعتقال الملك في فارين من قبل أحط رعاياه مرتبة اعتبر عملا شائنا في صفوف الطبقات الراقية ، وفي اوساط المترددين على

البلاطـات الملكية ، والنبلاء ، والارستقراطيين ، وأعيـان الريف، والاساقفة وكبار رجال الدين . اما في فرنسا ، فـان الشعور السـائد كان مخالفا تماما : فقد بدا من المشين حقا أن توقف عملية اعادة تنظيم شؤون الشعب الفرنسي الحـر مـن جراء تهديدات تطلقهـا رؤوس اوروبا المتوجة . وفسّر اعلان بلنيتز ، الذي تباهى به المهاجرون الفرنسيون وافتخروا ، على انه تهديد مباشر .

ثمة عوامل عديـدة لعبت دورهـا بالسر لصالح الحـرب . فالملكيون في فرنسا كانوا يعقدون رجاءهم على حرب تتيح للويس السادس عشر فرصة لسحق الثوار . اما الملكيون الدستوريون ، اي اعضاء نادي فويان ، فكانوا يتأملون أن تسفر الحرب عن تدعيم مركـز الملـك وتوضيح صلاحياتـه . الثوريـون بالمقابـل ـ أي الديمقراطيون الذين بدؤوا يبرزون في الاندية واليعاقبة الذيـن أمسى بريسو لسان حالهم ـ كانوا يعتقدون ان الحرب ستكون قصيرة وسهلة ، وان الشعوب الاوروبية ستمتنع عن تأييدها ، بل ربما ستبادر ايضا الى الانتفاض ، في ثـورة شاملة ، على الملكيات الاوروبية . وكانوا يتصورون ، عـلاوة على ذلـك ، ان الحـرب ستسمح بفضح « الخونة » وبالتخلص منهم ، وبدفع الثـورة قدما الى الامام . ولم تعارض الحرب سوى جماعة صغيرة من الثوريين، ومنهم روبسبيير . كان هذا الاخير يـرى ان قـول بريسو بأن الفرنسيين سوف يحررون العالم هو الحماقة بعينها . ذلك ان « ما من أحد مغرم بحب المبشرين المسلحين » ، كما قـال في نـادي اليعاقبة في كانون الثاني ١٧٩٢ ، بدون أن يلقى من يمنحه اذنا صاغية . وكان الامبراطور ليوبولد الثاني قد توفي في اثنـاء ذلك وخلفه ابنه ، فرانسوا الثاني . وكان فرانسوا الثاني اكثر مـن والده تعاطفا مع الطبقات صاحبة الامتيازات في امبراطوريته، وأميل منه الى المشاركة في حرب صليبية تهدف الى ترسيـخ عـرش لويس السادس عشر والى انقاذ اوروبا من جائحة الثورة .

كانت فرنسا هي التي اعلنت الحرب في ٢٠ نيسان ١٧٩٢ ،

خلال جلسة صاخبة للجمعية التشريعية . وقد اجمع الحضور على التصويت لصالح قرار الحرب باستثناء سبعة نواب . وتكبد الفرنسيون ، خلال الاشهر الستة الاولى سلسلة من الهزائم المتلاحقة . فالجيش الفرنسي لم يكن في حالة تسمح له بخوض حرب . كان جيش النظام القديم المتحلل والمتفكك اياه . وكان ما يقارب من الفي ضابط هاجر الى الخارج . اما الذين اختاروا البقاء فكانوا يكنّون العداء للحكم الجديد . الجنود بالمقابل كانوا وطنيين مندفعين ، متأججين حماسة ، ومخلصين للثورة . لكن كتائب المتطوعين كانت تفتقر الى التدريب والعتاد ، كما ان روح الحرية الذي انتشر في صفوف الجنود اضعف الانضباطية حتى في أقدم الفيالق . وتشتتت القوات الفرنسية من الصدامات الاولى ، وتقهقرت ، وانسحبت في اجواء من البلبلة والفوضى . وعارض لويس السادس عشر ، الذي كان يترقب انتصارا نمساويا ، الاجراءات الدفاعية التي صوتت عليها الجمعية . هكذا كانت فرنسا ، وهي في حالة حرب ، محكومة من قبل ملك كان لها كل المبررات لان ترتاب فيه . وراح النمساويون والبروسيون يقتربون أكثر فأكثر من الحدود الفرنسية . وكان امبراطور النمسا الجديد وملك بروسيا أعدا ، بالاتفاق مع رسل الملكة ماري ــ انطوانيت ، بيانا الى سكان مدينة باريس يتلى عليهم ساعة دخول قواتهما الاراضي الفرنسية . وكانت هذه الوثيقة ، التي قدّر لسكان باريس ، المتعصبين أصلا ضد الملوك ، أن يطلعوا على مضمونها المهين في الثالث من آب ، تأمر مدينة باريس وجميع سكانها دونما استثناء بـ « الخضوع للملك على الفور » والا اضطر « صاحبا الجلالة الامبراطورية والملكية الى انزال عقوبات ، تذكرها الاجيال » ، والى « اباحة مدينة باريس لعساكرهما » ، والى « تعذيب المتمردين حتى الموت » جزاء لهم على عصيانهم .

مع ذيوع مضمون هذا البيان هبت مدينة باريس ، صفا

واحدا ، ضد لويس السادس عشر ، وضد الارستقراطيين الذين كانوا لا يزالون حتى ذلك التاريخ ينشرون آراءهم بحرية ، وضد « الخونة » الذين كانوا يعقدون الآمال على دخول قوات الحلفاء ، وضد انصار نادي فويان الدستوريين ، وضد الجمعية التشريعية ، العاجزة ، المهذارة ، العديمة الاهلية ، بل الخائنة في ذلك الظرف الحالك من الهزيمة العسكرية . ان انتفاضة العاشر من آب ، التي سميت أحيانا **الثورة الفرنسية الثانية** ، كانت مدبرة في الواقع ، وأبعد ما تكون على كل حال عن السرية . ف « الفروع » ، التي تحولت الى كومونة ثورية بدعم من الاندية الشعبية ، كانت تستعد علنا لانتفاضتها الثورية . وقد انضم اليها التجار ، واصحاب الحوانيت ، وصغار الصناعيين ، واختلط حابل المواطنين « الفعالين » بنابل المواطنين « غير الفعالين » ليشكلوا مزيجا من الثوريين عرفوا باسم « اللامتسرولين » الذين قدر لهم ان يلعبوا دورا حاسما خلال السنوات التالية . وقد اخذ ديمقراطيو باريس على عاتقهم انقاذ البلاد من الاحتلال الاجنبي ، والثورة من الانهيار . ولقوا الازر والمساعدة لدى متطوعين من مرسيليا حملوا معهم الى العاصمة نشيدا جديدا ، كان وضع من اجل جيش الرين . وقد أمسى هذا النشيد نشيد الثورة الفرنسية الماجد . وفي نادي اليعاقبة ، طالب روبسبيير بخلع لويس السادس عشر ، وبانتخاب هيئة حكم جديدة ، المجلس الوطني ، عن طريق الاقتراع العام . وهاجم « اللامتسرولون » قصر التويلوري ، الذي ما كان يحميه سوى عناصر من الحرس السويسري ، وتمكنوا من الاستيلاء عليه في ساعات معدودة ، بعد ان سقط ما يقارب من الف ضحية من الجانبين .

خلع لويس السادس عشر من عرشه وازيلت الملكية . واجتاز البروسيون الحدود وزحفوا باتجاه باريس . وسيطرت على العاصمة حال من الهيجان الجنوني . وفي مطلع ايلول اقتحم الرعاع السجون ، لاعتقادهم بانها تغص بالمتآمرين ، وارتكبوا

مجزرة رهيبة بقتلهم ما يقارب الف سجين في الطرقـات العامة . وفي هذه الاجواء من الرعب والارهاب جـرى انتخاب اعضـاء المجلس الوطنـي Convention Nationale . انتخابـات كـان يفترض فيها ان تكون ديمقراطية تماما ، وقد اتسمت فعلا بهذا الطابع الديمقراطي في بعض المناطق .

كانت ثلاث سنوات قد تصرمت منذ الاستيلاء على سجن الباستيل . وخلال هذه السنوات الثلاث تبدلت ملامح الدولـة ، والكنيسة ، والتشريـع ، والمجتمع . لكـن انجـازات الجمعيـة التأسيسية كانت لا تزال قابلة للانهيار والزوال . كما انه كـان من الممكن ايضا ـ وهذا مـا حصل بالفعل ـ ان يؤدي التدخـل الشعبي الى دفع عجلـة الثورة الى الامـام ، والى القضاء عـلى الثورة المضـادة ، والـى ارسـاء اسس تنظيم اجتماعي أكثـر ديمقراطية .

## الفصل الثالث

# العالـم يتحـرك

ليس من اليسير تحديد صورة العالم الاوروبي — ولو في أعم قسماتها — عندما اندلعت حروب الثورة الفرنسية . كان الفرنسيون ، بملايينهم الخمسة والعشرين ، اضخم شعب قدر له ان يجتمع شمله في ظل حكم واحد . فشعب روسيا البعيدة لم يكن يفوقه تعدادا الا بنزر يسير . اما الشعوب الناطقة بالالمانية ، التي كانت عديدة وكبيرة بدورها ، فقد توزعت الى اماوات ارتفع عددها الى ما يقارب المئة في منطقة نهر الراين وحدها . رعايا آل هابسبورغ بالمقابل ، الذين نيّف عددهم على العشرين مليونا ، كانوا متباينين اثنيا ، ومشتتين جغرافيا . اما البلجيكيون ، الذين كانوا يقدرون بثلاثة ملايين ويعيشون في اقاليمهم المستقلة ذاتيا ، فكانوا يرزحون في الواقع ، باستثناء سكان أسقفية ليبج الواسعة ، تحت نير سيطرة آل هابسبورغ . ولم يكن عدد الهولنديين يتجاوز آنذاك المليونين ، وعدد الانكليز والاسكوتلنديين العشرة ملايين . وكانت ايطاليا عبارة عن فيسيفساء من الدويلات ، وكان عدد الاسبانيين المشتتي الصفوف

يصل الى عشرة ملايين . وقد اتضح من اول احصاء سكاني اجري في عام ١٧٩٠ ان عدد سكان الولايات المتحدة ، بمن فيهم العبيد ، ما كان يتجاوز عدد الهولنديين والبلجيكيين مجتمعين .

كانت فرنسا اذن عملاقا قادرا على الوقوف في وجه تحالف قوي ٪ فيما لو قدر ليدها العاملة ان توظف توظيفا مفيدا وفعالا . وكانت لعبت ايضا دورا بارزا في الحضارة الاوروبية منذ عصر الكاتدرائيات القوطية . وكانت اللغة الفرنسية ، في القرن الثامن عشر ، عرفت انتشارا واسعا في صفوف الطبقات الاوروبية الراقية التي كانت تجيد النطق بها . ومن هولندا الى بولونيا ، كانت الصحف تصدر بالفرنسية . وباستثناء انكلترا ، كانت القوميات ، على اختلافها ٪ لا تزال متخلفة على الصعيد السياسي والثقافي . وكان حسب الافكار والآراء ، قبل الثورة ، أن تأتي من فرنسا أو أن تسند الى فرنسيين حتى تلقى استقبالا حارا وايجابيا في سائر ارجاء اوروبا . وبعد ١٧٨٩، بات في وسع جميع الاوروبيين الذين يجيدون الفرنسية ان يطالعوا مقالات الصحافة الباريسية الجديدة ومداولات الجمعية التأسيسية المنشورة في صحيفة **لو مونيتور** . فما من حاجز لغوي أو تأخر في التطور كان ينتصب فاصلا بين اوروبا والثورة الفرنسية ، خلافا لما حصل مع الثورة الروسية او الصينية في القرن العشرين .

قوبل خبر سقوط سجن الباستيل بالترحاب والتهليل في سائر ارجاء اوروبا . فملكية آل بوربون كانت ممقوتة بصورة عامة ٪ وما كان أي اوروبي متحضر ليعارض ، من حيث المبدأ ، الحرية او الحق . وقد رحب الانكليز بفكرة اقتفاء الفرنسيين خطاهم على طريق الحكم الحر . اما البروسيون فارتأوا ان الفرنسيين انتقلوا من الاستبداد الى نظام الحق والقانون ، كالذي يسود في بروسيا. لكن منذ آب ١٧٨٩، بدا واضحا ان الجمعية التأسيسية الفرنسية تسعى وراء شيء يختلف تماما عن المؤسسات الانكليزية والقانون البروسي . ولم تكن فكرة « المساواة » لتروق في أعين

اصحاب الامتيازات ، ان في انكلترا وبروسيا ، وان في الاقطار الاوروبية الاخرى .

كانت اوروبا ، قبل قيام الثورة الفرنسية بفترة غير قصيرة، قد شهدت في غير منطقة من مناطقها محاولات لاحداث تغييرات عميقة ، ان لم نقل ثورات حقيقية . ومن الصعب ان نقدم وصفا عاما لها . لكن الشيء الاكيد هو ان جماهير الشعب لم تشارك في تلك المحاولات في أي قطر من الاقطار الاوروبية . فالمعارضة كانت تنهض في الغالب من صفوف الشرائح العليا من السكان ، فيما تبقى الطبقات الشعبية على وفائها لرؤسائها المعهودين . ولم تكن المسألة ، اساسا ، صراعا بين الاغنياء والفقراء ، ولا حتى بين اشد الناس فقرا واعظمهم غنى . ولا تنطبق صورة الصراع بين العناصر البورجوازية والعناصر الاقطاعية لا على هولندا ، ولا على سويسرا ، ولا كذلك ، وان لاسباب مختلفة ، على انكلترا ، أو ارلندا او بولونيا . فنظرا الى هيمنة الكنائس والصفوة الحاكمة ، التي كانت تدين بمراكزها لحق وراثي أو لحق انتخابي قاصر على هذه الصفوة عينها ، فان الصراع كان يدور بين من هم داخل الاجهزة والمؤسسات التي اقامها المجتمع ، وبين من هم خارجها . وبمعنى ما ، كان الصراع يدور بين طبقات ذات امتيازات واخرى بغير امتيازات ، تماما كما الحال في فرنسا . كان الساخطون والمتذمرون ينتمون ، في بعض الاحيان ، الى الاقليات الدينية او الى فئة الاثرياء الجدد ، او الراغبين في أشكال جديدة للتجارة والتوظيف والانتاج والتقنية ، ممن كانوا يصطدمون بنظام الطوائف المهنية والقوانين الاقتصادية القديمة ، كما انهم كانوا ينتمون ، في بعض الاحيان الاخرى ، الى صفوف المحامين ورجال القانون ، أو الى صفوف العلماء الشغوفين بشؤون العلم والطب ، أو الى فئة الصحفيين والكتاب المعنيين بالثورة الفكرية ، أو الى شريحة الموظفين العاملين في خدمة الانظمة الملكية والذين ادركوا ان الاوليغارشيات الريفية والمدينية تقف حجر عثرة في وجه التحديث،

او الى الجيل الصاعد من الشباب ، المتفاوت المنشأ ، الذي اشتم وعودا بعهد جديد . وقد عمّ بين هؤلاء جميعا شعور بالعداء حيال ما سمي فيما بعد ب « المؤسسات القائمة » و « المجتمع الراقي » .

فيعام ١٧٩٢ ، كان من المحتم أن تختنق أصوات انصار النظام الجديد هؤلاء ، من ارلندا الى بولونيا . لكن اضطرارهم الى لزوم الصمت لا يعني انهم زالوا من الوجود . بل كانت حساسيتهم عظيمة بأحداث ثورة ١٧٨٩ وحرب ١٧٩٢ التي كانت قمينة بأن تنفح حياة جديدة في حركاتهم العديدة .



كانت ارلندا مملكة منفصلة ، يناهز عدد سكانها نصف عدد سكان انكلترا تقريبا ، ولها برلمانها وكنيستها القائمة ، الكنيسة الانغليكانية . كان الغزو الانكليزي ، الذي اقترن باستيطان كثيف لاسكوتلنديين من الطبقة المتوسطة ، قد استكمل مراحله في القرن السابق . وكان ثلثا السكان من الكثالكة التابعين لروما ، وتسعا السكان من الكالفانيين ، والبقية الباقية من الانغليكانيين الذين كانوا يحوزون ، على الرغم من ضآلة تعدادهم ، خمسة أسداس الاراضي وينفردون في الاشراف على البرلمان والكنيسة والحكم . وكان لهؤلاء جميعا اسباب وجيهة للاستياء من البرلمان البريطاني الذي كان فرض على ارلندا قيودا تجارية الحقت حيفا كبيرا بها . وقد أحدثت الثورة الاميركية وقعا عظيما بين الارلنديين وعلى الاخص في صفوف الكالفانيين ، فشكلوا فرقا من المتطوعين تعبيرا عن مشاعرهم السياسية وتحسبا لاجتياح فرنسي مرتقب . وقد بلغ عدد المتطوعين في هذه الفرق ثمانين الف رجل في عام ١٧٨٢ . كان معظمهم من الكالفانيين ، وقد حظوا بتعاطف الانغليكانيين في بادىء الامر ، لكن عندما بادرت الحكومة البريطانية في عام ١٧٨٢ الى منح البرلمان الارلندي المزيد من الاستقلال الذاتي ،

اعتبر الانغليكانيون ان مطالبهم قد تحققت ، ووجه المتطوعون اهتمامهم نحو اصلاح البرلمان بعد ان اتسعت صلاحياته . كان مجلس العموم الارلندي ، شأنه في ذلك شأن مجلس العموم البريطاني ، ينبثق عن دوائر انتخابية جرداء ، شبه مقفرة من السكان ، تسمح لبضع مئات من الاشخاص بالسيطرة عليه . وقد عقد المتطوعون في عام ١٧٨٣ **مؤتمرا قوميا** موسعا ( اول « مؤتمر » ثوري عقد في القرن الثامن عشر ) ونظموا مسيرة عبر شوارع دبلن ، انتهت بتقديم مرسوم اصلاحي . بيد انهم كانوا يتحركون من موقع ضعف لانهم بدوا وكأنهم يفرضون تهديدا عسكريا على مجتمع من المدنيين ، ولانهم ما كانوا يمثلون سوى فئة متواضعة الحال من الحائكين وصغار الحانوتيين والناس العاديين ، ولانهم كانوا على خلاف مع الكثالكة بصدد مسألة المساواة في الحقوق . وقد صوت عدد من كبار الملاكين لصالح المرسوم الاصلاحي ، بمن فيهم والد اللورد كاستلريغ (١) ، لكنه رفض بغالبية ساحقة . وقد تدفقت بلاغة المحافظين في سيل عرم . وأعلن السير هيركول لانغريش ، مراسل ادموند بورك ، أن المرسوم يعني « هلاك دستور كان ، ولا يزال ، قبلة انظار الامم قاطبة » .

دب اليأس في قلوب المتطوعين وتخلوا عن مشروعهم . وقدمت بعض التنازلات للكثالكة ، فسمح لهم في عام ١٧٨٢ بشراء الاراضي . لكن في عام ١٧٩٢ لم يكن يحق لاي كاثوليكي ان يفتتح معهدا كاثوليكيا أو أن ينتخب نوابا الى مجلس العموم الارلندي .

★ ★ ★

(١) روبرت ستيوارت كاستلريغ ( ١٧٦٩ — ١٨٢٢ ) : رجل دولة بريطاني ، من مواليد ارلندا . لعب دورا حاسما في اقامة التحالفات الاوروبية ضد نابوليون . « م » .

في انكلترا كانت تسود موجة عارمة من الاستياء، حتى الثورة الاميركية . وكان الاصلاحيون يزعمون ان الحكومة البريطانية ما كانت لتدخل في صراع مع المستعمرات الاميركية ، وما كانت بالتالي لتخسرها ، فيما لو كانت اكثر تمثيلا للشعب . ومنذ عام ١٧٦٩ كان اتباع جون وايلكز (٢) قد اسسوا جمعية المدافعين عن « مشروع لائحة الحقوق » Bill of Rights ، وهي اول جمعية اسست من أجل الاصلاح البرلماني . وردا على هذه الضغوط نشرت المداولات الدائرة في البرلمان وعممت بحيث يطلع عليها كل من يرغب . وظلت حركة وايلكز محصورة بلندن حيث قوبلت بالترحاب في صفوف التجار الميسورين . وخلال السنوات التالية ، حصلت تحركات مماثلة في المقاطعات ، وعلى الاخص في مقاطعة يوركشاير ، في صفوف طبقة صغار النبلاء وملاكي الاراضي . وحصلت اتصالات بين « جمعيات » المقاطعات ، وتشكلت حركة بدت ، بنوع ما ، وكأنها المرادف المدني لحركة المتطوعين الارلنديين العسكرية . لكن هذه الحركة انهارت وتلاشت لان اعمال الشغب التي حرّض عليها غوردون (٣) زرعت الخوف في قلوب الناس ، ولان المصلحين المحافظين بقيادة ادموند بورك عرفوا كيف يحولون اهتمام الناس نحو اصلاح الوظائف ، والمعاشات ، للحؤول دون اعادة توزيع السلطة السياسية . لكن عندما اصبح وليم بت الشاب رئيسا للحكومة في عام ١٧٨٤ ، رأى ان مصلحة البلاد تقضي بأن يكون الحكم اكثر تمثيلا للشعب ، ولاسيما انه لم يكن يشعر أصلا باي ميل الى الارستقراطية الكبرى

---

(٢) جون وايلكز : سياسي بريطاني ولد في لندن ( ١٧٢٧ ــ ١٧٩٧ ) ، اشتهر بكتاباته ضد الحكومة . «م»

(٣) اللورد جورج غوردون ( ١٧٥١ ــ ١٧٩٣ ) : رئيس الجمعيات البروتستانتية ، والمحرض على اعمال الشغب المناهضة للكثالكة التي اغرقت لندن ، في ٢ حزيران ١٧٨٠ ، في بحر من الدماء . « م » .

المتعاطفة مع حزب الويغ (٤)، لكن محاولاته تعثرت لانه لم يحظ بتأييد صناعيي الميدلاندز ، الذين لم ينشغل لهم بال بسبب عدم تمثيل ما نشستر وليدز (٥) في البرلمان ، وان تخوفوا بالمقابل من فكرة التنازلات الجمركية التي كان في نية بت ان يمنحها لارلندا .

لم ينل مرسوم بت الاصلاحي الاصوات الكافية ، فتخلى هذا الاخير عن المعركة .

ما صاغ بورك مبادئه المحافظة الا بغية التصدي لتلك المحاولات الرامية الى اصلاح مجلس العموم . كان بورك ، اسوة بلانغريش في ارلندا ، يعتبر هذه المحاولات هدامة . وكان هدف الاصلاحيين في زعمه « القضاء على الدستور من خلال التشهير بمجلس العموم » . وبين عامي ١٧٨٧ و ١٧٨٩ بذلت ثلاث محاولات في البرلمان لاعطاء البروتستانتيين غير الانغليكانيين حقوقا مماثلة لحقوق الانغليكانيين . غير ان طبقة النبلاء الانغليكانية ، المهيمنة على البرلمان ، لم تكن تشعر باي تعاطف مع البروتستانتيين غير الانغليكانيين المدينيين الذين كانوا ينتمون في غالبيتهم الى الطبقة الوسطى . لذلك قوبلت مشاريع القوانين كافة بالرفض . وقد شنّ بورك حملة عنيفة على الافكار المجردة ، وعندما استشهد المنشقون عن الكنيسة الانغليكانية بالحرية الدينية القائمة في اميركا ، اضطر وليم بت نفسه الى التنويه بأن « الدستور الاميركي لا يشبه دستورنا لا فيما يتعلق بالكنيسة ولا فيما يتعلق بالدولة » . حصل ذلك في عام ١٧٨٩ . وكان في مستطاعه ان يقول الشيء نفسه ، عما قريب ، عن الدستور الفرنسي .

★ ★ ★

---

(٤) الويغ : اسم الحزب الليبرالي في انكلترا الذي كان يؤيد الحقوق الشعبية ، ويقابله حزب التوري المحافظ المؤيد لسلطة التاج . «م» .

(٥) مانشستر وليدز من أعظم المراكز الصناعية في انكلترا . «م» .

في هولندا ، ارتبطت الحركة القومية هي الاخرى ، في البداية ، بحرب الاستقلال الاميركية . فالمصالح الهولندية كانت متصلة اتصالات وثيقا بالمصالح البريطانية. وفي عام ١٧٧٧ ، بات المولون الهولنديون يملكون ما يقارب من اربعين بالمئة من مجمل الديون القومية البريطانية . وكانت أسرة اورانج ( الاسرة الحاكمة في هولندا ) ، التي جمعتها زيجات عديدة بالاسرة المالكة البريطانية ، تتبع بوجه عام التوجيهات التي تأتيهامن انكلترا. بيد ان صلاحيات أمير اورانج كانت محدودة للغاية بسبب وجود مجمّع من المدن المستقلة ذاتيا،ومن المؤسسات والهيئات والمجالس التي كانت تشكل ما يعرف باتحاد اوتريخت. وكانت هذه الهيئات الشرعية بين ايدي مجموعة صغيرة من الاسر الحاكمة . وعندما قطع الاميركيون آخر صلة لهم بانكلترا ، حاولوا اقامة علاقات تجارية مباشرة مع القارة الاوروبية . وقد ابرمت الاسر الكبرى في امستردام معاهدة على حدة مع الولايات المتحدة اثارت استنكار امير اورانج ، غليوم الخامس . وقد نشب صراع بين حزب اورانج الموالي لانكلترا ، وجماعة كبرى موالية لاميركا عرفت باسم **الوطنيين** . وكانت هذه الجماعة تتألف اساسا من بعض رؤساء الاسر الكبرى التي كانت تقاوم منذ زمن بعيد المساعي الملكية لفرض الهيمنة عليها ، والتوجه الانكليزي لسلالة اورانج ، كما كانت تضم ايضا مروحة واسعة من الاشخاص، ومنهم الصيرفي، والتاجر ، والحذّاء ، والصحفي ، والطالب. وكان القاسم المشترك بين هؤلاء جميعا عداءهم للاوليغارشية البروتستانتية .

وقد نظّم الديمقرطيون انفسهم في فرق غير نظامية ، مسلحة ومدرّبة ، كما في ارلندا ، وخاضوا غمار النضال بهدف اقرار مبدأ انتخابية المجالس والهيئات التمثيلية بدلا من تعيين أعضائها تعيينا . وقد قبلوا في صفوفهم الكثالكة والبروتستانتيين المستقلين ، ودعوا الى عقد جمعية وطنية للفرق غير النظامية . وربما كانت حركتهم اعظم حركة ثورية عرفتها اوروبا قبل ثورة

١٧٨٩ الفرنسية. وقد تمكنت الهيئات التمثيلية الهولندية من الاطاحة بأمير اورانج ، بيد انها ابدت بعد ذلك تخوفا من مطالب الفرق غير النظامية ، الامر الذي احدث انقساما في صفوف **الوطنيين** . وقد ساعد الفرنسيون ، سرا ، الفرق غير النظامية ، في حين أيد البريطانيون الامير المخلوع وحاولوا مساعدته على استرداد عرشه . وبعد اربعة اعوام ، حصل مع أميرة اورانج ، شقيقة ملك بروسيا ، ما حصل مع ملكة فرنسا ماري انطوانيت في فارين : فقد أوقفها فريق من المقاتلين غير النظامين على أحد طرق هولندا . بيد ان شقيقها الملكي أبدى عن حميّة افتقر اليها ليوبولد الثاني ، فاستنكر بحدة هذه « الاهانة التي لا تغتفر » وأرسل عشرين الفا من جنده الى هولندا . ولم يبق امام الفرق غير النظامية ، عندما وضعت في مواجهة هؤلاء الجنود النظاميين ، غير ان تحل نفسها . كانت المواجهة ، في الواقع ، مواجهة بين اوروبا الملكية ، المدعومة من قبل الديبلوماسية البريطانية ، وبين حركة ديمقراطية ــ جمهورية ، موجهة ضد السلالة الحاكمة والارستقراطية . وقد اعاد البريطانيون والبروسيون الى غليوم الخامس عرشه ، وأحيوا نظام الاقاليم ــ المتحدة القديم وضمنوا بقاءه بموجب معاهدة . وفر الآلاف من الوطنيين الى فرنسا . وفي عام ١٧٩٢ ، كان ثمة عشرة آلاف لاجيء سياسي هولندي في فرنسا ، كما حضنت المدن الهولندية الآلاف من الوطنيين الخائبين الذين كانوا تأملوا ان يتدخل الجيش الفرنسي في عام ١٧٨٧ لدعمهم ومساعدتهم ، والذين كانوا لا يزالون يهدهدون احلاما مماثلة في عام ١٧٩٣ .



فيما كانت الثورة تنحسر عن البلاد الهولندية في عام ١٧٨٧ ، كانت موجتها تبدأ بالاندياح في ذلك العام نفسه في

البلدان الواطئة النمساوية . كانت هذه تتألف من عشرة اقاليم محنطة ، ان جاز التعبير ، لم يطرأ عليها اي تغيير منذ العصر الوسيط . والصراع الذي شهدته في القرن السادس عشر ، والذي استهدف انصار المذهب الكالفاني ، دفع بسكانها الكثالكة الى الشطط في الورع والتقوى ، كما جعل من نصف اراضيها ملكا للكنيسة . ونزولا عند ضغوط الهولنديين والانكليز ، اغلق نهر اسكو في وجه التجارة الدولية ، فآل ازدهار مرفأ آنفرس الى زوال. كانت التجارة العصرية في ادنى مراحلها ، والنشاط المحلي ، في اطار المدن والطوائف المهنية ، في أعلى مراحله . وكان اعضاء هذه الطوائف وشيوخ المدن ومخاتيرها ، ورؤساء الاديرة والنبلاء ، يذودون بقوة عن حقوقهم المتوارثة . ولم يكن بين الاقاليم العشرة من روابط سوى ما تمنّ به عليها السلطات النمساوية ( كان آخر اجتماع عقده مجلس الطبقات الثلاث في عام ١٦٣٤ ) . وبعد عام ١٧٨٠ ، حاول الامبراطور جوزيف الثاني ، المعروف بحزمه واقدامه ، تحديث اقاليمه البلجيكية اسوة ببقية ارجاء امبراطوريته . فأمر بالحلم والتسامح مع البروتستانتيين ، وبالغاء التعذيب ، وبفتح نهر الاسكو في وجه التجارة العالمية ، وبتخفيف الحواجز التي نصبتها المدن والطوائف المهنية ، وبفرض رقابة على مجرى العدالة المولوية ، وباغلاق بعض الاديرة ، وباصلاح جامعة لوفان . وفي عامي ١٧٨٨ – ١٧٨٩ ، قام البلجيكيون بثورة محافظة دفاعا عن حرياتهم السابقة . وقد سعى حزب **النظام القديم** ، المعروف باسم حزب المجالس ، وراء تدخل بريطاني او بروسي . اما الذين كانوا يسمون انفسهم بـ «الديمقراطيين» ، والذين كان خصومهم ينعتونهم بـ « الفونكيين » ، نسبة الى زعيمهم ج. ف. فونك ، فقد نظموا مقاومة بلجيكية ضد جوزيف الثاني ، على امل تحقيق جملة من الاهداف من بينها توسيع التمثيل في المجالس بحيث يشمل شخصيات ومدنا كانت

ابعدت عن الهيئات التمثيلية حتى ذلك الحين . وقد تمكن بضعة آلاف من الرجال ، شكلوا على عجلة فرقا غير نظامية ، من طرد النمساويين في عام ١٧٨٩ . لكن ما كاد حزب المجالس يتخلص من النمساويين حتى تنكر لاقتراحات فونك ، الذي كان في الواقع معتدلا للغاية وميالا الى المساومة . فراح الثوريون يقتتلون ويتصارعون . وقد استبق حزب المجالس مبادرات الديمقراطيين ، فاعلن نفسه سيد البلاد ، واقام ما اسماه بالولايات ـ المتحدة البلجيكية ، وشنّ ، باسم الطبقات الثلاث والكنيسة الكاثوليكية ، حملة قمع واضطهاد مركّزة ضد الديمقراطيين ، وحاول ، في مطلع عام ١٧٩٠ ، ان ينال من سمعتهم باتهامهم بانهم من انصار الثورة الفرنسية . وقد اضطر الآلاف من الديمقراطيين البلجيكيين ان يلوذوا بالفرار الى فرنسا، اسوة بالوطنيين الهولنديين . اما حزب المجالس المنتصر ، وانما المبتلي بحالة الفوضى التي عمّت البلاد ، فقد اطيح به بدوره من قبل النمساويين الذين تمكنوا من اعادة فرض سيطرتهم في اواخر عام ١٧٩٠ . وقد ازداد الديمقراطيون البلجيكيون ايمانا بالثورة بعد العنف الذي تعرضوا له والحيف الذي الحقه بهم رياء الآخرين وخداعهم . لذلك كان العديدون يتحرقون ، في عام ١٧٩٢ ، الى الانضمام الى صفوف الفرنسيين لتحرير بلجيكا .

* * *

لم تكن سويسرا افضل حالا من بلجيكا من حيث تبلور هويتها السياسية . كانت تتألف من ثلاثة عشر كانتونا يتكلم سكانها الالمانية ، وتجمعها رابطة دفاعية مبهمة الملامح . وكانت الكانتونات الرئيسية هي كانتونات زيوريخ ، وبيرن ،وبال. وكانت جميع المناطق الناطقة بالفرنسية والايطالية ، وبعض

المناطق الناطقة بالالمانية ، تفتقر الى المنظمات الكانتونية ،وتتبع لكانتون من الكانتونات السائدة . كانت جينيف عبارة عن دويلة مستقلة متناهية في الصغر . وكانت شهدت سلسلة طويلة من الاضطرابات،اثارتها مسألة تحديد من هو صاحب السيادة فيها : أهم المواطنون جميعا ، ام **المجلس الصغير** الذي لا يتجاوز عدد اعضائه الخمسة والعشرين ؟ بعد انتفاضة عام ١٧٨١ الثورية ، استنجد نبلاء **المجلس الصغير** واعيانه ب « كفلاء » الخارج : فرنسا ، زيوريخ ، وبيرن . وتمت تهدئة الاوضاع في عام ١٧٨٢ بالغاء جميع التنازلات التي قدّمت منذ عام ١٧٦٨ . ووجهت الى اصلاحيي جينيف تهمة « التشيّع لجان ـ جاك روسو وغيره من فلاسفة القرن المزيفين » . ومن جملة الديمقراطيين الذين التجؤا الى فرنسا في عام ١٧٨٢ الصيرفي اتيين كلافيير ، الذي اصبح بعد عشرة اعوام وزيرا للمال في فرنسا وزميلا سياسيا لبريسو . كان التحريض الديموقراطي ٦ في اثناء ذلك ، يعم اجزاء اخرى من سويسرا . فالمربي الشهير بستالوزي كان اعتقل في زيوريخ ، في شبابه ، لانه عارض تدخل قوات زيوريخ المسلحة ضد حزب جينيف الثوري . وفي بيرن ، اكثر الكانتونات ارستقراطية واوسعها نفوذا ، كان عدد الاسر الحاكمة لا ينفك يتضاءل : ففي عام ١٧٨٠ ، اصبح حق شغل الوظائف العامة وقفا على ٢٣٠ اسرة فقط، في حين كان عدد الاسر المخولة هذا الحق يقدر بخمسمئة قبل قرن من الزمن . ومن بين المناطق التابعة لبيرن كان هنالك كانتون فود ، الناطق بالفرنسية ، والذي كانت عاصمته لوزان . وفي لوزان ،على وجه التحديد ، اقيمت مأدبة في تموز ١٧٩١ ، احتفالا بذكرى الاستيلاء على الباستيل . وردا على الخطابات التي القيت في تلك المأدبة ، والتي اشادت بتحرر البشرية ، بادرت سلطات بيرن الى طرد عدد من القساوسة البروتستانتيين من كنائسهم ، والى سجن عدد آخر من المدنيين او نفيهم . وخير ما نستشهد به لاعطاء فكرة عن المشاعر التي سادت آنذاك في صفوف ارستقراطية

كانتون فود مثال الشقيقين لاهارب . فقد اصبح احدهما جنـرالا في الجيش الثوري الفرنسي في عام ١٧٩٢ ، فـي حيـن امسى الثاني مؤدب القيصر المقبل الكسندر الاول ، فعلمـه المبـادىء الجمهوريـة . وقد طـرد من روسيـا عام ١٧٩٦ ، واصبح من ابرز الثوار السويسريين في عام ١٧٩٨.وفي بال ،اضحى هاجس النبيل الشاب بيتر اوكس ، بعـد عام ١٧٨٠ ، العمل على اعادة تنظيم سويسرا برمتها . وقـد تأثر اوكس بالثورة التـي كانت دائرة في الطرف الآخـر من النهر ، في فرنسا ، حيث كان يملك عقارا ، وحيث كانت شقيقته قد تزوجت من فرنسي قدّر له ان يصبح اول عمدة ثوري لمدينـة ستراسبورغ . وفي ستراسبورغ على كل حال ، وفي صالون هذه السيدة على وجه التحديد ، وضع روجيـه دو ليل نشيد **لامارسييز** . لقـد كانت سويسرا ، في عام ١٧٩٢ ، تحتضـن اصدقاء متحمسين للثورة الفرنسيـة واعداء الداء أقسموا بالقضاء على هذه الثورة .

★ ★ ★

من بين السمات الاخرى المميزة للقرن الثامن عشر ، التي يتعذر علينـا الاحاطـة بهـا احاطة كلية ، لا بد ان نشير الى ان مملكة هابسبورغ في ظل حكم ماري ـ تيريز وجوزيف الثـانـي وليوبولد الثانـي ، كانت اكثر مملكات اوروبا استنارة وادراكـا لضرورة الاصلاحات . وكانت سلالة هابسبورغ تملك في اوروبا الغربية ـ اي فيمـا اتفقنـا على تسميته بالمنطقـة الثانيـة ـ دوقية ميلانـو ، ودوقيـة توسكانـا الكبرى ، بالاضافة الـى بلجيكـا . وفي توسكانا ، حيث كـان ليوبولد الثاني اجـرى اصلاحات موفقة عديدة في الحقل الضريبي والجمركي ، في نظام الطوائف المهنية ، في الحكم البلدي وفي شؤون الكنيسة ، امسى السكـان غير قابليـن للتأثر بالمثال الفرنسي . فـي ميلانـو ،

بالمقابل ، لم تكلل المساعي الاصلاحية بنجاح مماثل . وفي ميلانو، حيث لاقت « الانوار » انتشارا واسعا ، حمل بيكاريا بشدة على التعذيب القضائي في كتابه الشهير **جرائم وعقوبات** . وفي ميلانو على وجه التحديد ، عجزت ماري – تيريز عن الغاء عادة التعذيب بسبب تمسك القضاة بالاعراف القديمة المتوارثة . وقد انتابت ليبراليي ميلانو مشاعر النفور من اوليغارشيتهم الخاصة ومن آل هابسبورغ في آن معا . وبعيد الاستيلاء على الباستيل ، اشار الاقتصادي فيرّي بسخرية وتهكم الى ان افكار الفرنسيين نعتت فورا في ميلانو بانها افكار « ميتافيزيقية » حالما تجرأ الفرنسيون على اعادة النظر في وجود الطبقات الثلاث. لكن ثمة فريقا آخر من اهالي ميلانو كان ينظر الى الفرنسيين بمزيد من التعاطف والايجابية .

كانت الممتلكات الرئيسية لآل هابسبورغ ، اعني النمسا وبوهيميا والمجر ، لا تزال تعيش في عام ١٧٩٢ اجواء اضطراب وبلبلة نجمت عن « الثورة » التي حاول تطبيقها جوزيف الثاني، الذي آل عهده الى فشل ذريع . كان سعى الى احداث تغيير في امبراطوريته عن طريق اصلاح الكنيسة والدولة ، والغاء الامتيازات في الميدان الضريبي ، واغلاق الاديرة ومصادرة املاك الكنيسة ، وتأسيس الزواج المدني ، ودفع رواتب مقطوعة لرجال الدين من خزينة الدولة ، واعطاء المزيد من الحقوق لليهود والبروتستانتيين ، واقرار مساواة جديدة بين طبقة النبلاء والبورجوازية وجعل الوظائف العامة مناصفة بينهما . كما كان بادر الى الغاء القنانة ، بأمل ان يجعل من الفلاحين رعايا الامبراطور لا السيد المولى ، ونوعا من المالكين الصغار لا يجني السيد الاقطاعي من ورائهم الا دخلا نقديا . وكان جوزيف الثاني مدعوما بقوة من قبل الطبقة الفلاحية والطبقة الوسطى في المدن ، لكن عندما وافته المنية في مطلع عام ١٧٩٠ ، كانت جميع الهيئات الشرعية في امبراطوريته قد اعلنت تمردها

عليـــه . فالمقاطعـات البلجيكيـــة اعلنـت استقلالهـــا .
والمجالس التشريعيـة - « دييت » - فـي المجـر ، وبوهيميا ،
وستيريا وكارنثيا ، وغيرها من المناطق ، تلك المجالس التي كانت
تمثل كبار مالكي الارض وكبار رجال الدين فحسب ، راحت تدافع
بشراسة عن مواقعها ، باسم حرياتها الدستوريـة التاريخية .
واضطـر ليوبولد ، الذي خلف جوزيف ، الى القبول بمبـدأ
المساومة . في « دييت » المجر ، لم تتردد اقلية من الممثليـن عن
الاخذ بمواقف الجمعيـة التأسيسية في فرنسا . واعلنت الطبقة
الفلاحيـة عـن تمردهـا على السادة الموالي والاعيـان الريفيين
الاعضاء في « الدييت » ، فـي انتفاضة فاقت فـي عنفهـا
وشراستهـا الثورة الفلاحية الفرنسية في عام ١٧٨٩ . وبغيـة
تهدئة الخواطـر داخل « الدييت » اعاد ليوبولد العمل من جديد
بميثاق عام ١٧٤٠ ، متنكرا بالتالي للاصلاحات التي تـم انجازها
خلال نصف قرن. وأعاد ايضا الامور الى نصابها في المجر وبلجيكا،
مستعينا بالجيش لفرض الامن . وقد توفي في عام ١٧٩٢ وخلفه
ابنـه ، فرانسوا الثاني ، قبل أسابيع معدودة من اعلان الحرب
على فرنسا . فرانسوا الثانـي ، الذي كان لا يـزال فـي الرابعة
والعشريـن من العمر ، كان اكثر غلوا من والده في نزعتـه
المحافظة ، وأميل منه الى الاتفاق مع الارستقراطيين . وقد فرض
هذا الاتفاق نفسه عليه على كل حال ، اذ انه كان يحتاج الى تأييد
الارستقراطيين ودعمهم في حربه مع فرنسا ، لان اصحـاب
الامتيازات كانوا وحدهم المتحمسين لهذه الحرب . فالفلاحـون
كانوا لا يزالون يذكرون ما حاول ان يفعله جوزيف الثاني مـن
اجلهم ، كمـا انهم سمعوا بتمرد الفلاحين الفرنسيين وتحررهم .
وكان ابناء الطبقة الوسطى ، وعلى الاخص الموظفون ، يستعيدون
هم ايضا في حسرة وامتنان ذكرى جوزيف الثاني . وبدا واضحا
ان القوى التي عارضت في الامس الامبراطور جوزيف الثاني ،
تقف اليوم موقفـا معاديـا من الثورة الفرنسية . فباستثنـاء

الطبقات صاحبة الامتيازات ، لم يتحمس رعايا امبراطورية آل هابسبورغ على الاطلاق لا لاعلان بلينتز ولا لحرب ١٧٩٢ .

★★★

كانت بولونيا في عام ١٧٩٢ ، اسوة بفرنسا ، عرضة لاجتياح عسكري . وبعد التجزئة الاولى ، التي حصلت في عام ١٧٧٣ ، كان حزب نذر نفسه لتقوية البلاد وتعزيزها قد تأسس في عام ١٧٨٨ ، وطبق برنامجه خلال الاعوام الاربعة من عهد « الدييت » . وكانت حصيلة هذا العمل ولادة دستور الثالث من ايار ١٧٩١ . هذه الوثيقة ، المحافظة على طريقتها ، لم تحرر الفلاحين من القنانة ، وانما نزعت اساسا الى معالجة نقاط الضعف التي كانت جعلت من بولونيا فريسة سهلة لجشع جيرانها؛ ومن بينها : الانتخاب الدوري للملك ، بمشاركة بعض الاجانب، اقصاء المدن عن الحياة السياسية ، حق « الفيتو المطلق » الذي كان يتمتع به بعض اعضاء «الدييت» ، والهيمنة المطلقة التي كان يمارسها على الشؤون البولونية بعض العظماء من اصحاب الاملاك الشاسعة ، الذين كانت تسير في ركابهم جمهرة من « النبلاء » البؤساء ، المجردين من الاملاك والاراضي . وقد ضمن دستور الثالث من ايار ، المقترن بقانون للمدن ، الملكية الوراثية في بولونيا ؛ وألغى « الفيتو » المطلق ؛ وعزّز مواقع طبقة النبلاء الوسطى بفضل اجراءات استهدفت العظماء والنبلاء الذين لا يملكون اراض ، ونص على تدابير من شأنها ان تدمج البورجوازيين في حياة البلاد السياسية ، بعد ان كانوا قد اقصوا عنها منذ عام ١٥٠٥ . هذا الدستور ، الذي لم يستلهم فكرة المواطنية بصورة من الصور ، بدا نوعا من الخداع الارستقراطي في نظر الثوريين الفرنسيين ، بيد انه منح البورجوازيين قدرا كافيا من الحقوق ليغدو نموذجا يقتدى به

فــي اوروبا الشرقية ، بل خارجهــا ايضا . فلئن لبثت «الدييت» القوميــة مجلس نبلاء من حيث المبدأ ، فقد باتت مع ذلك تضم بعض الناطقين بلسان البورجوازية المخولين حق التصويت علــى بعض الشؤون . فقــد بات من حق سكان المدن ، بشرط الا يكونوا يهودا او اقنانا ، ان يُنتخبوا في المجالس البلدية ، وان يشتروا املاكــا ريفية كانت تخص النبلاء سابقا ، وان يرتقوا الى ارفــع المناصب في الدولة والكنيسة، وان يصبحوا ضباطا في الجيش ـ اللهــم الا في سلاح الفرسان الذي حافظ علــى طابعـــــه الارستقراطي المحض . صحيح ان طبقة النبلاء لم تلغ ، وانهــا ظلت ، على العكس من ذلك ، موضع تقدير واجــــلال ، غير ان ارتقاء البورجوازييــن الى هذه الطبقــة اصبح اسهل مــن ذي قبل . وقد وعــد الدستور بالتسامح مع غير الكثالكــة ، وبوضع حد للاعتقالات الكيفيــة ان بالنسبة الــــى البورجوازيين وان بالنسبة الى النبلاء .

كان الدستور البولوني لعام ١٧٩١ ، المعتدل بالمقارنة مــــع الدستور الفرنسي الذي عاصره، وانما الثوري على طريقته ، كان يشكل حلا وسطــا بين مطالب فريقين متعاديين ، وقــد اعقــب اصداره صراع دائم بين البولونيين انفسهم . كــان هنالك مــن جهــة اولى الحزب الارستقراطي لعظماء المملكة ، الذين كانـــوا يجرون خلفهم حشدا من النبلاء المشردين بلا أرض ولا مكـــان اقامة ، وقــد اورثتهم الاجراءات المتخذة ضدهم مرارة فاشرأبت ابصارهم الى روسيــا طلبا للنجدة والخلاص . وكان هنالك مــن جهــة اخرى الوطنيون ، الذيــن كانوا يطمحون الى انتزاع اعتراف اكثر وضوحا وصراحة بحقوق المدن . كانوا يؤيدون الثورتيــن الاميركيــة والفرنسية ، وكان بعضهم يتطلع الى الغاء نظـــــام القنانــة . وكــان الملك يتزعم شخصيــا حزبــا يمثل الوسط .

وفــي عــام ١٧٩١ ، وبعــد الاعـــلان عــن الدستور ، بــــدأت الانديــة السياسية تنتشر في وارسو وفي بعض المدن البولونية

الاخرى . وقد شهدت الصحافة تطورا ملحوظا ، وراح الناس يعقدون حلقات النقاش للتداول في المسائل السياسية .

* * *

تخوفت حكومات الدول العظمى الثلاث المحيطة ببولونيا ـ روسيا وبروسيا والنمسا ـ من ان تصاب شعوبها بعدوى المثال البولوني . فلا البورجوازيون ، ولا حتى النبلاء غير الميسورين ، كانوا يتمتعون بحقوق مماثلة في الملكات الثلاث المجاورة لبولونيا . وبالنظر الى عامل الجوار الجغرافي ، والى تماثل الشروط الاجتماعية ، فقد امست بولونيا تشكل مصدرا للعدوى الثورية اخطر بكثير من فرنسا . وقد انهالت الاتهامات وعبارات السخرية والتجريح على الثوريين البولونيين ، فنعتوا باليعاقبة المتعصبين والمخربين . ولم يكن لدى الدول العظمى الثلاث ، ناهيك عن ذلك ، اي رغبة في رؤية بولونيا تتدعم وتتعزز . فلقد كانت لكل واحدة من بينها مطامع اقليمية في الاراضي البولونية ، وكانت تأمل في تحقيق هذه المطامع عن طريق تجزئة جديدة للبلاد . وعندما تحرك النمساويون والبروسيون باتجاه فرنسا ١٧٩١ ـ ١٧٩٢ ، راحت كاترين الثانية ، امبراطورة روسيا ، تعد العدة للتدخل في بولونيا . وفي نيسان ١٧٩٢ ، وبدعم من روسيا وفي ظل حمايتها ، بادر عظماء بولونيا الذين خسروا بعض امتيازاتهم ، وانصار الثورة المضادة ، والمهاجرون الذين التجؤا الى سان ـ بطرسبورغ ، بادروا الى اصدار بيان تارغويكا . وقد وجهت هذه الوثيقة اصبع الاتهام الى الافكار الثورية الرائجة ، وعزت الثورة البولونية الى « مؤامرة » تحاك ضد البلاد ، وشبهت البولونيين بالفرنسيين ، ووعدت ببعث النظام القديم في بولونيا .

اجتاح الروس بولونيا في ايار ولم يواجهوا مقاومة تذكر .

وعندمـا اقتربت الجيوش الروسية من وارسو ، استسلم الملك ستانيسلاس في الرابع والعشريـن من تموز . وفي اليوم التالـي اذاع حكام النمسا وبروسيا بيـان برونشفيك الموجه ضد مدينة باريس . غير ان الجواب الذي جاءهم كان هـذه المـرة مغايـرا تماما. فقـد تمت الاطاحـة بالملكيـة الفرنسية والغي دستور عام ١٧٩١، فيما كانت قوات **الحلفاء** تجتاز الحدود الفرنسية.ووقعت النمسا وبروسيا اتفاقـا مـع روسيـا بغيـة اعادة الاوضاع في بولونيـا الى ما كانت عليه فـي عام ١٧٧٣ .

لم تمثل حرب ١٧٩٢ ، اي المعارك التي دارت بيـن فرنسا من جهة ، وبروسيا والنمسا من جهة اخرى ، سوى جزء مـن عمليـة اوسع بكثير خاضت خلالهـا الانظمة الملكيـة في اوروبا الشرقية ، المدعومة من قبل المهاجرين الفرنسيين ، والبولونييـن وارستقراطيات مختلفة ، غمار ثـورة مضادة استهدفـت فرنسا وبولونيا ، في وقت لاقت فيه الجيوش الثورية الفرنسية،المتفككة والمهزومة مؤقتا ، دعما معنويـا من قبل فئات واسعة من الناس، جلهم من ابناء الطبقـة الوسطى ، ممن كانوا حاولوا عبثا احداث تغييرات في بلادهم ، اي في ارلندا ، وانكلتـرا ، وهولنـدا ، وبلجيكا ، وسويسرا ، والنمسا ، وبولونيا وغيرها من الاقطـار الاوروبيـة .

★ ★ ★

عززت الحرب الثورة في فرنسا ، ثم صارت اداة انتشارها فـي اقطار اخرى ، من خلال سلسلة من الانعكاسات والمضاعفات المتباينة ، حتى سقوط نابوليون بعد اثنين وعشرين عامـا علـى بداية هذه الحرب . ففي الوقت الذي بدا فيه الحلفاء والثـورة المضادة قاب قوسين او أدنى من النصر ، تمخضت الحرب عـن تعميق للشعور الثوري في فرنسا بوضعها السلطة بين ايدي قادة

توجهوا الى الجماهير وعرضوا عليهـا برنامجا ديمقراطيا . وقـد حصلت هذه الظاهرة للمرة الاولى في صيف ١٧٩٢، ثم تجددت في ربيع وصيف ١٧٩٣ ، وكادت ان تتجدد فـي عام ١٧٩٩، وترجعت اصداء واهنـة لهـا فـي عـام ١٨١٥ ، عندما انضـم الجمهوريون القدامى الى الامبراطور العائد من جزيرة البا ، بأمل الحؤول دون عودة سلالة بوربون الى الحكم . وقد انعكست الآية مع تحول مجرى المعارك الحربية لصالـح فرنسا : فعندمـا راح الفرنسيون يحرزون الانتصارات العسكرية ،في النصف الثانـي من عام ١٧٩٤ على الوجه الاخص،تراجع الاتجاه الديمقراطي فـي الداخل . وقد ثبت ان الحكومة الفرنسية، التي نصبتهـا لجنـة السلامة العامة فـي عام ١٧٩٤، قويـة بما فيه الكفايـة لطـرد الاعداء ، ولتهدئة الفتنة الشعبية ، وللاستغناء عـن الدعـوات « الديماغوجية » . لكـن فيمـا كـان الفرنسيون يظفرون بالنصر، كانت الثورة توسع رقعتها ، وتنتقل مؤقتا الى بلجيكا في اواخر عام ١٧٩٢ ، وتنجب بعـد عام ١٧٩٥ سلالة من الجمهوريـات « الشقيقة » او الدائرة في فلك فرنسا ، وتتوغل بزخم ثـوري اضعف وانمـا قوي بما فيه الكفايـة لتقويض دعائـم الانظمـة القديمة في شتى دول الامبراطورية الكبرى التي اعاد نابوليـون تنظيمهـا بالتعاون من انصار الاصلاح في تلك الدول .

كان من الطبيعـي ان تسعى كل وحدة مناضلة الى الحصول على التأييد والدعم ، سواء أمن الداخل أم من الخارج . وقـد نجم عن ذلك صراع ايديولوجي تخطى الحدود السياسية . ففـي عام ١٧٩٢ وحّد اليعاقبة الفرنسيون صفوفهم مع«اللامتسرولين» الذين كانوا دونهم مرتبة اجتماعية . وبغية استقطاب تعـاطف العناصر المتذمـرة والمحرومة في الاقطار الاخرى ، خلقـوا سيكولوجيـا ثورة عالمية . وتحت ضغط التهديد الارستقراطـي تعمّق اتجاه الثورة الديمقراطي . امـا الدولتـان العظميان المتحالفتان ، اللتان حققتا ائتلافهما الاول في عام ١٧٩٣، فقـد

انشغلتا بمصير الاسرة المالكة الفرنسية وبمصير المهاجرين والكنيسة ، وسعتا الى تحصين طبقتيهما الوسطى والشعبية ضد العدوى الفرنسية ، وروجتا لفلسفة محافظة عمادها احترام التقاليد ، ونبذ فكرة التغيير ، والمحافظة على مجتمع تراتبي .

تعود هذه الفلسفة المحافظة الى ما قبل عام ١٧٨٩ . وكان ظهورها كردة فعل على فلسفة « الانوار » ، ومن ثم على الثورة . وكانت استمرارا لفلسفة الارستقراطية الفرنسية ، ولمواقف برلمان باريس الذي كان اعلن في عام ١٧٧٦ ان هدف التربية الحفاظ على التمايز بين الطبقات ، ولمبادىء طبقة النبلاء الفرنسية التي الحت ، في جمعية الطبقات الثلاث ، على حقها في الاستفادة من معاملة خاصة .

* * *

كانت المانيا مجزاة الى اقصى الحدود . وكان العديد من الالمان يشاطرون اوروبا الانوار مثلها الاعلى العقلاني ، الشمولي، التحرري . غير ان المانيا كانت ايضا ، قبل عام ١٧٨٩، مركز فلسفة محافظة بجلّت كل ما هو قديم ، متوارث ؟ قروسطي ، محلي ، خاص ؟ متفرد ، غريب ؟ بل لاعقلاني ،ومجّدت السلطة ، وجعلت من الواجب فرضا على حساب الحرية . وفي الثمانينات من القرن الثامن عشر تكونت في المانيا ؟ كبرعم من براعم الماسونية ، او كتظاهرة شاذة لحركات « الانوار » ان جاز التعبير ، جمعية سرية من « الملهمين » نجحت في استقطاب بضع مئات من الاعضاء . وكان « الملهمون » يدعون الى بعث العالم من جديد عن طريق التغلغل في اجهزة الحكم . وقد تمكن امير بافاريا من القضاء على هذه الجمعية السرية غير المرغوب فيها بدون ان يواجه مقاومة تذكر .وتكمن اهمية هذه

الجمعيــة في الفلسفة التي تمحورت حولها . فقد راجت فــي الاوساط المحافظــة الالمانية ، وغير الالمانية ايضا ، تقليعة فكريــة مفادهــا ان الثورة هي ، فــي كل مكــان ، من صنع «الفلاسفة»، والماسونيين ، و « الملهمين » .

كان أهم عمل كتب على ضوء هذه الرؤية كتاب ادموند بورك **تأملات حول الثورة الفرنسية** الذي صدر في عام ١٧٩٠ . وقــد ترجمه فريدريك جنتز ، على الفور ، الى الالمانية . وقد قوبل هذا الكتاب بموجة من المقالات المضادة في انكلترا ، حيث لم تكن شهرة بــورك قد توطدت بعد . وبالاجمال ، أوحت له الثورة الفرنسية ب « تأملات » مماثلة لتلــك التي كانت اوحت له بهــا القرارات الاصلاحية البريطانية في عام ١٧٨٢ ــ ١٧٨٤ . ففي عام ١٧٨٤ كــان بورك قد هاجم للمرة الاولــــى نظريــة « حقوق الانسان المزعومة » . وفي عام ١٧٨٤ ايضا ، كــان حذّر قراءه ــ عاود الكرة في عام ١٧٩٠ ــ من مغبة الانسياق وراء الاوهام الزاعمة ان للبشر الحق في اختيار اشكــال حكمهم وقادتهم ، بدلا مــن ان يتقبلوا في امتنان ما يعطونه ، بالوراثة ، من حكم وحكــام . وقد عبّر ، في عام ١٧٨٤ وفي عام ١٧٩٠ على السواء ، عن ريبته فــي دور العقل فــي السياسة ، وعن رفضه لفكرة التمثيــل السياسي العصرية ، معلنــا ان انتقاد شكــل الحكم هو بمثابة دعوة الــى الفوضى والى تبديد كنز حكمة الاجداد . وقد امست **تأملات** عــام ١٧٩٠ ، التي دانت بشهرتهــا للثورة التي تهجمت عليهــا ، البيان الكلاسيكي للمحافظيــن المناهضين للثورة ، او بالاحرى للرجعية ، اذ ان المحافظيــن ، المحبين لما هــو عملي ، كانوا يفضلون معالجة الامور على اساس آخر ، لا يطغى عليه مثل هــذا الطابـــع الايديولوجي السافر .

عزا بورك الثورة الى حماقة التافهين وعديمي الخبرة مــن ابناء الطبقــة الوسطى ، والى افكارهم المضللة . وثمة مناهضون متطرفــون آخرون للثورة ، ممن عجزوا عن ادراك الاسبـــاب

العميقة للثورة الفرنسية ، اعتقدوا ان هذه الثورة هي من صنع بعض المتآمرين ، وعزوا الى علة مماثلة الجذب القوي الذي راحت تمارسه على اقطار اخرى . ولم يكن ثمة وجود ، في ذلك الوقت ، لاعلام فرنسي رسمي ومنظم ، او لتنظيم ثوري على صعيد دولي . ولئن اثارت الثورة الفرنسية موجة من التعاطف معها في الاقطار الاوروبية الاخرى ، فقد كان مصدر هذا التعاطف يكمن في الوقائع والشروط الاجتماعية السائدة في تلك الاقطار ، وفي التاريخ الحديث ، وفي مطالعة الصحف الفرنسية وتقصي اخبار حركات التمرد . وبما ان الثوريين اعتلوا سدة السلطة بعد تموز ١٧٨٩ ، فقد امسى خصوم الثورة ، بمن فيهم اللاجئون ، هم المرغمين على اللجوء الى الاساليب التآمرية . ومن نافل القول انهم كانوا يلصقون تهمة التآمر بخصومهم : كانوا يكتشفون المؤامرات في كل لحظة وآن ، وفي كل زاوية ومكان . فملك السويد ، غوستاف الثالث ، الذي كان يدعو الى شن حرب صليبية ملكية ضد فرنسا ، اغتيل على يد نبيل سويدي في اذار ١٧٩٢ ، فألصقت تهمة اغتياله باليعاقبة . ومنذ عام ١٧٩٠ كان بعض المهاجرين اشاعوا نبأ مفاده ان ثمة « حزبا ديمقراطيا » انشأ في باريس ناديا دعائيا سريا هدفه تصدير الثورة الى اقطار اخرى . وقد انتشر هذا النبأ في اوروبا واميركا ، في الاوساط المناوئة للثورة الفرنسية . وكان بطبيعة الحال يفتقر الى اي اساس من الصحة . والواقع ان كلمة « دعاية » الجديدة اشتقت هي نفسها من لائحة مصطلحات الكنيسة الكاثوليكية : De Propoganda Fide (٦) ولم يتكلم ثوار ١٧٩٠ في يوم من الايام عن « الدعاية » . وانما الثورة المضادة هي التي عمدت الى اشاعة هذا المصطلح في اللغات الاوروبية ، بل انها هي التي ابتكرت فكرة «الدعاية»

---

(٦) باللاتينية في النص : نشر الايمان . «م» .

بمعنى من المعاني .

لكن لئن لم تهتم اي حكومة من حكومات الثورة الفرنسية برعاية تنظيم ، علني او سري ، للاطاحة بالحكومات المجاورة، أو بتنظيم حملات لاطلاع اقطار اخرى على فضائل الثورة ، فان الثوريين الفرنسيين بالمقابل ( باستثناء بعضهم ، ومنهم روبسبيير مثلا ) كانوا يعتقدون ويتأملون ان تبادر شعوب اخرى ، في مستقبل قريب ، الى القيام بثورتها . كانوا يتصورون ان هذه الثورات ستأتي عفوية . ولم يخطئوا الظن في الواقع. فلئن كانت ايديولوجيا الثورة ـ المضادة قد كشفت عن انبعاث الارستقراطية وحقدها على « الانوار » ، فان ايديولوجيا الثورة بالمقابل جسدت ونشرت بعض الموضوعات الاساسية للفكر الاوروبي الجديد . وكان للفرنسيين ، في الاقطار الاوروبية كافة ، جمهور من المؤيدين . وعندما حاولت حكومات تلك الاقطار ان تحجب اخبار الثورة الفرنسية عن رعاياها باللجوء الى الرقابة ، خلقت موجة جديدة من التذمر والاستياء في صفوف هؤلاء الرعايا .

«لقد آن الاوان لشن حرب صليبية جديدة ، حرب من اجل الحرية الشاملة ! » : هذا ما اعلنه بريسو في ٣١ كانون الاول ١٧٩١ . وعبثا حاول روبسبيير الوقوف في وجه الشعور العام المؤاتي للحرب . وفي اجتماع عقد في نادي اليعاقبة في الثاني من كانون الثاني ١٧٩٢ قال بالحرف الواحد : « ابدؤوا اولا بتسليط انظاركم على وضعكم الداخلي . اجعلوا الامن يستتب في بلادكم قبل ان تحملوا الحرية الى بلدان اخرى ». واضاف قائلا :« ان نطمح الى منح الحرية للاخرين قبل ان نكون ظفرنا بها نحن انفسنا ، ففي هذا تأبيد لعبوديتنا وعبودية العالم » . لم يؤمن روبسبيير يوما بوجود حركة ثورية حقيقية خارج حدود فرنسا . وكان يخشى ان تؤدي الحرب الى تعزيز

مواقع اعداء الثورة في فرنسا ، خلافا لغالبية اليعاقبة الذيــن كانوا يؤيدون بريسو . فقد كان هؤلاء الاخيرون يتأملون ان تحدث الحــرب نوعــا من الانتفاضــة العامة تأتي في مصلحة فرنسا.

سرعان مــا اتخذت الحرب ، التي اعلنت في العشرين مــن نيسان ، طابعــا دوليــا . فبريسو كــان زار اميركــا في عــام ١٧٨٨ ، كما تواجد في جينيف فــي اثناء اضطرابات ١٧٨٢ . كلافيير ، وزير المال ، كان مهاجرا من جينيف . لوبرون ، وزيــر الخارجية ، كــان قد عمل صحافيا في لييج لبضع سنوات ،وكان على اتصال بالديمقراطيين البلجيكيين . اما دوموريه ، القائد العام للقوات الثورية ، فكــان مغامرا تعددت رحلاتــه عبر العالم . مساعده ميرندا ، الآتي من اميركــا الجنوبية ، كــان يحلم بثورة في فنزويلا . وكان من بيــن جنرالات الثــورة ايضا السويسري لاهارب ، وعدد من الارلنديين ،واميركي يدعى جون اوستاس .

ناشد اللاجئون السياسيون الهولنديــون والبلجيكيــــون السلطات الفرنسية السماح لهم بتشكيل وحدات مقاتلة . وقد تم تشكيل فرقــة بلجيكيــة بعيد اعلان الحرب على آل هابسبورغ. اما اللاجئون الهولنديون ، الذيــن كانوا ينتظرون على أحر مــن جمر ساعــة عودتهم المظفرة الى بلادهم ، فان قضيتهم كانت أشد تعقيدا ، اذ ان الاقاليم ــ المتحدة لم تدخل الحرب ضد فرنسا الا في عام ١٧٩٣ . وكــان اليعاقبة ، على الرغم من خطاباتهـــم الحماسية حول الثورة العالمية ، لا يزالون في عام ١٧٩٢ يترددون في خلق خصوم اضافيين لانفسهم . مــع ذلك وافقت الجمعيــة التشريعيــة الفرنسية في تموز ١٧٩٢ ، اي في ابان الازمة التي اثارهــا بيان برونشفيك ، على تشكيل فرقة اجنبيــة حرة مــن اللاجئين الهولنديين ، اطلق عليهــا اســم فيلق باتافيا . وقــد اعقب ذلــك تشكيل فيلق خــاص بالمهاجريــن مــــن سويسرا والسافوا ، وآخر الماني ، وثالث انكليزي ، بيــد ان هذه الفيالق لم تلعب دورا يذكر . ومن ولايــة كنتوكــي النائيــــة كتــب

الاميركي جورج رودجرز كلارك الى المسؤولين الفرنسيين يطلب مساعدته على تشكيل فيلق لتحرير المناطق الواقعة غربي نهر الميسيسيبي من السيطرة الاسبانية .

تم تشكيل « فيلق اميركي » في ايلول ١٧٩٢ . وتعطي هذه الخطوة الدليل الساطع على الروح التحررية الانسانية التي كانت تسود في ذلك العصر . وفي الواقع ، لم يتألف ذلك الفيلق من اميركيين قدموا من الولايات المتحدة ، ولا حتى من مهاجرين امريكيين او غير اميركيين ، وانما تشكل بناء على طلب زنوج يقيمون في فرنسا ، وكان معظمهم جاء من بلاد الهند الغربية . فالجمعية التأسيسية كانت منحت ، في عام ١٧٩١، حق المواطنية الكاملة للزنوج المعتقين . وقد ثبتت الجمعية التشريعية هذا الحق لهم ، على الرغم من معارضة المعمرين الفرنسيين واحتجاجهم . وكان الزنوج الفرنسيون اعلنوا في العريضة التي رفعوها في ايلول انهم ينتظرون بفارغ الصبر لحظة« الطيران نحو الحدود » اسوة بمواطنيهم كافة . ومما قالوه في هذه العريضة : « ان كانت الطبيعة ، بابتكاراتها التي لا تنضب ، قد ميزتنا عن الفرنسيين بعلائم خارجية ، فقد ماثلت بيننا وبينهم من جهة اخرى ، عندما منحتنا قلبا يتوق مثل قلوبهم لمحاربة اعداء الدولة » . ( نادرا ما كانت كلمة « الدولة » تستخدم في ابان الثورة ، لكن في الفترة المشار اليها لم تعد الملكية قائمة ولم تكن ثمة جمهورية بعد ) . وقد تقبل رئيس الجمعية التشريعية عرضهم بامتنان وحيا فيها الدليل الجديد على ان فرنسا « ستصبح عما قريب عاصمة العالم الحر ومقبرة عروش الكون كافة » . وقد حظي « فيلق الاميركيين » بالموافقة الرسمية وحصل على منحة قدرها مليون ليرة. وكان قائدها فارسا يدعى سان ـ جورج، وكان مساعده يدعى الكسندر دوماس،الجنرال لاحقا في الجيش الفرنسي،ووالد الروائي الشهير.وكان سان ـ جورج ودوما ولدا في جزرالانتيل من

ابوين فرنسيين وامين زنجيتين ، وقدما الى فرنسا في سن مبكرة للدراسة والعمل . وقد تحول هذا الفيلق ، الذي جند مئات الجنود والضباط ، الى كتيبة فرسان لاحقا .

لكن في هذه الاجواء من النضال العالمي في سبيل الحرية، من اجل الثورة او ضدها ، كان الفرنسيون بطبيعة الحال السبّاقين الى التطوع لصد الغزاة .

★ ★ ★

اجتاز البروسيون الحدود الفرنسية في اواخر آب واستولوا على بلدة فردان . واصطدموا بالفرنسيين في فالمي في العشرين من ايلول ، واضطروا الى التراجع بعد اشتباك طويل الامد بالمدفعية . والواقع انهم فوجئوا بمقاومة ما كانوا يتوقعونها، لانهم كانوا يذكرون ، ولا بد ، كيف تقهقرت الفرق الهولندية غير النظامية امام الجيش البروسي في برونشفيك قبل خمسة اعوام . غير ان المواطنين ــ الجنود لم يسمحوا لخصومهم هذه المرة بالتغلب عليهم . وقد أثر موقفهم في غوته الذي حضر المعركة كمراقب . فكتب يقول : « هنا ، في هذا اليوم ، بدأ عصر جديد من تاريخ العالم » . بيد انهم خلّفوا انطباعا مغايرا تماما في نفوس القادة البروسيين والنمساويين ، الذين كانوا يتتبعون بقلق بالغ انباء الانتصارات الروسية في بولونيا ، والذين ما كانوا يرحبون على الاطلاق بفكرة خوض معارك شاقة وطويلة في فرنسا . وانتقل الفرنسيون من الدفاع الى الهجوم . وفي السادس من تشرين الثاني هزم دوموريه ، المدعوم من قبل الفيلق البلجيكي ، القوات النمساوية في جيماب . وفتحت بلجيكا امام جحافل الجمهورية الفرنسية المتأججة حماسة.

ذلك ان الجمهورية كانت قد اعلنت في فرنسا في الثاني والعشرين من ايلول ١٧٩٢ ، اي مع وصول نبأ انتصار فالمي

الى جلسة افتتاح **المجلس الوطني** ، الذي تم انتخابه بالاقتراع العام والذي قدّر له ان يحكم فرنسا لثلاثة اعوام .

تركز اهتمام **المجلس الوطني** ، خلال الاشهر الاولى من عهده ، على ثلاث قضايا رئيسية . كان اليعاقبة قد انقسما على انفسهم مرة اخرى . وراحت جماعة جديدة ، عرفت بالحزم والتصميم ولقبت بجماعة **الجبل** ، تعمل ، بقيادة روبسبيير ، على التخلص من بريسو وكوندورسيه وغيرهما من اليعاقبة الذين كان نجمهم قد تألق في العام السابق ، والذين باتوا يعرفون باسم الجيرونديين . وكان الجيرونديون ، على الرغم من تمسكهم بالخط الديمقراطي والثوري ، لا يؤيدون اعمال العنف الشعبية التي وقعت في الآونة الاخيرة، ويبدون عن تخوفهم من انتشار الفوضى ، في حين رفض **الجبليون** اثارة بعض المسائل الشائكة ، كمسألة مجزرة ايلول الاخيرة ، وسعوا الى التعاون مع اللامتسرولين للتصدي لاعداء الثورة في الخارج وللثورة المضادة في الداخل .

اما القضية الثانية التي واجهها **المجلس الوطني** في مستهل عهده ، فكانت تتعلق بمصير لويس السادس عشر ، الذي كان خلع من عرشه وأدخل السجن منذ العاشر من آب . ولم تعد « خيانته » ، أو بالاحرى معارضته للثورة ، موضعا للشك . وقد ثبتت هذه الخيانة بعد اكتشاف خزنة حديدية احتوت على الرسائل التي كان الملك تبادلها مع النمساويين .وقد طالب العديد من اعضاء **المجلس الوطني** بمحاكمة الملك ، واصدروا بحقه ، في اعقاب تلك المحاكمة ، حكما بالاعدام . لكن فريقا آخر من اعضاء هذا المجلس ــ الجيرونديين على الوجه الاخص ــ تردد واعترض وحاول ان يماطل ويكسب الوقت قبل البت في مصير الملك . وفي آخر الامر مثل لويس السادس عشر امام **المجلس الوطني** الذي جرّمه ، ونفّذ به حكم الاعدام في ٢١

كانـون الثاني ١٧٩٣ . وبات اعدام الملك يؤلف جزءا لا يتجزأ من الخط الثوري الجذري . فالذيـن صوتوا لصالح هذا الاعدام ما عادوا يستطيعـون الرجـوع الى الوراء . ولو قبلوا بأي حـل وسط ، لقضي عليهم . وهكـذا انضموا الـى جماعة **الجبـل** فاستقوت بهم . اما قادة جماعـة **الجيروند** ، الذيـن كانـوا عارضوا الاعدام ، فقـد طـردوا مـن **المجلس الوطنـي** فـي حزيران ١٧٩٣ ، وحوكموا ، وأعدمـوا بالمقصلة في تشرين الاول من العـام نفسه .

القضيـة الثالثة التي طرحت نفسهـا على **المجلس الوطني** اثارتهـا انتصارات فرنسا العسكريـة : مـا الخطوات المطلوبة في البلدان الاجنبية التي احتلتها قـوات الثورة ؟ ولم يكـن **المجلس الوطني** في الواقـع حرا تماما بتصرفاته . فاللاجئون البلجيكيون عادوا الى بلجيكـا ، حيث استيقظت روح النضال مجددا لـدى الديمقراطيين من ابنائها . والجنرال دوموريه (٧) ، علاوة علـى ذلك ، كان يتابع من جهته سياسة خاصة به .

من الاهميـة بمكـان ان نتتبع عـن كثب سيرورة الاحداث التي شهدتهـا بلجيكـا خلال الاشهر الاولـى التي أعقبت معركة جيماب ، اذ انهـا تعطينـا صورة مثلـى عـن أوليـة انتشار الثورة في السنوات اللاحقة . فقـد كـان **المجلس الوطني** يتطلع من جهة اولى الى تحرير بلجيكا ، او على الاقل الى فصلها عـن الامبراطوريـة النمساوية ، لكـن بشرط ألا يتم هذا التحرير على حساب فرنسا . وكـان الثوار البلجيكيـون ، من جهة اخرى، يرحبون بالمحتليـن ، ويعقدون الآمال على دعمهم وتأييدهم للظفر

---

(٧) شارل دو دوموريه : جنرال فرنسي ( ١٧٣٩ - ١٨٢٣ ) ، وزيـر الشؤون الخارجيـة فـي عام ١٧٩٢، كسب معارك فالمي وجيماب ، وفتح بلجيكا ، لكنـه هزم فـي نرفندن سنـة ١٧٩٣ ، فأقالـه **المجلس الوطنـي** من امرة الجيش ، فالتحق بصفوف أعداء الثورة . «م» .

بذلك الاستقلال الذي عبثا حاولوا انتزاعه فـي عام ١٧٨٩ . وقد حصل مع دوموريه ما حصل مع بونابرت في ميلانـو عام ١٧٩٦: فقد وجـد نفسه موضع توسل والتماس من قبل دعاة الثـورة اولئك . ولم يطالبه البلجيكيـون وحدهم بالعمل لصالح الثورة في بلادهم ، وانمـا الهولنديون ايضا ، الذين ناشدوه الدخـول الى الاقاليم ــ المتحدة التي كانت حكومتهـا لا تزال تقف علـى الحياد . ولم يكـن دوموريه ، أسوة ببونابرت مرة اخرى ، يعتبر نفسه مجرد وكيل لنظام سياسي غير ثابت القواعد ، ومؤقت على الارجح . بل ان نجاحه بالذات كان يشكل خطرا على هذا النظام. وقد عقد النيـة ، في الواقـع ، على اسـتخدام نفوذه لـدى الديمقراطيين البلجيكيين ، أي لدى العناصر المناهضة للنمسا ، كيمـا يصبح اميرا او حاكمـا لجمهوريـة بلجيكية مستقلة . وبعد ان يظفـر بهـذا المنصب ، يصبح في مستطاعه ( مثل بونابرت مرة اخرى ) ان يضغط على مجرى الاحداث في فرنسا . لكن **المجلس الوطني** تصدى لمرامي دوموريه بعنف لم تدلل على مثله فيمـا بعد « **حكومة الادارة** » ازاء بونابرت . ذلـك ان **المجلس الوطني** كـان محمولا على موجـة من الحماسة الشعبيـة افتقرت اليهـا **حكومة الادارة** من البداية وحتى النهايـة .

رحّب الفرنسيـون في البدايـة بمشروع اقامة جمهورية بلجيكيـة مستقلـة . وجرت بالفعل انتخابـات لعب خلالهـا الديمقراطيـون البلجيكيون دورا اساسيا . وقـد عرف هؤلاء كيف يستخلصون الدروس المفيدة من الهزائم السابقـة التي منوا بهـا ، ومن اقامة بعضهم في فرنسا . فسعيـا وراء الحصول على دعم الجماهير وتأييدها ، وعـدوا بالغـاء العشور الكنسيـة والاتاوات المولويـة ، وبتحميل الاغنياء عبء الضرائب ، وتسببوا في بعض الاحيـان في اثارة اعمال شغب مناهضة لرجال الدين. وقد ناور دوموريه على طرفي الحبل : فمن جهة حاول ان يكبح جماح الديمقراطيين وحماستهم ، ومن جهة اخرى سعى الى الفوز

برضى رجال الديـن في صراعه ضـد النمسا . وللسبب نفسه امتنع عن تسديد ديونه للمموليـن البلجيكيين بحوالات علـى اموال الكنيسة ، وآثـر ان يدفع لهم نقدا . بيـد ان جهـوده ذهبت ادراج الرياح . فمناهضو الثورة من البلجيكيين ، الذيـن كانوا التجؤوا الى انكلترا منذ عام ١٧٩٠ ، اقترحوا انشاء جمهورية اتحاديـة ، تحافظ فيهـا الاقاليم علـى دساتيرها القديمة ، ويرئسهـا حاكم او رئيس ينتخب من بين اعضاء الاسرة الحاكمـة في انكلترا او هولندا او بروسيا . ولم يكـن فـي مستطـاع **المجلس الوطني** الفـرنسي ، او دوموريـه ، او الديمقراطييـن البلجيكيين ، القبول بهـذا الاقتراح .

ردّ الفرنسيون على هذه المبادرة في تشريـن الثاني بفتح نهر اسكو امام الملاحة . وجاءت خطوتهم هذه متنكرة لجميـع المعاهدات التي كان الهولنديون والبريطانيون اعاقوا بموجبهـا تطور الاقتصاد البلجيكي منذ اكثر من قرن من الزمن . وقد توجه **المجلس الوطني** الفرنسي بهذه المبادرة الـى رجـال الاعمـال البلجيكيين ، العصريي المنطق ، والمعنيين بمستقبل تجارة بلادهم البحريـة .

كانت الجيوش الفرنسية ، في اثناء ذلـك ، تحرز النصر تلو الآخـر . فقد دخلت الى فرانكفورت ومايتز ، واجتاحـت السافوا ونيس ، الاقليمين التابعين لملك سردينيا الذي كان انضم فـي الحرب ، الى البروسيين والنمساويين . وزحف الوطنيون في تلك المناطق لاستقبال الجنرالات الفرنسيين ، وارسلوا وفودا الـى باريس ، وطلبوا المساعدة من الفرنسيين تحسبا للاعمـال الانتقاميـة التي قد يقدم عليهـا اعداء الثورة . وبمـا ان **المجلس الوطني** الفرنسي كـان مأخوذا في دوامة من الهموم الاخرى ولم ينته بعـد الى تحديد السياسـة التي سينتهجهـا في المناطـق المحتلة ، فقـد أقدم على خطوة مؤقتة باصداره مرسوم ١٩ تشرين الثـاني الشهير ، القاضي بـ « مد يد العون الى جميع الشعـوب

الراغبة في استرداد حريتها والتآخي معها » . ومع انه جرى التأكيد رسميا على ان هذا المرسوم لا ينطبق على البلدان المحايدة ، فقد قابله المحافظون في كل مكان بالتخوف والارتياب ، في حين رأى فيه الثوريون وعدا بالدعم والتأييد. والحال ، كان هؤلاء الثوريون ـ او هؤلاء المتعاطفون مع الثورة ـ اكثر تعدادا من ان يحصوا . فعشية صدور هذا المرسوم على سبيل المثال ، كان **المجلس الوطني** تسلم رسالة تهنئة من « جمعية لندن للاعلام الدستوري » ، وفي باريس بادرت جماعة من الناطقين بالانكليزية الى توجيه رسالة مماثلة الى المجلس المذكور . ولم تنقض اسابيع معدودة على صدور هذا المرسوم ،حتى قدم كوزيوسكو (٨) الى باريس ، يلتمس مساعدة لبولونيا .

لم يكن في مستطاع الفرنسيين ان يقوموا بأي عمل من اجل بولونيا ، لكن مسألة المناطق التي احتلتها قواتهم كانت تتطلب حلا أو عملا ما . وفيما يخص مقاطعة السافوا ، التي كان سكانها قريبين للغاية من الفرنسيين ، تقرر في أواخر كانون الاول ضمها الى فرنسا وجعلها المقاطعة الرابعة بعد الثمانين من المقاطعات الفرنسية . اما المناطق الواقعة الى الشمال الشرقي ، فقد اتضح أن تحديد مصيرها اكثر صعوبة بما لا يقاس . وقد قر رأي بريسو ودانتون على تقديم حدود فرنسا الطبيعية الى نهر الراين . وكتب كوندورسيه مقالة حرّض فيها الهولنديين على التمرد . وكان الهولنديون المقيمون في باريس شكلوا لجنة ثورية باتافية ، لكن عندما راحوا يترددون على نادي اليعاقبة قوبلوا بفتور وارتياب.

---

(٨) تادوز كوزيوسكو ( ١٧٤٦ ـ ١٨١٧ ) : زعيم وطني بولوني ، لعب دورا اساسيا في مناهضة الروس . نظم انتفاضة كراكوفيا وارغم البروسيين، في عام ١٧٩٤ ، على الخروج من وارسو . سجنه الروس من ١٧٩٤ الى ١٧٩٦ .

فقد كان اليعاقبة يعتبرون الوطنيين الهولنديين اغنياء بما فيه الكفاية لتحقيق ثورتهم بأنفسهم ، بدون ان يراهنوا على مساعدة فرنسا . ولم يكن في فرنسا ، من جهة اخرى ، من يتحرّق شوقا الى مساعدة البلجيكيين — المتخلفين في نظر الفرنسيين — فكم بالاحرى الى ضمهم . كما بدا واضحا ان قيام الجمهورية البلجيكية المستقلة امر غير معقول بسبب الخلافات الداخلية بين الديمقراطيين وانصار الحكم القائم .

كانت نفقات الحرب تقدر شهريا بمئة مليون ليرة تقريبا ، وكان على فرنسا ان تسدد الجزء الاكبر منها بالعملة الذهبية والفضية . وقد علّق كامبون على هذا العبء الثقيل قائلا امام **المجلس الوطني** : « هنالك من يردد باستمرار اننا نحمل الحرية الى جيراننا . لكن ما نحمله اليهم في الواقع هو أموالنا وطعامنا » . وكان من المستحيل ، في ظل الحرب ، التخلي عن بلجيكا لصالح النمساويين ، او تأسيس جمهورية بلجيكية قابلة للحياة وقادرة على خدمة المصالح الفرنسية . لذلك اقترح كامبون على **المجلس الوطني** تحميل حكومات الاعداء والطبقات صاحبة الامتيازات نفقات الحرب الباهظة . وكانت العبارة التي هتف بها في هذا الصدد والتي صارت فيما بعد شعارا للصراع الطبقي ، هي : « حرب على القصور ، وسلام للاكواخ » .

في الخامس عشر من كانون الاول ، صدر مرسوم خطير آخر ، دعي بموجبه جنرالات الجيش الفرنسي في المناطق المحتلة الى الاعلان عن « الغاء الضرائب والغرامات المعمول بها ، والعشور ، والاتاوات الاقطاعية الثابتة والطارئة ، وسخرة الاشخاص والممتلكات ، وحقوق الصيد الحصرية والامتيازات عامة . وعليهم ان يبشروا الشعب بانهم يحملون اليه السلم ، والمساعفة ، والاخوة ، والحرية والمساواة » . وقد دعي الجنرالات ايضا الى اقصاء السلطات البلجيكية القديمة ، باسم حق الشعب في السيادة ، والى اجراء انتخابات جديدة ، وتنصيب ادارة مؤقتة .

باختصار ، لقد استفاد الفرنسيون من ثروات المناطق المحتلة ، وعلى الاخص من اموال الطبقات القديمة صاحبة الامتيازات ، لدعم مجهودهم الحربي ، بدون ان يعدوا الثوريين المحليين باستقلال في المستقبل .

احبط هذا المرسوم المشروع الذي كان وضعه دومورييه بصدد اقامة دولة بلجيكية مستقلة يتولى شخصيا رئاستها . فعاد الى باريس على جناح السرعة ليحث اعضاء **المجلس الوطني** على الغائه فلم يفلح الا في مضاعفة الشكوك التي كانت تحوم حول شخصه . والواقع ، لم يكن لدى المجلس أي رغبة في التضحية بالرجال والاموال ليقدم لدومورييه امارة ينصرف بها . وقطع انصار الحكم القائم في بلجيكا كل أمل ورجاء : فقد كانوا يمثلون الطبقات صاحبة الامتيازات التي استهدفها المرسوم . ولم يكن الديمقراطيون افضل منهم حالا . فقد حلموا بجمهورية يكونون اصحاب القول الفصل فيها ، فاذا بهم يجدون انفسهم في أوضاع شبيهة باوضاع الحرب ، بلا اي ضمانة للمستقبل ، يلازمهم جنرالات ومفوضون مدنيون يستغلون ثروات البلاد ولا يوفرون لهم أي حماية ضد اعمار الثأر التي قد يقدم عليها مواطنوهم ضدهم . وقد ارتأى كثيرون منهم انه من الخير لهم ، وقد آلت الحال الى ما آلت اليه ، أن تقوم فرنسا بضم بلجيكا . وخلال تلك الاسابيع من التطورات المحمومة التي شهدت صعود لويس السادس عشر الى المقصلة وتمرد دومورييه ثم خيانته ، راح **المجلس الوطني** يميل اكثر فأكثر الى تبني فكرة الضم .

اول طلب بالضم صدر عن اسقفية لييج . والحال ان لييج الممتدة فوق خمس اراضي بلجيكا الحالية ، والقاسمة اياها الى شطرين ، لم تكن من ضمن الاقاليم النمساوية العشرة . وكانت هذه الاسقفية قطعت شوطا اوسع على طريق التصنيع ، وكان جل سكانها من التجار والعمال . وقد انجزت ثورتها في عام ١٧٨٩ . لذلك لم يكن لدى ديمقراطيي لييج أي رغبة في الاندماج

مع الاقاليم النمساوية المتخلفة لتشكيل واحد من تلك الابتكارات الجديدة التي ستعرف باسم الدولة البلجيكية . بل كانوا يفضلون الانضمام الى فرنسا . ومن جديد جرت انتخابات في مدن الاقاليم النمساوية وقراها . وتحت تأثير العسكريين الفرنسيين والديمقراطيين البلجيكيين الذين وعدوا بالغاء العشور والاتاوات المولوية ، اجمعت معظم الهيئات التمثيلية المنبثقة عن تلك الانتخابات على المطالبة بالاندماج بفرنسا .

في شباط ١٧٩٣ اتخذ **المجلس الوطني** قراره بضم بلجيكا . وقد قضى هذا القرار بان تتحول الاقاليم النمساوية واسقفية لييج الى مقاطعات فرنسية ، وبان يمنح مواطنوها حقوق المواطنين الفرنسيين عينها ، وبان يلزموا بدورهم بتداول العملة الورقية وبدعم المجهود الحربي .

قابل الثوريون الهولنديون هذه التطورات بذهول ووجوم . ففرص الثورة في البلدان الواطئة الهولندية كانت تتعاظم باطراد . ومنذ ان فتح نهر الاسكو في وجه التجارة البحرية في تشرين الثاني ، كانت الحرب مع فرنسا امست وشيكة في نظر الحكومتين البريطانية والهولندية اللتين اشتد عداؤهما نحو الجمهورية قاتلة الملوك بعد اعدام لويس السادس عشر . وبادر الفرنسيون انفسهم الى اعلان الحرب على الهولنديين والبريطانيين ، الذين انضموا الى النمسا وبروسيا وسردينيا ونابولي واسبانيا لتشكيل اول تحالف عسكري ضد الثورة الفرنسية . واصدر **المجلس الوطني** الفرنسي اوامره الى دوموريه باجتياح الاقاليم ـ المتحدة . وانضم الثوار الباتافيون اليه . وفي اثناء ذلك بادر هولنديان ، احدهما من النبلاء ويدعى كابلنر فان دير مارش ، والثاني صيرفي ويدعى ابيما ، الى اعداد دستور يحدد الحرية والمساواة في بلديهما .

لم يكن الباتافيون يرغبون في مشاركة البلجيكيين مصيرهم . فلا الضم الى فرنسا ، ولا تطبيق مرسوم ١٥ كانون الثاني كان يناسبهم . كانوا يتمنون ان يصبح بلدهم ، لا منطقة محتلة ، بل

جمهورية منفصلة ، يضطلع فيها نظام هولندي ، حليف لفرنسا ، بمهام حكم السكان الهولنديين حكما مباشرا ، الى جانب تصديه للثورة المضادة ومحاربتها . لكن الفرنسيين عارضوا هذه الامنيات . وأعلن كامبون (٩) ، بلهجة جافة ، امام اعضاء وفد باتافي قدم لزيارته ، انه سبق للهولنديين أن قاموا بثورتهم قبل قرنين من الزمن ، وأنه لا كنيستهم البروتستانتية ولا سلالتهم الحاكمة ، سلالة اورانج ، تملك قدرا كافيا من الثروات ليطالها مرسوم كانون الاول بالمصادرة . لذلك اقترح على أعضاء الوفد المحافظة على الدخل العام في حدوده القائمة في هولندا ، مع اخضاعه للاشراف الفرنسي خلال فترة الاحتلال . باختصار ، لم تكن الحكومة الفرنسية ، في عام ١٧٩٣ ، تشجع على « تثوير » هولندا . وقد انفرد المتعصبون للثورة من امثال مارا الذي لم يكن شغل قط أي وظيفة ، بالمطالبة بالتصفية الشاملة للمؤسسات الهولندية القديمة . على كل حال ، تكفل التحول الذي طرأ على الوضع العسكري بوضع حد لهذه المشكلة لمدة عامين .



عمّت الانتفاضات والثورات منطقة الراين في تلك الفترة . ففي هذه المنطقة ، التي كانت تضم زهاء مئة دويلة جرمانية ، لم يكن مدلول القومية السياسية قد تحدد بعد . لذلك كان من السهل اعتبار الثورة حركة شاملة كلية يحق للجميع المشاركة فيها . وكانت المطالب تنهال من كل حدب وصوب . فالفلاحون كانوا يتطلعون الى التحرر من الاتاوات الاقطاعية ومن التبعية المولوية . وفي اكس ــ لا ــ شابيل ، المدينة الكاثوليكية ، كان البروتستانتيون

(٩) جوزيف كامبون ( ١٧٥٦ ــ ١٨٢٠ ) : نائب فرنسي من اعضاء المجلس الوطني، ابتدع في عام ١٧٩٣ فكرة دفتر الدَّين العام . « م » .

يتذمرون من التمييز الذي يعانون منــه . وفي مقاطعتي تريفــن وكولونيا ، كانت الطبقة الثالثة تطالب بالمساواة الضريبية . وقـد ايقظت رؤية المهاجرين الفرنسيين المتجمعين في كوبلانس مشاعر عدائية حادة ازاء الادعاءات الارستقراطية . وفي ماينز ، كــان المشرف على مكتبة الجامعة ، جورج فورستر ، قد أسس في عام ١٧٩٢ ناديا للمتعاطفين مع الفرنسيين . وارتدى هذا النادي، في البداية ، طابعا سريا ، لكن عندما احتل الفرنسيون ماينز فـي تشرين الاول ، راح يمارس نشاطه علنا . وفي آذار ١٧٩٣ ، عقد اعضاء اندية مماثلة ــ كانت قد انتشرت في سائر انحــاء منطقة الراين ــ اجتماعا عاما لهم في ماينز . وأطلقــوا علــى انفسهــم اسم « المجلس القومي الريناني ــ الالماني » ، وطالبوا بحق الشعب في السيادة ، أي عمليا بتخلي ثلاثة وعشرين حاكما عن مناصبهم في مساحة لا تتجاوز السبعين كيلومترا . وبما ان هــذا المجلس كان يفتقر الى قاعدة يعتمد عليها ، فقد صوّت لصالح الانضمام الى فرنسا . وكان هؤلاء الالمان يتأملون في أن تتوفر لهم حمايــة افضل من الثورة المضادة ، وفي ان يفوزوا بقدر اكبر من الحرية والمساواة في ظل الجمهورية الفرنسية منهم في ظل المانيا سياسية لم يكن لها من وجود بعد .



في جينيف ، التي كانت محايدة وغير محتلة مــن قبــل الفرنسيين ، انبعثت الثورة ، التي كانت اندلعت قبل ثلاثيــن عاما، من رمادها . فالردة التي فرضت نفسها فــي عام ١٧٨٢ ضاعفت اعداد المتذمرين والساخطين . وبما أن الحــدود الفرنسية مــا كانت تبعد سوى كيلو مترات معدودة ، فقد ثارت خواطر الفلاحين من « رعايا » مدينة جينيف لــدى رؤيتهم الفلاحيــن الفرنسيين يشكلون بلدياتهم الخاصة ويمتنعون عن تسديد الضرائب والاتاوات.

فبادروا الى الانضمام الى اكثر طبقات المدينة فقرا لتأسيس حزب « المساواتيين » . ومع ضم مقاطعة السافوا الى فرنسا ، وانتشار الاضطرابات في المنطقة الرينانية وفي بلجيكا ، قام « المساواتيون » بثورة صغيرة في جينيف . أنشؤوا جمعية وطنية لذلك العدد الضئيل من السكان الذي ما كان يتجاوز الثلاثين الف نسمة ، وطوروا انديتهم السياسية ، ومارسوا ، بعد عامين ارهابا محليا ضد « خونة » ١٧٨٢ باصدارهم دستورا ديمقراطيا . لكن جينيف، التي كانت مجرد منطقة محصورة داخل الاراضي الفرنسية ، والتي لم تكن في يوم من الايام جزءا من الاتحاد الكونفدرالي السويسري ، وغير مؤهلة حتى للمحافظة على هوية مميزة ، ضمت الى فرنسا آخر الامر ? في عام ١٧٩٨ .

★ ★ ★

ثمة تحول مفاجىء في الاجواء السياسية جاء ليضع حدا مباغتا لهذه المضاعفات الثورية . فبعد فالمي ، حوّل البروسيون مجهودهم العسكري من فرنسا الى بولونيا للحؤول دون استيلاء الروس على هذا البلد . وبحجة محاربة « روح الديمقراطية الفرنسية » واحباط « مناورات الجواسيس اليعاقبة » المزعومة ، ارسل فردريك غليوم الثاني جيوشه الى بولونيا في كانون الثاني ١٧٩٣ . وقد ابرمت روسيا وبروسيا اتفاقا اسفر عن تقسيم جديد للبلاد ، مع اعترافهما بوجود دولة بولونية ، مناهضة للثورة بكلّ معنى الكلمة ، يحكمها بولونيو تارغوفيكا . وهكذا قضي على الثورة البولونية . كوزيوسكو ، الذي عجز عن الحصول على مساعدة فرنسية ، غادر باريس واقفل عائدا الى بولونيا ليقوم بمحاولة جديدة فيها .

كان النمساويون ، في اثناء ذلك ، قد عاودوا الهجوم في الغرب ، حيث اعادوا احتلال اكس ــ لا ــ شابيل ولييج . دوموريه،

الذي كان في هولندا ، عاد على جناح السرعة الى بلجيكا . وكـان دوموريه ، الذي عجز عـن السـيطرة على خلافـات البلجيكيين الداخلية ، والذي حال **المجلس الوطني** الفرنسي بينه وبين تحقيق خططه في بلجيكا والمتهم بالاختلاس من قبل بعضهم فـي باريس ، والمحيط بشخصه قدر من الارتياب بسبب علاقاته مع المعتدلين من امثال بريسو ، كان دوموريه اذن في حاجة ماسة الى رفـع أسهمه المتدنية بانتصار خارق كالذي اجترحه في جيماب . وقد جرّب حظه ، وخسر : فقد هزمه النمساويون في نيرفندن فـي ١٨ آذار . ولم يبق امامه ، عند ذاك ، غير ان يعقد صلحا شخصيا مع النمساويين . وهكذا ادان روح العنف السائدة في باريس ، بل لم يحجم عن اعتقال خمسة من اعضاء **المجلس الوطني** كانـوا قدموا اليه لمحاسبته على سلوكه . وقد ناشد قواته أن تتبعه الى باريس لحل المجلس الوطني ، لكن الجنود رفضوا : فرجال الصف كانوا لا يزالون يؤمنون بالثورة . وفي النهاية استسلم دوموريه للنمساويين ، مع مجموعة صغيرة من أنصاره ، ومنهم الملك المقبل لويس ــ فيليب .

عرفت الثورة مع ، خيانة دوموريه ، واحدا من انعطافاتها العديدة . فقد طرد الفرنسيون من منطقة الراين وفي بلجيكا ، واخترق النمساويون الحدود الفرنسية . وعصفت ريح الرعب والجنون في رؤوس الثوار . فلئن يكن دوموريه الشهير خـان ، فمن تراه يكون جديرا بالثقة ؟ وتردى بصورة نهائية موقف جماعة اصدقاء بريسو ، التي لم تكف عن التغني بفضائل القائد العسكري. وعاد الآلاف من الثوار البلجيكيين والهولنديين والالمان يبحثون من جديد عن ملاذ لهم في فرنسا . وجاءت تظلماتهم واتهاماتهم لتزيد من حدة كابوس الرعب الذي جثم على صدر باريس : فقد اختلط حابل فتنة شعب جائع بنابل الاتهامات التي كان يتبادلهـا زعماء الثورة ، وامتزجت اخبار العصيان في المناطق الغربية من فرنسا بصيحات الثأر التي كان يطلقها اللامتسرولون ، الناقمون على تردد

**المجلس الوطني** واعتداله ، والمطالبون بتطهير صفوفه .

في ربيع ١٧٩٣ ، ساد صفوف المحرضين على الثورة المضادة شعور بأن الحريق الذي اجتاح فرنسا بدأت ناره تخبو وتنطفىء ، على نحو ما حدث في بولونيا . فعكفوا على وضع المشاريع ورسم الخطط لاعادة الامور الى نصابها .

## الفصل الرابع

# فرنسا : الثورة التي لا تقهر

ان السنوات الثلاث من حكم **المجلس الوطني** جسدت مسبقا تاريخ اوروبا اللاحق ، في ملامحه الاساسية . فقد برزت مذاك الخطوط الاولية للتمايز القائم بين اوروبا غربية اكثر ليبرالية واوروبا شرقية اكثر استبدادية . في الشرق ، كان النصر حليف الثورة المضادة . فقد سحقت بولونيا وقطعت اوصالها . وبعد عام ١٧٩٥ ، انفقت ملكيات الشرق الثلاث معظم طاقاتها ، جيلا بعد جيل ، على احكام قبضتها على المناطق التي احتلتها في بولونيا ، وعلى التحسب لتوطد الديمقراطية الدائم في الغرب ، وعلى حماية طبقاتها صاحبة الامتيازات من مد السخط الشعبي الصاعد . وقد لبثت على هذا الوضع الى ان جاءت الحرب العالمية الاولى تحيلها الى سلة المهملات .

اما في فرنسا ، وبالتالي في المناطق الاوروبية الغربية الداخلة في نطاق دائرة تأثيرها ونفوذها ، فقد اخذت الاحداث منحى مختلفا تماما . فالثورة المضادة لم تحرز نجاحات مماثلة . فقد هزمت على يدي **المجلس الوطني** ، او بالاحرى على يدي

الشعب الفرنسي الثائر ، المعبأ ، المجهز ، والموجه من قبل قادة كانوا يحكمون باسمه .

مما لا مراء فيه ان **المجلس الوطني** الفرنسي كان واحدا من اعظم الهيئات التمثيلية التي عرفها تاريخ البشرية . فقد « خلق سياسة المستحيل » ، على حد تعبير ألكسي توكفيل ، الذي لم يكن ، كما هو معروف ، من مؤيدي هذا المجلس . وعن لجنته القيادية ، **لجنة السلامة العامة** ، يقول توماس كارليل انها « كانت اغرب مبدد للعواصف عرفته الارض » . وعن هذه اللجنة قال نابوليون ، ذات مرة ، انها كانت الحكومة الجدية الوحيدة التي عرفتها فرنسا ابان الثورة . اما جوزيف دوميستر ، الرجعي المتطرف ، فقد اعتبر هذا المجلس ضربا من « المعجزة » .

كان **المجلس الوطني** يتألف من ٧٨٠ عضوا انتخبوا بالاقتراع العام في مرحلة لم يكن فيها وجود لاحزاب سياسية قادرة على تقديم مرشحين ، وفي ظروف الحرب ، والاجتياح ، والريبة ، والفوضى ، والهيجان الشعبي التي كانت سادت فرنسا في ايلول ١٧٩٢ . ومع ان **المجلس الوطني** ضم في عضويته ما يقارب من عشرين نبيلا سابقا ، واربعين رجل دين ، فانه كان يمثل الطبقة الوسطى في غالبيته الساحقة . وكان نصف اعضاء **المجلس الوطني** تقريبا قد مارسوا المحاماة او المهن الحرة قبل الثورة ، وربع هؤلاء الاعضاء كان قد شغل وظائف عامة ، في حين جاء عشر اعضائه من عالم التجارة . ولم يكن عدد اعضاء المجلس من مواليد باريس يجاوز العشرين . كان معظمهم قد أصاب شهرة في باريس او في الاقاليم في بحر السنوات الثلاث الاخيرة . كما ان ما من أحد من بين هؤلاء الاعضاء، باستثناء بعض الاشخاص النادرين – كوندورسيه مثلا او الرسام دافيد – كان شغل منصبا هاما قبل عام ١٧٨٩ . وباستثناء بضع عشرات من الاعضاء سبق لهم ان عملوا معا في الجمعية التأسيسية او في الجمعية التشريعية ، فان غالبية اعضاء **المجلس الوطني** كانوا يجهلون بعضهم بعضا عندما اجتمعوا للمرة

الاولى بعد انتخابهم . مع ذلك تمكنت هذه التركيبة من الاشخاص ، التي لم تضم الا عديمي الكفاءة والاهلية في نظر الصفوة الاوروبية، من بناء حكم ، وتجنيد جيش من مليون نفر تقريبا ، والانتصار على أول تحالف عسكري اوروبي مناهض للثورة الفرنسية . وهذا التحالف الذي ضمّ في عام ١٧٩٣ جميع الدول الكبرى الاوروبية، خلا روسيا ، أضحى ، في اواخر عام ١٧٩٥ ، مقتصرا على النمسا وبريطانيا التي عمدت الى سحب جيشها الصغير من القارة الاوروبية .

في البداية سار **المجلس الوطني** في ركاب روبسبيير ، ثم تنكر له . تعاون ، في مستهل عهده ، مع الثوار الشعبيين ، ثم قضى عليهم . قاد **الارهاب** ، ثم وضع حدا له . اقام نظام مراقبة اسعار واقتصاد موجه ، وبادر الى الغائه فيما بعد . أقر دستور عام ١٧٩٣ ، الذي طغى عليه طابع ديمقراطي بارز ، ثم دستور ١٧٩٥ الذي جاء أكثر تجاوبا مع العناصر المثقفة ، النشيطة ، الميسورة ، المقدامة ، والعامية من الشعب الفرنسي — اي البورجوازية — والذي سرعان ما اقتدت به الجمهورية الباتافية والسويسرية وغيرهما باعتباره النموذج الامثل للدستور الديمقراطي ، وأثار موجة من الاعجاب في صفوف الارلنديين واليونانيين . وكان هذا **المجلس الوطني** الخارق اول من طرح ، في مرحلته الروبسبييرية ، النظرية الحديثة للدكتاتورية الثورية ، بانشائه المحاكم الاستثنائية واللجان المخولة صلاحيات استثنائية ، وان يكن عمد فيما بعد الى الغائها .

صحيح ان الاشخاص الذين اضطلعوا بهذه الاعمال والمبادرات تغيروا عبر مختلف الاطوار التي مر بها المجلس . فثمة ١٢٠ عضوا من اعضاء المجلس اعتقلوا لفترات متباينة ، وثمة ٧٤ عضوا آخر أعدموا . لكن يبقى ان عددا كبيرا من اعضاء هذا المجلس حافظوا على مقاعدهم ، مبدلين مواقفهم ووجهات نظرهم وفق مقتضيات الساعة والاخطار المحدقة ، مما يبيح القول ان **المجلس الوطني**

يتحمل كامل مسؤولية الاعمال الايجابية والسلبية التي نفّذت باسمه .

★ ★ ★

من المحقق أن يد **المجلس الوطني** لم تطلق في السياسة الداخلية اكثر مما اطلقت فيالخارج، في بلجيكا على سبيل المثال . فخلال العام الاول من عهده ، خضع المجلس لضغوط قوية صادرة عن المناضلين الباريسيين ، أي عن الديمقراطيين الشعبيين او « اللامتسرولين » ، المتطرفين الحقيقيين . ولم يكن هؤلاء ينتمون ، في الواقع ، الى الطبقات الدنيا . فهم لم يأتوا من صفوف المحرومين ، أو المشردين ، او العاجزين او البؤساء ، وان كانوا ، من حيث مكانتهم الاجتماعية ودخلهم ، دون اعضاء نادي اليعاقبة او **المجلس الوطني** منزلة . كانوا ، في غالبيتهم ، من اصحاب الحوانيت ، وصغار الصناعيين ، والتجار ، والحرفيين ، والحلاقين واصحاب المقاهي . وكان بعضهم يعيش من أجر يومي ، وبعضهم الآخر من ريع تجارته او من بيع سلع يتولى هو ، او من هم في خدمته ، انتاجها . لم يكن القاسم المشترك الذي يجمع بينهم متمثلا بطبيعة دخلهم ، ولا بالدور الذي يضطلعون به على صعيد الانتاج ، لذلك رفض المؤرخون الماركسيون اعتبارهم « طبقة » ونوهوا بالتناقضات القائمة داخل صفوفهم . لكن هؤلاء الشغيلة المحترمين وغير الميسورين كان يجمعهم نمط حياة بسيطة واحد ، وعداء واحد للطبقات العليا يطال ، في من يطال ، في بعض الاحيان ، **المجلس الوطني** عينه . وكانوا يحضرون بانتظام اجتماعات الحي التي كانت تعقد في « شُعَب » باريس او المدن الاخرى ويترددون على الاندية الشعبية ، ويطالعون صحيفتي مارا وهيبرت الحماسيتين ، او يطلعون من سواهم على مضمونهما ان كانوا لا يجيدون القراءة . وكانوا ، بحكم عضويتهم في لجان

الشعب ، يخرجون في دوريات ، ويفتشون البيوت ، ويشرفون على توزيع بطاقات الهوية الشخصية وبطاقات الاعاشة . وكانوا ، بين الحين والآخر ، يجتمعون لتنظيم « يوم ثوري » .

كان اللامتسرولون يتأملون هم ايضا في اجتناء مكاسب شخصية عن طريق الثورة . كانت آراؤهم الاقتصادية تقليدية تماما . فارتباطهم بعالم الحانوت الصغير والانتاج الحرفي جعلهم يرتابون من التجارة بالجملة ، ويكنون مشاعر العداء للصيارفة ، وينظرون الى المنشآت التجارية الجديدة العاملة على نطاق واسع على انها وسائل يتوسل بها الاغنياء لزيادة حجم ثروتهم . وبما انهم كانوا يقيمون في المدن ، ويفتقرون الى الاموال المدخرة ، فقد تعذر عليهم الاستفادة من بيع املاك الكنيسة أو المهاجرين . والواقع انهم لو وهبوا مجانا قطع أرض ليزرعوها او بيوتا في المدن ، لما اعتبروا مشكلتهم بحكم المحلولة . فالذي كانوا يرغبون فيه حد ادنى من الحياة اليومية اللائقة ، واجر يسمح لهم بالعيش الكريم في المهن التي يحترفونها ، واسعار معقولة للخبز وللسلع الضرورية . فقد عانت هذه الشريحة الاجتماعية ، أكثر من غيرها ، من التضخم النقدي. فالارتفاع الجنوني للاسعار، والرفوف الخالية مما يشترى لدى الخباز أو لدى العطار ، كان يثير سخطهم واستنكارهم . وان سكتوا هم ابت نساؤهم السكوت وحرضنهم . كانوا يطالبون برقابة صارمة على اسعار البضائع التي كانوا بأمس الحاجة الى شرائها . وعندما كانت تفقد من الاسواق ، كانوا يعزون نقصها الى المضاربة والتآمر . لم تكن لديهم في الحقيقة نظريات اقتصادية . وكانوا يعيرون اهمية محدودة للغاية للحريات الدستورية . فمبدأ سيادة الشعب كان يعني بالنسبة اليهم الحق في ان يتصرفوا من تلقاء أنفسهم . وكانوا يرتابون في السلطة الموكلة ولا يثقون في الهيئات التمثيلية البعيدة عنهم . كانوا يرغبون في نوع من الديمقراطية المباشرة تمارس من خلال اجتماعات الشعبة او تظاهرات الشارع .

كان يحز في نفس هؤلاء المواطنين ، المتعلقين بقوة بفكرة المساواة ، ان يعاملوا بازدراء وتعال من قبل من هم أعلى منهم مرتبة اجتماعية . وبما أنهم كانوا من ابناء القرن الثامن عشر ، أي محافظين على طريقتهم الخاصة على الصعيد الاقتصادي ، فقد كانوا يكتفون بمستوى منخفض للغاية من الرفاهية المادية ، معتبرين هذا التقشف ضربا من الفضيلة . وكانوا يميلون الى الاعتقاد بأن الطريق الامثل الى تحقيق المساواة يمر عبر تحريم الثروات الطائلة، لا عبر زيادة الانتاج او رفع مستوى الحياة . ولم تكن لهم آراء خاصة في حقل التربية وتأمين فرص غد أفضل . ولئن كانوا يرتابون في الثقافة التي تأتي عبر الكتاب وفي ضروب الارهاف الفكري ، فقد كانوا بالمقابل يتطلعون الى تخفيض نسبة الامية والى تأمين المزيد من المدارس والاعداد المهني لابنائهم . كانوا يسخرون من عادات الذين لا يعملون بأيديهم ومن زيهم . كانوا يهفون بكل جوارحهم الى قيام عالم جديد ، لكنهم كانوا يعيشون على هاجس الخيانة . وكانت مخاوفهم مبررة على كل حال . فقد وضعوا ثقتهم في لويس السادس عشر ، فانقلب عليهم . ووضعوا ثقتهم في لافاييت ؟ فاذا بلافاييت يولي الادبار . وكان المهاجرون من الارستقراطيين ورجالات الكنيسة يهددون بالعودة ثانية . ولم يكن في وسع احد ان ينكر ان اوروبا ، في عام ١٧٩٣ ، تدججت بالسلاح لمحاربة الثورة الفرنسية .

على هذا النحو جبل الاشخاص الذين اطاحوا بالملكية في العاشر من آب ، والذين دان لهم **المجلس الوطني** ، الى حد كبير ، بوجوده . وقد جاء تخلي دوموريه عن قضية الثورة وارتداده عن خطها ليوقظا هاجس الخيانة لديهم . كما لعب تضخم الاسعار ونقصان المواد الغذائية دورهما في تفاقم سخط الشعب وغضبه . وعلاوة على ذلك ، وردت على باريس في تلك الفترة الحرجة أنباء عن تمرد بعض الاقاليم . ففي مقاطعة فانديه ، وغير بعيد عن مصب نهر اللوار ، ثار سكان الريف ضد المدن المجاورة وعصوا

اوامر **المجلس الوطني** . وقد استفحل استياءهم وتذمرهم الكهنة ، والنبلاء الريفيون ، والعملاء السريون للمهاجرين وللحكومة البريطانية . وثمة تمرد من نوع آخر بدأت تلوح نذره في الافق : « التمرد الفدرالي » الذي حدا بالعديد من المدن الاقليمية الكبرى الى التمرد على باريس . وكان الزعماء المحليون لهذه المدن ، وجلّهم من الاغنياء ، قد وقفوا حتى ذلك الحين في طليعة صفوف الثورة . ولئن انقلبوا على **المجلس الوطني** فلانه اضحى في نظرهم ، وهو المطالب بتمثيلهم ، اسير جماهير العاصمة الجاهلة والغبية . وهكذا غرقت فرنسا في حمأة الحرب الاهلية ، في وقت هدّدت فيه القوات النمساوية ، والبروسية ، والهولندية ، والاسبانية ، والسردينية ، بالاضافة الى الاسطول البريطاني الذي كان يقوم بدوريات على مقربة من شواطىء بروتانيا ، هددت خمسة أضلع على الاقل من اضلاعها الستة (١) .

في **المجلس الوطني** ، كانت غالبية الاعضاء تتخوف من اللامتسرولين وتتأمل في الافلات من قبضتهم . وقد انشأ المجلس، بعد انقضاء ايام معدودة على خيانة دوموريه ، لجنة تنفيذية خاصة، يعاد انتخابها شهرا بعد شهر . وقد اصبحت فيما بعد هي **لجنة السلامة العامة** الذائعة الصيت . وتجاوبا مع صيحات الشعب التي استهدفت المشبوهين ، وتجنبا للمجازر البشعة التي حصلت تكرارا ، انشأ المجلس ايضا محكمة ثورية . كما فرض حدا أقصى لسعر الخبز . بيد ان هذه الاجراءات لم ترضِ اللامتسرولين . وكان هؤلاء يلقون دعما ومساندة من قبل كومونة باريس ، وروبسبيير ، وبعض اعضاء المجلس ممن كانوا على اتفاق وتفاهم مع المناضلين الشعبيين ولا يريدون ان يخسروا تأييدهم في ايام الخطر والحرب تلك ، او يطلبون

---

(١) تلقب فرنسا عادة ، بحكم شكلها على الخريطة ، ب « المسدس الاضلاع » . « م » .

مؤازرتهم للاطاحة ببريسو وبغيره من منافسيهم . وحصلت حركة عصيان مسلح ، استمرت من ٣١ ايار الى ٢ حزيران ، وبلغت ذروتها مع مهاجمة **المجلس الوطني** من قبل آلاف الوطنيين المسلحين ، الذين قدموا من سائر ارجاء المدينة. وبما ان المقاومة كانت مستحيلة ، فقد رضخ المجلس ، ووعد بخطوات اضافية اخرى ، واصدر أمره باعتقال ٢٩ شخصا من اعضائه ، ممن عرفوا تاريخيا باسم **الجيرونديين** . وفي مطلع ايلول ، نظم اللامتسرولون تظاهرة حاشدة اخرى ضد **المجلس الوطني** توكيدا لقوة الضغط الشعبي .

هكذا أمسى « الجبل » ، المتحالف مع اللامتسرولين ، يمسك بزمام السلطة . ويتعذر علينا تحديد عدد اعضاء المجلس الذين كانوا ينتمون الى جماعة « الجبل » ، التي اطلق عليها هذا الاسم لان افرادها كانوا يحتلون المقاعد العلوية في قاعة الاجتماع . ما يمكن قوله ان جماعة صغيرة غير واضحة الانتماء تضم في عضويتها كلا من روبسبيير ، وسان ـ جوست ودانتون ، تمكنت ، بعد انقضاء عام واحد على حزيران ١٧٩٣ ، بلجوئها الى الطرد والتهديد تارة ، والى الاقناع او التلويح بالخطر العام طورا ، تمكنت من انتزاع تأييد غالبية اعضاء المجلس ، بمن فيهم اولئك الذين عرفوا باسم الترميدوريين بعد موت روبسبيير .

لما كان **المجلس الوطني** هيئة تأسيسية في المقام الاول ، فقد بادر **الجبل** ، خلال ايام قليلة ، الى اصدار دستور عرف فيما بعد باسم دستور العام الاول . ومن جملة ادوات الديمقراطية التي تضمنها هذا الدستور اعلان حقوق ، والاعتراف لجميع الرجال بحق الاقتراع ، وترتيبات لتنظيم المبادرات الشعبية والاستفتاءات. وقد دعي الشعب الى التصويت على هذا الدستور ( لم ينص لا الدستور السابق ولا الدستور الفدرالي الاميركي على اجراء مماثل ) فأيده ١٨٠١٩١٨ مقترعا مقابل ١١٦١٠ . لكن **المجلس الوطني** راى ان الظرف لا يسمح باقامة حكم دستوري ، فعلق

تطبيق الدستور الجديد طيلة فترة الحرب . وفي الواقع ، لم يقدّر لهذا الدستور ان يدخل يوما حيز التنفيذ . وقد محض معظم اللامتسرولين والديمقراطيين الشعبيين هذا القرار تأييدهم . واستردوا ثقتهم **بالمجلس الوطني** بعد ان طهّر صفوفه من العناصر الجيروندية « الضعيفة الايمان بالثورة » . لكن بعض المتطرفين ، من أمثال هيبرت ممن لم يكونوا أعضاء في **المجلس الوطني** وممن باتوا لا يعبرون تعبيرا صادقا عن المشاعر الحقيقية للطبقات الشعبية ، طالبوا بتطبيق فوري للدستور . كانوا يسعون في الواقع الى حل **المجلس الوطني** والى التخلص من لجنة السلامة العامة . وعلى هؤلاء الثائرين على الحكم الثوري اطلق روبسبيير اسم « المتطرفين » Ultras . ذلك ان **المجلس الوطني** كان انشأ ، عندما علّق الدستور ، « حكومة ثورية » استمرت حتى وفاة روبسبيير التي كانت بعد عام . وكان عضوها الحيوي لجنة السلامة العامة التي تشكلت في نيسان ، ثم تدعمت بعد اقصاء الجيرونديين وتعيين رربسبيير وسان ـ جوست وغوتون وغيرهم أعضاء فيها . وكان ثمة **لجنة للامن العام** ، غير خاضعة كل الخضوع للجنة السلامة العامة ، تنسق عمليات مراقبة المشبوهين بعد ان تضاعفت اعدادهم بصورة عفوية في شتى ارجاء البلاد . وقد آل الامر بهذه اللجنة في نهاية المطاف الى الاضطلاع بدور شرطة سياسية عليا تعمل تحت غطاء **قانون المشبوهين** التعسفي الذي اكل الاخضر واليابس . وجرى توسيع المحكمة الثورية ؟ وامست احكامها تصدر وتنفذ بالسرعة الكلية . وكيما يضمن **المجلس الوطني** تنفيذ اوامره في شتى انحاء البلاد ، اوفد اعضاءه الى المقاطعات والى القوات المسلحة . وكان هؤلاء الموفدون ـ « الممثلون المرسلون » ـ يرفعون تقريرهم مباشرة الى لجنة السلامة العامة . وقد اناط قانون ، صدر في كانون الثاني ، بهذه اللجنة مهمة الاشراف على الحكم المحلي الذي دبت فيه الفوضى من جراء الحرب الاهلية وعدم تطبيق دستور ١٧٨٩ ـ ١٧٩١ . والى جانب

هذا الجهاز الرسمي ، كانت الآلاف من الاندية السياسية ، التي تتلقى توجيهاتها من نادي اليعاقبة في باريس ، تعاضد السلطات المحلية في تنفيذ الاوامر الصادرة عن العاصمة .

ظل روبسبيير ، طيلة عام ، أكثر اعضاء الحكومة الثورية شهرة . بيد أن شهرته لا تقبل المقارنة ، في حال من الاحوال ، مع شهرة قادة ثورات القرن العشرين . فنزعة الذاكرة والاسطورة والتاريخ الى تبسيط الامور بالغت في تعظيم الهالة التي تحيط بشخصه . اما في حقيقة الحال فلم يكن ، في عصره ، سوى قائد بين مجموعة من القادة . ولم يكن ، طيلة حياته ، موضع عبادة فردية ، كما أنه لم يحط نفسه بهالة من العصمة . وقد دان بنفوذه لايمانه الراسخ بالثورة ، ولتصميمه على اتخاذ المواقف الحاسمة في اللحظات الحرجة ، ولبلاغته في زمن كان فيه للبلاغة مكانتها المرموقة ، ولما عرف عنه من تجرّد وترفع استحق معهما لقب **النزيه** الذي أطلق عليه . كان ، من حيث مناصب المسؤولية التي احتلها ، مجرد عضو في **المجلس الوطني** وفي لجنته الادارية التي لم يكن لها من رئيس . ولئن لم يؤلف كتبا أو مقالات ايديولوجية ، فانه لم يعرف الا من خلال خطبه . وتنطوي اهم خطاباته ، التي طبعت على الفور وأعيد طبعها من جديد في مطلع العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، على فلسفة للثورة الفرنسية في اكثر مراحلها ثورية وديمقراطية . لم يستخدم روبسبيير مرة واحدة كلمة « دكتاتورية » بمدلول ايجابي . بل انه حذّر مواطنيه مرارا وتكرارا من مغبة الانقياد وراء ذلك النوع من الدكتاتورية العسكرية الذي وضع به بونابرت حدا نهائيا للثورة . وليس هنالك على الاطلاق ما يدل على انه سعى وراء تحقيق مطامع شخصية . بيد انه طرح مع ذلك ، في كانون الاول من عام ١٧٩٣ ، ومن قبيل تبرير الحكومة الثورية ، نظرية في الدكتاتورية الجماعية ، المدنية ، الثورية ، مماثلة الى حد ما لتلك التي سيطورها فيما بعد ثوريو العصور اللاحقة . وكان يرى هذه الدكتاتورية في صورة نظام

قوي ، مؤقت ، سابق للدستور ، يحكم بقوة الشعب ، ويعمل على قهر المعارضة وهزيمتها ؛ ممهدا الطريق امام قيام شكل جديد من الحكم والمجتمع .

★ ★ ★

يمكننا ان نقول ، بصورة تقريبية ، ان العام الثاني من عهد الجمهورية هو العام الذي بدأ في تموز ١٧٩٣ ، مع انتخاب روبسبيير عضوا في مجلس السلامة العامة ، وانتهى في ٢٤ تموز ١٧٩٤ ( ٩ ترميدور ) ، مع اعلانه خارجا على القانون ، من قبل **المجلس الوطني** ، ومن ثم اعدامه . وقد بلغت الثورة ذروتها في ذلك العام ، عام **الفضيلة والارهاب** على حد تعبير روبسبيير بالذات .

كان **الارهاب** وسيلة قمع رسمية ومعترفا بها علنا . فلا محاكمه ، ولا سجونه ، ولا مقاصله كانت سرية . ولم يلجأ لا الى التعذيب ؛ ولا الى غسل الدماغ ، ولا الى الاعترافات التفاخرية والمخزية . ولم يكن عنفا متقلبا يعبر عن احتجاج افراد مثاليين وشجعان على سلطة تسحق وتخنق كل ما حولها . كما لم يكن من صنع حكم سدّت ابواب الامل في وجهه ، فراح يسعى الى القضاء على اعدائه باقتراف المجازر المديرة ، كمجزرة سان بارتليمي (٢) في عام ١٥٧٢ على سبيل المثال . كان هذا الإرهاب من صنع شرطة حكومية اكثر عقلانية ، وكان يهدف الى ضمان النصر في الحرب ؛ والى توطيد دعائم الجمهورية الثورية . وقد بدأ **الارهاب** في الواقع ( اذا استثنينا مجازر ايلول ، التي لم يخطط لها على صعيد السلطة ، واعدام لويس السادس عشر بقرار من **المجلس الوطني** )

---

(٢) مجزرة عامة حدثت في ليلة ٢٣ آب ١٥٧٢ ، أمر بها شارل التاسع وذهب ضحيتها ٣٠٠٠ بروتستانتي . « م » .

في ربيع ١٧٩٣ ، وفي الاجواء الاستثنائية التي خلقتها خيانة دوموريه ، وحركات العصيان الداخلية ، والاجتياح النمساوي للاراضي الفرنسية . وقد بُرر هذا **الارهاب** ، في المقام الاول ، بضرورة التمييز بين الاصدقاء والاعداء في فترة الحرب العصيبة . وكان تصنيف بعض المواطنين الى مشبوهين ومحرّضين واقعيا في البداية ، ولاسيما ان الثورة المضادة كانت تتمتع بوجود فعلي وان **المجلس الوطني** لم يكن مقبولا ومدعوما من قبل الجميع . لكن سرعان ما ادرج ، تحت يافطة المشبوهين والمحرّضين ، كل من هو معتدل في آرائه ، وغير متحمس بما فيه الكفاية للنظام او للقادة الجدد . وهكذا باتت تهمة « معاداة الدولة » تلصق بكل من يعارض رجال الحكم او ينافسهم . وأمسى التشهير بالناس واللجوء الى المقصلة عادة رائجة مع الاسف . وما من شخص لعب دورا في الثورة منذ عام ١٧٨٩ ، أصغيرا كان هذا الدور ام كبيرا ، أفي باريس ام في أي قرية فرنسية نائية ، الا وعاش على هاجس المثول امام المحاكم الثورية .

ومن حيث الحكم ، أي من حيث عدد الاشخاص الذين اعدموا بموجب أحكام صادرة عن المحاكم الثورية ، فان حيز **الارهاب** كان محدودا الى حد مذهل . فعدد الاشخاص الذين جرّموا ونفذت بحقهم عقوبة الاعدام لم يتجاوز سبعة عشر الفا . وكان ثلثا هؤلاء الاشخاص ، بمن فيهم من هلك في حوادث التغريق الشهيرة التي شهدتها مدينة نانت ومن أعدم رميا بالرصاص في ليون ، قد ادينوا بتهمة العصيان المسلح . وكان ثلاثة اخماس من نفذت بحقهم عقوبات الاعدام من الفلاحين والعمال . ولم يتخط عدد النبلاء الذين ذهبوا ضحية **الارهاب** نسبة ثمانية بالمئة ، اذ ان النبلاء الذين وافقوا على الغاء امتيازاتهم السابقة ، ولم يسعوا وراء الهجرة الى الخارج ، ولم يكن لهم انسباء مقرّبون في صفوف المهاجرين ، ظلوا في منأى عن الاتهامات الرسمية . صحيح ان ثمة عشرين ألف نبيل لاقوا على الارجح حتفهم ، « بصورة غير رسمية» ،

خلال عامي ١٧٩٣ و ١٧٩٤ ، وان ما ينيف على مئة الف نبيل آخر اعتقلوا للاشتباه بهم . لكن من حيث الكم ، فان **الارهاب** الذي لجأت اليه الجمهورية الاولى لترسيخ قواعدها لم يقض على عدد من الضحايا اكبر من ذاك الذي تسبب فيه القمع الذي مهد لقيام الجمهورية الثالثة على حساب عامية باريس في عام ١٨٧١ .

لم يكن **الارهاب** ظاهرة كمية فحسب . فقد نزع ، في جميع الميادين ، الى ان يكون انتقائيا ( باستثناء الاعدامات بالجملة التي تم اللجوء اليها لقمع العصيان المسلح ) وقد طال شخصيات وجماعات سياسية ظلت ذكراها حية فيما بعد . وهكذا صعدت ماري انطوانيت ، بعد لويس السادس عشر ، الى المقصلة .

اما الجيرونديون ، الذين جرى اقصاؤهم في الثاني من حزيران ، فقد اعدموا في تشرين الاول . ثم جاء بعد ذلك ، وبتحريض من روبسبيير ، دور المتطرفين ، « المهووسين » ، الملقبين بالهيبرتيين ( نسبة الى هيبرت ) . بعد ذلك جاء دور « المتسامحين » ، اي الدانتونيين ( نسبة الى دانتون ) الذين ابدوا عن رغبتهم في ان يصار فورا الى التخفيف من حدة حملات القمع والارهاب ، بدلا من ارجاء ذلك الى ما بعد احراز النصر العسكري . وفي فترة **الارهاب الاكبر** ، اي خلال شهري حزيران وتموز ١٧٩٤، اعدم عدد كبير من الاشخاص لم توجه اليهم سوى تهمة الانتماء الحزبي . وفي الرابع والعشرين من تموز جاء دور روبسبيير في الصعود الى المقصلة ، بصحبة اربعة من زملائه في **المجلس الوطني** . وكان فريق من اعضاء هذا المجلس قد اخذ على روبسبيير اعتداله ، في حين اخذ عليه فريق آخر تشدده وتطرفه . والحال ان كلا الفريقين كان يود التخلص من روبسبيير خوفا من ان يقضي عليه هذا الاخير . وقد كان لهؤلاء « الشهداء » جميعا اسطورتهم . ولئن تلاشت اسطورة الجيرونديين وانصار دانتون في عام ١٩١٤، فان اليمين الفرنسي بالمقابل حافظ طويلا على اسطورة الملك والملكة اللذين ذهبا ضحية الجمهورية ، في حين اعتبر اليسار الفرنسي

روبسبيير ضحية البورجوازية . لكن ، بعد عام ١٩٥٠ ، راح اليسار الجديد ينظر الى روبسبيير بالذات على انه بورجوازي ، ولم يتعاطف الا مع الذين كان روبسبيير قد ادانهم بتهمة التطرف .

لكن تبقى السمة الفعلية المميزة لعصر **الارهاب** متمثلة في اقترانه **بالفضيلة** ، اي بحلم ديمقراطي . وكان رأي روبسبيير بهذا الصدد يتلخص على النحو الآتي : ان كانت **الفضيلة** هي النابض الرئيسي للحكم الشعبي في ايام السلم ، فان هذه الفضيلة لا بد ان تقترن بالارهاب في ايام الحرب . اي ، كما يقول بالحرف الواحد : « ان الارهاب ، بلا فضيلة ، سيكون مشؤوما ووخيم العواقب . والفضيلة ، بلا ارهاب ، ستقف عاجزة لا محالة » . ان الفكرة القائلة انه لا ديمقراطية بدون فضيلة ، هي في الواقع من الافكار التي شاعت وترجعت اصداؤها في القرن الثامن عشر . وكانت تعني ان مسيرة الديمقراطية مستحيلة بدون روح المواطنية ، وبدون حد معين من انكار الذات ، وبدون القبول بمبدأ المساواة والاكتفاء بالاشياء البسيطة . لكن روبسبيير ذهب الى أبعد من اسلافه من منظري الديمقراطية من مثال روسو ومونتسكيو وجفرسون وجون ادامز . وما ميزه عنهم سعيه الى تطبيقها في ايام الحرب ، رغما عن معارضة قوية . لهذا السبب نجم **الارهاب** ، في رأيه ، عن « مبدأ الديمقراطية العام ، المطبق على امسّ حاجات الوطن واكثرها الحاحا » . وكان روبسبيير ، علاوة على ذلك ، يفكر بديمقراطية تمثيلية في بلد عديد السكان ، معقّد ومتحضر ، لا بالديمقراطية المباشرة لشعب صغير وبسيط كتلك التي كانت تتحدث عنها النظرية السياسية من قبله .

ان هدف روبسبيير الاساسي ، الرامي الى ان يجعلَ من فرنسا بلدا ديمقراطيا ، لم يحظ بالتأييد الشاملّ داخل **المجلس الوطني** ، حتى عندما بلغت فيه الحماسة الثورية ذروتها ، اي

في العام الثاني من عهد الجمهورية . وقد توضحت ملامح خطة روبسبيير على وجهها الاكمل في الخطاب الذي القاه امام **المجلس الوطني** في الخامس من شباط ١٧٩٤ . كان روبسبيير ، حتى تاريخ اقصاء الجيرونديين ، قد شجع الديمقراطية المباشرة والمبادرات المحلية العفوية **للكومونة** (٣) بمختلف شعبها . كما ذهب في بعض الاحيان الى تشجيع التمرد الشعبي . اما الآن ، فقد اصبح يلح على ضرورة اقامة نظام تمثيلي ومركزي . كتب يقول : « ليست الديمقراطية وضعا يتيح للشعب ، الملتئم في اجتماعات مستمرة ، ان يتولى بنفسه ادارة الشؤون العامة» . فمصير الديمقراطية سيكون الفشل حتما فيما لو بادرت « مئة الف جزيئة من الشعب » الى العمل في اتجاهات متناقضة ومتعاكسة . انما الديمقراطية هي الحالة التي تتيح للشعب ، صاحب السيادة ، ان « يقوم بنفسه بكل ما يتقن القيام به ، وان يعهد الى مندوبين عنه بالمهام التي يتعذر عليه القيام بها » . ومنذ ان اصبح في السلطة ، أمسى يرى في الديمقراطية شكلا من الحكم التمثيلي . وكانت هذه الفكرة غريبة تماما عن روسو . وخلافا للمتطرفين من امثال هيبرت ( وبابوف الذي كان لا يزال غير معروف في عام ١٧٩٤ ) الذين طالبوا بتطبيق دستور ١٧٩٣ ، وبالتالي بحل **المجلس الوطني** ، دعا روبسبيير الى منح هذا المجلس كامل الثقة ، باعتباره هيئة تمثيلية حقيقية . ثقة من شأنها ، في نظره ، ان تضمن المساواة المطلقة في الحقوق ، تلك المساواة التي تشكل هدف الثورة الرئيسي . ومن شأن الديمقراطية ، اذا ما احسن فهمها ، ان تشد من أزر فرنسا في

---

(٣) كومونة باريس : حكومة باريس البلدية ، عاشت من ١٧٨٩ الى ١٧٩٥ . وفي آب ١٧٩٢ حلت مكان الكومونة الشرعية كومونة ثورية اقامت نظام **الارهاب** . وقد استمدت **كومونة** باريس الثورية ( ١٨٧١ ) اسمها من هذه الحكومة البلدية . « م » .

الحرب ، اذ انهــا تعطي كل مواطــن وكل جندي شيئا يدافع عنه.
« ذلــك هو ، في رأيي ، السبب الحقيقي الذي ستكتب بموجبه الهزيمة على جميع الطغاة المتحالفيــن ضــد الثورة » .

دعما لهذه الديمقراطيــة السياسية والشرعية ، دافــع روبسبيير وسان جوست ومناصروهما عن فكرة مجتمع قائم على الملكيــة الصغيرة الخاصة ، على المزارع العائلية ، على المتاجـر او الورشات العائلية . مجتمع تتلاشى فيه التفاوتات العظمى فــي الثروات . لذلك عــمد **المجلس الوطني** ،في العام الثاني من عهد الجمهوريــة ، الى اصدار قانــون بتقسيم الموروث من الامــوال والاملاك الى حصص متساوية ، وقانــون آخـر بتسهيل شروط شراء ممتلكات المهاجريــن عــن طريــق تقسيمها قبل بيعهــا ، وتقسيط قيمتهــا على عشر سنوات . وفي اواخـــر شبــاط ١٧٩٤ ، خطا روبسبيير وسان جوست ، في مسعى منهمــا الــى تصفيــة المتطرفيــن وكسب تأييــد اللامتسرولين ، خطـــوة جديدة على طريق اعادة توزيع الثروات بفضل « قانون فانتوز ». وقد قضى هذان القانونان ، وان على نحــو مبهم وملتبس ، ببيع ممتلكات المشبوهيــن « للتعويض » على الفقــراء . والجديد في هذيــن القانونيــن انهمــا اخضعــا للمصادرة ، لا اموال المهاجرين والكنيسة فحسب ، بل اموال المشبوهين كذلك ، ونصا على توزيع حصيلة هذه المصادرةعلى الفقراء مجانا ، بدلا من اعادة بيعها للذين يملكون اموالا او أرصدة . بيــد ان برنامج فانتوز لم يعرف طريقه الى التطبيق . ويبدو انه لم يخلف وقعــا لدى اللامتسروليــن ، حتى ان **مؤامرة المساواتيين** ، التي قادهــا بابوف بعــد عامين ، لم تحفظ عنه اي ذكرى على الاطلاق .

وما كــان لهذا البرنامج على كــل حــال ان يلبي حاجــات اللامتسرولين الذين كانوا يتمنون ، في المقام الاول ، اجورا اعلى وأسعار ادنى ، وشروط سكن أفضل ، وايجارات خاضعة للرقابة. بيد ان هذا البرنامج يعطي صورة عن المثل الاعلى شبه الجفرسوني

لروبسبيير وانصاره : عالم ما قبل صناعي من ملاكين صغار ، متساوين فيما بينهم الى حد ما ، ومستقلين بأنفسهم ، ومؤلفين قاعدة مجتمع قائم على المساواة والديمقراطية .

اغلب الظن ان **الارهاب** ــ الذي كان بمثابة نظام للانضباط في بلد يمور ويغلي ، ووسيلة لقمع النشاطات الهدّامة ــ ساهم ، حتى شهريه الاخيرين على الاقل ، في تحقيق انتصار الجمهورية في الحرب . وذلك كان ، على وجه التحديد ، هدفه الاساسي في نظر معظم اعضاء **المجلس الوطني** . وفي الحقيقة ، ما كان من المحتمل ان تنبثق حكومة حرة عن تلك الدوامة من الاهوال والشكوك . وثمة واقعتان حالتا دون اقامة الديمقراطية التي خطط لها روبسبيير . فاكثر الديمقراطيين ايمانا بالديمقراطية ما كانوا مستعدين للتكيف مع حكم تمثيلي خالص . ولئن كان اعضاء **المجلس الوطني** ، من أبناء الطبقة المتوسطة ، مستعدين لماشاة روبسبيير ما دامت الازمة قائمة ، فانهم بالمقابل ما كانوا مستعدين على الاطلاق لان يتصرفوا وكأنهم مجرد ناطقين بلسان الطبقات الدنيا ، ولان يعكسوا ، على نحو آلي ، الافكار الشعبية عن اعادة بناء فرنسا ، او مبادىء **الانوار** التي ظلت ، حتى في عام ١٧٩٤ ، تمثل جوهر الثورة .



لكن ان كان **المجلس الوطني** في العام الثاني من عمر الجمهورية عجز عن ان يصنع من فرنسا بلدا ديمقراطيا ، فانه وفق بالمقابل في انجاز امور اخرى كثيرة . ويتعين على المرء في الواقع ان يطالع محضر المداولات الذي دارت فيه حتى يقيم تقييما صحيحا اعمال هذه الهيئة غير العادية التي اجرت ، في خضم **الارهاب** ، مناقشات مكثفة أسفرت ، فيما اسفرت عنه ، عن اقرار النظام المتري ، وانشاء المعاهد العليا ، وصدور قانون

نابوليون . وقد تمكن **المجلس الوطني** ، في حالة الطوارىء التي وجد نفسه فيها ، من تنظيم البلاد لمواجهة الحرب الخارجية والحرب الاهلية على حد سواء . كما اصدر مرسوما بالتعبئة الجماهيرية ، فرضت بموجبه الجندية الالزامية على الشباب كافة ، في حين الزم النساء والرجال الاكبر سنا بالعمل في انتاج المؤن والذخائر . ووسع المجلس رقابته على الاسعار والاجور، وكلف لجنة للاعاشة ، تابعة للجنة السلامة العامة ، بوضع برنامج اولويات في الانتاج والتوزيع . وبفضل هذه الاجراءات ، أمسى في مستطاع الحكومة ان تشتري ، بعملتها الورقية ، كل ما تحتاج اليه وان تتدارك ، الى حد ما ، النقص في المواد الغذائية وأن تحد من ارتفاع اسعارها . ولم يحصل قط في الماضي ، كما لم يحصل فيما بعد ، حتى عام ١٩١٤ ، أن تمركز اقتصاد بلد كبير ، وطاقاته ، ويده العاملة على هذا النحو ، بغية تحقيق هدف واحد أوحد . وكان على المؤرخين ان ينتظروا الحرب العالمية الاولى حتى يدركوا اهمية ما انجزته الحكومة الثورية . فحتى ذلك التاريخ كانوا اكتفوا بالتشنيع على بدعها الاقتصادية .

أسفرت عملية تعبئة الجماهير ، بفضل جهود لازار كارنو على الاخص ، عن خلق جيش شعبي منضبط ومنظم . كان جيشا من نوع جديد. وقد ادرك الخبراء العسكريون المستنيرون، ولاسيما في المانيا ، أهمية هذا الجيش ومغزاه . فالنظام القديم كان اعتمد ، في حروبه العديدة وانما المحدودة ، على جيوش صغيرة من الجنود النظاميين، الرفيعي التدريب والمؤللين بقدر او بآخر . لكن للمرة الاولى وجد ، في عام ١٧٩٣ ، جيش ضخم متحمس لمبدأ سياسي . وكان الضباط ، بمن فيهم الجنرالات ، في ريعان الشباب . وكان اقدامهم يكافىء ما ينقصهم من خبرة . وقد تمكنوا، بسرعة ، من منافسة الضباط النبلاء للجيوش المتحالفة في الجدارة والمهارة ، نظرا الى بساطة التكنولوجيا العسكرية في ذلك العصر . كان جندي الصف معتزا بحريته ، وكان مع ذلك ينصاع

للاوامر . كان يحافظ على كرامته بتقيده بنظام انضباطي لا يحط من عزة نفسه . وبما أنه كان يؤمن بما يفعل ، فقد كان بالامكان تركه يقاتل بمفرده . لذلك ارتفع عدد القناصين ، الذين كانوا ينتشرون ازواجا ويمهدون الطريق امام جيوشهم بمناوشة جيوش الاعداء . وثبت ان التكتيك التقليدي لفرق المشاة ، القائم على مبدأ اطلاق النار من صفوف منتظمة بدون تصويب هدف محدد ، عاجز عجزا شبه مطلق عن التصدي للقناصة الفرنسيين . وقد استفادت القوات الجمهورية ايضا من التحسينات التي كانت أدخلت على المدفعية قبيل الثورة . وبفضل الوحدات الجديدة من المواطنين ــ الجنود وما تبقى من جيش آل بوربون ، تم تشكيل قوة من مليون رجل ، تعكس الطبقات كافة في صفوفها كافة ، أي في صفوف الضباط والجنود على حد سواء . وخلال اشهر معدودة، تم احباط حركات العصيان والتمرد في الداخل ، وقضي عليها . وفي حزيران ١٧٩٤ ، هزم الجيش الثوري النمساويين في فلوروس ؟ واحتل من جديد بلجيكا ، وفرض عليها الهيمنة الفرنسية لمدة عشرين عاما .

بلغ مد الثورة العفوي ، المنبثق من الاسفل ، ذروته في الاشهر الاخيرة من عام ١٧٩٣ . وبعد ذلك أخذ بالانحسار . فقد ارتأت الحكومة الثورية يومئذ ان تحكم . ورغبتها في تنظيم نفسها بغية قطف ثمار النصر أدخلتها في صراع مع القوى الشعبية التي كانت اعطتها النور . وحل نظام جديد محل الحماسة الفوضوية . فالمتطرفون الذين كانوا قد طالبوا بالتعبئة الجماهيرية ، مثلا ، عمدوا الى تنظيم أنفسهم في اطار تشكيلات متجولة من المدنيين المسلحين ، اطلق عليها اسم « الجيش الثوري » . وانتشر هذا الجيش ، الذي انتقيت عناصره من باريس على الوجه الاخص ، في أنحاء البلاد لايقاظ المشاعر الوطنية ، والابلاغ عن المعتدلين والمشبوهين ، والتفتيش في المزارع عن المؤن والاغذية . وفي بادىء الامر ايدت لجنة السلامة العامة هذا الجيش ، لكنها تدبرت

أمره فيما بعد وتمكنت من حله . وتواكبت ذروة الحماسة الثورية ايضا بحركة رمت الى استئصال شأن المسيحية .

في ايلول ١٧٩٣ ، أقر **المجلس الوطني** تقويما جديدا صارت السنون تحسب بموجبه ابتداء من عام ١٧٩٢ ، عام مولد الجمهورية . وكانت هذه الرزنامة ، التي أطلقت على الاشهر والايام أسماء جديدة ، وجعلت « الاسبوع » يتألف من عشرة ايام بدلا من سبعة ، وألغت جميع ايام الاعياد الكنسية ، ترمي الى القضاء على عادات الماضي ، وعلى الاخص تلك التي استنها المذهب الكاثوليكي الروماني . وحتى رجال الدين «الدستوريون» أمسوا موضع شك وريبة . وأقدم بعض الكهنة على خلع ثوب الكهنوت ، وتزوج بعضهم الآخر ، وكأنهم ارادوا ان يثبتوا لانفسهم وللاخرين تصميمهم على اعتناق قضية الثورة . واحتلت الجماهير الكنائس ، لا في باريس فحسب وانما في سائر ارجاء البلاد ايضا ، وحطمت الصور المقدسة ، وجرت خلفها في الشوارع ما وقع تحت ايديها من حلل دينية . وقد جاءت هذه الانتفاضة معبرة عن الحقد الذي كانت الجماهير تكنه للكهنة ، وعن نفورها من الاباطيل ، وعن ايمانها الصادق بأن المسيحية لن تكون دينا بالمعنى الصحيح اذا ما عارضت حقوق الانسان . وفي باريس ، أعلن شوميت ، وكيل الكومونة ، ان كنائس العاصمة ستكرس ، من الآن فصاعدا ، **للعقل** . وأبرز حدث سجلته حركة مناهضة المسيحية هذه تمثل في عيد **الحرية** الاكبر الذي جرى الاحتفال به في العاشر من تشرين الثاني في كنيسة نوتردام ، التي اصبحت تعرف باسم **معبد العقل**. والقى شوميت في ٣٠ بلوفيوز من العام الثاني ( أي ١٨ شباط ١٧٩٤ ) خطابا هاما في مهرجان آخر اقيم في **معبد العقل** احتفالا بالمساواة بين العروق والاجناس ، وبقرار الغاء العبودية في **المستعمرات الفرنسية** ، وهو القرار الذي كان **المجلس الوطني** اصدره قبل بضعة ايام . وقد قدمت جماعة من المواطنين الملونين اكاليل غار لموفدي **المجلس الوطني** الذين حضروا هذا المهرجان .

لكن الحكومة الثورية ، الممثلة بشخص روبسبيير واعضاء لجنة السلامة العامة ، ادانت التظاهرات المناهضة للكاثوليكية الاكثر تطرفا ، واعتبرتها « ضربا من الشطط » ، لا يخلو من عواقب وخيمة على الصعيد السياسي . وأصدرت الحكومة اوامرها بعدم الاعتداء على الكهنة الذين ينصاعون للقوانين ، بيد انها لم تصب نجاحا يذكر . وأعلن روبسبيير ، الذي كان يردد أن « الالحاد ارستقراطي » ، في قرار رسمي ان الشعب الفرنسي يعترف بوجود الله وبخلود النفس . وفي حزيران أقرّ **المجلس الوطني** ، نزولا عند رغبة روبسبيير ، عبادة **الكائن الاسمى** ، التي كانت أقل عدائية من عبادة **العقل** السابقة ، واكثر قابلية للتوفيق بين المؤمنين وبين المشاعر التي أطلقتها فلسفة الانوار والجمهورية من عقالها .

في العام الثاني من العهد الجمهوري ، توالى الصراع بين الحكومة الثورية والقوى الشعبية على جبهات أخرى . فقد تولت لجنة الامن العام تنسيق عمليات البحث عن المشبوهين من قبل المناضلين المحليين . وتقاضى أعضاء لجان الشعب ، الذين كانوا انفردوا حتى ذلك التاريخ في توجيه النشاط المحلي ، تقاضوا اجرا زهيدا وتحولوا الى موظفي دولة . وفي حين كان اللامتسرولون يلحون على ضرورة مراقبة الاسعار ، سعت الحكومة الى مراقبة الاجور ايضا ، والى تأمين نسب معقولة من الارباح للتجار الذين كانت تدين لهم ببقائها في سدة السلطة . وبما أن كومونة باريس كانت تأخذ ، بصورة عامة ، برأي العامل ، فقد ملأها روبسبيير بعملائه ولم تعد مستقلة عن **المجلس الوطني** . واطلق روبسبيير نعت « الارهابيين المتطرفين » على الثوريين الذين كانوا يصرون على الاحتجاج بعنف على « ارستقراطية التجار » ، وعلى المطالبة بالعمل المباشر في شعب باريس ، أو الذين كانوا يتهمون الحكومة الثورية بالاعتدالية ، اي بالاختصار أمثال هيبرت، وفارليه ، ولوكلير ورو . ورد له هيبرت الصاع صاعين باداناته

زمرة « المنومين » ، أي روبسبيير واعضاء لجنة السلامة العامة ، الذين تعمدوا تخديره الثورة، كما فعل بريسو من قبلهم. وفي آذار ١٧٩٤ ، خطط نادي الكوردوليه ، سعيا وراء تطهير صفوف **المجلس الوطني** ، لتظاهرة جماهيرية جديدة كتلك التي زحفت في أيار ١٧٩٣ وأسفرت عن اعتقال الجيرونديين . وكان بعض الثوريين الاجانب المقيمين في باريس يشاطرون جماعة نادي **الكوردوليه** رأيها بأن الحكومة الثورية غالت في الاعتدال وتراجعت عن مواقفها المعهودة . ورفعت اللجنة الثورية الباتافية ، الراغبة في نقل الثورة الى هولندا ، عريضة الى لجنة السلامة العامة في التاسع من آذار . وكان من بين الموقعين على هذه العريضة رجل المال الهولندي كوك ، صديق هيبرت ، واناكارسيس كلوتس ، الثوري الريناني الثري والغريب الاطوار ، الذي كان على صلة وثيقة بهولندا ، والذي اكتسب الجنسية الفرنسية واصبح عضوا في **المجلس الوطني** . وباستثناء توماس باين ( الذي اعتقل بسبب هويته الانكليزية وارتباطه بجماعة بريسو ) ، كان كلوتس العضو الوحيد في **المجلس الوطني** الذي ولد في الخارج ، وكان من انصار الثورة العالمية المتحمسين ، وكان يردد باستمرار أن « الجنس البشري » هو وطنه . وكان متطرفو الثورة العالمية ومتطرفو الشعبية لا يلتقون ، وجه عام، حول افكار مشتركة ، لكنهم كانوا يتفقون على مناهضة المسيحية، ويميلون الى اعتبار الطغاة في العالم خصومهم وأعداءهم، ويعتقدون ان الحكومة الثورية ستخون الثورة اذا استمرت في معارضتهم . وفي آذار ١٧٩٤ دفع روبسبيير ، او بالاحرى لجنة السلامة العامة ، بمجموعة من المتطرفين الى المقصلة ، بحجة التآمر مع الخارج . وبغية الابقاء على نوع من التوازن ، خص روبسبيير دانتون والجناح « المعتدل » في حركة **الجبل** بمصير مماثل . وعاد ينتهج مجددا سياسة قمع مشددة ضد المعتدلين ، وشن حملة **الارهاب الكبير** في حزيران وتموز ، تلك الحملة التي جعلت

« الرؤوس تتساقط كالمطر » . ففي باريس وحدها سقط ١٣٧٦ راسا . وفرض رقابة **الكومونة** وشعّب باريس على جميع المتطرفين والمتعصبين ، وحاول مراقبة الاجور ، وحل الفرق الباتافية والبلجيكية والالمانية ، وقضى على اللجنة الثورية الباتافية ، واستدعى اعضاء **المجلس الوطني** الذين تجاوزوا حدودهم وصلاحياتهم في تنفيذ مهامهم « كممثلين متجولين » ، وتبنى اخيرا عبادة **الكائن الاسمى** بأمل منح العهد الجديد ديانة تساعد على استتباب الاستقرار .

لكن ان كانت هذه الاجراءات ساعدت الحكومة الثورية على تعزيز مواقعها ، فانها أفقدتها بالمقابل ركائزها الشعبية . فالمناضلون الشعبيون الذين دفعوا دفعا الى الانزواء ، غرقوا في الخمول وسيطرت عليهم مشاعر الاحباط . ودب القلق في صفوف **المجلس الوطني** عندما رأى اعضاءه ، من معتدلين ومتطرفين على حد سواء ، يصبحون موضع تشكيك وريبة . وفي تموز ، ثار المجلس على روبسبيير ، الذي ما عاد اللامتسرولون يدافعون عنه دفاعا حارا . ومن خلال ثورة من ثورات القصور ، او بالاحرى من خلال مؤمرة حيكت داخل **المجلس الوطني** ، القي القبض على روبسبيير في قصر بلدية باريس ، وأعدم في العاشر من ترميدور العام الثاني ، أي في ٢٨ تموز ١٧٩٤ .

★ ★ ★

بما ان القوى التي تعاضدت على اسقاط روبسبيير كانت عديدة ومتباينة ، فقد تساءل بعضهم عما اذا كان النظام الذي اعقب سقوطه سيتسم بمزيد من الحماسة الثورية او بالعكس بمزيد من الاعتدال . لكن لم تنقض اسابيع على سقوط روبسبيير حتى كانت القوى التي عارضت على الدوام **الارهاب** ونظام العام الثاني برمته قد تمكنت من فرض نفسها ، ولاسيما ان مصادر الثورة الشعبية كانت نضبت من جراء سياسة

الحكم الثوري بالذات . كان الفرنسيون قد هزموا النمساويين في فلوروسَ ، وكانت جيوش التحالف الرجعي في تقهقر تام، لذلك لم يعد بالامكان تبرير الاجراءات الاستثنائية بضرورات الحرب . وفي بحر اشهر معدودة قلّص **المجلس الوطني** صلاحيات لجنة السلامة العامة ، وألغى المحكمة الثورية ، واغلق نادي اليعاقبة واثبط عزائم « الجمعيات الشعبية » التي كانت تشكلت في معظم انحاء البلاد . ودقّت ساعة « الارهابيين » ، اي الذين قادوا حملات القمع والتشهير في العام الثاني ، ليلاحقوا بدورهم بتهمة الفوضوية والعمل على تقويض دعائم الحكم . وتخلى **المجلس الوطني** ايضا عن نظام تقنين الاقتصاد ومراقبة الاسعار . وكان هذا النظام أفسح في المجال امام تعبئة البلاد وكسب تأييد الجماهير وولائها ، لكنه لم يؤد وظيفته أداء حسنا ، كما تعذر ان يتسم تخطيط الانتاج والتوزيع بصفة الديمومة في ظل الجهاز الاداري القائم وفي اطار العلم الاقتصادي المتاح آنذاك . ومهما يكن من امر ، فان الالغاء المفاجىء لقيود الرقابة كافة ، ادى الى خلق ضائقة شديدة . فقد سجلت قيمة الحوالات الحكومية انخفاضا مطردا ، في حين لم تكف اسعار المواد الغذائية عن الارتفاع . وافتقد العديد من هذه المواد ، وعانى شعب باريس من المجاعة ومن قسوة الطقس في شتاء ١٧٩٤ ــ ١٧٩٥ اكثر مما عانى في اي ظرف آخر خلال الثورة . وراح الكثيرون يتحسرون على روبسبيير وعلى ايامه .

في ايام ١٧٩٥ ، اجتاحت جهمرة من الرجال والنساء الجياع ــ وكأن النزعة اللامتسرولة انبعثت مجددا ــ قاعة **المجلس الوطني** مطالبة بالطعام وبتطبيق دستور العام الاول من الجمهورية . وعرف هذا الحدث بتاريخ وقوعه: بريريال(٤) العام

(٤) هو الشهر التاسع في تقويم الثورة : من ٢٠ ايار الى ١٨ حزيران .

« م »

الثالث . لكـن ردة فعل المجلس ازاء هذه التظاهرة جاءت مختلفة كليا عن تلك التي كانت صدرت عنه قبل عامين ، عندمـا قابـل احتلال اللامتسرولين لقاعته بطرد الجيرونديين من صفوفه . فقد استنجد المجلس هذه المرة بالجيش ، فنزل الجنود الى الشوارع، واحتلوا الاحياء العماليـة حيث تولوا، بمساعدة «اولاد الذوات»، سحق الحركـة الشعبيـة . واعقبت هذه الحادثة حملة قمـع واسعة ، فاعتقل العديد من المناضلين وزج بهم فـي السجون . وكان غراكوس بابوف واحدا ممن طالتهم هذه الحملة . وترتدي هذه الاحداث ، من حيث انهـا التباشير الاولى لحركة ثوريـة جديدة موجهـة ضد البورجوازية ، اهميـة اكبر في التاريـخ الاشتراكي منهـا فـي التاريـخ البورجوازي .

دب الخوف في صفوف **المجلس الوطني** ، الذي كان يتألف من فرنسيين ينتمون الى الطبقة الوسطى ، مـن جراء التهديدات والتحديات الشعبيـة ، فبادر الى وضع دستور جديد ارسيـت بموجبه اسس نظام **حكومة الادارة** . وقـد اقـر دستور العـام الثالث ، اسوة بدستور ١٧٨٩ ــ ١٧٩١ ، حق اقتراع شبه عام، بيد انه انشأ مجموعة مـن الهيئات الانتخابيـة لضمان انتخـاب مواطنيـن ميسوريـن ومستقرين . وتألف البرلمان الجديد مـن مجلسين ( **مجلس الخمسمئة** ومجلس (( **الاقدمين** )) او الشيـوخ ) عهد اليهمـا بتعيين اعضاء **حكومة الادارة** الخمسة . وعلى الرغم من الانتصارات العسكريـة العظمى التي تم احرازهـا خلال عامي ١٧٩٤ ــ ١٧٩٥ ، ظل **المجلس الوطني** يتوجس خيفـة مـن ثورة مضادة تعيد الحكـم الملكي الـى فرنسا . ولاسيما ان المطالـب بعرش فرنسا ، الذي كان يطلق على نفسه اسم لويس الثامن عشر لم يتكتم ، في التصريح الذي ادلى بـه في فيرونـا فـي عـام ١٧٩٥ ، بصدد النتائج التي ستترتب على عودة الملكية : انـزال العقوبات بجميع من شاركوا في الثورة او لعبوا دورا فيها ، عـودة الكنيسة ، اعادة نظام الطبقات الثلاث ، والعودة الى البرلمانـات

السابقــة ، اي باختصار تقويض كلَ ما تم تحقيقه منذ ١٧٨٩ . وفي اثناء ذلـك قامت فرق من المهاجريـن ، يدعمهـا الاسطول البريطاني ، بمحاولة انزال في خليج كيبيرون ، بأمل كسب تأييد الطبقـة الفلاحيـة في الغرب ، ومن ثم الزحف معهـا علـى باريس . غيـر ان هذه المحاولة باءت بالفشل ، وتم القضاء تماما على عناصرهـا على يدي جيش جمهوري يقوده الجنرال هوش.

قبل ان يعلن **المجلس الوطني** عـن حل نفسه عمد اعضاؤه ، حرصا منهم على حمايـة الجمهوريـة الدستوريـة وضمـان سلامتهم الشخصيـة في آن معا ، الى ادخال بعض تعديـلات على الدستور الجديد . وقد نصت هذه التعديلات على ان ثلثـي الاعضاء الجدد الذيـن سيصار الى انتخابهم لشغل مقاعدالمجلسين الجديدين لا بد ان يكونوا من الاعضاء السابقين في **المجلس الوطني**. وكـان هذا التعديل يعنـي ايجـاد مقاعد لما يقارب من خمسمئـة عضـو من اعضاء المجلس الوطني المنحل في الحكومة الجديدة ، حتى تاريخ انتخابات ١٧٩٩ . وقد ارتفعت الاصوات احتجاجا على هذا الاجراء الرامـي الى ضمـان استمرارية المجلس . وصدرت هذه الاحتجاجات ، بوجه خاص ، عـن خصوم هـذا المجلس الذين باتوا يتعاطفون باطراد مع فكرة عودة الملكية . وفـي تشرين الاول عام ١٧٩٥ — فاندميير العام الرابع — طرأت ظاهرة جديدة على الثورة : تمرد ملكي ، او محافظ ، كـاد ان يأخذ في باريس ابعـاد تظاهرة جماهيرية . وكـان المتظاهرون هذه المرة يختلفون تمامـا عـن أولئك الذيـن هاجموا **المجلس الوطني** في بريريال . وقد استنجـد المجلس بالجيش ، كما كـان فعل في ابان احداث بريريال ، وتولـى الجنرال بونابرت مهمـة تشتيت صفوف المتمرديـن مستعينا بالمدفعية .

حل **المجلس الوطني** وتسلمت **حكومة الادارة** السلطة فـي اواخـر تشريـن الاول ١٧٩٥ . واستمر حكمها اربعة اعـوام

بتمامها . وارتهن وجود هذه الحكومة بالجيش الجمهوري الذي انشىء في العام الثاني للعهد الجمهوري ، والذي **كان المجلس الوطني** استنجد به في العام الثالث لحماية نفسه من عنف اليسار واليمين على حد سواء . والواقع ان **حكومة الادارة** ، التي سعت على الدوام وراء الحلول الوسطى لصد مناورات المتطرفين من اليسار واليمين ، ولم تلق سوى الاحتقار والازدراء من المثاليين على اختلاف مشاربهم ، ولم تكن تمثل لا الملك ولا الشعب ، وتعرضت لاحقا لانتقادات انصار نابوليون والمعجبين به ، هذه الحكومة لم تحظ على الاطلاق بسمعة مكافئة لانجازاتها . فقد كان هدفها الاول صيانة ثورة ١٧٨٩ . فتصدت ، تحت النيران المتصالبة للعنات التي كانت تنهال عليها من كل صوب ، للمحاولات الرامية الى اعادة النظام الملكي القديم ، ولانبعاث الضغوط الديمقراطية العنيفة في عام **الارهاب** . كانت **حكومة الادارة** ، المناهضة للارستقراطية القديمة مناهضتها للمناضلين الشعبيين الجدد ، تمثل الشرائح العليا من الطبقة الوسطى في عصر كانت فيه هذه الطبقة ، بما فيها من اغنياء وميسورين ، لا تزال تفتخر بمشاركتها في الثورة .



كانت مؤامرة بابوف الشهيرة فاتحة الاضطرابات في عهد **حكومة الادارة** ، التي ظلت أسيرة تأرجحها بين اليمين واليسار . وخلافا للضغوط التي مارسها اللامتسرولون في عامي ١٧٩٢ و١٧٩٣ ، لم تكن مؤامرة بابوف تتمتع باي دعم شعبي . ومع انها ظلت محاطة باجواء من السرية والكتمان الى ان كشف امرها بصورة رسمية ، فانها لم تشكل تهديدا خطيرا **لحكومة الادارة** . بيد انها اعتبرت ، فيما بعد ، اول مجهود عملي يصدر عن الطبقة العاملة واول طور للحركة الشيوعية الثورية . وكانت تمثل انبعاثا لا لحركة اللامتسرولين العفوية ، وانما

لحركـة المتطرفيـن ultras الذيـن كانـوا ادينـوا حتـى من قبل روبسبيير .

عندما تسلمت **حكومة الادارة** زمام المسؤولية ، كان اليميـن هو مصدر الخطر المحـدق بالثـورة : فاضطرابات فاندميير ، ومحاولة الانزال الانكليزية ـ الملكية في خليج كيبيرون ، كانتا ابنتي الامس القريب. لذلك سعت **حكومة الادارة** ،في اول عهدها ، الى كسب تأييـد اليسار ودعمه . وارضاء لهذا اليسار اطلقت سراح الوطنين الذيـن اعتقلهم **المجلس الوطني** بعد احداث بريريال. وكان في عدادهم بابوف ، والايطالي فيليبو بيوناروتي . وكان بابوف ، الذي عارض روبسبيير قبل ترميدور ، يهتم بالمساواة الاقتصادية اكثر مما يهتم بالمساواة امـام القانـون . اما بيوناروتي ، الـذي كـان من انصار روبسبيير المتحمسيـن في العام الثاني ، والذي خدم الحكومة الثوريـة بتفان واخلاص ، فكـان يرغب ، في المقام الاول ، في نقل الثورة الى ايطاليـا . ولم يكـن يهمه ان ترتدي هذه الثورة ثوب المساواة فـي الثروات بقدر مـا كان يريدهـا انتفاضـة ديمقراطية ضد الملوك ورجال الديـن والارستقراطيين. وكـان يعتقـد ان حكمـا اكثر ثوريـة من **حكومة الادارة** قمين بدعم هذه الثورة فـي ايطاليا .

بعد خروج بابوف وبيوناروتي ورفاقهما من السجن ، حيث كانوا وجدوا متسعـا كافيـا من الوقت لاجراء المناقشات المفيدة، راحوا يترددون على نادي البانثيون . واصدر بابوف صحيفة دعاها **منبر الشعب** . وفي اواخر عام ١٧٩٥ اصدر **بيان العامة**. وفيه كتب يقول ان الثورة لن تكتمل ما لم يحصل كل فـرد على حصته من خيرات هذا العالم ، حصة تعـادل تمامـا حصة الآخرين .ولبلوغ هذه المساواة الحقيقيـة يتحتم الغاء الملكيـة الخاصة على الفور، لان كل اعادة توزيع عادلة للثروات لن يقيض لها الاستمرار مـا دامت الملكيـة الخاصة قائمة . ومن ثم ، ان المطلوب ان يعمـل كل

فرد حسب اهتماماته وقدراته ، ثم ان يضع حصيلة عمله في مستودع مشترك ، على ان يحصل منه بالمقابل ما يلبي حاجاته. ان « ادارة عادية » تكفي لتأمين « الكفاية للجميع ، وانما الكفاية فقط » . وتأكيدا على قابلية هذه الفكرة للتحقيق استشهد بابوف بالجيش الذي « يعد مليونا ومئتي الف نفر » . وكان سبق لموريللي ان وصف في كتابه **قانون الطبيعة** ، الذي نسبه بعضهم في ذلك العصر الى ديدرو ، مشاع الاموال هذا ، والمساواة على اساس من الكفاية البسيطة ، وما يستتبعها من الغاء لوجود الفقراء والاغنياء . والجديد عند بابوف انه ظل يؤمن بامكانية تحقيق هذه الفكرة بعد معايشته الثورة طيلة اعوام ستة .

في مطلع عام ١٧٩٦ اعلن بابوف ، بعد اعادة تقييمه لاحداث الماضي ، عن اعتناقه خط روبسبيير . وكان بابوف سار على نهج هيبرت في عام ١٧٩٤ ، وانضم ، في عام ١٧٩٥ ، الى صفوف الذين تكالبوا على تشويه صورة روبسبيير بعد وفاته . ولكن ما أطل عام ١٧٩٦ حتى جعل من روبسبيير رائده . فقد دافع روبسبيير ، في اعتقاده ، عن الديمقراطية التي كان يعتبر نفسه ممثلا لها . وبما انه كان متعلقا بفكرة الثورة الدائمة ، فقد وجد نفسه اقرب فكريا الى روبسبيير منه الى هيبرت . ثم ان روبسبيير تسلم زمام السلطة وكاد ينجح، لذلك ظل اسمه محاطا بهالة من التقدير في صفوف الثوريين الرافضين **لحكومة الادارة** . لكن بابوف كان في الواقع يختلف كثيرا عن روبسبيير ، ان في افكاره ، وان في نهجه: فقد كان بابوف رائد البرنامج الاشتراكي والاحتراف الثوري الذي سيكون من السمات المميزة للقرنين التاسع عشر والعشرين .

اوجد بابوف تنظيما سريا جمع ، خلال اشهر معدودة، بضعة آلاف من الاشخاص كان معظمهم لا يعرف من شيء سوى ان ثورة على **حكومة الادارة** ستنشب عما قريب ، وستعقبها

اقامة نظام ديمقراطي يستلهم التصورات الروبسبييرية . وكان عدد محدود جداً من المطلعين على اسرار التنظيم أخذ علماً ببرنامج بابوف الفعلي الموسوم بطابع شيوعي بدائي . وكانت رؤوس هذا التنظيم عقدت العزم على الا تكشف عن اهدافها الحقيقية لمناصريها الا بعد الاطاحة بحكومة الادارة . والواقع انهم لو كانوا ادرجوا مبدأ الغاء الملكية في عداد الاهداف المعلنة لحركتهم ، لكان تضاءل عدد انصارهم تضاؤلا ملحوظا . كانت مؤامراتهم ترمي في المقام الاول الى تفجير ثورة اخرى ، كما في الماضي ، مع فارق واحد وهو انها كانت اكثر سرية . وقد نجحت في جمع عدد كبير من الديمقراطيين السابقين ومن اللامتسرولين حول نواة صغيرة كانت تخطط لعملية اعادة تنظيم للمجتمع على اسس اكثر شمولية وجذرية . وقد استلهمت المبدأ الداعي الى اقدام مجموعة من اصحاب العزائم والهمم على التخطيط سرا لدكتاتورية ثورية ، والى اضطلاعهم فيما بعد بدور الطليعة المستنيرة التي تقود الشعب على طريق الثورة . كان برنامج بابوف استباقا لآراء بلانكي ولينين اكثر منه لآراء ماركس .

في العاشر من اذار ١٧٩٦ ، شكلت النواة الصغيرة لجنة ثورية بهدف الاطاحة وشيكا بحكومة الادارة . لكن في العاشر من ايار افتضح امرها بالوشاية ، واعتقل افرادها من قبل البوليس . كان في مستطاع حكومة الادارة ان تصدر احكاما بالسجن بحق المتآمرين ، كما سبق لها ان فعلت مع المتطرفين المئتين او الثلاثمئة من انصار روبسبيير . لكنها آثرت ان تتيح لهم الفرصة لاشهار آرائهم وافكارهم من خلال محاكمة دراماتيكية ، لكي تكسب ثقة الجمهوريين المحافظين . واستغل بابوف المناسبة ليلقي خطبا رنانة حول الديمقراطية متحاشيا الافاضة في الكلام عن الشيوعية ، مؤكدا على ان افكاره مستوحاة من افكار ديدرو والفلاسفة ، متنكرا للاصالة التي

احاطته فيما بعد بهالة من التقدير والاعجاب . ووجهت اليه تهمة بالتآمر لقلب نظام الحكم ، وحكم عليه بالموت مع واحد من المتآمرين ، في حين لم تصدر بحق بيوناروتي وبقية المتآمرين سوى احكام بالسجن . وما كانت هذه المؤامرة لتسترعي الانتباه لولا المحاكمة ، ولو لم يؤلف بيوناروتي ، بعد ثلاثين عاما ، كتابا بعنوان **مؤامرة بابوف والمساواتيين** ، حاول فيه التوفيق بين ذكرياته عن عام ١٧٩٦ وبين اهتمامات جيل ذي عقلية اشتراكية أصفى .

كان الخطر الاساسي الذي يتهدد **حكومة الادارة** مصدره من اليمين ، كما اسلفنا الاشارة الى ذلك . وقد تفاقم هذا الخطر على نحو جدي في عام ١٧٩٧ . فاستمرار الحرب ، التي جاءت معاركها في مصلحة فرنسا في الواقع ، دفع بالعديد من الاشخاص الى احضان الملكية . كانوا يرددون ان ملكا صالحا لن يتردد في التخلي عن فتوحات الجمهورية ، وانه سيتنكر للدول الثورية الجديدة التي رأت النور ، في عام١٧٩٧، في كل من هولندا وايطاليا . ولا شك في ان معظم هؤلاء الملكيين الجدد كانوا يعارضون عودة **النظام القديم** باستبداده وامتيازاته، ويميلون الى ملكية دستورية ما كان لويس الثامن عشر مستعدا على ما يبدو للقبول بمبدئها . كانت نزعتهم الملكية تعبّر ، في المقام الاول ، عن تذمرهم من **حكومة الادارة** . من ناحية اخرى ، كان اكثر الجمهوريين المحافظين ـ كارنو على سبيل المثال ـ على استعداد لمساندة اي شكل من اشكال الحكم بشرط ان يستلهم مبادىء ١٧٨٩ ، وكانوا ينفرون من فكرة عودة النظام الملكي : فقد كانوا على علم بتصريحات لويس الثامن عشر ، وعلى الاخص بتصريحات اكثر انصاره تعصبا وتشددا . لذلك كان عليهم ان يفكروا بمسألة امنهم قبل اي شيء آخر . فقد كان العديدون منهم صوتوا ، أسوة بكارنو ، لصالح قرار اعدام لويس السادس عشر . وكان الجيش ـ ذلك الجيش

الديمقراطي والجمهوري الذي تأسس في العام الثاني من العهد الجمهوري ـ يعارض هو الآخر ، بوجه عام ، فكرة عودة الملكية. ففي نظر بونابرت ، وغيره من الجنرالات الذين حصدوا المجد والثروة في ايطاليا ، كانت عودة سليل آل بوربون الى الحكم تمثل اسوأ الاحتمالات على الاطلاق .

في ربيع ١٧٩٧ ، حمل دستور العام الثالث اول انتخابات حرة الى البلاد ، او بالاحرى اكثر الانتخابات حرية منذ عام ١٧٨٩ . وبما ان قانون « الثلثين » لم يعد سائر المفعول ، فقد دقت ساعة الحقيقة بالنسبة الى اعضاء **المجلس الوطني** السابق . وفيما كانت المعارضة تنشط وتتحرك ، لم تبذل **حكومة الادارة** جهدا يذكر كما تأتي الانتخابات في صالحها . وقد انشأ الملكيون على مختلف مشاربهم شبكة سرية تخطت من بعيد شبكة بابوف في اهميتها : ف « الجمعيات الخيرية » التي أسسها الملكيون كانت تتستر على تنظيمات سياسية ، حيث كان أنصار الملكية المطلقة يسخّرون لغاياتهم انصار الملكية الدستورية ويخدعونهم ، تماما كما فعل الشيوعيون بالديمقراطيين في تنظيم بابوف . وجاءت نتائج الانتخابات مأساوية بالنسبة الى اعضاء المجلس الوطني ، اذ لم يحالف الحظ سوى احد عشر مرشحا من بينهم . وبما ان معظم الفائزين كانوا من الملكيين ، ومع ان الانتخابات لم تشمل سوى ثلث أعضاء المجلس الوطني ، فقد باتت حكومة الادارة تواجه معارضة قوية . وفي صيف ١٧٩٧ ، صوّت البرلمان لصالح اجراءات قمع ضد الاندية الجمهورية ، وبدا ظاهرا ان هذه الاجراءات تخدم مصلحة المهاجرين ورجال الدين . وكان بعضهم على اتصال مع المطالب بعرش فرنسا ـ اي لويس الثامن عشر ـ وبعضهم الآخر مع الحكومة البريطانية . وكان ثمة فريق يخطط لانقلاب على حكومة الادارة ، لكن الانقسام القوي بين أنصار الملكية المطلقة وانصار الملكية الدستورية حال دون ان

توضع هذه المشاريع الانقلابيـة موضع التنفيذ .

ان **حكومة الادارة** هي التي بادرت الى التحرك ، بقيامهـا بانقلاب فروكتيدور للعام الخامس . فعلى الصعيد الدستوري، كانت الازمة أزمة بيـن السلطتيـن التنفيذيـة والتشريعيـة . اما على الصعيد السياسي فكانـت عبارة عـن مواجهـة بيـن الجمهورييـن والملكيين الجدد . وقد اتفق ثلاثة من اعضاء حكومة الادارة الخمسة مع نابوليون ـ وكـان فـي ايطاليـا آنذاك ـ فأوفـد اوجيرو (٥) الى باريس . وتحت تهديد الجيش ، تمكن الاعضاء الثلاثة من اقصاء العضوين الآخرين وما يقارب من مئتي عضـو من اعضاء السلطـة التشريعيـة . ونفي اكثر من ستيـن شخصيـة سياسيـة الى غويانا ، اي أرسلوا الى « المقصلـة الجافة » . ولاذ كارنـو بالفرار والتجأ الى سويسرا . وامست الغالبيـة ، داخل مجلسي البرلمان ، لصالح الجمهوريـة .وهكذا مالت الجمهوريـة من جديد لجهـة اليسار ، فيما كانت **حكومـة الادارة** الجديدة تتصلب فـي مواقفهـا مـن الملكيين والمهاجريـن ورجال الديـن ، باعادة فتحهـا الانديـة السياسيـة ذات الاتجاه الثوري والديمقراطي، وبتخيلهـا عن مساعي الصلح مع انكلترا، وبرعايتهـا التحولات الثوريـة في هولندا وسويسرا وايطاليا .

★ ★ ★

أوقف انقلاب فروكتيدور ( ٤ ايلول ١٧٩٧ ) الاندفاع القوي باتجاه عودة الملكيـة التي كانت ستكـون على الارجـح اكثر تزمتا ورجعيـة في عام ١٧٩٧ مما تكشفت عنه فـي عام ١٨١٤. بيـد ان هذا الانقلاب لم يوطـد دعائم **حكومة الادارة** التي لم تستمر من بعده الا لمدة عاميـن . والحق ان الجمهوريـة ، التي باتت منـذ

---

(٥) بيير اوجيرو : عسكري فرنسي ( ١٧٥٧ ـ ١٨١٦ ) ، نفذ انقـلاب ١٨ فروكتيدور وبرز في حروب الجمهورية والامبراطورية . «م» .

عام ١٧٩٥ تدين بوجودها لتدخل عسكري ، امست خاضعة اكثر فأكثر للجيش بعد انقلاب ١٧٩٧ . واضطرت الى طأطأة الرأس امام بونابرت في عام١٧٩٩ .

بيد ان انقلاب فروكتيدور ، بايقافه المد الملكي ، أنقذ جوهر الثورة بالذات . فقد انتصب حجر عثرة في وجه عودة النظام القديم ، وضمن استمرار الحياة لصورة المجتمع التي رسمت معالمها الاولى في عام ١٧٨٩ ، والتي تبنتها الشرائح العليا المثقفة من الطبقة الوسطى في فرنسا وفي معظم انحاء اوروبا . وقد أثبتت الثورة ، من هذه الناحية ، انها غير قابلة للقهر . والهلع الشديد الذي دب في صفوف المحافظين الاوروبيين بعد انقلاب فروكتيدور جاء يؤكد ان الثورة ــ وان لم تكن ثورة روبسبيير او بابوف ــ لا تزال حية ترزق .

كان انقلاب فروكتيدور حدثا اوروبيا بقدر ما هو فرنسي. ولئن تمكن بونابرت من التدخل لدعم الجمهوريين في باريس ، فانما بفضل الاعتبار والنفوذ اللذين اكتسبهما في ايطاليا . وكان انبعاث النزعة الملكية قد زرع القلق في أفئدة الديمقراطيين في هولندا وفي ايطاليا كما في فرنسا . وقد تنفس هؤلاء الصعداء لما رأوا شبح عودة الملكية يبتعد عن الافق .



استعرضنا في هذا الفصل الاحداث التي جرت في فرنسا بين عامي ١٧٩٣ و ١٧٩٧ باقتضاب ، يكاد يبعث على السخرية . لكن على القارىء ان يضع نصب عينيه ان هذا الكتاب لا يرمي الى ان يكتب تاريخا جديدا للثورة الفرنسية . وقد آن الاوان لنعود ادراجنا الى موضوعنا الاساسي ، الى مد الثورة وجزرها خارج الحدود الفرنسية . آن الاوان لنتحدث عن انتصارات الثورة المضادة في اوروبا الشرقية ، وعن التحرك الثوري والديمقراطي في اوروبا الغربية .

الفصل الخامس

# في بولونيا وفي اوروبا الشرقية :

# الثــورة المسحوقــة

لئن تمكــن الفرنسيون من هزم التحالف العسكري الرجعي الاول ، فالفضل فــي ذلــك يعــود في المقام الاول الى القــوة غير المتوقعــة التي نمت في فرنسا . لكــن لا يسعنــا ان نتجاهل، من جهة اخرى ، حقيقــة عزوف كل من بروسيا والنمسا عــن تجنيــد كامل قوتيهمــا ضد الثوريــن الفرنسيين ، لانشغالهما بثورة اقرب اليهمـا : الثورة في بولونيـا . فقــد كانت الملكيــات الشرقيــة الثلاث تعارض احياء جارتهــا الضعيفة . فلو قــدّر لبولونيــا ان تقوم وتستقل فعــلا ، وان يقوى عودهــا بتنازلات تمنح للبورجوازيــن والفلاحين ، لمارست عندئذ تأثيرا وخيــم العواقب علــى البورجوازيين والفلاحيــن البروسيين والروس والنمساويين ، ولزرعت العراقيل في وجه اغتصاب اراضيهــا وضمهــا الى جاراتهــا . وكان الروس والبروسيون قد تدخلوا في بولونيا للقضاء على « النزعــة اليعقوبية » فيهــــا ، اي علــى الدستور البولوني لعام ١٧٩١ . وقد اسلفنــا الحديث عن هــــذا

التدخل في الفصل الثالث . وقد تكللت هذه المحاولة بنجاح لم يقيض نظيره لتدخل البلدين ضد فرنسا . فقد اسفرت عن تقسيم ثان في عام ١٧٩٣ . ولم يبق من بولونيا ، المستقلة زعما، سوى جزء صغير يحتله الجيش الروسي . وتلك كانت بولونيا المحافظين ، بولونيا حزب تارغويكا الذي قضى على دستور ١٧٩١ .

في بولونيا ، كما في بقية اقطار اوروبا الشرقية بوجه عام ، كان كل من يشغل وظيفة عامة ، مهما هزلت اهميتها ، يُعد « نبيلا » . وكان النبلاء البولونيون ، العديدون للغاية ، يشكلون طبقة غير متجانسة ومنقسمة على نفسها : وقد أبدوا عن ردود فعل متباينة ازاء التطور الفكري في اوروبا ، وكذلك ازاء الصحافة ، والشؤون السياسية ، وحاجات البلاد عندما تهددت من الخارج. فحزب الثورة البولونية الذي تكوّن حول دستور ١٧٩١ ،وضم الملك ستانيسلاس بشخصه ، مارس تأثيره على طبقة النبلاء الوسطى على الوجه الاخص ، تلك الطبقة التي كانت تمقت عظماء المملكة وتعقد آمالها على اهالي المدن لتوطيد دعائم الوطن وتقويته . اما انصار الثورة المضادة ، او جماعة تارغويكا، فكانوا يؤلفون حزبا ريفيا محضا يترأسه عظماء المملكة ، تحيط بهم حاشية ضخمة من نبلاء صغار لا يملكون ارضا ويعتبرون انفسهم اعلى مرتبة بما لا يقاس من أهل المدن ، وكم بالاحرى من الفلاحين .

لم تكن بولونيا تارغويكا قابلة للبقاء . فلم تنقض اشهر معدودة حتى كان العديد من انصار هذا الحزب يشقون عصا الطاعة على الروس ، بعد ان كانوا تأملوا منهم في قدر اكبر من الاستقلال . وسرعان ما تشكلت حركة مقاومة قوية ضد الاحتلال الروسي . وتولى تنظيمها ثوريو عام ١٧٩١ ، بمن فيهم من اختار طريق الهجرة . وانضوى تحت لواء هذه المقاومة

العديد من انصار حزب تارغويكا ايضا . وبما ان هذه المقاومة كانت سرية ، فقد عزتها السلطات الروسية الى مؤامرة يعقوبية ومكيدة فرنسية . والحال ، ان الفرنسيين الذين كانوا في عام ۱۷۹۳ يتخبطون في دوامة متاعبهم الشخصية ، لم يضطلعوا في الواقع باي دور في هذه المقاومة . وعندما حضر كوزيوسكو الى باريس طلبا للمساعدة ، ما اعاروه أذنا صاغية . وظلت الثورة البولونية متميزة تماما عن الثورة الفرنسية . اما الثورة المضادة ، فقد غلب عليها هي طابع التعاون الدولي .

امام تعاظم مد المقاومة ، امر الروس بتقليص حجم الجيش البولوني الذي كانوا سمحوا ببقائه . وبما ان خطة التمرد لحظت اللجوء الى الجيش ، فقد اضطر قادة المقاومة الى اعلان الثورة قبل ان تكتمل عملية حل الجيش ، وبالتالي قبل استكمال الاستعدادات كافة . وتزعم كوزيوسكو ، الذي عاد من المنفى في مطلع عام ١٧٩٤ ، حركة بدأت بعصيان مسلح في كراكوفيا، وامتدت بسرعة لتشمل جميع انحاء البلاد . وأنزل هزيمة بالروس في معركة راكلاويش . وفي وارسو ، انضم الآلاف من المدنيين الى الجنود وارغموا الفرق الروسية على اخلاء المدينة. وقد واجه الروس هذه الانتفاضة بارسال كتائب جديدة الى بولونيا ، ولم يشأ البروسيون ان يكونوا اقل حمية ، فاجتاحوا البلاد من جديد .

امتد هذا العصيان المسلح وتوسع الى ان اخذ شكل ثورة لها دلالتها ، وان كانت ثورة مجهضة ، أو بالاحرى استمرارا لثورة ۱۷۹۱ . وصار لها،كما هي حال الثورات كافة ، يمين ويسار. كان اليمين يضم في صفوفه البولونيين الراغبين ، اسوة بالملك ستانيسلاس ، في اعادة تطبيق دستور ۱۷۹۱ وطرد الروس . بيد ان هذا الدستور ما كان يمثل المطلب الكافي في نظر اليسار ، أي « اليعاقبة البولونيين » . كان هؤلاء يؤمنون بان حركة قومية

قوية كفيلة بتحسين مصير الشعب . كان زعيمهم يدعى هوغو كولونتاي ، وهو سليل اسرة نبيلة لا تملك اطيانا واسعة . وقد ادخل الدير في شبابه ليصبح راهبا ، ثم ذاع صيته كمصلح للجامعة ، ثم كمستشار للملك ستانيسلاس في صياغة دستور ١٧٩١ . وكان معظم اليعاقبة البولونيين نبلاء ، حسب المفهوم البولوني للكلمة . لكن في عام ١٧٩٤ أمسى التجار والمحامون في المدن ، بعد فقدانهم المكاسب التي كان كفلها لهم دستور ١٧٩١ ، من اليعاقبة هم ايضا. وفي وارسو وبعض المدن البولونية الاخرى، خاض العمال واصحاب المتاجر الصغرى بعض معارك شوارع ، لكن لم يكن ثمة « لامتسرولون » بولونيون . اما الجماهير الريفية ، التي طال حبسها في سجن القنانة ، فلم تمارس أي تأثير يذكر على مجرى الاحداث .

لم يكن كوزيوسكو ، الجندي المحترف الذي قاتل الى جانب الثورة الاميركية ، من المؤمنين بخط اليعاقبة . لكنه وقف مع ذلك الى جانب اليعاقبة البولونيين في عام ١٧٩٤ ، بصفته القائد المسؤول عن الانتفاضة الثورية . ومن ذلك ، مثلا ، أنه تأسس عقب ثورة وارسو نادٍ جديد حمل هذا الاسم الغريب : « مواطنون يقدمون الخدمات والمساعفة للحكام الوطنيين من اجل رفاهية البلاد » . وكان نادي وارسو،المقتدي بنادي اليعاقبة في باريس الذي كان يعيش آنذاك ذروة غليانه ، يسعى الى شحذ المشاعر الوطنية ، والى الابلاغ عن الخونة ، والى فرض رقابة شديدة على موظفي الدولة . وقد تخوف المعتدلون منه ، وناشد الملك كوزيوسكو اغلاقه ، غير انه رفض . فالبلاد في نظره كانت ، في تلك الحقبة من الصراع مع الروس ، في أمسّ حاجة الى جهود أكثر المتطرفين حماسة . وكانت المشكلة الاساسية المطروحة هي مشكلة القنانة . وكان كولونتاي واليسار يتفقان على القول ان النضال ضد الروس يقضي بتحرير الفلاحين، وان القنانة ان لم تلغ في هذه الفترة الحرجة بالذات فانها لن تلغى ابدا . وكان اليمين يرد على هذا الادعاء زاعما أن الغاء القنانة

سيكون بمثابة اهانة للنبلاء مالكي الاقنان الذين تحتاج الثورة الى قدراتهم العسكرية ، والذين قد لا يعودون يرون فائدة في رحيل الروس اذا كان من شأن هذا الرحيل أن يفقدهم سيطرتهم على رعاياهم داخل أراضيهم بالذات . ولم يكن هذا الاحراج لا يستند الى أي أساس ، بل انه كشف في الواقع عن الفارق الجوهري بين الاوروبتين الشرقية والغربية ، ودلّ على عرقوب آخيل الثورة البولونية .

اختار كوزيوسكو مع ذلك الوقوف الى جانب اليسار . ففي السابع من ايار أصدر اعلان الغاء القنانة . وقد حاكم الامور على طريقة اليعاقبة الفرنسيين . فالمطلوب اعطاء الشعب سببا لكي يقاتل ويحارب . وكان روبسبيير قد عبر عن هذه الفكرة قائلا : « لهذا السبب على وجه التحديد سيُهزم الطغاة المتحالفون ضدنا » . وقد كرر كوزيوسكو من بعده : « ان النصر سيكون حليف المدافعين عن قضيتهم الخاصة » . هكذا امسى الفلاحون احرارا في ظل الحماية المباشرة للقانون وللحكومة الوطنيةالجديدة . وقد تجاوزت هذه الخطوة بما لا يقاس دستور عام ١٧٩١ . كانت تدبيرا ثوريا حقا ، كفيلا فيما لو تكلل بالنجاح بأن يقوض دعائم النظام الاجتماعي الرعوي في اوروبا الشرقية . بيد انه استلحق بتعديلات ترمي الى ضمان الانتاج الزراعي وولاء صغار المالكين العقاريين . فالفلاح صار حرا ، لكنه الزم بالابلاغ عن تحركاته . ولئن خففت عن كاهله أعباء السخرة ، فانها لم تلغ تماما . وقد دعي بالحاح الى تلبية نداء التعبئة العامة ، لكنه احيط علما بان خدمة العمل ستكون في انتظاره بعد عودته من الحرب . لذلك لم تستشر حمية الفلاحين ، ولم تحصل أية تعبئة جماهيرية . ربما لم يكن الاعلان ثوريا بما فيه الكفاية ، وربما لم يكن أي اعلان كفيلا باحداث النتيجة المرجوة . فبعد أجيال متعاقبة من القنانة ، التي لم تكن حالها في بولونيا تختلف كثيرا عن نظام العبودية في اميركا ، استحال على الفلاح المبلد ان يتحول على الفور الى وطني

ملهم ، او الى مدافع متحمس عن النظام السياسي الجديد .

بما أن المحاولة الثورية في بولونيا تزامنت مع الحكم الثوري في فرنسا وسبقت سقوط روبسبيير ، فقد نظر اليعاقبة البولونيون بعين التعاطف الى روبسبيير **والارهاب** ، وأبدوا عن حماسة مدنية جياشة اسوة بيعاقبة العهد الجمهوري . وقد اختلفوا من هذا المنظور عن الثوريين الايطاليين والهولنديين الذين تحاشوا ، بعد عام ١٧٩٥ ، السقوط في التطرف . وتجدر الاشارة الى ان البولونيين انفردوا دون بقية الشعوب الاوروبية ، خلال ذلك العقد الثوري،بشن ثورة لا تعتمد على دعم فرنسا العسكري، بل ولا حتى على وعد بالحصول على مثل هذا الدعم ، كمثل ذاك الذي أجزل لارلندا الموحدة .

ان الحركة الثورية ، التي اندلعت شرارتها الاولى في عام ١٧٨٨ ، عمّرت بما فيه الكفاية وتعرضت بما فيه الكفاية ايضا للتهديد او للتجمد كيما تولد عداوات حادة وتخوفا من الخيانة . ومع ان الملك انضم الى ثورة ١٧٩٤ ، فانه كان استسلم امام الروس في عام ١٧٩٢ ، لذلك كان اليعاقبة يرتابون فيه ويعللون انفسهم بأمل اقامة نظام جمهوري. وكانوا يشتبهون ، بطبيعة الحال ، في أعضاء حزب تارغويكا القدامى الذين شاركوا في التمرد المسلح ضد الروس ، مع انهم كانوا تآمروا مع امبراطورة روسيا للقضاء على دستور ١٧٩١ . وفي الواقع ، بات جميع « الارستقراطيين » و « أصحاب الثروات » موضع شبهة وريبة. وقد تجلت الرغبة الجامحة في الانتقام عندما احتل الرعاع سجن وارسو وشنقوا ثمانية سجناء . وكان ستة منهم تعاونوا بالفعل مع الروس ، بمن فيهم اسقف فيلنا . وتشكلت محاكم « ثورية » للنظر في قضايا من هذا القبيل ، بيد ان القمع في بولونيا لم يتسم يوما بالحدة التي اتسم بها الارهاب في فرنسا ، كما انه لم يبلغ يوما مستواه من التنظيم .

ترجمت المشاعر الثورية عن نفسها ، كما في فرنسا ، في

انتشار الاندية الشعبية ، وفي اعتمار القبعة الحمراء ، وفي تشييد المذابح للوطن ، وفي تكاثر الصحف والرسوم الكاريكاتورية السياسية والاناشيد الثورية . وتعبد المثقفون البولونيون بدورهم لديانة العقل التي أرست أسسها فلسفة الانوار . وبما ان البابا والاساقفة البولونيين كانوا برروا التجزئة الثانية للبلاد ، فقد اتسم موقف اليسار المناهض لرجال الدين بحدة فائقة في عام ١٧٩٤. ومع ذلك، كان الكثيرون يعتقدون ان دين المسيح الحقيقي يدعو الى المساواة وينتصر لها ، لذلك لم تخل صفوف الثورة من بعض الكهنة .

كان البولونيون يعقدون الآمال ، بطبيعة الحال ، على اندلاع ثورات في الدول المجاورة التي كانت تهدد بالقضاء على بولونيا . وكان كوزيوسكو نفسه ، على الرغم من اعتداله وعدم تطرفه ، يعتقد ان حدوث ثورة في روسيا هو الشرط المسبق الذي لا غنى عنه لقيام دولة بولونية حرة . وقد اوفد رسلا عنه الى المجر ، طلبا للعون والمساعدة . وكانت المجر تشهد آنذاك استعدادات سرية لشن ثورة مسلحة ضد حكم آل هابسبورغ . وفي وارسو ، كان الصحفيون يتكلمون لغة الثورة العالمية . وقد طبعت مناشير وكراسات باللغتين الروسية والالمانية ، ووزعت على جنود الجيوش الروسيةوالبروسية. وراحالثوار البولونيون يخاطبون عناصر القوات العدوة وكأنهم اخوة ، ويدعونهم الى الانفصال عن حكوماتهم . وكانوا يعبرون عن تعاطفهم مع الروس « الذين يتوقون الى الحرية ، وانما يعجزون عن التمتع بها في ظل حكم همجي » . وكانوا يناشدون البروسيين ، « اخواننا » ، ان يخلعوا نير الخنوع بقولهم: «تجرؤوا ولو مرة واحدة على أن تكونوا احرارا ! » . وكان البولونيون يعرضون اخوّتهم على ثوريي العالم بأسره . لكن الخطر الاعظم في نظر الملكيات المجاورة ما كان يكمن في هذه المفاخرة الكلامية ، وانما في احتمال نجاح الثورة البولونية التي قد تمهد الطريق ، معززة بتحرير الاقنان،امام تعميم دساتير مماثلة لدستور

١٧٩١ في منطقة القنانة الواسعة في اوروبا الشرقية، تلك « المنطقة الثالثة » التي اسلفنا الكلام عنها في الفصل الاول من هذا الكتاب .

كانت الملكات المجاورة ترى في هذا النذير الثوري الحقيقي استمرارا للثورة الفرنسية. ففي نظر كاترين الثانية ، كان العصاة البولونيون هم « رعاع وارسو المدربين على أيدي الطغاة الفرنسيين ». اما فردريك غليوم الثاني فقد زعم ان التمرد البولوني أماط اللثام عن « النشاط الشيطاني الذي يغذيه اليعاقبة لاضرام نار التمرد والعصيان في شتى ارجاء اوروبا » . وأضاف قوله ان الحرب في بولونيا تشكل جزءا « من النضال العظيم الذي تخوضه الحكومات القديمة ضد الثورة والفوضى » .

ما احتاج الجيشان الروسي والبروسي الى وقت طويل لاثبات تفوقهما الساحق . وقد سعى كولونتاي ، في محاولة اخيرة ، الى منح الفلاحين ملكية الارض والحرية الفردية في آن معا . ولكن عبثا . فقد كانت بولونيا أصغر حجما ، حتى وهي موحدة الاجزاء ، من ان تنتصر على خصمين بمثل هذه القوة. وقد لعبت انقساماتها الاجتماعية والاثنية العميقة دورها في تقصير عمر المقاومة . فمشاركة الفلاحين في هذه المقاومة كانت شبه معدومة . كما ان الجهود الشجاعة التي بذلها بسطاء الناس من اهل المدن لم تأت باي نتيجة ملموسة . فالنبلاء هم الذين حاربوا في المقام الاول ، وهم الذين هزموا . فقد خسر كوزيوسكو معركة ماشيجويش في تشرين الاول ١٧٩٤ . واعتقل وسجن ، لكنه استطاع فيما بعد ان يهرب الى اميركا . اما كولونتاي فقد أمضى سنوات طويلة في سجن نمساوي .

اقدمت روسيا وبروسيا آنذاك ، بالاشتراك مع النمسا التي انضمت اليهما ، على تقسيم بولونيا للمرة الثالثة و « الاخيرة » . فشطب اسم بولونيا من لائحة الدول الاوروبية . وبادرت كل دولة من الدول الثلاث التي توارثتها الى دمج الجزء الذي اخذته من

بولونيا بنظامها السياسي الخاص . ولا حاجة الى القول انه لم يبق شيء من دستور ١٧٩١ ، وان الفلاحين ظلوا اقنانا ، في حين حاولت الارستقراطية البولونية ان تختلط ، بقدر أو بآخر من حسن الاستعداد ، بالطبقات الارستقراطية للدول الغازية . اما الثوريون البولونيون فقد ولوا الادبار والتجؤوا الى فرنسا وايطاليا وتركيا . ومع هؤلاء اللاجئين بدأ عهد **الثورة البولونية في المنفى** الذي استمر زهاء قرن من الزمن . ولكن في بولونيا ذاتها كان عهد الثورة قد انتهى .

★ ★ ★

في تلك الفترة عينها ، أي في أواخر عام ١٧٩٤ ، قمعت سلطات فيينا الاضطرابات التي وقعت في امبراطورية آل هابسبورغ . ولم تكن هذه الاضطرابات تشذ عن المألوف ، بيد انها كانت تعكس تذمرا مزمنا وعميق الجذور . فقد كانت حركات تمرد فلاحية هزت المجر في عام ١٧٩٠ ، وبوهيميا في عام ١٧٧٥ . وكانت اخبار الثورة الفرنسية ، ومن ثم اخبار حرب ١٧٩٢ ، تتسرب الى القرى . وكان الفلاحون لا يزالون يتذكرون المحاولات التي بذلها جوزيف الثاني لالغاء نظام القنانة . كانوا يعلمون انه فشل في تحقيق مراميه ، وان الحكومة الجديدة ، الخاضعة لنفوذ كبار المالكين العقاريين ، تخلت عن برنامج جوزيف الثاني ، وراحت تحارب الثورة الفرنسية . وقد اجتاح امبراطورية آل هابسبورغ شعور عميق بمناهضة الحرب وبالتعاطف مع فرنسا . والتفت الكتب خصيصا لمحاربة هذا الشعور . وكتاب بورك **تأملات حول الثورة الفرنسية** وزّع بالالمانية . ونعت صحفيو بوهيميا ، بل حتى مؤسسو النهضة التشيكية ، الفرنسيين بالهمجية ، ونشروا اقبح الروايات عنهم ، واكدوا للفلاحين انهم محظوظون اذ يعيشون الحياة التي يعيشونها ، وبرروا بالتالي العمل الزراعي القسري .

فهذه السخرات كانت ، في نظرهم ، طبيعية للغاية . فهي تسمح للفلاح بأن يعيش في املاك سيده ، وتضمن لهذا الاخير بالمقابل كسبا مشروعا .

باستثناء بلجيكا ومقاطعة ميلانو ، لم تكن امبراطورية آل هابسبورغ تضم عددا كبيرا من المدن المتطورة . بيد ان فيينا ، عاصمتها ، كانت واحدة من اكبر المدن الاوروبية. ومع ان الزوار الارستقراطيين القادمين من الاقاليم كانوا يهيمنون على حياتها الاجتماعية ، فان فيينا كانت تضم طبقة وسطى من المثقفين ، أي من صحفيين، ومحامين، وموظفين حكوميين كانوا ايدوا برنامج جوزيف الثاني ، وباتوا يتذمرون اكثر فأكثر من امتيازات طبقة النبلاء . وكانت هذه الامتيازات تتمثل في الاعفاء التقليدي من دفع الضرائب ، وفي المشاركة في الحكم عن طريق المشورة . وقد أقصيت المدن ، قرنا بعد آخر ، عن الحياة السياسية للامبراطورية، واستولت طبقة النبلاء الريفيين على حقوقها . ففي « دييت » بوهيميا ، لم تكن تمثل أي مدينة باستثناء مدينة براغ . وفي ستيريا كان ثمة شخص واحد يتكلم باسم مدن الدوقية كافة . وفي مثل هذه الشروط ، كان الدستور البولوني لعام ١٧٩١ ـ فكم بالاحرى الدستور الفرنسي ـ قمينا بممارسة جذب خاص على وجهاء المدن . وهكذا بدت الحرب ضد فرنسا الثورة في نظر الطبقات الوسطى في المدن وفي نظر الفلاحين على حد سواء ، عارية من كل هدف . فقد كانت حربا صليبية ارستقراطية لم تستثر مشاعر عامة الناس لا من قريب ولا من بعيد .

نزع ليوبولد الثاني ، خلال عهده القصير الذي لم يستمر سوى عامين ، الى التعاطف مع تطلعات الطبقة الوسطى ، ولاسيما انه كان يعتبر طبقة نبلاء الريف ألد أعدائه على الاطلاق . فهذا العاهل المقدام ، هذا المستبد المستنير ، ما كان على استعداد لان يتقاسم سلطته لا مع الشعب ولا مع النبلاء. وقد لجأ الى اساليب العمل السرية . فبواسطة الصحافي الفييناوي ل.أ. هوفمان ،

الذي كان يزعم ان الثورة الفرنسية هي حصيلة مؤامرة حاكهـا « اشخاص من اصحاب الرؤى » ، اسس ليوبولد جمعية سرية اجنبية كانت تطلعه ، بالتعاون مـع البوليس ، علـى نشاطـات « الديمقراطيين » و « الارستقراطيين » فيالدول والاقاليم التابعة للامبراطورية . وكان بعض المنتمين الى هذه الجمعية الغامضة من المصلحين الصادقين ، ومـن معاوني جوزيف الثاني الاسـبقين ، وكانوا يعتبرون الكنيسة وطبقة النبلاء العائق الاساسي في وجه تحديث البلاد . لذلك نظروا الى الثورة نظرة تعاطف عندما خلف فرانسوا الثاني ليوبولد الثاني في مستهل الحرب مع فرنسا ، أي عندما استبعدت كل فكرة اصلاحية . وبما أن آفاق الثـورة في فرنسا وبولونيا بدت أوفر حظا في عام ١٧٩٤ ، فقد خرج اليعاقبة النمساويون والمجريون من الخفاء الى العلن . والواقع ان كلمـة « يعاقبة » لا تنطبق عليهم تماما . فلم يكن ثمة قاسم مشترك بين هؤلاء المتآمرين وبين اليعاقبة الفرنسيين ، بل ولا حتى بينهم وبين اليعاقبة البولونيين .

لم ترتد مؤامرة فيينا اهمية تذكر . كانت خيوطها بدات تحاك مع قدوم احـد انصار كوزيوسكو الى النمسا سـعيا وراء الحصول على مساعدة للبولونيين . وقد التقى مجموعة صغيرة من مثقفي فيينا ، وعرض احدهم على البولونيين الاستفادة من اختراع جديد كان انجزه لتوه ، اختراع يحمي المشاة من هجمات سلاح الفرسان . وقد ناشد النمساويون زائرهم البولوني تأميـن مبلغ كاف من المال لارسال احدهم الى فرنسا كيما يقـدم هـذا الاختراع لجيوش الثورة الفرنسية . وقام موفد نمساوي ، هـو القس البروتستانتي هيلد ، بزيـارة باريس فعلا . لكـن لجنـة السلامة العامة ، التي كانت جيوشها قد انتصرت لتوها في معركة فلوروس وبدأت تجتاح البلدان ـ الواطئة النمساويـة ، لـم تعر أي اهتمام للاختراع المعروض عليهـا ، ولا لتلك القبضة مـن الثوار المزعومين في فيينا ، ولاسيما انها كانت تجهـل كل شيء

عنهم . بل انها اوقفت هيلد ، باعتباره من رعايا بلد عدو . وفي اثناء ذلك كان المتآمرون في فيينا يرسمون الخطط لحكم الامبراطورية ، ويضعون في التداول كتاب توماس باين **حقوق الانسان**، المترجم الى الفرنسية ، مع قصيدة شعر تعليمية ، مستوحاة من المصدر نفسه ومنظومة باللغة اللاتينية الحديثة . ولما علمت الشرطة النمساوية بمهمة هيلد في باريس ، بادرت الى اعتقال المتآمرين . وكان في عداد هؤلاء شخص يدعى مارتينوفيش. وقد كشف للبوليس ، بعد اعتقاله ، عن مؤامرة اكثر ثورية بكثير تدبر في المجر ، يتزعمها هو شخصيا .

كان في المجر معارضة تقليدية لفيينا ، وقد رفع هذا البلد راية التمرد غير مرة . كان كبار رجال الدين الكاثوليكي وكبار النبلاء من اصحاب الاراضي الشاسعة ومالكي مئات الاقنان اكثر اندماجا بثقافة امبراطورية آل هابسبورغ وبطبقتها الارستقراطية المتعددة الجنسيات . اما صغار اعيان الريف فكانوا اقل كوزموبوليتية واكثر وطنية . فأعاروا اذنا صاغية للدعوات القائلة ان طبقة كبار النبلاء وكبار رجال الدين ضحت بالمجر على مذبح مطامح سلالة هابسبورغ الالمانية وحاجاتها وحروبها . وعارضوا الحرب التي شنتها هذه السلالة على فرنسا الثورة ، تلك الحرب التي امتنع « الدييت » المجري عن تأييدها حتى عام ١٧٩٧ . ومن نافل القول ان هؤلاء النبلاء الريفيين لم يجبلوا من طينة الثوار الفرنسيين : فمن جملة مآخذهم على جوزيف الثاني الغاؤه نظام القنانة . والحق انهم كانوا ، من حيث مستواهم الاجتماعي ومشاعرهم القومية الجياشة ، قريبين جدا من طبقة صغار النبلاء الثوريين في بولونيا .

مع ان مدن المجر كانت صغيرة ، والمانية في غالبيتها ، فقد شهدت انتشار اندية سادتها ذهنية عصرية . وقد ضمت هذه الاندية ، على الوجه الاخص ، موظفين حكوميين ومحامين، ومثقفين مستقلين . وكان بعضهم من البروتستانتيين ، اذ أن الكالفانية

عرفت رواجا كبيرا في المجر منذ القرن السادس عشر . وكان يتردد ايضا على هذه الاندية بعض البورجوازيين ، من امثال جوزيف هاجنوشنري ، وهو ابن قس بروتستانتي ، قدر له أن يصبح في عهد جوزيف الثاني اول بورجوازي يشغل منصبا عاما ، منصب نائب والي مقاطعة مجرية . وقد فقد هذا المنصب مع حصول الردة الارستقراطية بعد عام ١٧٩٠ . على كل حال ، امسى البروتستانتيون والبورجوازيون من جديد ، بعد وفاة جوزيف الثاني ، موضع تمييز تعسفي .

كان في المجر اذن مجموعتان متمايزتان من الثوريين بالقوة . وكانت المجموعة الاولى تتسم بطابع ريفي ومحافظ في حين كانت المجموعة الثانية اكثر انفتاحا على الافكار العصرية . لكن بخصوص الحرب كانت كلتا الجماعتين متعاطفة مع فرنسا . كان هؤلاء المجريون يطالمون باستمرار صحيفة « لو مونيتور » الفرنسية ، وبادر بعضهم الى ترجمة نشيد الثورة الفرنسية La Marseillaise الى اللاتينية ( التي كانت لا تزال اللغة السياسية للمجر ) والى المجرية والسلوفاكية . فيرنك سزنتمارجاي ، أحد مدوّني اللغة المجرية المكتوبة ، ترجم كتاب روسو **العقد الاجتماعي** ، واوجد ، بالمجرية ، الالفاظ الحديثة التي تعني « المواطن » ، و « الشعب » ، و « المساواة » ، و « السيادة » ، الخ . وقد تعاطف كل من كان يتبنى هذه الافكار مع أسرى الحرب الفرنسيين المحتجزين في المجر . وقطع سزنتمارجاي مسافة سبعين كليو مترا كيما يلتقي جنود الجمهورية هؤلاء.وبعد تبادل احر العناق قدم له الاسرى راية الثورة ، أي العلم المثلث الالوان . ولم يكن سزنتمارجاي يقبل بعرض هذا العلم على اصدقائه ما لم يسجدوا له باحترام .

دسّت حكومة فيينا بعض عناصر من الشرطة في صفوف هؤلاء الثوريين المتحمسين . وكان من بين هذه العناصر المدعو مارتينوفيش الذي فضح فيما بعد امر مؤامرة ١٧٩٤ . وكان مارتينوفيش ، وهو مجري من اصل صربي ، مثقفا متشردا ،تربى

تربية دينية ، ثم اصبح ملحدا على طريقة دولباخ . وقد عقد ، خلال رحلاته ، صلات بالبولونيين ، ومارس مهنة التعليم في لمبرغ في غاليسيا ، المنطقة البولونية التي كانت النمسا استولت عليها في التقسيم الاول لبولونيا . لكن عندما رشح نفسه للتعليم في جامعة بودابست، استبعد من المنصب الذي كان يطمح اليه.
وفي عام ١٧٩١ ، عمل مارتينوفيش في المنظمة السرية التي اوجدها ليوبولد الثاني . فقد كان من المعجبين بليوبولد ، ومن انصار برنامج « الاستبداد المستنير » الذي وضعه جوزيف . لذلك كان يضمر العداء لرجال الدين والنبلاء الذين وقفوا حجر عثرة في وجه مشاريع الاصلاح . واغلب الظن انه تطوع للعمل في صفوف البوليس ، عندما كان هذا البوليس اصلاحيا . لكن الامبراطور الجديد ، فرانسوا ، كان يعادي المشاريع الاصلاحية معاداته للاساليب البوليسية التي اخذ بها سلفاه . وادرك مارتينوفيش ان خدماته ما عادت مطلوبة كما في الماضي . فصب اهتمامه ، في عام ١٧٩٤ ، على الثورة في المجر : افلم تكن هذه الثورة تستهدف ما رغب ليوبولد في تحطيمه والقضاء عليه ؟

بادر مارتينوفيش اذن الى جمع شمل العناصر الثورية ، الموجودة على الساحة من قبل . ذلك انه جاء متأخرا الى الحركة الثورية المجرية ، ولم ينشط في اطارها الا لاسابيع معدودة ، منظما مؤامرة كانت مساهمته الفعلية فيها غير ذات اهمية تذكر. وقد عرف كيف يفرض هيبته على اولئك المجريين البسطاء ، بما ادعاه من اطلاع على شؤون العالم ، ومن اتصالات مزعومة مع الحكومة الثورية في باريس . واسس جمعيتين سريتين . وقد ضمت احداهما النبلاء المجريين الساخطين وانما المحافظين . ووعدهم بجمهورية ارستقرطية ومستقلة ، يتم الحفاظ فيها على القنانة وعلى « نظام الاقطاع » على حد تعبيره . وحاذر طبعا من ان يكشف امر هذه المنظمة لاصلاحيي المنظمة السرية الثانية ، اي « جمعية الحرية والمساواة » . وكان مارتينوفيش واثقا من ان المنظمة الثانية

سنقضي بسهولة على الاولى ، بعد الاطاحة بحكم آل هابسبورغ .

تمكن مارتينوفش واصدقاؤه ، خلال اسابيع معدودة ، من تجنيد مئتي او ثلاثمئة عضو للجمعيتين السريتين . ولا ريب في انهم كانوا سيجتذبون عددا اكبر من الاعضاء ، فيما لو اعطوا مهلة زمنية اطول ، اذا ان عدد الساخطين والمتذمرين في المجر كان ضخما . غير ان مهمة هيلد في باريس نبهت الشرطة الى ما يحاك في الظل . فاعتقلت مارتينوفيش ، الذي صادف وجوده في فيينا آنذاك ، وكذلك المتآمرين في عاصمة الامبراطورية . هل ادرك مارتينوفيش ان أمر المؤامرة التي كان يعدها في المجر قد افتضح ؟ ام انه طمع في العودة الى العمل مع البوليس ؟ مهما يكن من أمر ، فقد كشف عن هوية المتآمرين الذين وقعوا في قبضة البوليس . وقد حوكم المتآمرون ، وصدرت احكام قاسية بحقهم : فقد اعدم اثنان من النمساويين وثمانية عشر مجريا بتهمة التآمر على قلب نظام الدولة في زمن الحرب ، وزج بالآخرين في غياهب السجون .

ان السلطات النمساوية ، التي اقلقتها مؤامرة مارتينوفيش والثورة البولونية لعام ١٧٩٤ ، ولاسيما انه اعقبتهما اضطرابات في شمال ايطاليا في عام ١٧٩٦ ، ومؤامرة اليوناني ريغاس فلستنليس في فيينا في عام ١٧٩٧ ( كان ريغاس يخطط لحمل يونانيي الامبراطورية العثمانية ، التي كانت حدودها تتاخم حدود امبراطورية آل هابسبورغ ، على العصيان والتمرد ) ، هذه السلطات النمساوية راحت تتخوف اذن اكثر فاكثر من انتشار الافكار الحديثة . وقد اتخذت اجراءات مشددة لمحاربتها : عززت رقابة الشرطة ، فرضت رقابة دقيقة على كل ما ينشر ، شجعت المؤلفات التي تصف أهوال الثورة الفرنسية ، منحت الاساقفة سلطات جديدة على المدارس ، اهملت تجارب نشر التعليم في الارياف ، وجمدت الازدهار الاقتصادي وازدهار المدن . بيد ان هذه الاجراءات لم تنجح الا في مفاقمة التذمر الفلاحي وفي تعزيز التيار المناهض

**للنظام القديم** . والحق أن عصر ماري ــ تيريز وجوزيف الثاني ، اي عصر الاصلاح ٪ قد ولى . ودخلت النمسا عصر مترنيخ وثورات ١٨٤٨ التي كانت قاضية بالنسبة الى امبراطورية آل هابسبورغ.

★ ★ ★

ليس لدينا شيء يذكر نقوله عن بقية مناطق اوروبا الشرقية. في الجنوب الشرقي راحت الشعوب والاثنيات ، وجلتها فلاحية ، تعيد الاتصال مع اوروبا وتطور لغاتها الخاصة بعد قرون من التسلط التركي . وكانت فيينا ، بالنسبة الى بعض حركات هذه الشعوب، مركزا هاما . وهكذا قدر لاول صحيفة يونانية ان تصدر في فيينا في عام ١٧٩٠ .وفي عام ١٧٩٢ سمح فرانسوا الثاني باصدار صحيفة جديدة صربية ــ كرواتية ، شرط ان تطبع بالابجدية الكيريلية (٢) ( التي كان يتعذر على الكرواتيين والسلوفينيين قراءتها ) وان تبرز فظائع الثورتين الفرنسية والبلجيكية . بالمقابل، فان اول صحيفة رومانية٪صدرت في عام ١٧٩٠ بالرومانية والفرنسية معا ، كانت تنقل اخبار الثورة الفرنسية . وقد رفعت جماعة من الرومانيين يعيشون في المجر الشرقية عريضة في عام ١٧٩١ طالبوا فيها بتغييرات مماثلة لتلك التي احدثتها الثورة في فرنسا . ومن نافل القول ان طلبهم لم يلق آذانا صاغية . وقد دبر ريغاس فلستنيلس ٪ باسم اليونانيين المشتتين عبر الامبراطورية العثمانية، مؤامرة في فيينا ووضع دستورا للجمهورية الهلينية على غرار الدستور الفرنسي لعام ١٧٩٥ . بيد أن الشرطة النمساوية سلمته للسلطات التركية فأعدمته في بلغراد في عام ١٧٩٨ . وظلت البلدان البلقانية ٪ على الرغم من انغلاقها ، تتأثر بأحداث فرنسا وبولونيا . وقد استهلت ثورة الصرب في عام ١٨٠٤ التاريخ الحديث

(٢) ابجدية سلافية قديمة يقال ان مخترعها هو القديس كيريلوس . «م».

لجنوب شرقي اوروبا .

★ ★ ★

كانت روسيا بالطبع اكبر دولة في اوروبا الشرقية . وكان تشديد نير القنانة في عهد كاترين الثانية المديد قد اقترن بتغريب الطبقات العليا التي تحولت الى ارستقراطية تنعم بالامتيازات ، على الطريقة الغربية . وكانت ذكرى ثورة بوغاتشيف، الذي حرّض الاقنان على التمرد في اجزاء واسعة من روسيا في عام ١٧٧٣ ، لا تزال ماثلة في الاذهان . لكن الخطر الاكبر الذي كان يتهدد سلطان الحكام الروس وحياتهم كان مصدره النبلاء . وفي عام ١٧٨٥ اصدرت كاترين ، بغية كسب رضى النبلاء ولجم الفلاحين بمزيد من الشدة ، **ميثاق طبقة النبلاء** ، الذي حدد الوضع القانوني وامتيازات ابناء « الاسر العريقة » ، فمنحهم حق حمل الالقاب ، وشراء الاقنان وبيعهم ، والاعفاء من الضريبة ، والالتئام في جمعيات تمثيلية اقليمية . وكان النبلاء ، الذين يملكون مساحات شاسعة من الاراضي ، يشكلون دولة داخل الدولة ، وكانت روسيا تتجه بخطى حثيثة نحو اقامة نظام مماثل **للنظام القديم** الاوروبي ، في الوقت الذي هبّت فيه اوروبا الغربية لتقبر هذا النظام .

لكن بالرغم من هذا كله ، عرفت الافكار الجديدة طريقها الى روسيا . كانت الامبراطورة كاترين نفسها تتعاطف مع افكار ديدرو وتهتم بـ « الفلسفة » . وقد جاءت بلاهارب (٣) من سويسرا ليعلم حفيديها ، بيد انها عادت فطردته في عام ١٧٩٦ . وكان احد كبار اقطاعيي الامبراطورية ، وهو الكونت ستروغونوف ، قد انضم في

(٣) جان فرانسوا لاهارب ( ١٧٣٩ — ١٨٠٣ ) ، ناقد فرنسي كلاسيكي النزعة ، صاحب كتاب **دروس في الادب** . « م » .

شبابه الى نادي اليعاقبة في باريس ، وتتلمذ على يدي جيلبير روم، الذي اصبح فيما بعد من اعضاء **المجلس الوطني** البارزين . وفي عام ١٧٨٩ ، كان زهاء ثلاثين صحيفة يومية ومجلة تصدر في روسيا . وعلى الرغم من خضوعها لرقابة مشددة ، كانت تنقل بعض الاخبار عن الاحداث الدائرة في فرنسا وخارجها . وقد أصدر ن. ي. نوفيكوف صحيفة موجهة الى القراء غير الارستقراطيين ، كما اشرف على مدرسة من مترجمي الكتب الاجنبية ، وساهم في تأسيس مكتبة عمومية في موسكو . وقد ارتابت السلطات في نشاطاته واعتبرته رجلا خطيرا فحكمت عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاما . وقد صدر هذا الحكم في عام ١٧٩٢ . ونظم الكسندر راديشيف قصيدة حماسية تتغنى بالحرية الاميركية ، ثم اصدر في عام ١٧٩٠ كتابه **رحلة من سان ـ بطرسبورغ الى موسكو** . وبما انه اعطى في هذا الكتاب صورة قاتمة للغاية عن القنانة والمؤسسات الروسية ، فقد نفي الى سيبيريا .ولقبه بعضهم بالثوري الروسي الاول . وكانت كاترين الثانية تقول عنه : « ان راديشيف اسوأ حتى من بوغاتشيف . فهو يطالع اعمال بنيامين فرانكلين » . على ان تأثير الثورتين الفرنسية والبولونية على روسيا فاق بكثير تأثير الثورة الاميركية .

حتى الطبقات « الدنيا » ـ أي الطبقات غير النبيلة في روسيا ـ شرعت هي الاخرى تنقد المجتمع القائم . وكان هنالك مثقفون حتى في صفوف الاقنان ، ولاسيما التابعين منهم للاسر المستنيرة ، كأسرة ستروغونوف على سبيل المثال .

بيد ان العقلية المناهضة للثورة كانت هي الطاغية . وبعد عام ١٧٨٩ ، اصبحت السفارة الفرنسية مصدرا لانتشار الافكار « الهدامة » . فالسفير الفرنسي ، الكونت دو سيغور ، كان من المتعاطفين مع الثورة وكان لا يكف عن امتداحها امام النبلاء الروس. بيد انه قفل راجعا الى فرنسا في عام ١٧٩٠ . جينيه ، القائم بأعماله ، تصدى لمطالب المهاجرين الفرنسيين ، بل رفع ايضا

تقريرا عن مؤشرات التذمر التي راحت ترتسم في الافق الروسي .
غير انه طرد في عام ١٧٩٢ . واتخذت كاترين الثانية ،التي كانت تستفظع الثورة الفرنسية ، اجراءات عينية ضد الخطر القريب من حدودها . كانت تردد انها ستحارب مذهب اليعاقبة وستهزمه في بولونيا . وفي نيسان ١٧٩٢ ، تحالفت مع مناهضي الثورة في بولونيا الذين طلبوا مساعدتها واصدروا **ميثاق تارغويكا** ، الذي كتب ووقع في سان ـ بطرسبورغ . ثم اجتاحت بولونيا ، وألغت الدستور البولوني لعام ١٧٩١ . بعد ذلك عمدت ، بالتعاون مع البروسيين ، الى سحق الثورة التي قادها كوزيوسكو .

في اثناء ذلك،كان فيض من الكتابات المعادية للثورة الفرنسية، وللثورات قاطبة ، يصب على روسيا وغيرها من الاقطار . كان عبارة عن ادب « ريفي » ، توصف المدن فيه بأنها طفيليات ، واهل المدن بأنهم عناصر خطيرة على المجتمع لانها تشجعوهم المساواة. وقد عزيت الثورة الى حسد طغمة من المحامين والعمال شبه الاميين ـ الى من كان بورك يسميهم ب « اليهود ، والسماسرة ، والصيارفة، واندية الشباب » ـ الذين كانت المدن تلملم شملهم . وكانت الفكرة القائلة ان الثورة هي حصيلة مؤامرات سرية حاكها باطنيون وماسونيون تلقى رواجا كبيرا في روسيا . وكانت الجمعيات السرية القائمة فيها فعلا تتعرض باستمرار للملاحقة .

ان تقاليد الثورة والثورة المضادة في روسيا الحديثة تعود في الواقع الى تلك السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر . وقد رصد البروفسور سترانج ، على الصعيد الشعبي ، ما يقارب من ثلاثمئة حالة تمرد وعصيان في صفوف الاقنان بين عامي ١٧٩٦ و ١٧٩٨ . وقد حاول القيصر الكسندر الاول ، حفيد كاترين الثانية وتلميذ لاهارب ، بعد عام ١٨٠١ ان يحدث تغييرا ليبراليا في امبراطوريته . بيد ان الخوف الدائم من الافكار الجديدة ومن اوروبا الغربية حكم على روسيا بان تبقى لفترة طويلة متأرجحة بين هذين القطبين .

باختصار ، ان حقبة التحالف العسكري الاول الذي تشكل في عامي ١٧٩٢ ـ ١٧٩٣ لمحاربة التطورات الثورية في فرنسا وبولونيا ، انتهت في منتصف العقد الاخير من القرن الثامن عشر. ولئن لبثت الثورة حية في فرنسا ، فقد قضي عليها قضاء مبرما بالمقابل في اوروبا الشرقية .

الفصل السادس

# الجمهوريات الشقيقة :

# توسع الثورة

ظهرت ، منذ عام ١٧٩٥ ، مجموعة من الجمهوريات الثورية، خارج نطاق الحدود الفرنسية . كانت هذه الجمهوريات ثورية بمعنى انها كانت تختلف تماما عن الجمهوريات القديمة التي الفتها اوروبا ، كجمهوريات البندقية وجينوى والبلدان الواطئة الهولندية والكانتونات السويسرية . وكانت هذه الجمهوريات كافة تستوحي الثورة الفرنسية ، وتتمثل بمبادىء ١٧٨٩ ، وتستلهم الدستور الفرنسي للعام الثالث ، اي نظام **حكومة الادارة** الذي كانت تتفق على اطلاق صفة « الديموقراطية » عليه . وكانت هذه الجمهوريات ثورية ايضا لان مؤسسيها كانوا من الزعماء المتمردين على الانظمة السائدة في بلادهم ، وقد انضموا الى الفرنسيين لاعادة تنظيم هذه البلاد وتقويض مؤسساتها القديمة . وكان تعداد سكان اكبر هذه الجمهوريات لا يتجاوز عشر سكان فرنسا . وكانت هذه الجمهوريات تتبع للجمهورية

الفرنسية او تدور في فلكها . أو كانت بالاحرى ، حسب التعبير الشائع في ذلك العصر ، جمهوريات « شقيقة » . ولو قدر للاحداث ان تأخذ مجرى مخالفا للمجرى الذي اخذته ، اي لو قدر للجماعات الثورية المختلفة أن تحقق النصر ، لقامت جمهوريات اخرى على الضفة اليسرى لنهر الراين ، في المانيا الجنوبية ، في ارلندا ، او في بلجيكا في عام ١٧٩٢ . وفي الواقع ، كانت هنالك ست جمهوريات شقيقة في عام ١٧٩٩: الجمهورية الباتافية ، والهلفيسية ، وجمهورية جبال الالب الغربية ، والرومانية ( نسبة الى روما لا الى رومانيا — م » ). واخير جمهورية نابولي التي كانت تعرف ايضا باسم الجمهورية البارثينوبية .

في الجمهوريات الشقيقة ، اكثر مما في أي مكان آخر ، تجلى المد الصاعد للثورة الفرنسية . وقد لا تكون كلمة « المد » صالحة تماما لوصف الحالة التي نحن بصددها . ذلك ان من يقول مدا يقول حركة متولدة باكملها عن قوة مركزية . والحال لم يكن مظهر هذه الجمهوريات يوحي ببلاد اجتاحها مد عارم . فقد تكونت كل واحدة منها بتأثير قوة ذاتية تماما ، كانت في بعض الاحيان تشكل استمرارا لحركة ثورية داخلية تعود الى ما قبل عام ١٧٨٩ . وكانت كل واحدة من هذه الجمهوريات تمثل ، على مسرحها المحلي، ردة فعل على **النظام القديم** ، واستجابة للثورة الفكرية المسماة بثورة « الانوار » . وكانت هذه الجمهوريات تقع في ما أسميناه المنطقة الثانية من اوروبا ، منطقة الحضارة المدينية ، والطبقة الوسطى المتطورة ، والطبقة الفلاحية الحرة ، باستثناء ايطاليا الجنوبية حيث لم تتسم على كل حال النزعة الجمهورية الجديدة بالعنفوان والقوة .

لكن ان كانت هذه الجمهوريات تمثل قوة محلية ، فانها كانت ايضا من مشتقات الثورة الفرنسية ، او بالاحرى من نتائج الحرب التي بدأت في عام ١٧٩٢ والتي ربحها الفرنسيون

بعد ربيع ١٧٩٤ . وقد احتاج الفرنسيون ، في اثناء العمليات الحربية ، الى الاستفادة من ثروات المناطق المعنية وطاقاتها ، عن طريق اقامة جمهوريات جديدة فيها . وقد سعى مصلحو هذه المناطق وثوريوها من جهتهم الى ان يستغلوا لصالحهم انتصارات الثورة الفرنسية . ان وجد اذن شعور حماسي بالتحرر العام ، فقد اقترن بشعور بالمصلحة الشخصية ، اعقبته خيبة أمل لدى الجانبين .

دلل الحكم في فرنسا ، سواء أفي عهد **المجلس الوطني** أم في عهد **حكومة الادارة** ، على ريبة حيال الثوريين « الاجانب » ، وتردد في تبني الانظمة الجمهورية خارج فرنسا . ولم يدخل في حسابه ، ولو لمرة واحدة ، ان يجعل من استسلام الانظمة المعادية غير المشروط ، او من انهيارها التام ، شرطا من شروط الصلح الاساسية . ولم يتآمر **المجلس الوطني** ، ولا **حكومة الادارة** ، مع المهاجرين الاجانب ، كما فعلت كاترين الثانية على سبيل المثال مع بولونيي حزب تارغويكا . وباستثناء بعض الحوادث العابرة ، لم يكن ثمة « حرب سرية » خاضها **المجلس الوطني** او **حكومة الادارة** ضد حكومات الدول المجاورة . ان كتاب هارفي ميتشل **الحرب السرية ضد فرنسا الثورة** ، الذي يعطي صورة شاملة عن المساومات البريطانية مع الملكيين الفرنسيين بين ١٧٩٤ و ١٨٠٠ ، **لا يجد** مرادفا له على الصعيد الفرنسي .

اسلفنا الكلام عن الخطط التي وضعها دوموريه لتأسيس جمهورية بلجيكية في ١٧٩٢ . وكانت ثورة بلجيكية فعلية قد حصلت في عام ١٧٨٩ . وقد تمكن البلجيكيون من ان يطردوا بأنفسهم سادتهم النمساويين . غير ان فرنسا ، الداخلة في حرب مع النمسا ، ضمت اليها بلجيكا في عام ١٧٩٣ . وقد طُرد الفرنسيون خارج بلجيكا يوم هزيمة دوموريه وخيانته ، لكنهم عادوا اليها ثانية في عام ١٧٩٤ ، وأعادوا ضمها في عام ١٧٩٥ . وان عددا كبيرا من رجال الاعمال البلجيكيين ، ممن اجتذبتهم فكرة

الاستفادة من سوق أوسع ، وجدوا في الانضمام الى فرنسا حلا أفضل من الابقاء على النظام القديم البائد ، او من التنعم باستقلال يُحكم في ظله على بلجيكا بأن تظل ممزقة ابدا بين الاحزاب التي تتجاذبها . وقد انضم اعداء رجال الدين الى هذا الفريق من رجال الاعمال وأيدوهم ، فقيّض لبلجيكا ان تصبح ، لمدة عشرين عاما ، جزءا من فرنسا . وهكذا طرأ على الاقاليم القديمة ، وعلى مدن البلدان الواطئة النمساوية ، وعلى اسقفية ليبج ، تحوّل جذري بفعل الثورة الفرنسية . ولولا انصهار هذه الكيانات القديمة في بوتقة واحدة ، لما قدّر للملكة البلجيكية ، التي تكوّنت في القرن التاسع عشر ، ان ترى النور يوما .

كان اليعاقبة الفرنسيون ، بعد طرد جماعة بريسو على اية حال ، يحتقرون الثوريين الاجانب ، ويعتبرونهم خياليين ومتطرفين . كانوا يدركون ان طالبي الثورة هؤلاء لا يستطيعون ان يفعلوا شيئا بدون المساعدة الفرنسية . وكان روبسبيير لا يؤمن الا بواقع الثورة الفرنسية . وبمبادرة منه كمت افواه انصار الثورة العالمية ، الذين كانوا ينشطون في باريس منذ عام ١٧٩٢ ، وحلت فرقهم وجمعياتهم ولجانهم .

بعد الانتصارات الفرنسية ، التي دشنتها معركة فلوروس في حزيران ١٧٩٤ ، دبّ الامل من جديد في نفوس الثوريين الاجانب . بيد ان الفرنسيين لم يبدوا تجاههم أي تعاطف او اهتمام . لم يعزفوا فحسب عن تقديم اي مساعدة لكوزيوسكو وعن ابداء اي تشجيع لموفد يعاقبة فيينا السري ، الذي عاد صفر اليدين ، بل لم يلقوا بالا ايضا لثوار البلدان المجاورة . ففي اونيغليا ، من أعمال جزيرة سردينيا المحتلة من قبل القوات الفرنسية ، كان ممثلو فرنسا المدنيون يضمون في صفوفهم بيوناروتي ، الذي سيصير بعد عامين رفيق بابوف في النضال . وكان شقيق روبسبيير يقيم بدوره في الجوار . وقد التمس مساعدتهم ايطاليون راغبون في الاطاحة بالنظام الملكي في سردينيا . بيد انهم لم يعيروهم

اهتماما . وفي جينيف انشأ « المساواتيون » محكمة ثورية حكمت بالاعدام على اربعة عشر شخصا في تموز ١٧٩٤ . ولم تقابل هذه الخطوة الا بالاستنكار والازدراء من قبل المسؤولين الفرنسيين . وكان جيش الاحتلال الفرنسي في بلجيكا قد جاء معه ببعض اللاجئين البلجيكيين ، الراغبين في العودة الى بلادهم . ولم يحاول الفرنسيون التعاون معهم على الاطلاق ، اذ كانوا يتخوفون من رغبتهم في اشباع ظمئهم الى الانتقام من مواطنيهم . وكان هذا الجيش عينه يجر خلفه ايضا مهاجرين هولنديين يتحرقون شوقا لنقل الثورة الى هولندا . وقد اقترح الجنرال دائندلز ، الذي كان في عداد هؤلاء اللاجئين ، السفر سرا الى امستردام لاشعال فتيل ثورة موالية للفرنسيين . لكن لجنة السلامة العامة في باريس لم تعط الجنرال جوابا صريحا . فقد رحبت بثورة يقوم بها الهولنديون ضد سلالة اورانج التي كانت تخوض الحرب ضد فرنسا ، بيد انها لم تتعهد بتقويم المساعدة ولم تتقيد باي التزام . فالهولنديون ، كما قال كارنو ، لا يفكرون الا ببلدهم و « علينا نحن الفرنسيين ان نفكر ببلدنا » .

لكن فرنسا اعترفت مع ذلك في عام ١٧٩٥ بالجمهورية الثورية الباتافية . **والمجلس الوطني** ، الذي كان في الاشهر الاخيرة من عهده أسقط الهولنديين من لائحة اعدائه ، عقد الصلح مع بروسيا واسبانيا ، مما ادى الى تحطيم التحالف العسكري الاول . وبما أن بروسيا لبثت على الحياد طيلة عقد من الزمن ، وبما أن القوات البريطانية انسحبت من البر الاوروبي ، في حين انحازت الجمهورية الباتافية وحتى مملكة آل بوربون الاسبانية الى جانب الجمهورية الفرنسية ، فقد امسى في مستطاع هذه الاخيرة ان تركز كامل مجهودها الحربي ضد النمسا ، التي كانت سردينيا لا تزال تتعاون معها . وقد تمخض هذا المجهود عن حملة بونابرت الباهرة في ايطاليا الشمالية في عام ١٧٩٦ ، تلك الحملة التي استهدفت سردينيا والقوات النمساوية في لومبارديا .

لم يكن تأرجح **حكومة الادارة** بين اليمين واليسار وقفا على الشؤون الداخلية . فقد كانت هذه الحكومة تؤيد تارة الخطط التي يرسمها الثوار الاجانب لقلب انظمة الحكم في بلادهم ، وتتنكر لها طورا . ففي مطلع عام ١٧٩٦ ، شجع وزير الخارجية ، دولاكروا، مشاريع بيوناروتي وبعض الايطاليين الآخرين الرامية الى تفجير ثورة جمهورية في ايطاليا . كما استقبل جماعة سرية من المانيا الجنوبية كانت تصبو الى اقامة نظام جمهوري وتسير على هدى مغامر يدعى بوتيراتز . وأذن للبولونيين بتنظيم فيلق يضم بضعة آلاف من اللاجئين البولونيين الراغبين في القتال جنبا الى جنب مع الجيوش الفرنسية في ايطاليا . ووضع دولاكروا ايضا ، مع الثائر الارلندي وولف تون ، خططا لتحرير ارلندا ، وجمع معلومات دقيقة حول امكانات قيام ثورة في انكلترا . وبناء على موافقته ، أقدم مغامر من ولاية كارولينا الجنوبية ، يدعى وليم تيت ، على انزال كتيبة فدائية من بضع مئات من الفرنسيين على شواطىء بلاد ويلز . ورعى في الجمهورية الباتافية الحزب الاكثر ديمقراطية والاشد عداء للبريطانيين ، كما وطد علاقاته مع سلطان ميسور ضد البريطانيين في الهند .

لم يتهيب دولاكروا من تحويل اهتمامه حتى الى اميركا الشمالية . فبما ان الاميركيين بدوا متحالفين مع انكلترا منذ التوقيع على معاهدة ١٧٩٤ ، فقد شجع دولاكروا « الثورة » في الولايات المتحدة ، بمعنى انه فضل ان ينتخب جفرسون للرئاسة الاولى ، بدلا من ادامز . وأعلن سفير فرنسا في الولايات المتحدة ، في خطبه وتصاريحه ، ان بلاده ستأسف لعدم نجاح جفرسون في الانتخابات . وفي رسالة بعث بها جفرسون في نيسان ١٧٩٦ الى صديقه مازاي في اوروبا ، جاء قوله ان الجمهوريين الصالحين في اميركا يعانون من الاختناق على أيدي العصبة الانانية من الارستقراطيين الموالين لانكلترا . وعندما نشرت هذه الرسالة ، بعد بضعة اشهر، في صحيفة **لومونيتور** الباريسية،أحدثت صدمة

قوية في اميركا .

بيد ان هذه النزعة ــ غير الجادة في بعض الاحيان ــ الى تصدير الثورة انحسرت بالتدريج . فقد انكشف ، مثلا ، في ايار ١٧٩٦ ، ان بيوناروتي يتآمر مع بابوف لقلب **حكومة الادارة** . وعلاوة على ذلك ، كان الفرنسيون بدأوا يحرزون بعض الانتصارات في ايطاليا . وقد خففت النجاحات العسكرية من ضرورة تهديد الخصوم بالنشاطات التآمرية . ولئن تخوفت **حكومة الادارة** من مؤامرة بابوف ، فانما بسبب طابعها العصياني في أغلب الظن ، لا بسبب مشاريعها الطوباوية لالغاء الملكية الخاصة . وقد سحبت **حكومة الادارة** دعمها لمؤامرة بوتيراتز في المانيا ، وزجت ببيونارتي في السجن ، واعلنت في تموز ١٧٩٦ انه ليس في مصلحة فرنسا العمل على اقامة «جمهوريات ديمقراطية» في ايطاليا ، لان الثوار الايطاليين لا يتمتعون بالقوة الكافية للاعتماد على أنفسهم . وعندما بادرت جماعة من الايطاليين الى اعلان الجمهورية في ألبا ، بالقرب من تورينو ، للتحرر من الاتاوات المولوية ، ومن الملكية السردينية وطبقة نبلائها ، لم تتلقَ أي مساعدة من فرنسا . ووقع بونابرت على اتفاقية هدنة مع ملك سردينيا ، فأخرج هذا البلد من الحرب ، ولكنه اعترف بالمقابل بنظامه الملكي . وحاولت **حكومة الادارة** وقتئذ ان تعود الى الدبلوماسية القديمة ، دبلوماسية التنازلات المتبادلة وتوازن الدول الكبرى . وطرحت احتمال اعادة المناطق التي احتلتها القوات الفرنسية في ايطاليا الى النمسا ، خلال مؤتمر الصلح ، لقاء اعطاء فرنسا البلدان الواطئة النمساوية أو السماح لها بشراء المناطق الواقعة على تخوم نهر الراين .

مع ذلك ، تأسست جمهورية في وادي نهر البو في عام ١٧٩٦ . وفي عام ١٧٩٧ تأسست جمهورية الالب الغربية والجمهورية الليغورية . وكانت المقاطعة الميلانية النمساوية هي النواة التي شيدت من حولها جمهورية الالب الغربية . أما الجمهورية الليغورية فقد حلت محل جمهورية جينوى القديمة

والارستقراطية . وكانت هذه الجمهوريات ثمرة سياسة بونابرت الشخصية وأماني بعض الايطاليين المصلحين ، الثوريين ، الموالين لفرنسا .

في عام ١٧٩٧ ، استهلت **حكومة الادارة** محادثات صلح مطولة مع البريطانيين . وقد صعب جدا على البريطانيين القبول بالصلح بعد ان امست بلجيكا تشكل جزءا من فرنسا ، وبعد قيام جمهورية باتافية متحالفة مع هذه الاخيرة . مع ذلك كاد وليم بت ، الذي كان يعاني من قلاقل في الداخل ، ان يعترف بهذه المستجدات بشرط اعطاء بريطانيا المستعمرات الهولندية في سيلان ورأس الرجاء الصالح . وفي اثناء ذلك ، استيقظت في فرنسا النزعة الملكية المدعومة من قبل الانكليز ، ونفذت **حكومة الادارة** انقلاب فروكتيدور ، ومال الحكم في فرنسا من جديد باتجاه اليسار والاهداف الثورية . وقطعت مفاوضات الصلح مع انكلترا . بالمقابل ، عقد بونابرت الصلح مع النمسا موقعا معها معاهدة كامبو ــ فورميو . وفي عام ١٧٩٨ ساد السلم البر الاوروبي ، ولم تعد فرنسا في حرب الا مع انكلترا . لكن كان هنالك شعور عام بأن هذا السلم لن يكون الا مؤقتا .

ارتأى بعض السويسريين في اثناء ذلك ، ومن بينهم لاهارب من كانتون فود ، واوكس من بال ، واسبتري من زيوريخ ، ان الاوان قد آن لاعادة تنظيم بلادهم . والتقوا ، في باريس ، ببعض اعضاء **حكومة الادارة** ، بالاضافة الى الجنرال بونابرت . وتمخضت هذه اللقاءات عن سلسلة من الانتفاضات المسلحة في سويسرا ، ضد الحكومات القديمة . وجرت حركات العصيان والتمرد هذه تحت رعاية الجيش الفرنسي وبحمايته . وفي النهاية أعلن عن قيام الجمهورية السويسرية .

في روما ، كان فريق من المواطنين يرغب في التحرر من حكم رجال الدين ومن سلطة البابا الزمنية . بينما كان فريق آخر متحمسا لجمهوريتي الالب الغربية والليغورية ( اللتين حظيتا بموافقة عدد كبير من الاساقفة الكاثوليكيين ) ، ويرى

ان من الضروري فرض النظام الجمهوري على الاقاليم البابوية . *
لكن الحكومة الفرنسية أبدت عن بعض التحفظ : فهي لم تكن تلهث وراء استئناف الحرب من أجل تحرير أهل روما . ولم يكن البابا بيوس السادس خصما خطيرا . فقد اعترف فعليا ، بمعنى من المعاني ، بالجمهورية الفرنسية . وكان يدرك ان الاخطار التي تهدد الاقاليم والممتلكات العائدة للكرسي البابوي لا تصدر عن الجمهوريتين الايطالية والفرنسية فحسب ، وانما ايضا عن المطامع الاقليمية لعاهلي نابولي والنمسا . ما كان شيء سيحدث اذن ، ما لم تطرأ تطورات غير متوقعة . والحال أن المصادفات شاءت ان يقتل الجنرال الفرنسي ، دوفو ، الملحق بسفارة روما، خلال عراك في الشارع . فارتفعت الاصوات في فرنسا وايطاليا تطالب بتدخل فرنسي . ولم تقو **حكومة الادارة** على مقاومة هذه الدعوة ، فكان ان احتلت روما في مطلع عام ١٧٩٨ من قبل القوات الفرنسية القادمة من ميلانو ، والتي تم تعزيزها فيما بعد بفرق من البولونيين ومن اهالي جمهورية الالب الغربية في شمال ايطاليا . واسفر هذا التدخل العسكري عن قيام جمهورية رومانية.

بعد اشهر معدودة تشكل التحالف العسكري الثاني ضد فرنسا . وقد اغتنم ملك نابولي الظرف المؤاتي فأرسل جيشا الى الجمهورية الرومانية الجديدة واحتل عاصمتها . غير ان الفرنسيين ، تؤازرهم قوات من جمهورية الالب الغربية ، نجحوا في طرد الغزاة وفي احتلال نابولي . وفي باريس ، عارضت **حكومة الادارة** بشدة فكرة انشاء جمهورية في جنوب ايطاليا . فقد رأت ان مصلحة فرنسا تقضي ، مع استئناف العمليات الحربية ، بأن يبقى الجنوب الايطالي تحت الاحتلال الفرنسي . فهذا الاحتلال يسمح لفرنسا من جهة بالاستفادة من ثروات البلاد ، ولا ينتصب، من جهة أخرى ، حجر عثرة في وجه مفاوضات السلام اللاحقة . لكن بفضل عصيان الجنرال الفرنسي شامبيونه اوامر باريس، وبناء على الحاح أهالي نابولي المتأججين حماسة ، أعلنت جمهورية نابولي

، في مستهل عام ١٧٩٩ .

★ ★ ★

تأسست الجمهوريات الشقيقة الست اذن بموافقة باريس تارة ، وعدم موافقتها طورا . وقد عكست هذه الجمهوريات انتفاضة ثورية اوروبية شاملة ، لا فرنسية فحسب . وقد سجنت، بحكم وجودها بالذات ، الثورة الفرنسية داخل ثورة تفوق رقعتها الجغرافية رقعة فرنسا بما لا يقاس . فمن دبلن الى نابولي ، كان تحرّق الناس الى الحصول على الدعم الفرنسي أشد بكثير من استعداد فرنسا لتقديم مثل هذا الدعم .

لا ريب في ان **المجلس الوطني** ، بعد سقوط روبسبيير ، و**حكومة الادارة** كانا يفضلان عقد الصلح وتثبيت الثورة وانهاءها . وقد ابرما بالفعل أو فرضا معاهدات على جميع الدول الاوروبية الكبرى ، خلا بريطانيا . ذلك انهما أدركا تماما ان استمرار الحرب من شأنه ان يحمل الى فرنسا خطر الدكتاتورية العسكرية . وكان هذا الخطر ظهر بجلاء في عهد دوموريه ، مما حمل روبسبيير على الابلاغ عنه . وبعد عام ١٧٩٦ ، أمسى بونابرت موضع مخاوف مماثلة . لكن **المجلس الوطني** حل ، وتسنمت **حكومة الادارة** سدة السلطة في ظل حماية عسكرية . واضطرت الى الاستغاثة بالجيش ضد اليسار في بريريال ، وضد اليمين في فندمبير . ولئن انتصرت الجمهورية على الملكيين في عام ١٧٩٧ ، بنتيجة انقلاب فروكتيدور، فانما بفضل بونابرت والجيش مرة اخرى . ولئن اختار بونابرت الانضمام الى **حكومة الادارة** لاحباط خطط الثورة المضادة ، فكيما يعزز موقعه في ايطاليا ويضمن البقاء للجمهورية الجديدة التي انشأها في منطقة جبال الالب الغربية . وقد تعذر على **حكومة الادارة** مقاومة الجنرالات ، حتى بعد ان لاحت نذر الدكتاتورية العسكرية في الافق سافرة . فثمة أوجه تفاوت ميزت عام

١٧٩٧ ، او ١٧٩٨ ، عن عام ١٧٩٢ . فالديمقراطيون المتقدمون امسوا يصفقون للجنرالات المظفرين ، ويغتبطون لانتصارات جيوشهم ، جيوش المواطنين ، ولانهيار الطبقات الارستقراطية واندحارها ، ولتكاثر الانظمة الجمهورية من هولندا الى ايطاليا . ولم يكن في مستطاع **حكومة الادارة** ان تثبط عزائم الجمهوريين الاجانب ، بدون ان توجه اليها في باريس تهمة « الفتور الثوري » . ولم يكن في مقدورها ان تلجم بونابرت في عام ١٧٩٧ ، او شامبيونه في عام ١٧٩٩ ، كما فعل **المجلس الوطني** مع دوموريه في عام ١٧٩٢ ، بدون ان تثير موجة من الاحتجاج في داخل فرنسا تعجز عن السيطرة عليها .

ان الحكومة الفرنسية ، المنتصرة في الحرب ، لم تقع ضحية جنرالاتها فحسب ، وانما ايضا ضحية المعجبين بها في الخارج . فمقتضيات الحرب لم تكن تلزم الفرنسيين في الحقيقة بانشاء جمهوريات مستقلة . كان في مستطاعهم لو شاؤوا ان يتعاملوا مع المناطق التي اجتاحوها على انها مجرد أراض محتلة ، فيجندوا من شاؤوا فيها ، ويصادروا ممتلكات الحكومات المعادية ، والكنائس والطبقات صاحبة الامتيازات لينفقوا على جيوشهم ويجنوا المغانم الشخصية ، بدون ان يتعهدوا بالتزامات من شأنها عرقلة التسوية السلمية . لكن هذا على وجه التحديد ما عارضه البلجيكيون والهولنديون في عام ١٧٩٢ ، واهالي نابولي في عام ١٧٩٩ . وقد تمخضت المشاعر الثورية في المناطق المحتلة ، بالتضافر مع خطط الجنرالات الفرنسيين، عن ولادة الجمهوريات الشقيقة .

كان الفرنسيون « يعيشون على هذه الجمهوريات » بفضل عمليات المصادرة التي كانت تغطي نفقات جيوشهم . وكانت تنضاف الى هذه المصادرات الرسمية عمليات السلب والنهب التي يقوم بها الجنود الفرنسيون ، واجتناء الثروات الطائلة من قبل الضباط، بدءا ببونابرت وانتهاء بأصغر ضابط . وقد قدر جاك غودوشو

المبالغ التي جبيت في المناطق المحتلة من قبل فرنسا ، بين عامي ١٧٩٠ و١٧٩٩ ، بثلاثمئة وستين مليون ليرة على الاقل . وهو مبلغ طائل بلا ريب ، لكنه ما كان يمثل أكثر من نصف ميزانية فرنسا السنوية في عام ١٧٩١ ، ومن نصف الغرامة التي فرضها الحلفاء على فرنسا بعد هزيمة نابليون . ولئن تسببت جباية هذه الاموال في التذمر والاستياء ، فذلك لا بسبب حجمها ، ولا بسبب الذرائع التي تعللت بها ، نظرا الى ان وجود هذه الجمهوريات كان رهن النجاح الذي تحرزه الجيوش الفرنسية. وانما كان مرد التذمر والاستياء الى الفوضى المتحكمة بعمليات الجباية ، والى المطالب التعسفية لسلطة اجنبية ، والى مضايقات فاتح محتل يدعي انه محرر وصديق ، والى الرشوات التي كانت تلازم عمليات الجباية ، وفي ايطاليا على الوجه الاخص الى نهب اشهر اللوحات والتماثيل التي نقلت الى باريس لاغناء متاحفها . ويبدو ان ايطاليا عانت أكثر من غيرها من عمليات السلب ، ومن ثم سويسرا ، واخيرا هولندا . اما سكان المقاطعات التي اصبحت فرنسية ، اي البلجيكيون بعد عام ١٧٩٥ وأهل رينانيا بعد عام ١٧٩٧ ، فكانوا يدفعون مبدئيا ما يدفعه المواطنون الفرنسيون . لكن كان العبء ثقيلا بما فيه الكفاية لخلق موجة من الاستياء ، ولقلب اصدقاء فرنسا في الامس الى اعداء لها . وقد وفر هذا الاستياء للثورة المضادة حقل دعاية واسعا .

بعد عام ١٧٩٥ ٪ أمسى وجود الجمهوريات الشقيقة عائقا في وجه استتباب السلم . ففيما يتعلق ببريطانيا ، كان من المستحيل اطلاقا ان توافق ، ما لم تُهزم هزيمة كليةً ونهائية ، على قيام نظام جمهوري ٪ ثوري واممي النزعة ، في كل من بلجيكا وهولندا . نظام من شأنه ان يهدد هيمنتها على ارلندا ، ويستقطب التعاطف في انكلترا . اما فيما يتصل بالنمسا ، فان **حكومة الادارة** كانت مستعِدة لتقديم بعض التنازلات . فقد حصلت النمسا ، تعويضا لها عن فقدان ممتلكاتها في جمهورية الالب

الغربية ، على البندقية وممتلكاتها المجاورة، كما أستعاضت عما خسرته في منطقة الراين بضمها بعض دويلات الامبراطورية الرومانية المقدسة . وكان النمساويون على أستعداد لتقبل تحولات على هذا القدر من الجذرية ، يكون من نتيجتها زوال الامبراطورية الرومانية المقدسة والمملكة البولونية وجمهورية البندقية ، أي سقوط ثلاث من أقدم دول أوروبا . غير انهم ما كانوا مستعدين اطلاقا بالمقابل للقبول بالتغييرات التي احدثها العمل الشوري . فالنمساويون ، الذين انشغلوا بعد عام ١٧٩٧ بتهدئة ما احتلوه من اراضي بولونيا ، والذين كانوا يكابدون من عدائية المجر الواقعة تحت قبضة حكمهم ، أمسوا يصطدمون ايضا بالمشكلات التي خلقتها لهم البندقية بعد ضمهم اياها . لذلك صعب عليهم تحمل وجود جمهورية الالب الغربية والجمهورية الرومانية على حدود بلادهم الجديدة في مقاطعة البندقية .

هكذا أمسى السلم مستحيلا في عام ١٧٩٨ ، كما اشار الى ذلك المؤرخ الايطالي زاغي ، لان الثورة أمست قوة متعددة الامتدادات ، لا تتركز في فرنسا او في **حكومة الادارة** ، وانما في « وجود جمهورية الالب الغربية ، والجمهورية الرومانية ، والباتافية ، والسويسرية بالذات » . ولم تكن **حكومة الادارة** تؤمن بهذه الجمهوريات . وقد وافقت على ما جاء في التقرير الرسمي الطويل الذي وضعه تاليران ، وزير خارجية فرنسا في عام ١٧٩٨ ، والقائل ان الجمهوريات الشقيقة تشكل ، عند التحليل الاخير ، مصدر متاعب لفرنسا ، لانها تستمد من ثروات هذه الاخيرة سبل حماية ذاتها ، ولانها بتقاعسها عن الدفاع عن مصالحها تقف حجر عثرة في وجه كل سلام دائم ، وكل مسعى لتثبيت النظام الجديد في فرنسا . لكن التقرير استثنى الجمهورية الباتافية التي كانت تتمتع بقوة داخلية وتعتبر حليفا مفيدا في الصراع ضد انكلترا .

★ ★ ★

كان لكل جمهورية من الجمهوريات الشقيقة دستورها الخاص ، المناظر لدستور العام الثالث في فرنسا ، المتحدر بدوره عن دستور ١٧٨٩ – ١٧٩١ . وكان يتصدر كل دستور من هذه الدساتير اعلان عن حقوق الانسان والمواطن . كما كان كل دستور ينص على ان الشعب هو صاحب السيادة ، وأن ارضه « واحدة لا تتجزأ » . وكان يقسم الاراضي الى مقاطعات متماثلة ، مؤكدا بذلك على وحدة الارض وعلى المساواة الجغرافية الداخلية . وقد عهد بالسلطة التنفيذية ، في الجمهوريات الشقيقة كافة ، الى هيئة جماعية مختارة من قبل السلطة التشريعية . وقد منحت هذه الجمهوريات حق المواطنية لابناء مختلف الاديان والطوائف ، بل للذين لا دين لهم ، كما ابعدت رجال الدين عن السلطة العامة وعن شؤون التربية . والغت امتيازات النبلاء ولم تعد تعترف لهم بوجود طبقي خاص ، كما اعادت تحديد الملكية العقارية لتحريرها من سماتها المولوية . واخضعت جميع المواطنين لضرائب واحدة ، وفرضت عليهم محاكم وعقوبات واجراءات قضائية واحدة . وصار المواطنون يشاركون ، في كل مكان ، في انشطة الاندية السياسية . وأمست الصحافة ، اليومية والاسبوعية ، اكثر حيوية وفعالية مما كانت عليه في ظل **النظام القديم** ، حتى في هولندا . واتخذت اجراءات لمضاعفة اعداد المدارس الرسمية . وكان هذا كله معناه ان « الامة » – وهذا تصور ثوري جديد – حلت ككيان مدني واحد ، في ظل دولة ممركزة وديموقراطية ، محل « الاقطاع » بتعدد مراتبه وبناه السلطوية .

## الفصل السابع

# الجمهوريات الباتافية ، والسويسرية ، والايطاليــة

كانت الثورة الهولندية استمرارا للحركة الوطنية التي ظهرت في الثمانينات من القرن الثامن عشر . لكن مع هذا الفارق : فالطابع السلبي والقمعي لنظام سلالة اورانج ، الذي اعيد فرضه فــي عام ١٧٨٧ تحت الرعايــة الانكليزية ـ البروسية ، زاد **الوطنيين** القدامى حمية ثورية . كان بعضهم هاجر الى فرنسا حيث عايش تجربة الثورة الفرنسية ، لكن معظمهم لم يغادر الوطن ولبث يتحين الفرص لمعاودة النضال .

قد يتساءل بعضهم عن معنى « الثورة » بالنسبة الى بلـد تنتمي الغالبية الساحقة من سكانه الى الطبقة الوسطى . بلد لـم يعرف الملكية الحقة ؛ ولا الكنيســة التراتبية التنظيم . بلد كـان النبلاء فيه قلة ، والفقراء ايضا قلة . بيد ان هذا البلد كـانت له، اسوة بالبلدان الاخرى ، طبقات صاحبة امتيازات وطبقات مجردة

من كل امتياز . فثمة مجموعة صغيرة من كبار النبلاء كانت تحتكر ، بالوراثة ، صلاحيات الحكم ، وكانت هذه الصلاحيات عظيمة . فكان الاعضاء الستة والثلاثون في مجلس الحكم في امستردام يعينون انفسهم بانفسهم ، ويختارون ايضا المخاترة ، وينتخبون النواب الى مجالس هولندا التمثيلية ، ويجنون الارباح من وراء تحكمهم بزهاء ٣٦٠٠ منصب من مناصب الوظيفة العامة . وكان العديد من الصيارفة ، واصحاب السفن ، والتجار ، والصحفيين ، والمحامين ، والحانوتيين ، والحرفيين ، يجدون انفسهم خارج دوائر تلك الجماعات الصغيرة الحاكمة . وكان ما يقارب من نصف السكان لا ينتمي الى الكنيسة البروتستانتية ، وانما الى الكنيسة الكاثوليكية ، او الى بعض الشيع البروتستانتية. ولئن لم تكن هذه الفئة من المواطنين عرضة للاضطهاد ، فقد سدّت عليها بالمقابل ابواب المجتمع الراقي والمناصب السياسية الهامة . وهولندا ، التي كانت متقدمة للغاية في بعض المجالات ، كانت لا تزال قروسطية في بعض المجالات الاخرى . كانت عبارة عن فسيفساء من الاقاليم والمدن ، لكل واحدة منها مجلسها الخاص ، لا يجمع بينها اي جهاز حكم مركزي . وكانت العلاقات مع الخارج موضع مساجلات لا نهاية لها ، وكان الشجار يدور على قدم وساق بين الموالين لفرنسا والموالين لانكلترا . وقد لعبت تبعية هولندا المزمنة لانكلترا ، والتعاطف الصريح للعديد من الهولنديين مع الثورة الاميركية ؟ ولجوء بريطانيا المعهود الى الاستيلاء على المستعمرات الهولندية ــ آخر خطوة من هذا القبيل تمت في عام ١٧٨٣ ــ ودور بريطانيا في اعادة اسرة اورانج الى الحكم في عام ١٧٨٧ ، كل هذه الامور لعبت دورها في تأجيج نار العداوة لانكلترا .

كان الفريق الثوري اذن غير متجانس على الاطلاق . كان يضم بعض النبلاء ؟ ممن كانوا يعتقدون ان قدرة البلاد على البقاء رهن باصلاح اداري،وبعض كبار التجار غير المنتمين الى الطبقة

الارستقراطية ، والكثالكة ، واتباع الشيع البروتستانتية ، والمثقفين والشباب . وكان الثوريون البارزون من الاغنياء بصورة عامة . ففي عام ١٧٩٤ ، على سبيل المثال ، كان ابرز اللاجئين الهولنديين الجنرال دندلز ، وهو صناعي سابق كان يملك معملا لصنع القرميد ، ودكتور في الحقوق ، وضابط في الفيلق الباتافي في عام ١٧٩٢ . وكانت الثورة الهولندية تجتذب الى صفوفها اصحاب الملايين والعمال في آن معا .

لقد ايقظت الانتصارات الفرنسية في صيف ١٧٩٤ العزائم الغافية . في حزيران من ذلك العام ، تأسس ٣٤ ناديا سياسيا فعالا في امستردام ، تحت غطاء « جمعيات للمطالعة » ، و ١٢ ناديا آخر في اوتريخت . وكان اعضاء هذه الاندية يديرون المناقشات والمساجلات حول المؤلفات الثورية ، ويتبادلون الوفود ، ويجرون اتصالات مع المهاجرين الهولنديين ، ويدخرون الاسلحة سرا . كانت الاندية الهولندية تهفو الى الثورة ، وانما ثورة مجردة من العنف الثوري ومن الجلبة والفوضى . كانت تتطلع الى ثورة يقودها الجيش الفرنسي ، ثورة عاقلة ومنتظمة ، تقضي على **النظام القديم** ، وتقر دستورا جديدا ، وتطرد اعداء الثورة ، وتتجنب ، بفضل مؤازرة قوات الثورة الفرنسية ، الفوضى واراقة الدماء . هذا التحفظ ، هذا الحذر ، وهذا الاسراع الى الارتباط بجهة اجنبية ، سمات دمغت ثورات الجمهوريات الشقيقة وحالت دون تحولها الى ثورات حقيقية .

فيما كان الفرنسيون يتقدمون ، كانت البلاد تنهار . وقد نجح الفرنسيون في استقطاب قسم واسع من الرأي العام باكتفائهم بالمطالبة بتنحي اسرة اورانج عن الحكم ، وبدعوة هولندا الى الانضمام الى فرنسا في حربها ضد انكلترا ، مبدين عن حرص اكيد على عدم التلويح بفزاعة الثورة . فكان ان انضم المعتدلون الى المتطرفين في تأييد الفرنسيين . ذلك ان ما من فريق كان يرغب في ان يقاتل انتصارا لآل اورانج ، الذين آلوا الى حالة من

العجز التام ، والذين امتنعوا عن تقديم اي تنازل لرفع رصيدهم المتدني . وعبثا حاولت الاسرة المالكة ان تعلن عن نفير عام لصد الغزو . فتجنيد جيش من المواطنين كان يقتضي رفع راية الحرية والمساواة كمثل أعلى ، كما فعل **المجلس الوطني** الفرنسي في عام ١٧٩٣ . لكن النظام الهولندي كان عاجزا عن فعل شيء من هذا القبيل . وهنا نلمس ايضا سمة نموذجية من سمات الجمهوريات الشقيقة : فالثورة فيها جاءت حصيلة ضعف **النظام القديم** لا قوة خصوم هذا النظام .

في كانون الثاني عام ١٧٩٥ ، وخلال عملية مشهودة ، خيّل سلاح الفرسان الفرنسي فوق الجليد في امستردام ، واعلن الثوار الهولنديون عن قيام الجمهورية الباتافية . وكان الباتافيون قد دللوا ، منذ البداية ، على حمية ثورية ، حمية بدأت تضعف وتخف في فرنسا . فالجمهورية الباتافية كانت السباقة ، على سبيل المثال ، الى استخدام الكلمات السحرية الثلاث ــ حرية ، مساواة ، اخاء ــ استخداما رسميا ، علما بان هذه الكلمات لم تحظ بمثل هذا الاستخدام في فرنسا الا في عام ١٨٤٨ . ولاذ امير اورانج بالفرار والتجأ الى انكلترا . ووقعت الجمهورية الباتافية على معاهدة قاسية الشروط مع فرنسا ، اعلنت بموجبها الحرب على انكلترا ، وتعهدت فيها بدفع مئة مليون فلوران من قبيل التعويض ، ووافقت على تأمين نفقات جيش الاحتلال الفرنسي ، وعلى ضم بلجيكا الى فرنسا وعلى التخلي عن مصب نهر الاسكو . وأثارت هذه المعاهدة سخط فريق من الثوار الهولنديين . لكنها اعتبرت ، بالاجمال ، مقبولة . فالهولنديون كانوا على استعداد لمحاربة انكلترا ، وكانوا اغنياء بما فيه الكفاية لتسديد نفقات هذه الحرب .

احتل الفرنسيون هولندا عسكريا لمدة ثلاثة اعوام ، بيد انهم امتنعوا عن التدخل في شؤونها الداخلية ، وتركوا للهولنديين حرية اختيار الشكل المناسب لجمهوريتهم الجديدة . وواجه

هؤلاء صعوبات جمة في صياغة الدستور ، بل في الدعوة الى مؤتمر دستوري ، بسبب الخلافات العميقة بين المبادىء « التوحيدية » و « الفدرالية » . وكان الاتجاه الفدرالي يضمن مصالح اصحاب النفوذ ، والوجاهة ، والوظائف العامة . لذلك كان محافظا ، من حيث النتائج المترتبة على مواقفه . اما الاتجاه التوحيدي ، فكان يمثل على العكس مذهب الديمقراطيين . وقد اثار التفاوت الكبير بين الاقاليم مشكلة شائكة اخرى . فقد كان **الاتحاد** يتألف من سبعة اقاليم ، لكن هولندا وحدها كانت تضم اكثر من نصف سكان الاتحاد. وكان الهولنديون،التوحيديو الاتجاه، يطالبون بأن يكون لتعدادهم وزنه في اطار الامة الباتافية الموحدة . وكان الجزء الاكبر من الديون العامة يمثل في الواقع ديون هولندا ، وكان الهولنديون يتطلعون الى تحميل الدولة الباتافية الموحدة عبء هذه الديون . اما في الاقاليم الاقل تعدادا ومديونية ، فكان الناس يميلون الى الصيغة الفدرالية .

الح الفدراليون في البداية على ضرورة الابقاء على الهيئات التمثيلية السابقة ، التي كانت تتمثل فيها الاقاليم الستة . اما الديمقراطيون ، فقد طالبوا ب « مجلس وطني » فعلي . وتحولوا الى عناصر مشاغبة وخطيرة . وفي تلك المرحلة الترميدورية من الاشهر الاخيرة من عهد **المجلس الوطني** ، مال الفرنسيون الى إعتبار الديمقراطيين الهولنديين نسخة محلية عن « اللامتسرولين » الفرنسيين ، أي الى اعتبارهم عناصر خطيرة تهدد الامن ، وذهبوا الى حد منع الجنود الفرنسيين من الاختلاط بهم . وانقضت أشهر في صراعات محلية بين ديمقراطيين لا يكفون عن الصراخ والزعيق، وفدراليين مدعومين ، في كثير من الاحيان ، بعناصر سرية موقدة من قبل السلطات البريطانية أو آل اورانج . واخيرا تم انتخاب مجلس تأسيسي في عام ١٧٩٦ . وتمكن المجلس ، بعد انقضاء عام على انتخابه ، من صياغة دستور طرح للاستفتاء العام في آب ١٧٩٧ . وأهم ما جاء به هذا الدستور من جديد تمثل في

تجريد الكنيسة البروتستانتية من دعم الدولة واعترافها الرسمي بها ، ومنح الكثالكة واليهود وأبناء الشيع البروتستانتية حقوقا مساوية لحقوق البروتستانتيين من اتباع الكنيسة الرسمية .
لكن الدستور كان بالاجمال يمثل حلا وسطا لم ينجح في ارضاء أحد . ففي هولندا المكتظة بالسكان وفي اوتريخت ، صوّت الديمقراطيون الوحدويون ضده . وفي اقاليم الداخل ، الاكثر محافظة ، رفضه الناخبون بحجة انه ثوري . واجتمع مجلس تأسيسي ثان ، لكنه عجز بدوره عن التوصل الى اتفاق .

عند ذاك تدخل الفرنسيون . كان مرادهم التعاون مع حكم هولندي منظم ، قادر على الاضطلاع بدور ايجابي في الحرب المشتركة ضد انكلترا . وقدّم لهم الديمقراطيون الهولنديون مساعدة تامة . فبريطانيا كانت في نظرهم هي القوة الفعلية المتوارية خلف سلالة اورانج ، التي كانت فقدت كامل شعبيتها لدى الهولنديين . وقد جاء في رسالة وجهتها اميرة اورانج من انكلترا الى ابنها : « لولا اموال انكلترا لما تحرّك رجل واحد من اجلنا » . وأسفرت أسرة اورانج عن عداء للثورة يضاهي عداء أي سلالة ملكية اخرى . ورفض غليوم الخامس جميع المساومات التي اقترحها عليه شعبه ، بما فيها الاقتراحات التي تقدم بها ابنه ، الذي ترأس فريق التوفيقيين واصبح في عام ١٨١٤ اول ملك للبلدان الواطئة . وبالاختصار ، تبنى غليوم الخامس موقف لويس الثامن عشر ، مما حمل المعتدلين في البلدان الواطئة على تأييد الجمهورية مرغمين ، تماما كما حصل مع المعتدلين في فرنسا .

بعد انقلاب فروكتيدور في فرنسا ، وانهيار مفاوضات السلام مع انكلترا ، وضعت في باريس خطط لغزو انكلترا ، وجرى تجميع جيش ضخم ، عرف باسم « جيش انكلترا » على شواطىء بحر المانش . وكانت مساعدة البحرية ووسائل النقل الهولندية حيوية في هذا المضمار . لكن الاسطول هزم في كامبردون على ايدي البريطانيين ، وذلك في تشرين الاول من عام ١٧٩٧ . ونندد

الديمقراطيون الهولنديون بتقصير المعتدلين ، بل رموهم بالخيانة ، وطالبوا بفروكتيدور هولندي . وكان لهم ما يريدون في انقلاب الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٧٩٨ الذي حصل بدعم من فرنسا . وطرد ٢٢ شخصا من المعتدلين والفدراليين من المجلس التأسيسي .

سارع المجلس بعد ذلك الى تبني دستور وحدوي وديمقراطي، مستعينا بنص أعد في باريس من قبل فرنسيين وهولنديين ، ومجريا عليه بعض التعديلات ليجعل منه وثيقة أكثر ديمقراطية من تلك التي كانت حظيت بموافقة الفرنسيين . وقد أقر الدستور الجديد مبدأ الاقتراع العام للرجال ، وقضى بأن تتألف السلطة التشريعية من مجلسين ، والسلطة التنفيذية من **حكومة ادارة** تضم خمسة اشخاص ، على غرار فرنسا . وقد ألغى هذا الدستور الهيئات التمثيلية السابقة ، والطوائف الحرفية ، والاحتكارات ، وجميع الحواجز التي كانت تعيق حرية تنقل الاشخاص والبضائع، كما قضى على ما تبقى من امتيازات للكنيسة البروتستانتية ، وضمن وجود مجتمع مدني موحد ، او « أمة » ، وألغى الاقاليم السابقة مستعيضا عنها بثماني مقاطعات يتساوى عدد سكانها . وعندما طرح هذا الدستور على الشعب ، أيده ١٦٥٥٢٠ ناخبا من أصل اربعمئة ألف . ولم يصوّت ضده سوى ١١٥٩٧ شخصا .

خلال الاشهر الخمسة الفاصلة بين كانون الثاني وحزيران ١٧٩٨ ، بلغت الحركة الديمقراطية ذروتها في البلدان الواطئة . وراح اناس لم يسبق لهم أن شاركوا في الحياة العامة يتنافسون على المناصب الشاغرة : صانعو براميل ، حرّاس ورشات العمل ، صيادلة ، مستخدمون في المكاتب. وصرف فريق كبير من اصحاب المناصب العليا من عمله ، وخشي فريق آخر على ممتلكاته وعمله ، ان لم نقل على حياته . بعض شخصيات الحكم ، المعروفة بآرائها الديمقراطية ، رأت ان الهيجان الشعبي جاوز الحدود . والواقع ان مجرى السياسة الباتافية كان رهن ارادة فرنسا . وفي أيار ، سجلت **حكومة الادارة** الفرنسية انعطافا جديدا في سياستها بالغائها

انتخابات جاءت نتائجها في صالح اليعاقبة الجدد ، وبعدولها سرا عن خطة غزو انكلترا او ارلندا . وتولى بونابرت قيادة جيش اقتاده الى مصر . وبما ان مشاعر الهولنديين المعادية لبريطانيا باتت أقل نفعا من ذي قبل للفرنسيين ، فقد سمح هؤلاء لامثال دندلز وغوجيل بالقيام بانقلاب ثان في حزيران ، أقصى عن الحكم اكثر الديمقراطيين حماسة .

في عام ١٧٩٩ ، انزل الانكليز والروس قواتهما في شمال هولندا . وقد توهموا ، بناء على المعلومات التي أمدّهم بها عملاء سريون ومهاجرون من انصار اسرة اورانج ، ان شعب الجمهورية الباتافية ، الذي عانى الامرين من أضطهاد الفرنسيين وقبضة من الهولنديين المتعاونين معهم ، سيستقبلهم بالاحضان . وكان السيناريو الذي رسمه خيالهم الجامح يخطط للاحداث على النحو التالي : انضمام زهرة الشعب الهولندي الى القوات الانكليزية ـ الروسية ، ثم زحف هذه القوات ، مع جيوش اخرى قادمة من سويسرا وايطاليا ، على فرنسا حيث تنضم اليها قوات الملكيين الفرنسيين المتمردين ، وتضع حدا نهائيا لثورة دامت عشرة اعوام . لكن لاشيء من هذا القبيل حصل فعلا . فالهولنديون لم يحركوا ساكنا . لم يكونوا راغبين لا في عودة غليوم الخامس ، ولا في بعث اتحاد اوتريخت السابق . ولم يمض وقت طويل حتى كان جيش فرنسي باتافي مشترك يرغم الانكليز والروس على الابحار ثانية بعيدا عن الشواطىء الهولندية .

عرفت الجمهورية الباتافية سلسلة من التطورات والتقلبات ، قبل ان تصبح هي المملكة الهولندية في عهد لويس بونابرت ، ومن ثم مملكة البلدان الواطئة في عام ١٨١٤ . وقد ابقي على التغييرات الاساسية التي جاءت بها الثورة الباتافية ودستور عام ١٧٩٨ : وحدة الارض ، تعزيز النظام الضريبي ، تحديث الادارة والمحاكم ، مساواة المواطنين ، على اختلاف اديانهم وشيعهم ،

امام القانون .

* * *

كانت سويسرا ، قبل عام ١٧٩٨ ، ذات بنيان أشد تهافتا وانعدام شكل حتى من الاقاليم المتحدة . كانت تضم ثلاثة عشر كانتونا ،ينطق جميع سكانها بالالمانية ، وتجتمع داخل اطار كونفدرالية غير محددة الملامح . فسويسرا العصر الحديث ، بلغاتها الثلاث ، لم تكن رأت النور بعد . ولم تكن جينيف ونوشاتل تؤلفان جزءا من الكونفدرالية . اما مقاطعتا الفود والفاليه ، الناطقتان بالفرنسية ، والمناطق الجنوبية ، الناطقة بالايطالية ، فكانت تابعة لكانتون من الكانتونات او لرابطة من الكانتونات . وكانت بعض كانتونات الالب العليا عبارة عن ديمقراطيات شعبية متناهية في الصغر ، تحل قضاياها في الاجتماعات العامة ، وتحرص كل حرص على ان تظل معزولة .وقد بقيت هذه الكانتونات كاثوليكية في زمن الحركة الاصلاحية البروتستانتية . لكن هذه الكانتونات « البدائية » ، التي ولدت بين ظهرانيها اسطورة غليوم تل ، لم تكن تضم أكثر من عشرين بالمئة من مجمل السكان . فالكونفدرالية كانت في الاصل رابطة مدن بروتستانتية ، اشهرها بيرن وبال وزيوريخ.وكانت الحقوق عبارة عن حقوق بلدية او امتيازات ممنوحة للبورجوازية. وقد علّق بيتر اوكس على هذا الوضع في عام ١٧٩٦ قائلا :« ان يولد المرء في سويسرا فهذا ما لا يعطيه حقا من الحقوق » .

ان السويسريين ، الذين لم يعيشوا يوما في ظل نظام ملكي ، لم يعرفوا بطبيعة الحال استبداد الملوك وطغيانهم . بيد انهم لم يعرفوا ايضا التحديث ونتائجه . فالحريات القروسطية كانت لا تزال مزدهرة عندهم . فلم يكن هنالك لا قانون واحد ،ولا عملة او اوزان او مقاييس واحدة . بالمقابل ، كان ثمة زهاء مئة

حاجز جمركي « داخلي » . وكانت الطرقات في حالة يرثى لها. وكانت الطوائف الحرفية ، في كل مدينة من المدن ، تتولى تنظيم التجارة والعمل ضمن دائرة صلاحيتها . وكان الفلاحون، في اكثر من مكان ، يخضعون للمحاكم وللاتاوات المولوية التي لم يفرض عليها اي نظام ملكي قيودا وحدودا . وكانت لكل كانتون حرية اختيار الدين الذي يريد ، بيد ان الافراد بالمقابل ما كانوا يتمعون بحرية المعتقد . وكان اللجوء الى التعذيب في القضايا الجنائية عادة دارجة ، وكذلك اعتقال الاشخاص غير المرغوب فيهم على الصعيد السياسي . وباستثناء بعض الكانتونات « الديمقراطية » الصغيرة ، فان الحكم كان وقفا على عدد صغير من الاسر العريقة ، التي كانت تحتكر المجالس البلدية ، جيلا بعد جيل . صحيح ان سويسرا لم تعرف قط تلك الطبقة الارستقراطية الثرية ، المتعجرفة ، المتباهية، كتلك التي كانت تتجمع في فيينا او في فرساي . بيد ان الصورة الشائعة عن سويسرا ، ارض المساواة والحرية البريئة، تبقى مجرد حلم ادبي بعيد كل البعد عن الواقع .

ابدت الحكومات السويسرية ، بعد عام ١٧٨٩ ، عن حرص شديد على الحؤول دون تسرّب اخبار الثورة الفرنسية ، خوفا من انتقال العدوى . لكن هذه الاحتياطات لم تحل دون ان يعمّ البلاد شعور بالتذمر ، شعور كان يعبّر عنه علنا السويسريون المطلعون على ما يجري في الخارج . بولوس اوستيري، وهو طبيب من زيوريخ ، كان يراسل صحفا في لايبزيغ واوسبورغ. والمربي بستالوزي ، الزيوريخي الاصل هو الآخر ، كان على اتصال دائم بالفلاسفة الاوروبيين . وقبل عام ١٧٩٦ ، اشرف لاهارب على تعليم احفاد امبراطورة روسيا ، كاترين الثانية . وكان ب.م. غلاير ، ابن مقاطعة فود اسوة بلاهارب ، قد شغل لفترة من الزمن منصب مستشار ملك بولونيا . اما بيتر اوكس ، المتحدر من اسرة عريقة في بال ، والمالك لاراض شاسعة في فرنسا،

فكان شقيق زوجة اول عمدة ثوري في ستراسبورغ .

راح أمثال هؤلاء الاشخاص يتراسلون ويرسمون الخطط للسنوات القادمة . وبعد حرب ١٧٩٢ ، اصبح الحفاظ على حياد البلد امرا مشكوكا فيه . وبدا مرجحا ان يتدخل الفرنسيون في سويسرا لوضع حد لانشطة المهاجرين الفرنسيين والعملاء البريطانيين الذين كانوا يتآمرون ضد الثورة . ورسمت اشارات استفهام حول وجود سويسرا ، كبلد مستقل بذاته، وحول سلامة اراضيها . ففي عام ١٧٩٢ ، احتل الفرنسيون اسقفية بال . وفي عام ١٧٩٣، اخذوا من سردينيا منطقة السافوا، السويسرية بنسبة خمسين بالمئة ، ثم ضموا اليهم جينيف في عام ١٧٩٨ . وفي عام ١٧٩٧ ، ضمت المنطقة الجنوبية من فلتلينا الى جمهورية الالب الغربية . ومع قيام هذه الدولة في شمال ايطاليا ، رغب بونابرت في الاستيلاء على منطقة الفاليه، الناطقة باللغة الفرنسية ، والمعادية لبرن ، والمشرفة على منافذ ممر سمبلون ، نظرا الى أهميتها كنقطة اتصال بين فرنسا وميلانو . وهكذا امست سويسرا مهددة بالتقسيم ، اسوة ببولونيا .

قرر اوكس ولاهارب وبونابرت واعضاء **حكومة الادارة** ، المجتمعون في باريس في كانون الاول من عام ١٧٩٧ ، ان يرعوا ثورة في سويسرا . فأعد اوكس دستورا ، ادخلت عليه فيما بعد تعديلات هامة . وحصلت ، في الاسابيع التي اعقبت اجتماع باريس ، سلسلة من اعمال الشغب في عدد من الكانتونات والمقاطعات . ففي كانتون فود ، استولى الوطنيون على قصر شيون واعلنوا عن قيام « الجمهورية الليمانية » المستقلة عن برن . وفي كانتون تورغو ، اعلن رعايا مدينة زيوريخ الريفيون ، الذين كانوا يضمون في صفوفهم عددا كبيرا من الحائكين الذين يعملون لحساب رجال الاعمال الزيوريخيين ، تمردهم على المدينة . وكان الفرنسيون يفضلون ان تكون

الثـورة هنـا أيضـا محلية ، كمـا في هولندا ، ولاسـيما ان سويسرا لم تكـن في عداد الدول الداخلة في حرب ضدهم . بيد انهم صمموا ، بالاتفاق مع لاهارب ، على اللجوء الى القوة ، حتى لا يدعوا للحكومـات السويسرية فرصة لتنظيـم المقاومة ، او لانكلترا او النمسا فرصة لنجدتها . واحتـل الجيش الفرنسي برن . واعلن قائـد هـذا الجيش ، برون ، كخطوة أولى ونزولا عند طلب باريس ، عـن قيـام ثلاث جمهوريات هي : جمهوريـة الرون للمقاطعات الفرنسيـة والايطاليـة ، والجمهوريةالهلفيسية للمدن الالمانية ، وجمهوريـة تلغو (١) لكانتونـات الالب الريفيـة و « الديمقراطية » التي كانت تؤثر البقاء خارج اي تسويـة فـي المستقبل . امام خطر التجزئة الفعليـة ، الح لاهارب والوطنيون السويسريون على فرنسا كيمـا تفرض جمهورية موحدة تعامـل فيهـا الزمر الاثنية على قدم من المساواة . فعدلت **حكومة الادارة** الاوامـر التي كانت أصدرتها لقائد الجيش الفرنسي في سويسرا، برون ، فبادر في آذار ١٧٩٨ الى الاعـلان عـن قيام جمهوريـة سويسرية واحدة ، محبوة بدستور كان لاوكس الفضل الاكبر في صياغتـه .

نشر الدستور بالفرنسية والالمانية والايطالية . وشدد على وحدة البلاد وتماسكها ، درءا لخطر التقسيم والتبايـن اللغوي . وكـان المحافظـون ، على غرار ما اشرنـا اليـــه في هولندا ، « فدراليي »النزعة ، في حين كـان المبدأ التوحيدي مبـــدأ « ديمقراطيا »، . وقد تم انتخاب سلطة تشريعية مؤلفـة مـن مجلسين ، وتشكلت **حكومة ادارة** على الطريقة الفرنسية . وكان اوكس ولاهارب عضوين في هـذه الحكومـة . وأقـر الدستور الاشكـال الحديثة للحريـة والمساواة ، فأعلن عن حرية المعتقد، وعـن المواطنيـة القوميـة ، وألغى التفاوتات القانونية بين سكان

(١) سميت هكذا تيمنـا باسم غليوم تل .

المدن والارياف . وقلصت مساحة اكبر الكانتونات ـ كانتوني برن وزيوريخ على الاخص ـ وانشئت كانتونات جديدة ، كيما تتوزع مساحة البلاد بأكملها على كانتونات متساوية قانونيا .

لئن نجت سويسرا بفضل هذه الاجراءات من التجزئة وتقطيع الاوصال ، فانها لم تسلم بالمقابل من خطر الوقوع تحت النفوذ الاجنبي . فقد كتب تاليران الى اوكس يقول: « اما ان تكون سويسرا اليوم نمساوية ، واما ان تكون فرنسية ». اما العميل البريطاني وليم ويكهام ، الذي عمل مع المهاجرين السويسريين على احياء **النظام القديم** ، فكتب يقول في عام ١٧٩٩ : « المطلوب **تقييد اقدام السويسريين وأيديهم** بحيث لا تبقى لهم ارادة مستقلة » .

لكن بما ان النفوذ الفرنسي كان هو الطاغي ، فقد وضعت الجمهورية السويسرية برنامجا حازما للاصلاحات في اطار الخط العام للثورة العالمية . غير ان هذه الجمهورية كانت ، من جانب من الجوانب ، اكثر الجمهوريات الشقيقة محافظة . فقد انفردت مثلا برفض منح اليهود حقوق المواطنية كاملة ، كما فرضت على الراغب في الحصول على الجنسية السويسرية الاقامة لعشرين عاما ( في حين كانت الجنسية تمنح بعد اقامة عشرة اعوام في الجمهورية الباتافية ، واقامة سبعة اعوام في فرنسا في ظل حكومة الادارة ) . بيد انها عملت على الغاء الاتاوات والسخرات المولوية . وقد نجحت في اجتذاب الفلاحين الذين ساندوها على الرغم من مواقف المساومة التي تبنتها .

كانت الجمهورية السويسرية تختلف في الواقع عن الجمهوريات الشقيقة الاخرى ، بل عن فرنسا ايضا ، من حيث ان سكانها الريفيين ( باستثناء اهالي الكانتونات « البدائية » ) كانوا اميل الى الثورية من المدن القديمة ، ذات الامتيازات .وكان العديد من الفلاحين تطور وتقدم بما فيه الكفاية ليقدر فوائد الغاء الطوائف المهنية، وحرية العمل الاقتصادي، وتعميم المدارس،

ومساواة الجميع في التعليم . ولم تقع اعمال عنف تذكر على صعيد الدين ، وأباحت القوانين الزواج المدني والزيجات المختلطة بين الكثالكة والبروتستانتيين . وألغي التعذيب ، وأصلحت المحاكم ، وأطلقت حرية الصحافة .

من نافل القول ان عددا كبيرا من السويسريين عارض الجمهورية الهلفيسية الجديدة وانجازاتها . وقد سعى هؤلاء المعارضون وراء المساعدة البريطانية والنمساوية وطالبوا بعودة **النظام القديم** بحذافيره . وصدرت مقاومة مماثلة للنظام الجديد عن الكانتونات « الديمقراطية » السابقة ، التي كانت اعتادت على حل مشكلاتها بمنأى عن العالم الخارجي . وقد اعترضت هذه الكانتونات على الضرائب ، والبيروقراطية ، والمحاكم ، والخدمة العسكرية، أي على كل ما ترتب على انتمائها الى سويسرا «الكبرى». وبما ان سكان هذه الكانتونات كانوا من الكثالكة فقد احتجوا على حرمانهم من « دينهم المقدس » . كان موقفهم في الواقع يعكس صراعا بين ديمقراطية مباشرة قديمة وبين « الديمقراطية التمثيلية » التي ادخلتها الجمهورية الهلفيسية . ولجؤوا الى اعلان العصيان . ولما كانت الحكومة السويسرية لا تملك جيشا ، فقد طلبت من الجيش الفرنسي التدخل لقمعهم ، ففعل. وبادرت السلطات بعد ذلك الى حل هذه الكانتونات المتناهية في الصغر والى دمجها في كانتون واحد . غير ان هذه الاجراءات لم تقض على مشاعر العداء في صفوف سكان هذه الكانتونات. وقد استغل البريطانيون والنمساويون والمهاجرون السويسريون هذه الاحداث للطعن في نهج الجمهورية الهلفيسية الديمقراطي .

كان للفرنسيين ايضا دورهم في خلق موجة من المعارضة ، اذ كان احتلالهم اقسى وأشد وطأة على السويسريين منه على الهولنديين مثلا . فبعد ان استولوا على « كنز » برن ، قاموا بسلسلة من المصادرات والجبايات ، زادت في وخامتها اعمال السلب والنهب والاثراء غير المشروع التي اقترفها عدد كبير من

العملاء والضباط الفرنسيين . حتى ان معظم السويسريين الذين كانوا رحبوا بالتدخل الفرنسي أسفروا الآن عن مشاعر العداء . ناهيك عن ذلك كان الفرنسيون يطالبون بتحالف هجومي ودفاعي . وقد اعتبر بعض السويسريين ، ومنهم اوكس ، ان هذا الطلب منطقي ومشروع ، ما دامت الجمهورية الهلفيسية تدين ببقائها لهزيمة الثورة المضادة في اوروبا . بيد ان غالبية السويسريين ، بمن فيهم لاهارب ، أصروا على موقف اكثر تعبيرا عن مصالح سويسرا المباشرة: فقد ألحوا على ضرورة ابقاء بلدهم على الحياد ، او على الاقل ألا يحارب الا داخل حدوده وفي حال تعرضه لهجوم . لكن الفرنسيين ارغموهم ، بعد حركة انقلابية، على التوقيع على معاهدة تحالف دفاعي وهجومي .

كان الفرنسيون قد طالبوا ايضا الجمهورية الهلفيسية بتجنيد جيشها الخاص ، على غرار ما فعلته الجمهورية الباتافية وجمهورية الالب الغربية. وبما ان اكثر من احد عشر الف مرتزق سويسري كان انضوى تحت لواء فرنسا قبل الثورة ، لم يطالب الفرنسيون السلطات السويسرية الا بقوة عدادها ثمانية عشر ألف رجل . ولم يكن الرقم طبعا كبيرا . لكن السلطة التشريعية السويسرية عارضت تشكيل هذا الجيش ، عشية الغزو الروسي والنمساوي بالذات . وفي الواقع ، كان السويسريون عامة يرون أن من واجب فرنسا ، لا من واجبهم هم ، الدفاع عن الجمهورية الهلفيسية .

في تموز ١٧٩٧ ، اجتاز الماريشال سوفوروف ممر سان غوتار على رأس جيش روسي . كان قد قضى على جمهورية الالب الغربية ، وعقد العزم على تدمير الجمهورية الهلفيسية ايضا ، بحيث يقتحم فيما بعد الحدود الفرنسية من الشرق ، ويلتقي مع الجيش الروسي القادم من هولندا ، فيلتحم الجيشان مع القوات النمساوية وتوجه هذه القوات مجتمعة الضربة القاضية الى بؤرة الثورة في باريس . لكن الجيش الفرنسي ، بقيادة الجنرال ماسينا ، والمدعوم من قبل الوحدة السويسرية الصغيرة،

هزم سوفوروف في معركة زيوريخ الثانية .

تعرضت سويسرا لتقلبات عديدة في العصرين النابوليوني وما بعد النابوليوني . لكن التحوّل الذي احدثته الجمهورية الهلفيسية بقي رغم ذلك صامدا . ففي سويسرا ، كما في الاقاليم المتحدة ، كان دستور ١٧٩٨ الاداة التي حوّلت نظاما بائدا من الحريات القروسطية الى دولة حديثة ، تقوم على مبدأ الانتماء القومي الى الارض ، ومبدأ المواطنية الفردية ، وهما المبدآن اللذان رفعت لواءهما الثورة الفرنسية ولوحت بهما لأوروبا .

★ ★ ★

كانت خريطة ايطاليا ، قبل عام ١٧٩٦ ، تتألف من عشر دول رئيسية على الاقل . في الشمال الغربي ، على تخوم فرنسا ، كانت هنالك مملكة سردينيا . وكانت تفصل بينها وبين البحر جمهورية جنوى . وكانت ميلانو عاصمة دوقية ملحقة بامبراطورية آل هابسبورغ . اما اراضي جمهورية البندقية فكانت تقع على بعد ثلاثين كيلومترا شرقي ميلانو ، وتمتد الى داخل دالماسيا . وكانت بارما، ومودينه ، وتوسكانا عبارة عن دوقيات مستقلات . وكانت دوقية توسكانا ، اكبر الدوقيات الثلاث ، ملكا لاسرة هابسبورغ وان لم تكن تابعة لامبراطوريتهم . اما الولايات البابوية فكانت تمتد من مصب نهر البو الى جنوبي روما . وكان الجنوب برمته ، بما فيه صقلية ، يؤلف مملكة نابولي .

غير ان اهم وحدات الحياة الاجتماعية ، ما كانت تمثلها هذه الدويلات الاقليمية ، وانما المدن ، تلك الوقائع الثابتة التي كانت الحدود السياسية تتبدل من حولها . كانت الحياة المدينية قد استمرت في ايطاليا ، حتى خلال المرحلة الاقطاعية . لهذا السبب لم يكن التعارض بين النبلاء والعامة ، بين السادة والبورجوازيين ، يتسم بتلك الحدة التي اتسم بها في شمال

اوروبا . كـان النبلاء يسكنون المدن ويملكون أطيانا في الريف . وكان الثوار ينتمون الى اهل المدن، من نبلاء وغير نبلاء على حـد سواء ، وكانوا في غالبيتهم ، على غرار ما لمسناه في الاقطـــار الاوروبيـة الاخرى ، من المحاميـــن ، والاطباء ، والمهندسيــن ، والموظفين ، والتجار ، والصحفيين ، والكتّاب ، والمثقفين ، ومن الذيــن يعيشون من ريع اراضيهم . اما سواد الشعب فكان محافظا او غير مبال . فعمال المدن في ايطاليـا لم يساهموا فـي الثورة مساهمـة زملائهم في هولندا ، كما ان الدعم الذي قدمه الفلاحون السويسريون للنظام الجديد في بلادهم لم يحظ بما يناظره فـــي ايطاليـا . في شمال ايطاليـا كان الريفيون مزارعين مستقليــن ، وقد عانوا الامريــن من مصادرات الفرنسيين واعمال نهبهم . وفي الجنوب ، حيث كـان العمل فـي الزراعة غير منتج ، كانت الطبقة الفلاحيـة المكابدة من الافقار تعمل في مــزارع شاسعـــة يعيش اصحابهـا في المدن . وبمـا ان « اليعاقبة » الايطاليين كانوا من سكان المدن ، فقد ارتابت هذه البروليتاريا الريفيـة في الدعـوة الثوريـة .

كان عدد مذهل من الكهنـة والاساقفـة يتعاطفون مع قضية الثورة . وكان رجال الديــن هؤلاء ، المعارضون للسلطة البابوية، ولأبهة الكنيسـة ولتعقيداتهـا الادارية ، يرون في الرسالة العصرية للثورة ، رسالة الحريـة والمساواة والاخاء ، اعادة تأكيـد للديــن المسيحي . وقـد شهدت ايطاليـا ، على غرار الاقطار الاوروبيـة الاخرى ، تظاهرات ثوريـة مناهضــة للمسيحية . بيـد ان هذه التظاهرات لم تبلـغ الحدة التي بلغتهـا في فرنسا . على كل حال، كان التفاهم الذي تم بين المسيحية والثورة اقوى في ايطاليا منه في فرنسا ، او في الجمهوريات الشقيقة الواقعـة شمالي جبال الالب، حيث كانت البروتستانتية هي المهيمنة . فمما لا شك فيه انه لا الكنيسة الانغليكانية ولا كنيسة هولندا البروتستانتية دللتـا على قابليـة مماثلـة للتفاعل مع الثورة . فيوم اعلن عـــن ولادة

الجمهورية الرومانية، حضر اربعـــة عشر كاردينالا مراسم هــذا الاعلان . وقد بارك البابا بيوس السابع ، عندما كان لا يزال اسقف ايمولا ، جمهورية الالب الغربية . وعندما حصلت الردة في نابولي في عام ١٧٩٩ ، علّق الكاردينال الفرنسي موري على موقف رجال الدين قائلا باشمئزاز وتقزز : « ان الكهنة الذين رفعوا على اعواد المشانق على الرغم من اعوامهم التسعين ، ظلوا يبشرون بالديمقراطية ويتضرعون الى الفرنسيين الى ان قاضت ارواحهم » . وعندمـا قدّر للثورة المضادة في عام ١٧٩٩ ان تنتصر لفترة من الزمن في شمال ايطاليا ، كفت يد ما يقارب خمسمئة كاهن في لومبادريا ، بتهمة ممارسة النشاط الثوري . وفي البييمونت كانت أسـماء اكثر من سبعمئة كاهن تمثل في لائحة « اليعاقبة الخطرين » .

ان البلد الذي دخله الفرنسيون في عام ١٧٩٦ كان اذن بلدا مضطربا ومترقبا . فقد كان لايطاليا هي الاخرى « فلاسفتها » **وانوارهـا** ، واندية مطالعتها ، كما عرفت صحافتها بدورها تطورا سريعا . وكانت الجامعات الايطالية اكثر حيويـة ونشاطـا مـن جامعـات فرنسا وانكلترا . ولئن كانت ايطاليا فقدت منذ زمن بعيد مكانتها التجارية المرموقة في البلدان النائية ، فقد ظلت التجارة مزدهرة للغايـة في توسكانا والمناطق الشمالية من البلاد . وكان العديد من التجار ومن الملاكين الاقطاعيين القدامين يضيقون ذرعا بمركزية الطوائف الحرفية وتنظيمات المدن لانها تعيق طموحهم وتقيد نشاطاتهم . وقد مرّت على ايطاليا حكومات اصلاحية . ففي توسكانا ، على سبيل المثال ، بلغت الاصلاحات التي طبقت في عهد ليوبولد حدا لم تعد الثورة معه تجد من يؤيدها ويدعمها . وحتى البابا بيوس السـادس اجرى بعض الاصلاحات ، فباع لاشخاص علمانيين املاكا للكنيسة تخفيفا لوطأة ديونه . لكن في ظل نظام كانت فيه المدينة تحـكم مدينة اخرى ، جنحت أعداد كبيرة من الايطاليين الى المطالبـة بدولة حديثة . ولم تكن الدولة المنشودة هي ايطاليا الموحـدة ، كما وصفها خيال الادباء ، وانما قاعدة اقليمية موسعة ، ومواطنية

فردية ، ومنطقة تجارية أكثر رحابة ، ووسائل للتغلب على التعارض بين مدينة واخرى ، وبين المدينة والريف .

كان عدد من الجمعيات السرية الثورية قد بـدأ ينشط في ايطاليا ، قبل مجيء الفرنسيين . ففي نابولي تأسس ناديان في عام ١٧٩٢ ، في اثناء زيارة الاسطول الفرنسي للمدينة . واستمر هذا النشاط السري ، على الرغم مما تعرض له من قمع ، حتى دخول الجيش الفرنسي في عام ١٧٩٩ . وفي عام ١٧٩٤ ، شهدت مدينة بولونيا مؤامرة فاشلة ضد الحكم البابوي ، أسفرت عن محاكمات، وتعذيب ، واعدامات . وفي عام ١٧٩٣ ، دخلت سردينيا الحرب ضد فرنسا ، بعد ان أمدتها بريطانيا بمساعدة قدرها مئتا الف ليرة انكليزية ، وتأسس في تورينو ، بدعم من المبعوث الفرنسي الى جنوى ، ناديان ثوريان . وكان اكثر الناديين اعتدالا برئاسـة صيرفي . اما النادي الثاني ، الاقوى انتصارا للجمهورية ، فكان يضم طلبة في الطب واطباء ، من بينهم كارلو بوتا الذي اشتهر فيما بعد كمؤرخ . ولكن ما عتم أمر هذه الجمعيات السرية أن افتضح ، فاضطر اعضاؤها الى الهرب . وحاول بعضهم الاتصال بشقيق روبسبيير الذي تواجد ، في عام ١٧٩٤ ، عند الحدود الايطالية ، لكن لجنة السلامة العامة في باريس لم تعر هؤلاء الثوار اهتماما، كما اسلفنا الاشارة الى هـذا الموضوع . وبمثل هـؤلاء الثوار اتصل بيوناروتي في اثناء مؤامرة بابوف في عام ١٧٩٦ ، تلـك المؤامرة التي كانت جعلت من تحرير ايطاليا هدفا من أهدافها .

في ايار ١٧٩٦ ، هزم بونابرت النمساويين على جسر لودي واضطرهم الى الانسحاب . واحتل الفرنسيون ، بعد ذلك ، ميلانـو حيث هرع الى استقبالهم النبلاء الليبراليون ، وابناء الشـعب عامة . وقد أسس اشخاص من الطبقة الوسطى « جمعية اصدقاء الحرية والمساواة » . وكان هدف الفرنسيين الاستمرار في حربهم ضد النمساويين حتى يتحقق لهم النصر النهائي، وتغطية نفقات جيوشهم عن طريق المصادرات المحلية . وفي الحقيقة ، كان الشاغل الاول

للفرنسيين التموين الحربي لا الثورة . لكن معركة جسر لودي ، كما نوّه بذلك المؤرخ الايطالي غيزالبرتي ، « فرضت على جميع ممثلي المسرح السياسي مسألة دقرطة ايطاليا » .

لم تكن الادارة العامة راغبة في ادارة منطقة محتلة . لذلك عملت على اقامة جمهورية لومباردية او ايطالية . وقد رعت مسابقة شهيرة حول « شكل الحكم الحر الاكثر ملاءمة لايطاليا » ، ففاز فيها العالم الاقتصادي جيويا . وقد دافع جيويا وعدد كبير من المتسابقين الآخرين عن مبدأ اقامة جمهورية ديمقراطية موحدة . وقد رفع العلم الايطالي الحديث للمرة الاولى في وادي نهر البو عام ١٧٩٦ . وفي اثناء ذلك اندلعت اضطرابات ثورية فيما وراء حدود مقاطعة ميلانو النمساوية . وتحرك الجمهوريون في مملكة سردينيا أيضا ، وتمردت مودينه وريجيو على دوق مودينه. وحصل عصيان مماثل في بادوفا ، فيرونا ، فيشنزا ، وبرغاما ضد البندقية . وفي البندقية بالذات ، اطاحت جماعة من الديمقراطيين بالاوليغارشية المحلية القديمة . وكانت كل مدينة تتصرف لحسابها. فمدينة بولونيا صاغت لنفسها دستورا اعتبر اول دستور حديث في ايطاليا . وأوفدت مدن أخرى مبعوثين عنها الى باريس طلبا للمساعدة . ولئن اتفقت هذه المدن على ضرورة التحرر من النظام القديم ، فانها لم تضع بالمقابل أي خطة توحيدية ، بل غلب عليها الشعور بالتنافس والغيرة .

عندما بدأت القوات النمساوية بشن هجومها المعاكس ، بادر وطنيون في ميلانو الى اعلان استقلال لومبارديا وطالبوا بانتخاب جمعية تأسيسية . لكن الجيش الفرنسي قمع هذه الانتفاضة بالقوة . فبونابرت ، المنهمك في حربه ضد النمساويين ، لم يكن على استعداد لدعم جمهورية في لومبارديا . غير انه رأى ان مصلحة فرنسا تقضي بالمقابل بجمع شمل المدن المتمردة جنوبي نهر البو . وهكذا اجتمع نواب بولونيا، وفيراري، ومودينه وريجيو ، وصاغوا نص دستور ، واعلنوا ، في أواخر عام ١٧٩٦ ، عن قيام كيان

سياسي جديد اطلقوا عليه اسم جمهورية جنوبي نهر البو .
في ربيع ١٧٩٧ ، هزم بونابرت النمساويين ووقع معهم على هدنة في ليوبن . وتفرغ بعد ذلك للاهتمام بالثوار الذين زرعوا البلبلة في شمال ايطاليا . وقد حسمت قراراته مصيرهم . فقد رفض ان يرعى ثوار سردينيا ، حيث كانت الملكية لا تزال قائمة . وسلّم ثوار البندقية ومعظم مدن اقليمها الى السلطات النمساوية ، في عملية مقايضة لهم مقابل ميلانو التي عزم على ان يجعل منها عاصمة جمهورية الالب الغربية بعد أن اندمجت بها جمهورية جنوبي البو في عام ١٧٩٧ . وقد ادان الديمقراطيون المتقدمون في فرنسا وايطاليا بشدة « خيانة » نابوليون لثوار البندقية وسردينيا . ولئن تحول ووردوورث وغيره من المتعاطفين مع الثورة الفرنسية في انكلترا الى أعداء لها ، فقد كان ذلك بسبب التضحية بالبندقية أكثر منه نتيجة **الارهاب** . غير ان نابليون أمسى مع ذلك ، بعد انشائه جمهورية الالب الغربية ( والجمهورية الليغورية في جنوى )، بطلا في نظر الجمهوريين حيثما كانوا . فتقاطروا من أنحاء ايطاليا كافة ، واحتشدوا في ميلانو التي اصبحت مركزا للصحافة الثورية ، وللاندية ، وللنشاط الثوري العام . وفي ميلانو بدأ الكلام يدور عن الاطاحة بالبابا وبملك سردينيا . ولئن انضم بونابرت الى جمهوريي **حكومة الادارة** لضرب انصار الملكية من خلال انقلاب فروكتيدور ، فقد فعل ذلك دفاعا عن « جمهوريته » في ايطاليا ، أي عن جمهورية الالب الغربية . وقد كان لهذه الجمهورية صداها القوي حتى في اميركا النائية . فالفرنسيون ، في نظرجون كوينسي ادامز ، صمموا على « جمهرة » العالم ، وبالتالي على دفعه نحو هلاكه . غير ان الاميركيين الديمقراطيين كانوا ينظرون الى الاحداث الاوروبية نظرة أكثر ايجابية . ففي عالم ١٧٩٨ ، عبّر اندرو جاكسون عن امله في ان يجتاح بونابرت انكلترا بالذات ويقيم فيها نظاما جمهوريا .

★ ★ ★

حددت جمهورية الالب الغربية ( التي اصبحت هي الجمهورية الايطالية في عام ١٨٠٢ ، ومن ثم المملكة الايطالية في عام ١٨٠٥ ) مرحلة هامة في تاريخ حركة الوحدة الايطالية ، وقدمت مثالا ساطعا على مدلول الثورة بالنسبة الى اوروبا القرن الثامن عشر . وخلافا للجمهوريات الشقيقة الاخرى ، تكوّنت من تشكيلة اقليمية جديدة تماما . فقد ضمت اجزاء من ستة كيانات سياسية سابقة : دوقيات ميلانو ، مانتوفا ومودينه ، والاقاليم البابوية في الشمال ( بولونيا ، فيراري ، ايمولا ) ، والمناطق الغربية من اقليم البندقية ( برغاما ، برسشيا ) ومنطقة فلتلينا الناطقة بالايطالية ، والتي كانت فيما مضى تابعة لسويسرا . وقد اعيد تنظيم هذه المناطق المختلفة في اطار عشرين مقاطعة متماثلة على الصعيدين القانوني والاداري ، اطلقت عليها بوجه عام اسماء أنهر ، على غرار ما حصل في فرنسا بعد عام ١٧٨٩ . وأنيط الحكم بحكومة ادارة تنفيذية وبهيئة تشريعية لم ينتخب اعضاؤها الاوائل انتخابا وانما عينوا من قبل بونابرت الذي اختارهم من بين ايطاليين حازوا على ثقته . وقد تعرضت السلطات العليا لهذه الجمهورية غير مرة لتعديلات ولانقلابات . غير ان اهمية هذه الجمهورية تكمن بالاحرى في البرنامج الذي عملت على تنفيذه وفي النشاطات التي حفزتها وشجعتها : ازدهار الصحافة السياسية ، والخطب ، والاجتماعات العامة ، والنشاط الاداري في المقاطعات ، وتعليم الشعب ، ومشاريع الهيئة التشريعية ومداولاتها .

ان في تعداد الاعمال التي انجزتها جمهورية الالب الغربية في بحر عامين ( قبل ان تسحق وتمحى من الوجود على ايدي النمساويين والروس في عام ١٧٩٩ ) تكرارا للبرنامج الذي انجزته الثورة حيثما قدّر لها ان تتسلم زمام السلطة . فقد ألغت امتيازات النبلاء ، ومنعت التعذيب ، وحررت الصحافة من قيودها ، وضمنت المساواة لليهود . وحظر استخدام الرجال المخصيين في الغناء — عادة ايطالية محضة — لان في ذلك مساسا بالكرامة

الانسانية. والغيت الطوائف الحرفية والحواجز الجمركية الداخلية ، وخفضت الضرائب ، ووضعت الميزانيات . ورفعت أيدي الاساقفة عن التعليم ، واثيرت مطولا مسألة ايجاد جهاز تعليم عام ، تتولى الدولة الانفاق عليه ، ولاسيما ان دستور الجمهورية نص ، على غرار الدستور الفرنسي ، على انه يتعين على كل ناخب، بعد مدة اقصاها اثنا عشر عاما ، ان يلم بالقراءة والكتابة . وألغي حق الابن البكر في الانفراد بالارث ، ودمّرت القاعدة الاقتصادية للاسرة الارستقراطية . وجنّد جيش تعداده خمسة عشر ألف رجل في عام ١٧٩٨ . ولم تكن الخدمة الالزامية مطبقة في ايطاليا ، لكن مذهب الثورة كان يحث كل دولة حرة على تكوين جيش من المواطنين .

وقفت جمهورية الالب الغربية موقفا حازما من الكنيسة ، وان أقرت ببعض الغلبة للمذهب الكاثوليكي . فانفردت دون سائر الجمهوريات الشقيقة بتبني رزنامة الفرنسيين الجمهورية . وجاهرت بطابعها « الدنيوي » ، بمعنى انها فصلت فصلا تاما الدين عن الحقوق السياسية والمدنية . وصادرت وباعت املاك الكنيسة التي بادر الى شرائها سكان المدن من ابناء الطبقة الوسطى . وحظرت نذور الرهبنة ، وسمحت بالزواج المدني ، بل بالطلاق ايضا في شروط محددة . وأخضعت المواكب الدينية لرقابة مشددة ، ومنعت قرع اجراس الكنائس ليلا ، ونزعت صور القديسين التي كانت تزين الشوارع ، وأطلقت على الشوارع التي كانت تحمل اسماء قديسين اسماء علمانية جديدة . وتولى الحكم مهمة تعيين الاساقفة، وكلف المواطنون بانتخاب كهنة الرعية.

تجدر الاشارة الى ان عددا كبيرا من الاساقفة تقبّل جمهورية الالب الغربية وأيدها . ولعل ابرز هؤلاء الاساقفة هو كيارامونتي ، اسقف ايمولا في الاقاليم البابوية ، الذي اصبح البابا بيوس السابع في عام ١٨٠٠ . صحيح انه لم يكن اكثر المتعاونين مع النظام الجديد حماسة : فهو لم يقر قط بحق الحكم في تعيين

الاساقفة ، لكنه وافق بالمقابل على ضم ايمولا الى الجمهورية ، واستخدم التقويم الجمهوري في رسائله التي طبع عليها كلمتي **حرية** و **مساواة** ، وتخلى عن لقب **صاحب السيادة** ودعا الناس الى مناداته ب « المواطن الكاردينال » .

ان حكومة الادارة الفرنسية ، التي لم يغب عن ذهنها لحظة واحدة ان اعداءها الحقيقيين هم النمساويون والانكليز ، والتي لم تكن تنظر الى الثورة في ايطاليا على انها مشروع مرغوب فيه او قابل للحياة ، بدأت تعتبر جمهورية الالب الغربية مصدر متاعب لها . وراح الايطاليون من جهتهم يناهضون فرنسا باطراد ، بمن فيهم انصار الثورة في ايطاليا . وفرضت فرنسا على جمهورية الالب الغربية ـ كما فعلت مع الجمهوريتين الباتافية والسويسرية ـ معاهدة تضمن لها الدعم المالي والعسكري في حربها ضد العدو . وانقسم سكان الجمهورية بصدد هذه المعاهدة . فقد كانت المصادرات الفرنسية شديدة الوطأة ، ولم يتوان الفرنسيون ، مدنيين وعسكريين ، صغارا وكبارا ، عن السلب والنهب وجمع الثروات الطائلة . وحاولت **حكومة الادارة** في باريس ان تضع حدا لانغماس الضباط في عمليات النهب ، وان تكبح جماح أكثر ديمقراطيي جمهورية الالب الغربية صخبا وضجيجا ، وان تقضي على مشعلي نار الفتنة الذين تجمعوا في ميلانو وراحوا يطلقون التهديدات ضد البابا وضد ملكي سردينيا ونابولي ودوقاتهما . عند ذاك انقلب الجنرالات الفرنسيون الساخطون والايطاليون المتطرفون من انصار الجمهورية على **حكومة الادارة** في باريس ، متهمين اياها بالاعتدال ، وبالوجل ، بل بخيانة الثورة .

في كانون الاول من عام ١٧٩٧ ، عندما لقي الجنرال دوفو مصرعه في روما اثناء مظاهرة معادية لفرنسا ، دوت في ايطاليا صرخة وصلت اصداؤها حتى باريس ، تطالب بتدخل فرنسا لوضع حد للحكم القائم في الاقاليم البابوية ، ذلك الحكم العادم الجدارة ، الذي ما عاد يطاق . وأصدرت **حكومة الادارة** أوامرها الى القوات

الفرنسية باحتلال روما . وطرد البابا من المدينة . وأيد حشد من أهالي روما المجتمعين في ميدانها الاكبر وثيقة استقلال الشعب الروماني ، وتولى اربعة فرنسيين ، بالسرعة الكلية ، صياغة دستور الجمهورية الرومانية الجديدة .

★ ★ ★

مع ان الجمهورية الرومانية رأت النور في ظروف لا تعد بمستقبل مزهر ، فقد حظيت بتأييد عظيم في روما . وكانت الطبقات الاقل حظوة هي ايضا الاقل تأييدا للافكار الجديدة : هذه الظاهرة ، التي لمسناها في الاقطار الاوروبية الاخرى ، برزت بمزيد من القوة في ايطاليا . وداخل هذه الطبقات الاعتقاد بأن البابا اهين واذل . وكان هنالك في روما جالية يهودية كبيرة سارعت ، يوم دخول الفرنسيين ، الى نزع شارات « الغيتو » ورميها ارضا . وتيقظت على الفور المشاعر اللاسامية المضمرة لدى العامة ضد هذه الثورة التي بدت « يهودية » في نظر الكثرة . غير ان المستنيرين بما فيه الكفاية ـ من علمانيين ورجال دين على حد سواء ـ للتمييز بين سلطة البابا الزمنية وسلطته الروحية ، قبلوا بالنظام الجديد. لذلك لم يكن مستغربا ان يحضر نصف الكرادلة الموجودين في روما احتفالات تدشين الدولة الجديدة ، وان عمدوا فيما بعد الى مغادرة مكان الاحتفال باستثناء اثنين من بينهم . وصار كاهن ، ملحق بكنيسة القديس بطرس ، وزيرا للجمهورية الرومانية ، وعين راهبان في رتبة قائد فوج في الحرس الوطني ، وامسى عالم من الرهبان الدومينيكيين عضوا في **المعهد القومي** . وكتب لاهوتي معروف ، هو ج. ف. بولنيي ، مقالة اكد فيها ان على الكنيسة ان تتأقلم مع الظروف العصرية ، وشرح الاسباب التي تحدو بالكثالكة الى ان يكونوا اوفياء للبابا المنفي وللجمهورية في آن معا .

كان العلمانيون ، من ابناء الطبقتين العليا والوسطى ،

قد مارسوا منذ زمن بعيد نشاطا تحريضيا ضد الحكم البابوي ، الذي كانت المناصب والوظائف العليا فيه وقفا على المسنين من رجال الدين ، والذي اتسم بانعدام الاستقامة والجدوى معا . وقد حاول البابا بيوس السادس تدارك شر المحسوبية ، والتضخم النقدي ، والديون ، والنظام الزراعي الخاضع لهيمنة كبار ملاكي الاراضي ، لكن جهوده ذهبت سدى . لذلك كان الاشخاص المهتمون بقضية الاصلاح على استعداد تام لاعطاء الجمهورية فرصتها ، وكان من بينهم عدد من افراد اسرة بورغيزه وغيرها من الاسر النبيلة . وانتسب عدد من اليهود الى الحرس الوطني ، وانتخب احدهم عضوا في مجلس الشيوخ . وأيد فنانون عديدون الجمهورية ، ومن بينهم النحاة الشهير شيراكي ، الذي تدعمت مواقفه الديمقراطية في اعقاب زيارتين قام بهما للولايات المتحدة لاغراض مهنية .

ان الجمهورية الرومانية ، التي لم تدم أكثر من عام واحد ، لم تنعم باستقرار يسمح لها بصياغة برنامج عضوي . فسرعان ما انقسم انصارها الى معتدلين والى ديمقراطيين متطرفين . كان المعتدلون من سكان روما بوجه الخصوص ، في حين كان المتطرفون من الوافدين الجدد من مناطق ايطاليا اخرى ، وكان جلهم من الصحفيين والمثقفين ، ومن اعضاء نادي ميلانو الثوري القدامى . كان المعتدلون يطالبون بانجازات ملموسة على الصعيد المحلي ، باصلاحات عملية في الميدان الضريبي والاداري والقانوني ، وبفرص للتقدم في وظائفهم واعمالهم ، أو لشراء اراضي الكنيسة المصادرة . اما المتطرفون ، فقد طالب بعضهم بتجزئة المزارع الشاسعة التي كان مالكوها — الغائبون — يقيمون في المدن . ولم يكن بين هؤلاء دعاة « للشيوعية » على مثال بابوف ، غير انهم كانوا يؤيدون فكرة تكوين طبقة فلاحية من صغار المالكين المستقلين . وكان بعضهم الآخر يلح ، بصورة خاصة ، على تفجير ثورة شاملة في ايطاليا برمتها ، واطاحة جميع الرؤوس المتوجة من تورينو الى

نابولي ، واقامة جمهورية شعبية تجمع شمل اجزاء ايطاليا الموحدة. وقد وجدت مطالب المتطرفين الايطاليين اذنا صاغية لدى العناصر الجمهورية المتحمسة في الجيش الفرنسي، بل لدى بعض الجنرالات ايضا . فهؤلاء الجنرالات ، الذين نفذ صبرهم ازاء **حكومة الادارة** ، والذين كانوا يذكرون تماما ما فعله بونابرت في جمهورية الالب الغربية ، كانوا يتطلعون الى جمع الثروات الطائلة والى تنصيب انفسهم محررين ومنقذين للايطاليين المستنجدين بهم .

لم يقدر للجمهورية الرومانية ، في ظل هذه الظروف ، ان تحقق منجزات تذكر . فقد انقضت حياتها في ترقب قلق للحرب ، لتنتهي مع هذه الحرب .

طالب المتطرفون في روما بشن حرب على ملك نابولي الذي كان ، بدوره يتحين الفرص للقضاء على النظام الجديد ، العابر ، للمدينة الخالدة . كان الملك فردينان الرابع قد تزوج من اميرة من آل هابسبورغ ، ماري ــ كارولين ، شقيقة ماري ــ انطوانيت ، ملكة فرنسا السابقة . وكان حقد الملك وزوجته على الجمهورية ــ الفرنسية والايطالية ــ يجد من يذكيه باستمرار في صفوف زمرة المستشارين الانكليز المحيطين بالعرش . فرئيس حكومة الملك كان المغترب الانكليزي أكتون ، وكانت نجية الملكة ايما هاميلتون الشهيرة ، زوجة السفير البريطاني . وفي ايلول ١٧٩٨ ، انضم اليهم الاميرال نلسون . كان قد حطم لتوه الاسطول الفرنسي في مصر ، وعزل بونابرت والجيش الفرنسي ، وراح يتهيأ لخوض معارك جديدة ضد فرنسا غربي المتوسط . وبادرت الحكومة البريطانية ، التي كانت تسعى بدأب وأناة لتشكيل تحالف عسكري ثان ، والحكومة النمساوية ، التي كانت لا تزال في حالة سلم مع فرنسا ، الى تحذير فردينان من مغبة الاقدام على عمل سابق لاوانه . فقد كانت الحكومتان تفضلان التريث ريثما يهاجم الفرنسيون نابولي ، اذ عندها يصبح من السهل تشكيل تحالف عسكري ضد فرنسا . غير ان **حكومة**

**الادارة** . في باريس لم تدخل في حساباتها مهاجمة نابولي . عندئذ بادر نلسون والجالية الانكليزية الى اقناع فردينان الرابع بضرورة العمل بدون تلكؤ . وفي تشرين ، هاجم جيش مملكة نابولي الجمهورية الرومانية ، واحتل روما بدون ان يواجه صعوبات تذكر . وما كادت الفرصة تسنح للملك فردينان لكي يحضر شخصيا الى روما ويعد بعودة الامن والدين ، حتى كان الجنرال الفرنسي شامبيونه ، الذي جمع على عجل جيشا صغيرا ، يهزم قوات نابولي ويطردها ، في سرعة وعنف ، الى الطرف الآخر من الحدود . وفي كانون الثاني ١٧٩٩ ، احتل جيش من الفرنسيين والبولونيين ومن مواطني جمهورية الالب الغربية مدينة نابولي . وتمكن الملك والملكة ، واللورد والليدي هاميلتون ، من الهرب الى بالرمو بحماية نلسون . وتجاوز شامبيونه الاوامر الصادرة له ( كما فعل نلسون من قبله ) وتحالف مع الثوار المحليين للاعلان عن قيام جمهورية نابولي .

★ ★ ★

لم تكن تربة ايطاليا الجنوبية صالحة لثورة القرن الثامن عشر . فنابولي ، التي كانت واحدة من اكبر مدن اوروبا ، كانت ملتقى رجال ونساء مثقفين ومستنيرين ، غير ان سكانها كانوا يتألفون ، بوجه عام ، من فقراء ، وعاطلين عن العمل ، **ولازارونيين** (٢) أميين تماما . وكانت المملكة تضم عددا غفيرا من المدن الصغيرة ، العريقة القدم . وكانت الطبقات العليا ، في هذه المدن كما في العاصمة ، تعيش على دخلها من المزارع الشاسعة التي كانت تعمل فيها طبقة فلاحية بائسة . ولم يكن بروليتاريو الارياف ولازارونيو المدن يتمتعون بالوعي السياسي الذي لمسناه لدى اللامتسرولين الفرنسيين . ففقرهم المدقع كان يضعهم في منأى عن تيارات

(٢) لازاروني lazzaroni : اسم كان يطلق في نابولي على ابناء ادنى طبقات الشعب . « م » .

العصر الكبرى . وبما أنهم ما كانـوا يجيدون الكلام الا بلهجاتهم المحلية ، فقد كانت حواجز اللغة تفصل بينهم وتعزلهم عن بعضهم بعضا . كان ثوار نابولي ينتمون اذن الى الطبقات العليا . لكـن ان كانوا يتمتعون ببعض الثقافة المستقاة من الكتب ، فانهم بالمقابل لم يكونوا على اتصال بالافكار السياسية والاقتصادية الحديثـة . كما انهم كانوا ، بالنسبة الى سكان الريف ، مجرد أغراب .

كانت القوات الفرنسية المتمركزة في نابولي محدودة اساسا. وعندما استأنفت فرنسا حربها ضد النمسا ، أي بعد ثلاثة أشهر ، بادرت الى سحب هذه القوات . وهكذا بقي جمهوريو نابولي بلا حماية ، في وقت أعلن فيه الفلاحون من حولهم التمرد على النظام الجديد . واشرف على تنظيم حركة العصيان الكاردينال روفو . ولم يكن روفو كاهنا . لكنه كان شغل ، قبل بضع سنوات ، منصبا وزاريا حساسا في الاقاليم البابوية . وغد طرح وقتئذ برنامجا من الاصلاحات لم يحظ برضى كبـار المالكين العقاريين في ايطاليا الوسطى ، مما اضطر البابا بيوس السادس الى اعفائه من منصبه ، بعد منحه لقب « كاردينال » مكافأة له على خدماته . وأقـام روفو في نابولي . وعندما حصل الاجتياح الفرنسي ، نصح فردينان الرابع بالعدول عن مشروع اللواذ بصقلية ، غير انه لحق به في نهايـة المطاف . وفي شباط ١٧٩٩ ، حط الركاب على شواطىء كالابرا ، بصحبة ثمانية رجال فقط ، وراح يخطط لاسترداد المملكة . ثم نظم حركات العصيان الفلاحية في اطار ما سمي ب « جيش الايمان المقدس » Armata Cristina .

لم تكن حركة الكاردينال روفو ضربا من الحرب الصليبية . وقد عارضها على كل حال عدد من الكهنة ، وكذلك الكاردينال زورلو ، اسقف نابولي . الشيء الاكيد أن الفلاحين شحنوها بحقدهم الاعمى على أهل المدن وعلى الجمهوريين الذين لا يؤمنـون بالله . وقد أعلن روفو ، على غرار جمهوريي نابولي ، « الغـاء الاقطاع » ، بل ذهب الى أبعد منهم ، فألغى الضرائب البغيضة

على قلوب الشعب ، كما الغى بعض المناصب المحلية ، وسمح للفلاحين باحتلال اراضي البلدة . وبهذه الاجراءات ضمن لنفسه دعم الارياف . فاجتاحت عصابات ريفية المدن الصغرى ، ونهبت بيوت البورجوازيين والنبلاء ، وأعدمت كل من الصقت به تهمة الانتماء الى الحركة اليعقوبية « الملحدة » . واحتل روفو مدينة نابولي في ايار ، فالتجأ ما تبقى من أنصار الجمهورية الى حصن سانت ــ الما .

من صقلية بعث الملك فردينان الرابع ، حيث كان يعيش في أمان ، برسالة الى ممثله روفو ، الذي كان يخوض غمار المعركة ، ضمنها التوجيهات التالية : « لا نريد حلما او شفقة في معاملة من تمرد على الله وعلينا » . لكن روفو وعد مع ذلك الجمهوريين المحاصرين في سانت ــ الما بالحفاظ على حياتهم اذا استسلموا . وهذا ما فعلوه . وارتأى الملك والملكة ان الكاردينال روفو دلل على تسامح في غير محله ، وتركا للاميرال الانكليزي نلسون حرية التقدير في هذه المسألة ، وانما بعد تزويده بتوجيهاتهما . فقد كتبت الملكة الى الليدي هاميلتون ( كان نلسون قد وقع في غرام هذه الاخيرة ، لكن هذه حكاية اخرى ) تقول : « أوصي اللورد نلسون بأن يعامل نابولي وكأنها مدينة ارلندية متمردة » . والحال أن المدن الارلندية كانت ، منذ محاولة التمرد الفاشلة التي حصلت قبل عام من الزمن ، تخضع لمعاملة لا أقسى ولا أشد . وما كانت ماري ــ كارولين الشرسة تتمنى مصيرا آخر لشعب عاصمة مملكتها .

امتثل نلسون لهذه التوجيهات . فقد كان نصير الملكية هذا ، والعدو اللدود هذا لكل ثورة ، يرى ان الحفاظ على الحضارة يقتضي ابادة اليعاقبة من ارلندا الى مضيق مسينا . وقد بدأ بابعاد روفو المتسامح ، باعتباره « كاهنا متكبرا ومدعيا » . وعندما كان هذا الاخير يقول عن الجمهوريين انهم « وطنيون » ، كان نلسون يجيبه بأنه « يعهر » هذه الكلمة . وقد علّق نلسون مشنقة الامير

الجمهوري كاراشيولو فوق جسر **مينرفا** ؛ وأعدم في الاشهر التالية ١١٨ جمهوريا في نابولي ، كان من بينهم ١٥ رجل دين ، وأمير آخر ، وأربعة نبلاء برتبة مركيز ، وسيدتان من المجتمع الراقي .

★ ★ ★

اندرجت حملة الاضطهاد التي تعرّض لها جمهوريو نابولي في اطار انتصار الثورة المضادة في ايطاليا في عام ١٧٩٩ . واندرج هذا الانتصار بدوره في اطار حركة اوسع قادت الجيش الروسي الى سويسرا ، والجيشين الروسي والانكليزي الى هولندا . وكان الهدف المنشود سحق الجمهوريات الشقيقة كافة ، ومن ثم القضاء على الجمهورية الفرنسية . ولم يقدر لهذه الحركة ان تنتصر الا في ايطاليا ، بيد ان هذا النصر حدد ملامح المصير الذي ينتظر الانظمة الجمهورية الاخرى .

لم تأت حرب التحالف الثاني في ايطاليا في صالح الفرنسيين . فقد نشط الروس هذه المرة ، وأدخل الماريشال سوفوروف جيشه الى ايطاليا . وشارك الاتراك ايضا في العمليات العسكرية في ايطاليا ، وقد جرتهم الى الحرب حملة بونابرت ضد مصر . وعجز الفرنسيون وانصارهم الايطاليون عن التصدي للنمساويين والروس والاتراك والاسطول البريطاني في آن معا . فسقطت نابولي،وسقطت بعدها روما، ومن ثم ميلانو. وتم القضاء على الجمهوريات الايطالية قاطبة ، باستثناء الجمهورية الليغورية .

عاش الايطاليون بعد اعوام الثورة الثلاثة ، أي « الترينيو » Triennio كما يقولون ، زمن الردة النمساوية ـ الروسية الذى استمر ثلاثة عشر شهرا Tredici mesi . كانت هذه الردة نمساوية في المقام الاول ، اذ بارح الروس البلاد بعد فترة وجيزة قاصدين سويسرا حيث هزموا على يدي ماسينا . وقد ابقى النمساويون على

بعض جوانب النظام الجديد . لم يعيدوا الى البابا لا بولونيا ولا فيراري ، كما انهم لم يعيدوا الى رجال الدين ممتلكات الكنيسة التي صادرتها جمهورية الالب الغربية . باستثناء ذلك ، ألغيت جميع الاجراءات الجديدة التي اتخذها العهد الجمهوري . فقد أغلقت المدارس والجامعات ، وبالمقابل اعيد فتح المدرسة القديمة لتعليم الالمانية في ميلانو . وأقر من جديد حق البكورة في الارث ، وأعيد العمل بالاتاوات المولوية ، وبحقوق الصيد القديمة . وقمع الجنسينيون ، وفقد اليهود وغير الكثالكة المساواة في الحقوق . وأقر من جديد ايضا مبدأ الزامية العطل الدينية ، وأعيد فرض الرقابة ، واحرقت « الكتب الخبيثة » في الساحات العامة ، وروج للادب المناهض لفرنسا . كان النمساويون ، في اثناء ذلك ، يغطون نفقات اقامتهم في ايطاليا على غرار الفرنسيين ، أي باللجوء الى المصادرات والى النهب والسلب .

أمام مشهد تخبط ايطاليا بين مخالب الرجعية ، والخطر الوشيك الذي بات يهدد الثورة ، عرفت فرنسا في عام ١٧٩٩ انبعاثا جديدا لتيار اليعاقبة . وكان البابا بيوس السادس هو الضحية الاولى للازمة . فقد طرد من روما يوم اعلن عن قيام الجمهورية الرومانية والتجأ الى فلورنسا . وفي الواقع كان أسيرا لدى الفرنسيين . وعندما استؤنفت الحرب في ايطاليا ، وتوالت الهزائم الفرنسية ، وانهارت الجمهوريات الواحدة تلو الاخرى في شبه الجزيرة الايطالية، راح الفرنسيون يعاملونه بقسوة متعاظمة . نقلوه من مدينة الى أخرى ، وحرموه من مستشاريه ، ثم رحلوه الى فرنسا ليرسلوه ، وهو في الثانية والثمانين وفي حالة شلل نصفي ، الى منطقة صقيعية في جبال الالب حيث توفي في عزلة شبه مطلقة . هكذا يكون قرن الانوار قد شهد اخيرا في عامه الختامي ما اعتبره ورثة فولتير والاعداء الالداء للكاثوليكية انسحاق النذل واحتضار روما . اما بالنسبة الى الكثالكة ، فان العام ١٨٠٠ كان العام الذي شهد انحطاط البابوية الى ادنى مراتبها في العصور الحديثة .

في فرنسا ، كانت جماعة من اليعاقبة الجدد ، ومن الديمقراطيين المتقدمين ، ومن الساخطين ، ومن الجنرالات غير المطيعين ، امثال شامبيونه ، صانع جمهورية نابولي ، يعدون العدة لتشكيل حكومة ثورية جديدة تتولى التصدي للتحالف العسكري الاوروبي الثاني . بيد ان رجالات ١٧٨٩ و ١٧٩٣ ، الذين اعتدلوا مع الايام وتراجعوا عن مواقفهم الثورية ، وجدوا ضالتهم في شخصية الجنرال بونابرت الخارقة . فكان انقلاب بروميير ، وكان رحيل **حكومة الادارة** وقدوم **حكومة القناصل** ، وكان اختيار بونابرت لمنصب القنصل الاول في هذه الحكومة .

جاء النصر الذي حققه بونابرت على النمساويين في مارنغو في عام ١٨٠٠ ينفح حياة جديدة في جمهورية الالب الغربية . واكد هذا النصر ايضا انهيار التحالف العسكري الثاني من جهة ، واستمرارية النظام الجديد في فرنسا واوروبا الغربية من جهة اخرى . وان لم يعد هذا النظام الجديد ثوريا او ديمقراطيا ، فقد كان بكل تأكيد اصلاحيا . وفي فرنسا ، تحولت الجمهورية الى قنصلية ، ونظمت القنصلية في قوانين شطرا لا يستهان به من تراث ثورة ١٧٨٩ . ومرّت الجمهوريات الشقيقة بتحولات مماثلة . فكما أن بونابرت صار نابوليون ، وفرنسا صارت امبراطورية ، غدت الجمهورية الباتافية المملكة الهولندية ، وجمهورية الالب الغربية المملكة الايطالية . وما اتفق على تسميته بجمهورية نابولي في عام ١٧٩٩ ، عاد من جديد مملكة نابولي . وقد حكم هذه المملكة بادىء الامر جوزيف ، شقيق الامبراطور ، ومن بعده صهره، يواكيم مورا . وبقي البرنامج الذي أرست الجمهوريات الشقيقة أسسه ساري المفعول في جوهره ، وانما بدون جهاز حكم منتخب ديمقراطيا . والواقع أنه ان لم تتبدل بوجه عام السياسة ، فقد تبدلت بالمقابل الشخصيات المكلفة بتنفيذها : فحل محل الثوريين المتحمسين ، الذين عرفهم العقد الاخير من القرن الثامن عشر ، اداريون طغى عليهم الطابع الذرائعي وموظفو الدولة .

الفصل الثامن

# البلدان الناطقة بالانكليزية :

# الثورة المهتوف لها والمقوتة

عندما قامت الثورة الفرنسية ، ، كانت الثورة الاميركية لا تزال غضة العود . وقد شكلت هذه الثورة جزءا من حرب أهلية خيض غمارها داخل الاسرة الناطقة بالانكليزية . وقد رفضت هذه الثورة ، التي كانت اكثر من مجرد حركة استقلال ، مبدأ الملكية الوراثية بالذات ، والطابع الوراثي لمجلس اللوردات ، والاساليب الغريبة المتبعة في انتقاء اعضاء مجلس العموم ، ونظرية « التمثيل المضمر » ، والغاز دستور تقليدي غير مكتوب . وانتقدت هذه الثورة أيضا الكنيسة الانغليكانية الرسمية ، والعدد الضخم من الوظائف العاطلة التي يتقاضى شاغلوها راتبا بدون ان يؤدوا عملا والتي كان يعهد بها الى ابناء الطبقات الراقية ، والالقاب؟ بل اخلاقية الحياة الانكليزية برمتها .

لقد تمخضت الثورة في اميركا عن عداء شديد للانكليز . وتكوّن

لدى الاميركيين اقتناع بضرورة التنكر لكل ما هو انكليزي فيهم ، توكيدا على وطنيتهم وانتمائهم القومي . بل ألح نوح وبستر على ضرورة ابتكار لغة اميركية . وكان الاميركيون يناصرون فرنسا ، الى حد ما ، نظرا للمساعدة التي قدمتها لهم ابان حرب الاستقلال. وتعبيرا عن عرفانهم بالجميل للملك لويس السادس عشر اطلقوا اسم « بوربون » على احدى مقاطعات ولاية كنتوكي ، مخلدين اسم تلك السلالة الاوروبية في مشروب (١) اميركي شهير . وعامل البريطانيون الاميركيين بالمثل ، فاعتبروهم اولادا جاحدين ، ناكرين للجميل ، ومتخلفين . وكان الانكليز بوجه عام ، خلا اللاامتثاليين والاصلاحيين الثوريين ، لا يجدون في الثورة الاميركية والدولة الاميركية الجديدة والدساتير الاتحادية ما يستحق الدراسة للافادة منه .

كان للثورة الفرنسية وقع قوي في بريطانيا واميركا . وربما كان للحرب ، ولانتشار الثورة ، ولضم فرنسا للبلدان الواطئة النمساوية ، ولظهور الجمهوريات الشقيقة في هولندا وسويسرا وايطاليا ، تأثير أقوى بعد من تأثير الثورة في فرنسا بالذات . واغلب الظن ان المحافظين في انكلترا كانوا ، في غالبيتهم ، سيقبلون بالثورة ، على الرغم من عنفها ، فيما لو انحصرت داخل حدود فرنسا . لكن انتشار الثورة ، الذي انذر به فتح نهر الاسكو للملاحة في تشرين الثاني ١٧٩٢ ، جعلهم يستشفون من بعيد الخطر الذي يهدد المصالح الانكليزية .

في هذا العالم الناطق بالانكليزية ، كان الناس لا يعرفون الكثير عن الاوضاع القائمة في بلجيكا وهولندا وسويسرا وايطاليا والمنطقة الالمانية من نهر الراين . لذلك لم يدركوا مثلا ان فتح نهر الاسكو للملاحة يحقق اماني البلجيكيين بقدر ما يحقق اماني الفرنسيين . كما كانوا يجهلون كل شيء عن التحريض السياسي

---

(١) يعرف الوسكي الاميركي الصنع باسم بوربون . « م » .

في المناطق التي احتلها الفرنسيون . فكانوا يتصورون الاتحادين الهولندي والسويسري على وجه الخصوص وكأنهما جمهوريتان من الجمهوريات الكلاسيكية التي عرفتها اوروبا الحديثة . لذلك صعب عليهم ادراك اسباب «تثويرهما». وكان الهولنديون والسويسريون ، علاوة على ذلك ، بروتستانتيين . وقد اقام معهم الانكليز والاسكوتلنديون والاميركيون علاقات أخوية تعود الى ما قبل قرنين، أي الى زمن الاصلاح البروتستانتي . فهل ثمة ضرورة للثورة في بلدين ليس فيهما بابا يطاح به ؟ وقد بينت الفصول السابقة كيف كانت هذه المواقف وليدة الجهل وعدم التفهم . لكن بعد عام ١٧٩٨ ، شعر انصار فرنسا بالذات بالحيرة والارتباك . فقد تعذر عليهم دحض الحجة القائلة ان الفرنسيين تحولوا الى نهابين، الى غزاة شعوب مستضعفة ، او تورطوا عن سابق تصميم في مشروعهم الجنوني الرامي الى « تثوير » العالم . وما سمي بالخيبة من الثورة الفرنسية ، في بريطانيا وفي اميركا ، انما مرده الى احداث ١٧٩٨ ايضا، لا الى احداث السنوات السابقة فحسب . وكان هذا الشعور بالخيبة ردا على التطورات الاوروبية للثورة بقدر ما كان جوابا عن تطوراتها الفرنسية .

كان الانحياز الى جانب الثورة الفرنسية او ضدها قد بلغ ذروته في عام ١٧٩٢ . وفي الولايات المتحدة وبريطانيا ، تبلورت الاتجاهات الثورية والجمهورية والاتجاهات المحافظة الارستقراطية في آن معا ، واتخذت طابعا متصلبا لم تعرفه من قبل . ويمكننا ارجاع هذا التحول الى عام ١٧٩٤ على وجه التحديد . فالى ذلك العام ، الذي شهد انضمام انصار حزب الويغ في بورتلاند الى حكومة وليم بت الائتلافية بينما تمسك فريق آخر من الويغ ، بزعامة تشارلز جيمس فوكس ، بخطه المعادي للحرب والموالي للفرنسيين، الى ذلك العام نستطيع ان نعيد تاريخ نشوء الحزبين الليبرالي والمحافظ في انكلترا . اما في الولايات المتحدة ، فان المعاهدة التي وقعها جاي في عام ١٧٩٤ بين الولايات المتحدة وبريطانيا ،

او بالاحرى المعارضة الشعبية لهذه المعاهدة ، هي التي فرّقت بين الجمهوريين الجفرسونيين ، او « الديمقراطيين » ، وبين الفدراليين المحافظين .

في الجزر البريطانية ، راح المصلحون الانكليز ، والمسيحيون غير الانغليكانيين ، والاسكوتلنديون المتمردون ، والمناضلون الارلنديون ، الذين كانوا أبدوا تعاطفا شديدا مع الثورة الاميركية ، راحوا يصفقون هذه المرة لوعد الحرية الذي اطلقه الفرنسيون . وفي اميركا ، اعتنق قضية الثورة الفرنسية وتحمس لها كل من كان يعتقد ان الثورة في بلاده لم تنجز كامل مهامها بعد ، وكل من كان يتخوف من ردة موالية لانكلترا ويتمنى المضي قدما على طريق الديمقراطية . وقد ذهب بعضهم ، امثال اندرو جاكسون في عام ١٧٩٨ ( اصبح رئيسا للبلاد بعد ثلاثين عاما ) الى حد الاعراب عن أمله في ان تجتاح فرنسا انكلترا وتقيم فيها نظاما جمهوريا على غرار ما حصل في هولندا وسويسرا وايطاليا . بيد ان هذا الهيجان وهذه الحماسة المفرطة أديا في الواقع الى خلق مشاعر مضادة . ففي انكلترا ، حصل تصلب جديد في موقف المحافظين ، اسوة بذلك التشنج الذي كان انتابهم ازاء الثورة الاميركية . وفي اميركا ، وعلى الاخص في الولايات الست التي يطلق عليها اسم نيو انكلند ، طفق الذين كانوا فيما سبق من ألد أعداء انكلترا يتوجسون خيفة من الثوار الفرنسيين والديمقراطيين الاميركيين ، واستيقظ فيهم حس انتمائهم الانكليزي القديم ، وراحوا يقدّرون حكمة الدستور الانكليزي ، ويمتدحون خصائص الحياة الانكليزية التي كانوا تنكروا لها .

كان البلدان ــ اميركا وبريطانيا ــ يختلفان تماما ، وقد تطور كل منهما في اتجاه . ففي عام ١٨٠٠ كانت حكومة بت في انكلترا قد نجحت في خنق صوت الحركة الثورية في انكلترا وفي سحق الارلنديين المتحدين . وفي العام ١٨٠٠ عينه ، انتخب توماس جفرسون ، صديق فرنسا ، والمعروف باعتناقه مذهب

« اليعاقبة » ، رئيسا للولايات المتحدة . وكان جفرسون اول رئيس « ديمقراطي » تعرفه البلاد . وهكذا انتصرت النزعة المحافظة الارستقراطية في انكلترا ، فيما انتصر في اميركا التقليد الثوري المحلي . بيد ان التيارات الدفينة بقيت حيّة . وعاودت المشاعر الثورية البريطانية ظهورها في اعقاب معركة واترلو مباشرة . وفي اميركا ، خفّ التعاطف مع الديمقراطية الفرنسية وقضية الديمقراطية في القارة الاوروبية بصورة عامة ، وان لم تتبلور قط ملامح حركة محافظة حقيقية . وفيما كانت فرنسا تمر بسلسلة من الامبراطوريات والثورات والجمهوريات، وفيما كان التيار الديمقراطي يشق طريقه ببطء في انكلترا ،برز وضع جديد غير مرتقب . فأشهر رئيسين ديمقراطيين عرفتهما الولايات المتحدة في القرن العشرين ، وودرو ويلسون وفرانكلين روزفلت ، اظهرا تعاطفا مع انكلترا ما كان الا ليثير دهشة جفرسون او جاكسون ، في حين لم يتحليا بالصبر في تعاملهما مع فرنسا ولم يبديا عن حسن فهم للثورة الفرنسية .



قوبل بترحيب اجماعي في بريطانيا نبأ الاستيلاء على سجن الباستيل : فقد كان البريطانيون يحبذون ، بوجه عام، حصول فرنسا على الحريات المقرونة بالملكية الدستورية . لكن احداث الاسابيع التالية بددت هذا الاجماع . فانقسم الرأي العام البريطاني بصدد مسألة « المساواة » ، والدور الذي ينبغي ان يضطلع به الدين المنظم في المجتمع المدني . وجرحت التطورات اللاحقة ، اي التخلي الدراماتيكي عن الامتيازات في الرابع من آب ، وصدور اعلان حقوق الانسان والمواطن ، والتعاظم المطرد لدور الطبقات الدنيا الذي تجلى في حركات العصيان الفلاحية وفي المسيرة الشعبية الى قصر فرساي ، ومصادرة املاك

الكنيسة ، والغاء طبقة النبلاء ، واصدار القانون المدني لرجال الدين ، ومنح حق الانتخاب لاكثر من نصف السكان الذكور ، وتقسيم الاقاليم التاريخية الى٨٣مقاطعة متساوية ، ومعاملة الملك معاملة وقحة ، ثم توقيفه في فارين في عام ١٧٩١ ، جرحت هذه التطورات مشاعر عدد غفير من الاشخاص في انكلترا وأثارت سخطهم . غير انها وجدت ايضا بالمقابل من يرحب بها ويصفق لها .

كتب بورك للفريق الاول **تأملات حول الثورة الفرنسية .** وكتب باين للفريق الثاني **حقوق الانسان .** وبيع من كتاب بورك ، حسب التقديرات الشائعة ، ٣٠ ألف نسخة ، في حين بيع من كتاب باين مليون وخمسمئة الف نسخة . والتفاوت بين هذين الرقمين له دلالة عميقة ، وان كان رقم مبيعات كتاب باين يبدو مبالغا فيه في نظرنا . لكن كتاب بورك يبقى الاكثر طرافة . فقد عرض فيه نوعا من فلسفة عضوية ، مناهضة للنزعة العقلانية وللفردية ، لتبرير النظام القائم والحكم المسنود بالمصالح الزراعية في انكلترا . وترجم هذا الكتاب الى لغات اوروبية عدة وقرىء على نطاق واسع في البر الاوروبي . وصدرت ردود كثيرة في انكلترا ، حيث ساد الاعتقاد، حتى في الاوساط الحاكمة ، بأن بورك مصاب بمس خفيف من الجنون . اما **حقوق الانسان** فكان اقل طرافة اذ انه عبّر عن عقلية نقدية ، وعن تذمّر ومثالية واسعة الرواج آنذاك . وقد ترجم بدوره الى عدد من اللغات ، وأمسى من اكثر الكتب ذيوعا واكثرها شهرة خلال الحقبة الثورية الدولية برمتها . لكن يشاء مصير الثورة عادة ان تفقد اهميتها مع سقوط مسبباتها في لجة النسيان ، لذلك اعتبر بورك فيما بعد فيلسوفا في حين صنّف باين في عداد كتّاب المقالات .

عندما اندلعت الحرب في البر الاوروبي في عام ١٧٩٢،

كـان الانقسام في صفوف الرأي العام الانكليزي صريحا واضحا . كـان الانغليكانيون ، والارستقراطيون ، والملاكون العقاريون ، ومعظم اصحاب المهـن الحرة يكنون العداء للفرنسيين بوجـه عام . وفي مطلق الاحوال كـان التعاطف مع الثورة الفرنسية اقل انتشارا في انكلترا منه في البر الاوروبي ، او في اسكوتلنـدا وارلندا . ففي دبلن ، في عام ١٧٩٢ ، كـان **النادي الارلنـدي الموحد** ( لم يكـن قد غلب عليه بعـد الطابع الثـوري الخالص ) يضم ٣٠٠ عضو، نصفهم من الكثالكة ونصفهم من البروتستانتيين . وكان بينهم ٩٨ تاجرا ، و٣٠ محاميا ، و٢٦ وكيل دعوى ، و١٦ طبيبا . اما في انكلترا ، حيث كانت المهن الحرة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنخبة الحاكمة ، فان قلـة ضئيلة مـن رجـال القانـون والاطباء كانت تتعاطف مع الثورة ، وحفنة اقل بعـد من رجـال الديـن الانغليكانيين . كذلك فـان العالم الاكاديمـي ، المحصور بين جامعتي اوكسفورد وكامبردج الانغليكانيتين ، لـم يكـن ميالا الى الافكار الجديدة .

هكذا كـان اصدقاء فرنسا في انكلترا ، خلال عام ١٧٩٢ والاعوام اللاحقة ، هم من الشعراء — وردوورث ، كولريـدج ، ساوثي وبليك ( وكذلك الشاعران الاسكوتلنديان بورنز وكامبل )— ومن غير الانغليكانيين عامة ، والمثقفين غير الانغليكانيين خاصة ، ومن المتحررين من أبناء الطبقات الراقية بمن فيهم بضعة لوردات لا يتجاوز عددهم عدد اصابع اليد ، ومن خمسين الى مئة مـن اعضاء حزب الويغ في مجلس العموم ، ممن ساروا في ركـاب تشارلز جيمس فوكس . وقد أسس هذا الاخير في عـام ١٧٩٢ « جمعية اصدقاء الشعب » . وكانت هذه الجمعية ، التي فرضت على اعضائها اشتراكـا سنويـا قدره جنيهان ونصف جنيـه ، وقفا على الاشخاص الميسورين . ولم تكـن ، اساسا ، ترغب في تنسيب اعضاء من سواد الشعب . لكن عندما دخلت بريطانيـا الحرب ضد فرنسا، عارضت هذه الجمعية بشجاعة سياسة الحكم .

كـان مناصرو الثورة الفرنسية ينتمون اساسا الى ما اتفق علـى تسميته بالطبقات الحاذقة في العمل ، اي رجال الاعمال ، ومالكي المعامل الجدد ومستخدميهم ، والحرفيين ، وصغـار الحانوتيين والشغيلة المختصين . اما الفقراء الحقيقيون ، وعلـى الاخص الفلاحون الفقراء ، فقـد تشبثوا بآرائهم المحافظة .

كانت الحركة اليسارية بعيدة عن ان تكون ثورية . كـانت تناهض الملكيـة وسلطة اللوردات ، بيـد انهـا لم ترفـع شـعار الاطاحـة بهمـا . ولم يدر في خلد لها اطلاقـا اعادة بناء الدولة على اساس مجلس تأسيسي ودستور مكتوب ، على غرار ما حصل في اميركـا وفي البر الاوروبي . غيـر انهـا كانت عاقدة العزم بالمقابل على رفع شأن الشعب ، ولذا طالبت بـ « اصلاح » مجلس العموم . والواقع ان ما طالبت بـه كـان اكثر من اصلاح عادي على منوال التعديلات الدقيقة والجزئية التي ادخلت تدريجيا في عامي ١٨٣٢ و١٨٦٧ على المؤسسات القائمـة بمقتضى **المراسيم الاصلاحية** . فالنظرية التي طرحها اهـل اليسار حـول السلطـة والتمثيل السياسيين كانت جديدة تماما ، وكانت تكافـىء النظريات الجديدة المماثلة في فرنسا والجمهوريات الشقيقة . اي انهـا كانت تنادي بـ « سيادة الشعب » ، وتؤكد ان السلطـة التشريعية لا بد ان تتألف من ممثلي هذا الشعب ، ومن ممثليه فقط . وطالبت بأن يجري انتخاب هؤلاء الممثلين باقتراع واحد على الصعيد القومي ، وأن يمثلوا أعدادا متعادلة من الناخبين ومن جميع المدن والمناطق الريفية ، وان يكون انتخابهم لفترات قصيرة نسبيا وان تصرف لهم التعويضات من الاموال العامة . ولـن نخوض هنـا في دقائق عملية اختيار اعضاء مجلس العموم فـي القرن الثامن عشر لشدة تعقيدها . وكل ما نستطيع قوله بصددها انهـا ما كانت تتفق مـع هذه المطالب . فقد كان مجلس العموم يتألف اساسا من اعيان ريفيين جلهم على علاقة وثيقة باللوردات. فالمجلس المنتخب في عام ١٧٩٠ والمتألف من ٥٥٨ عضوا كان يضم

٨٥ بارونا و١٢١ سليلا من العائلات النبيلة الانكليزية والارلندية . وكان ثلثا النواب من أبناء اعضاء سابقين في المجلس او من انسبائهم ، وكان ٢٧٨ عضوا منهم قد تخرج من اوكسفورد وكامبريدج و ١١٥ عضوا آخر من معهد ايتون . ومع ان السلام كان يلف بريطانيا آنذاك ، كان ثمة مئة عضو من الضباط او من اصحاب الرتب في البحرية والجيش . وقد ضم المجلس ايضا ٧٢ محاميا ، جلهم في خدمة المصالح الزراعية ، و٢٧ صيرفيا ، وما يقارب من خمسين تاجرا من كبار التجار .

كانت الطبقات المنتجة وصاحبة المهارات تعتبر نفسها مغبونة من حيث عدد ممثيلها في المجلس . وقد بلغ التذمر اوجه في بعض التجمعات السكانية المدينية التي توسعت حديثا بفعل التصنيع ، كمدينة مانشستر على سبيل المثال ، التي باتت تعد ٧٥ الف نسمة ، والتي حافظت على تنظيمها القروسطي وظلت تشارك في الانتخابات عن طريق مقاطعة لانكاشاير . وفي مانشستر وبيرمنفهام وشفيلد وليدز وغيرهنا من المدن ، كان اصحاب المعامل ، الاغنياء والمزدهرون ، يتعاطفون بقوة مع الافكار اليسارية . فالارستقراطيون في نظرهم كانوا مجرد عاطلين عن العمل وطفيليين . وقد انقلب تذمر اهل اليسار الى ثورة غضب عارمة عندما اقدمت جماعة هائجة في عام ١٧٩١ على مهاجمة دار جوزيف بريستلي في بيرمنفهام ، هاتفة بشعارات الولاء للكنيسة والملك . وكان بريستلي مكروها لانه غير انغليكاني ، وموحّد (٢) ، وداعية اصلاح ديني ، ولانه امتدح الثورتين الاميركية والفرنسية . وقد دمّر بيته ، واثاثه ، وادواته العلمية . وكانت آراء الثوار الفرنسيين تمارس جذبا قويا على الصناعيين الجدد ، وفي طليعتهم جيمس واط وماتّو بولتون ، صانعي الآلات البخارية ، وجون ويلكنسون ، صاحب مصانع

(٢) من افراد طائفة مسيحية ترفض التثليث وتقول بالتوحيد . «م» .

الفولاذ الشهير ، وتوماس ولكر ، عمدة مدينة مانشستر الذي رعى توماست كوبر باصداره **مانشستر هيرالد** ، الموالية لفرنسا والمناهضة للحرب . وفي عام ١٧٩٥ ، وبعد انقضاء سنتين على الحرب ، وقع صاحبا مصانع نسيج من مانشستر – روبرت بيل الذي كان اول من طرح مسألة التشريع العمالي ، وروبرت اوين (٣) الذي عرف فيما بعد كاصلاحي اشتراكي – وقعا على عريضة طالبا فيها بسلام فوري .

لكن بما ان الحرب كانت مستمرة ، وبما ان كل مقاومة من جانب دعاة السلم كانت توصم باللاوطنية ، فقد تخلى أهل اليسار عن هذه الحركة . وعدلوا في الوقت نفسه عن مواقفهم المتعاطفة مع فرنسا . وانتهى الامر بحركة اليسار في انكلترا الى الانحصار بين الشرائح العليا للطبقة العاملة والشرائح الدنيا للطبقة الوسطى .

في عام ١٧٩٢ ، ظهر الى حيز الوجود فجأة عدد كبير من الاندية السياسية . فالى جانب « جمعية اصدقاء الشعب » الارستقراطية ، قامت « جمعية الاعلام الدستوري » ، التي كان يدعمها مثقفون من امثال توماس باين ووليم بليك ، الشاعر – النقاش . واسس توماس هاردي ، المعلم الاسكافي ، « الجمعية اللندنية للمراسلة » . وقد عقد هاردي العزم ، بعد ما تمعن في فشل الاصلاح البرلماني قبل الثورة الاميركية وبعدها ، على التوجه الى « التجار ، والحانوتيين والعمال الميكانيكيين » . ولم يكن الاشتراك الاسبوعي يتجاوز فلسا واحدا ، لذلك ما ان انتهى عام ١٧٩٢ حتى كانت الجمعية الجديدة تضم ما يقارب من الفي عضو في لندن ، وتقيم شبكة من الفروع في المناطق المجاورة . وقد تأسست اندية مماثلة في شفيلد ، ونورفولك ، وفي عدد

(٣) روبرت اوين ( ١٧٧١ – ١٨٥٨ ) اصلاحي انكليزي ولد في تيوتن ، أسس أول تعاونيات للانتاج والاستهلاك . « م » .

من المدن الانكليزيـة الاخرى ، وكذلك في اسكوتلندا . ولئـن اطلق توماس هاردي على منظمته اسم « جمعية المراسلات » فلأنه كـا يرغب في مراسلة تلـك الاندية وفي توحيدها في نطاق عمل مشترك ، وان كـان خصومه أشاعوا انه ينوي في الحقيقة الاتصال بالفرنسيين والتنسيق معهم . لكـن على الرغم من التحقيق الدقيق الذي اجراه البرلمان واستمر حتى عام ١٧٩٩، استحال اثبات مشاركة فرنسي واحد في الانديـة ، أو في المهرجانات الجماهيرية والصحافة اليسارية ، او في حركـات العصيـان البحريـة في عام ١٧٩٧ .

لئن شهدت الانديـة مساجلات حول الاصلاح البرلماني ، فانها كانت ترمـي فـي المقام الاول الى اصلاح البنية الضريبية التـي كان الفقراء يرزحون تحت نيرها . وقد اصدر توماس باين في عام ١٧٩٢ الجزء الثاني مـن **حقوق الانسان** . واقترح فيـه فـرض ضريبة تصاعدية على الدخل . وكان باين يرمي الى تحقيق هدفين اساسين : تخفيف عبء الضرائب عن كاهل الفقراء مـن جهة ، وارغام الاثريـاء على تقسيم اموالهم بيـن ابنائهم من جهة اخرى، اي دون الاحتفاظ بهـا كاملة لبكر بنيهم . وكانت هذه الآراء تقوض دعائم الاسرة والنظام الاجتمـاعي . ولما وجد باين نفسه مهـددا بالمثول امام المحاكم ، لاذ بالفرار الى فرنسا ، حيث أمسى مواطنا فخريا ، وانتخب عضوا في**المجلس الوطني** ، ولاقى احر الترحيب من قبل بريسو وجماعته ، قبل ان يدخل السجن فـي عهـد روبسبيير حيث تسنت لـه فرصة كتابة **سن الرشد** . وقد تهجّم هذا الكرّاس ، الحاد اللهجة ، على السذاجة المسيحية ، بل على الديـن المسيحي بالذات . ووجه اصبع الاتهام الى الاديان المنزلة كافـة . وبمـا ان الكراس كتب في فرنسا ، فقـد بدا وكـأنه يؤكـد الحاد الثورة الفرنسيـة . وكانت النتيجـة انه البّ علـى **الجمهورية** مؤمنين جديرين بالاحترام ، في انكلترا وفي اميركـا على حد سواء ، في الوقت الذي اعلن فيـه البابا المقبل بيـوس

السابع قبوله بالجمهورية . ومع ان باين كان مؤمنا ورعا في حقيقة الامر ، فقد وصفه الرئيس ثيودور روزفلت ، بعد قرن من الزمن ، بـ « الملحد الصغير المقرف » .

في نيسان ١٧٩٢ ، نشبت الحرب بين فرنسا والنمسا . وفي ايار اصدرت الحكومة البريطانية بيانا ضد المؤلفات التحريضية . لكن المنشورات الثورية ظلت تصدر رغم ذلك، والاندية ظلت تنتشر وتتكاثر . وكان اعضاء هذه الاندية يتابعون بارتهاب وأمل واعجاب تطورات المأساة الدائرة فصولها في البر الاوروبي : الاجتياح النمساوي ـ البروسي ، بيان برونشفيك، انتفاضة باريس ، الاطاحة بعرش لويس السادس عشر ، مجازر ايلول ، فالمي ، اعلان الجمهورية ، جيماب ، والانتصارات الفرنسية في البلدان الواطئة النمساوية وفي منطقة الراين . وقد أوغرت هذه الاحداث صدور الطبقات العليا البريطانية على الثورة ، غير انها لم تخلّف اثارا مماثلة لدى اعضاء الاندية الشعبية . ففي شفيلد ، أضرمت النار في تشرين الاول ابتهاجا بانسحاب القوات البروسية بعد معركة فالمي . وفي دوندي تمرد زهاء الف شخص واحرقوا رسمين يمثلان اثنين من كبار المالكين العقاريين . وجمع اعضاء الاندية الاحذية والاسلحة لارسالها الى اللامتسرولين في فرنسا . وفي لندن ومانشستر ونورفولك، وجهت خمسة اندية كتابا الى **المجلس الوطني** في باريس اعربت فيه عن أملها في ان تبقى بريطانيا على الحياد ، بل في أن تتحالف مع فرنسا ضد « الطغاة » .

في اواخر عام ١٧٩٢ ، عمدت الحكومة الى تعبئة الجيش، لا من قبيل الاستعداد للحرب وانما بدافع فرض النظام في بريطانيا . وشجعت ايضا انشاء اندية مضادة . ففي تشرين الثاني من عام ١٧٩٢ اسس جون ريفز ، صاحب دراسات عديدة في القانون ، « جمعية حماية الحرية والملكية من الجمهوريين والمساواتيين » . وأصدرت الجمعية ، بفضل الاموال التي كانت

تمدها بهـا اجهزة المباحث ، أهجيات ضد الافكـار الاصلاحيـة و « الفرنسية » ، كانت تطبع بآلاف النسخ . وتشكلت جماعات مماثلة في انحاء بريطانيـا كافة ، وكانت هذه الجماعات تحظـى برعاية النبلاء الريفيين ورجال الكنيسة الانغليكانية . وبادرت هذه الجماعات الى تهديد اصحاب المكتبات الذين يبيعـون المؤلفـات الثورية ، واصحاب الفنادق الذيـن يؤجرون مقار للانديـة اليسارية . وأحرقت دمى تمثّل توماس بايـن ، وارغمت ابنـاء « الطبقات الدنيا » على التوقيع على عرائض ولاء للنظام القائم، كما روجت اشاعات شائنة وسافلة حول الاشخاص الذين كانت آراؤهم لا تروق لهـا .

في اواخر عـــام ١٧٩٢ عينه أقامت الاندية الثوريـة الاسكوتلندية مهرجانا في اندبره . وكان معظم سكان اسكوتلنـدا البائسين من الحائكيـن والعمال الزراعيين العاملين في مزارع كبار المالكين العقاريين . ولم يكن النظام السياسـي القائم يلحظ لهؤلاء الناس اي وسيلة للتعبير عن آرائهم ومطالبهم . ولئن كـان عدد سكـان اسكوتلندا آنذاك يقدر بمليون نسمة ، فان الفـا وثلاثمئة اسكوتلندي فقط كان مخولا حق المشاركة في انتخاب اعضاء مجلس العموم . وبادرت الاندية، وكانت في حدود ثمانين موزعة على زهاء خمس وستين مدينة وقرية، الى ارسال مندوبيها الى ادنبره حيث انعقـد مؤتمر وطني في كانون الاول ١٧٩٢ . وخاطـب الموفدون بعضهم بعضا باسم « مواطن » ، وقبل ان يفترقوا قطعوا عهدا ، على غرار الفرنسيين ، بان « يعيشوا احرارا او يموتوا ». وقد تمحورت مطالبهم حول المساواة في التمثيل البرلماني .

في الاول من شباط ١٧٩٣ ، اعلنت فرنسا الحرب علـى بريطانيـا . كانت حكومة بت وقتذاك تواجه حملة احتجاج قوية شنهـا الآلاف مـن البريطانيين الموالـين لفرنسا وللثورة ، والمعاديـن للحكومة وللبرلمان . وكانت عرائض التذمر والاحتجاج

تنهال من كل حدب وصوب . وقد وقع على عريضة شفيلد ما يقارب من ثمانية آلاف شخص ، وعلى عريضة لندن ووستمنستر ستة آلاف شخص ، وعلى عريضة نورويش ثلاثة آلاف وسبعمئة شخص .

استهلت الحكومة نشاطها القمعي في اسكوتلندا ، حيث لم يكن القانون يوفر للمتهمين الضمانات التي يوفرها لهم في انكلترا . فنفت الى اوستراليا ، في عام ١٧٩٣، شخصين لعبا دورا اساسيا في مؤتمر ادنبره ، وهما توماس موير وتوماس فيش بالمر . وكان هذا الاخير مواطنا انكليزيا ، وكان ساعد حائكي دوندي على صياغة العريضة التي رفعوها الى البرلمان. وقد خلد ذكرى محاكمة الرجلين الموقف التعسفي للقاضي براكسفيلد ، الذي تراس المحكمة . فقد قال بالحرف الواحد : « ان للمصالح الزراعية وحدها حق التمثيل في هذا البلد ». واضاف انه لم يمل يوما الى الفرنسيين ،وانه أمسى ينظر اليهم على انهم مجرد مسوخ . لكن على الرغم من المصير البائس الذي فرض على موير وبالمر ، فقد عقدت الاندية الاسكوتلندية « مؤتمرا » آخر في نيسان ، ومؤتمرا ثالثا ــ مؤتمرا بريطانيا شاملا هذه المرة ــ في تشرين الاول ١٧٩٣ . وقد بعثت اندية لندن وشفيلد بموفديها الى المؤتمر الاخير ، كما اوفدت منظمة « الارلنديين المتحدين » ممثلها هاملتون روان . وكانت لهجة المؤتمرين حادة وعنيفة ، وعواطفهم جياشة وجامحة . لكن لم تكن للمؤتمر مع الاسف لا خطة عمل حقيقية ولا زعامة فعلية، لذلك تمكن ثلاثون ضابطا في الشرطة من تشتيت شمله ووضع حد لاعماله. وتوالت المحاكمات بعد ذلك ، ونفى القاضي براكسفيلد الى اوستراليا ثلاثة اشخاص آخرين . وما أطل عام ١٧٩٤ حتى كان معظم الاندية الاسكوتلندية قد حلّ .

استمرت التحركات في انكلترا ، حيث أعربت الاندية عن استنكارها للمحاكمات الجارية في اسكوتلندا . ودافعت

« الجمعيـــة اللندنية للمراسلة » ، في اجتماعها العام في كانـــون الثاني ١٧٩٤ ، عـــن الاسكوتلنديين ، وادانت الحرب ، واعلنت عـــن عزمهـــا على الدعوة الى عقد « مؤتمر عام للشعب » فيما لـــو حاولت الحكومة ان تدوس الحريات في انكلترا . وجـــاءت ردة الفعل مماثلة في المدن الاخرى . ففي شفيلد انعقد مهرجان ضخم تساءل فيه احـــد الخطباء قائلا : «ماذا يعني الدستور بالنسبة الينـــا مـــا دمنـــا لا نمثل شيئا بالنسبة اليه ؟ هنالـــك من يطنب في مديحه لدستور بريطاني مصورا اياه وكأنه أعظم ما انجزتـــه الحكمة البشريـــة ـــ علمـــا بأن هنالـــك من يقول الشيء نفسه عن الدستور التركي في القسطنطينية » . اما عمال الميكانيك فـــي شفيلد فقـــد طالبـــوا بالمســـاواة في الحقـــوق ـــ لا « بالمساواة الخياليـــة في الملكية » ـــ التي « تجعل من العبد انسانا ، ومـــن الانسان مواطنا ، ومن المواطـــن جزءا لا يتجزأ من الدولة ، بحيث يتحول من رعية الى سيد » . وان كان هذا الكلام يذكرنا بشيء ، فانما بلغة روسو والجمهورية الفرنسية . ولم يمض وقت طويل حتى اضطر كاتب هذه العريضة ، جوزيف غال ، الى الهجرة ـــ او بالاحرى الى الهرب ـــ الى الولايات المتحدة .

لما كانت الحكومة البريطانيـــة تخوض الحرب بفضل الدعـــم المالي لحلفائها القاريين ، معتمدة اساساً على قوة اسطولهـــا البحري ، ومستعينة بجيش صغير فحسب من الجنود النظاميين ، فقـــد كان بامكانهـــا ان تستمر في خوض المعارك على الرغم مـــن وجود معارضة داخليـــة ، حتى ولو كانت هذه المعارضة قوية . مع ذلك ، فـــان مشاعر الولاء لفرنسا التي سادت البلاد ، ورفض الناس للمؤسســات التي كـــان يفترض في الحرب الدفاع عنهـــا وحمايتها ، جعلت الوضع صعبا للغايـــة . لذلك عزمت الحكومة ، في عام ١٧٩٤ ، ان تتصرف في انكلترا على النحو الذي تصرفت به فـــي اسكوتلندا في عام ١٧٩٣ . وهكذا وجهت تهمة الخيانـــة الى تومـــاس هاردي ، رئيس « الجمعية اللندنية للمراسلة » ،

وتوماس ولكر ، من مانشستر ، وهورن توك وجون ثلوال ، وغيرهم من اليساريين . وتولى الدفاع عنهم توماس ارسكاين ، الذي كان قد دافع عن باين غيابيا في عام ١٧٩٢ . وأثبت ارسكاين ان الادلة التي ابرزتها الحكومة زائفة ومزورة ، وان تواطؤ موكليه المزعوم مع الفرنسيين عار من الصحة . وبرأت لجنة المحلفين ، المؤلفة من رجال اعمال لندنيين ، هاردي وبقية المتهمين . لكن الخوف والعار والنفقات التي كانت تتكلفها هذه المحاكمات ، حدت بمعظم ابناء الطبقة الوسطى الى التخلي عن الحركة الثورية .

بلغت هذه الحركة ، بعد ان امست ظاهرة عمالية خالصة، ذروة قوتها في عام ١٧٩٥ . « الجمعية اللندنية للمراسلة » ، التي استمدت دفعا جديدا من احكام التبرئة الصادرة في عام ١٧٩٤ ومن التذمر الشعبي الناجم عن فاقة المواد الغذائية وارتفاع الاسعار الجنوني ، ضاعفت عدد المنتسبين اليها ، فاصبحت تضم ما يقارب من خمسة آلاف عضو . وقد نظمت مظاهرات عامة ومهرجانات جماهيرية غابت عنها الفوضى والبلبلة على الرغم من جرأة الخطب الملقاة فيها . وفي تشرين الاول١٧٩٥، اجتاح حشد ، قدر بمئتي ألف شخص ، شوارع المدينة . وربما كان هذا الرقم مبالغا فيه ، لكن الشيء الاكيد ان هذه التظاهرة جاءت على غرار ما حصل في فرنسا يوم طرد الجيرونديون من **المجلس الوطني** بعد ما حاصره زهاء ثمانين ألف شخص . كان الناس قد احتشدوا في شوارع لندن لمشاهدة الموكب الرسمي الذي اخترق الاحياء بمناسبة جلسة افتتاح البرلمان . وبعد ان قابل المحتشدون موكب النبلاء والاساقفة بكلمات الهزء والسخرية ، حاصروا عربة الملك وراحوا يهتفون : «نريد خبزا ! نريد خبزا ! نريد سلما ! نريد سلما !» . وتحطم زجاج احدى نوافذ العربة الملكية بفعل قذيفة ، قال بعضهم انها حجر وبعضهم الآخر انها رصاصة . واخرج الملك

من غربته بصعوبة فائقــة .

بعد هذا الهجوم على شخص الملك ، اي على جورج الثالث، عزمت الحكومة ، التي كانت تخوض الحرب منذ عامين ، على اتخاذ اجراءات مشددة بحق « اعضاء الانديــــة » ، و« المساواتيين » و « الفوضويين » . وصوّت البرلمان على مرسومين : مرســـوم حول اعمال الخيانة ، الذي وسّع تعريف الخيانة ، ومرسوم حول المهرجانات التحريضيـــة ، حظّر القاء الخطب في المهرجانات ما لم يحضرها ممثلون عن القانــون .

مع تطبيق هذين المرسومين دخلت الاندية الثورية مرحلــة الافول . وقد أخذ العمال الميسورون بالمواقف الحذرة والمتحفظة للطبقة الوسطى فتركوا هذه الانديــة التي بقيت وقفا على الزمر الصغيرة المتطرفــة . مع ذلــك فــان ثمــة خمسمئة شخص حضروا في تشرين الثاني من عام ١٧٩٦ حفلة العشاء التـــي اقيمت في حانة « كراون اند انشر » في لندن . وفـــي تلــك الحفلة ، التي ترأسهــا الكونت ستانهوب ، والتي قدم فيها العشاء لقاء ٨ شلنات ، لم يدر الحديث الا حول موضوع واحــد : المطالبة بالاصــلاح .

اضطرت « الجمعيــة اللندنيــة للمراسلة » ، ازاء الضغوط الممارسة عليهــا ، الى الانتقال الى العمل السري . وقــد اقامت علاقات مبهمة مع منظمة « الانكليز المتحدين » في منطقة شفيلد ومانشستر ، ومع « الارلنديين المتحدين » الذين اعلنوا تمردهــم في عام ١٧٩٨ . اما علاقتهــا المزعومة بحركة العصيان البحري في عام ١٧٩٧ ، فلا شيء يؤكدهــا . بيــد ان حركــة العصيان هذه ، التي وقعت في زمن الحرب وفي وقت تهددت فيه البــلاد باجتياح اجنبي ، كانت تشكل بحد ذاتها دليلا اكيدا على تدنـــي رصيــد شعبيــة الحكم . وفي عام ١٧٩٨ علّق بت قانون حمايــة الحرية الشخصيــة Habeas corpus وارسل المحرضين على

الفتنة الى السجن بدون محاكمة . وفي عام ١٧٩٩ حظرت الاندية تماما ، وحكم بالشلل على الحركة الاحتجاجية طيلة فترة الحرب .

هذه الاجراءات التعسفية افقدت بريطانيا عددا من ديمقراطييها الرفيعي الثقافة : كان توماس باين قد التجأ اصلا الى فرنسا . وقد عمدت السلطات الى نفي فريق من المفكرين الى اوستراليا ، في حين اختار فريق آخر الهجرة الى اميركا . ومن بين هؤلاء العالم بريستلي ، الذي عاش لفترة طويلة من الزمن في ولاية بنسلفانيا . اما جوزيف غال ، كاتب عريضة شفيلد الشهيرة ، فقد قصد ولاية كارولينا الشمالية . واستقر المقام بتوماس كوبر من صحيفة **مانشستر هيرالد** ، وبينيامين فوم ، الذي طالما دافع عن فرنسا في صحيفته اللندنية **مورنينغ كرونيكل**، في الولايات المتحدة ايضا .

ان دعاة الثورة المضادة هم الذين ربحوا حرب الكلام في انكلترا في العقد الاخير من القرن الثامن عشر . ففي عام ١٧٩٣ نشر جون بولز ، العضو في **الجمعية المناهضة للجمهوريين وللمساواتيين** ، كتابا عنوانه **الاسس الحقيقية للحرب الراهنة مع فرنسا** . وقد زعم فيه ( وهذا الكلام حمل على محمل من الجد لفترة طويلة من الزمن ) ان **المجلس الوطني** الفرنسي كان يرمي من وراء اصداره مرسومه الشهير الذي وعد فيه جميع الشعوب ب « المساواة والاخاء » ، الى الاطاحة بالحكومة البريطانية والحكومات الاوروبية الاخرى . وكتب جون ريفز ، المنتمي الى الجمعية عينها ، مقالة شبّه فيها اليعاقبة الفرنسيين بالطهرانيين الانكليز . وقد وصف الثورة الفرنسية وحركة الاصلاح البروتستانتية بأنهما المصدران التوأمان لآفات العصر كافة . ونشر بورك **رسائل في سلم قائم على قتل الملوك** ، واصدر جورج كانينغ **المجلة المناهضة لليعاقبة** . وقبض ماليه دو بان اموالا من السلطات البريطانية لمهاجمة الثورة الفرنسية في

صحيفته **بريتيش مركوري** ، الصادرة في لندن . وحذا فردريك غنتز حذوه في صحيفته **هيستورش جورنـال** الصـادرة فـي برلين . واستهل مالتوس الطبعـة الاولى من كتابه **بحث في مبدأ الاسكان** بدحض آراء كوندروسيه .

لاقت اغلبية هذه المؤلفات رواجـا في اميركا ، حيـث ساهمت في تغيير النظرة السائدة عن الثورة الفرنسية . لكن ان كان المجتمع البريطاني الراقي قد ابدى عـن ذلـك القـدر مـن التخوف والتوجس ، فانمـا بسبب المحاولة الثورية التي شهدتها ارلندا فـي المقام الاول .

★ ★ ★

كان عدد سكان ارلندا ، في التسعينات من القرن الثامـن عشر ، يعادل عدد سكـان الولايات المتحدة ، ونصف سكـان انكلترا . وكـان ينيف على عدد سكان الجمهوريات الباتافيـة والسويسرية والالب الغربيـة مجتمعة . وكانت مؤسسات ارلندا « مقولبة » على مؤسسات انكلترا . كنيستها القائمة كانـت انغليكانيـة ، ولورداتها كانوا يملكون الاراضي الشاسعـة فـي الجزيرتين ، ومجلس عمومهـا كان يشبه المجلس الانكليزي وان كان طابعه التمثيلي أضيق بعـد ما أقصيت عنـه الغالبيـة الكاثوليكية . وكـان في ارلندا ، على غرار ما في بريطانيا ، حركة وثيقـة الصلة بالثورة الاميركية تطالب بالاصلاح البرلماني . وقد اشرنـا الى فشلهـا في الفصل الثالث من هذا الكتاب . وقد رحب الاصلاحيون الخائبون أشد الترحيب بالثورة الفرنسية . ولـم يهللوا لنبأ سقوط الباستيل فحسب ، بل للاحداث الثورية التي أعقبته ايضـا .

ان السيطرة الانكليزيـة ، التي تعود بدايتها الـى العصر الوسيط ، اشتدت وتفاقمت في ابان الغزو والاحتلال في القرن

الثامن عشر . وقد وجدت ما يبررها ، على الصعيد الاستراتيجي، في التهديدات التي كانت تصدر عن فرنسا بين الحين والآخر . فبعد ثورة ١٦٨٩ الانكليزية ، كان لويس الرابع عشر أرسل جيشا الى ارلندا لدعم الملك جاك الثاني . وقد تجدد خطر الاحتلال الفرنسي لارلندا في ابان الحروب اللاحقة ، وعلى الاخص في ابان حرب الاستقلال الاميركية . وبما ان فرنسا الجمهورية وحركة الاستقلال الارلندية راحتا تتعاظمان باطراد في ظل حرب الثورة الفرنسية ، فقد أمسى الخطر الفرنسي أشد الحاحا من اي وقت سبق . .

كان العمال الزراعيون في ارلندا يعانون من بؤس لا مثيل له في اي قطر اوروبي غربي آخر . كانوا يدفعون بدلات ايجار مرتفعة ،وكانت ارضهم جدباء ، ومحاصيلهم ضحلة ، وكثيرا ما كانوا يطردون من قطع الاراضي اللامتناهية الصغر التي يعملون في زراعتها . وقد شكلوا جمعيات سرية ، اتسمت بالعنف في بعض الاحيان، منها جمعية **حماة الكثالكة** او جمعية **شبيبة الفجر** البروتستانتية . ولئن انضمت هذه الجماعات الى حركة العصيان في عام ١٧٩٨ ، فانها لم تكن لا من قادتها ولا من منظميها . وكان للمدن الارلندية ايضا طبقتها الوسطى الساخطة . دبلن ، بسكانها ، المئتي ألف . كانت اكبر المدن الناطقة بالانكليزية بعد لندن . وعلى الرغم من الحواجز الجمركية والقوانين التجارية المفروضة من قبل انكلترا ، كان لدبلن طبقتها التجارية والمهنية النشيطة المؤلفة من كثالكة وبروتستانتيين . وقد ازدهرت هذه الطبقة وتوسعت في القرن الثامن عشر . وقد استشعرت ، اكثر من الجماهير الريفية ، وطأة التمييز ، ولم تكن تجهل شيئا عن الاحداث الدائرة في اميركا وفرنسا وهولندا وانكلترا .

في عام ١٧٩٢ ، اي عندما بدات الحرب في البر الاوروبي، تبلورت في ارلندا ـ اسوة بما حصل في انكلترا واسكوتلندا ـ

علائم النفور من النظام . كان هنالك ، منذ زمن غير بعيد ، منظمة غير رسمية تدعى **اللجنة الكاثوليكية** ، وكان يتراسها بعض الاساقفة الكثالكة . وفي عام ١٧٩٢ ، وجدت هذه **اللجنة** من يتخطاها في جماعة من المناضلين الكثالكة العلمانيين ، اعربوا عن رغبتهم في التعاون مع البروتستانتيين بغية انتزاع بعض التنازلات من الحكومة البريطانية . وقد اختاروا وكيلا عنهم محاميا انغليكانيا شابا ، هو تيوبالد ولن تون الذي كان أسس في بلفاست **جمعية الارلنديين المتحدين** . وكانت كلمة « متحدين » تعني في نظر جماعة بلفاست ، المؤلفة اساسا من تجار ومحامين كلفانيين ، انهم يضمون قواهم الى قوى الكثالكة . وقد افتتحت محافل **للارلنديين المتحدين** في جميع انحاء الجزيرة . كانت في البداية علنية وقانونية ، أسوة بجمعيات لندن وشفيلد ، والجمعيات الشعبية للثورة الفرنسية ، والاندية الديمقراطية التي تأسست في الفترة ذاتها في الولايات المتحدة . وكان الارلنديون المتحدون يطالبون باصلاح برلماني ، ويستنكرون الحرب ضد فرنسا ، ويوزعون على نطاق واسع كتاب توماس باين **حقوق الانسان** ، ويصدرون في بلفاست مجلة **نورثرن ستار** نصف الشهرية ، ويطالبون بمجلس تأسيسي ارلندي. ولئن لم يعيدوا النظر ، باديء ذي بدء ، في العلاقة مع انكلترا ، فقد اقترحوا بالمقابل تغييرات جذرية لارلندا ، أدرجت في مشروع قانون اصلاحي نشرته جماعة دبلن في عام ١٧٩٤ . وكان هذا المشروع يلحظ انشاء ثلاثمئة دائرة انتخابية متساوية ، بدل الدوائر القائمة . وكان يفترض في كل دائرة ان ترسل نائبا واحدا عنها الى مجلس العموم الارلندي ، المنتخب بالاقتراع العام لمدة عام واحد . ولا يشترط في النائب ، الذي سيتقاضى اجره من الدولة ، ان يكون مالكا . كما انه لا يجوز ان يقف الانتماء الديني عائقا في وجه التمتع بالحقوق المدنية كاملة . ولم يكن هم **الارلنديين المتحدين** الاول احداث تغيير على

صعيد المبادىء الدستورية ، بل كان هدفهم الرئيسي العمل ، بالتعاون مع برلمان منتخب وفق القواعد التي اقترحوها ، على الغاء الاتاوات وحق البكورة، وعلى تقليص حجم المعاشات والرواتب التي تدفع لاشخاص لا يقومون باي عمل فعلي ، وعلى اعادة النظر في نظام الضرائب والجمارك برمته ، اي على احداث تغييرات اقتصادية كفيلة بتغيير البنية الاجتماعية لارلندا تغييرا جذريا.

وافقت السلطات على تقديم بعض التنازلات . كان الوزير البريطاني اكثر استعدادا من المسؤولين الانكلو ـ ارلنديين للتخفيف من صرامة القيود السابقة . وقد سمح البرلمان الارلندي، نتيجة لضغوط لندن عليه ، بدخول الكثالكة الى الطوائف الحرفية المدينية ، وبالحصول على الشهادات من جامعة دبلن ،وبانتخاب نواب مجلس العموم الارلندي ( لا ان يصبحوا نوابا ) بشرط ان تتوافر فيهم الشروط المطلوبة من زاوية الملكية . وكانت هذه الاجراءات ترمي الى اضعاف « تيار اليعاقبة » في ارلندا ، بحؤولها دون ان يتوحد الكثالكة والكالفانيون ضد الهيمنة الانغليكانية . ولكن بما ان عدد الكثالكة المستفيدين من هذه الحقوق الجديدة كان محدودا للغاية ، فقد استمرت التحركات الثورية . وقد أجرت بعض الاندية اتصالات سرية مع الفرنسيين في عام ١٧٩٤ ، وسعت وراء الحصول على مساعدة العدو ودعمه في زمن الحرب . واوفدت **لجنة السلامة العامة** عميلا لها الى دبلن لدراسة فرص الثورة فيها . وكان هذا العميل وليم جاكسون ، وهو ثوري عريق كان نشر في لندن، قبل عشرة اعوام، مديحا لدساتير الولايات الاميركية ووثائق اخرى حول الثورة الاميركية . وقد اعتقل جاكسون ، واتهم بالتجسس ، واعدم في دبلن. وهرب كل من ولف تون،وهاملتون روان ،وبنيامين فوم الى اميركا . وجرى الاعلان عن ان جمعيات **الارلنديين المتحدين** تخريبية وغير مشروعة . وغدت بعد عام ١٧٩٤ تآمرية وثورية .

تون ، الذي كـان استقر به المقام مع اسرته في مزرعة فـي ضواحي برنستون ، بولاية نيو جرسي ، استدعي على حين غرة من قبل السفير الفرنسي في الولايات المتحدة ، الذي دعاه الى التوجه الى فرنسا للعمل مع **حكومة الادارة** على تحرير ارلندا .
وفي عام ١٧٩٦،تم التخطيط في باريس ، برعاية السفير الاميركي ورئيس الولايات المتحدة لاحقا ، جيمس مونرو ، وبالتعاون مع وزير الخارجيـة الفرنسي ، دولاكروا ، لعمليـة غزو ارلندا .
وكـانت محافـل **الارلنديين المتحدين** تعقد فـي اثنـاء ذلـك الاجتماعات السرية ، وتجنّد الاعضاء ، وتكدس الاسلحة، وتخطط لعصيان مسلح. وقد اصبح هدفهم اقامة جمهورية مستقلة ،تحظى بالحمايـة الفرنسية ، على غرار الجمهورية الباتافية .

عاش تون في باريس سنوات من الخيبة القاسية سجـل تفاصيلها بأمانة في يومياته . **فحكومة الادارة** ، المترددة والحائرة، كانت عاجـزة عن الاقدام على غزو ارلندا غزوا شاملا . كانـت تتخوف من عواقب عملية بحريـة ضـد الاسطول الانكليـزي ، وتتساءل ان لم يكـن من الافضل ان تجتاح انكلترا ذاتها لترغـم الحكومة البريطانيـة على الخروج من الحرب . في مثل هـذه الحال يصبح الاعـلان عـن قيـام جمهورية ارلندية امرا ممكنا. بل قد تقوم عند ذاك ثورة في انكلترا ، او على الاقل اضطرابـات وقلاقل في انكلترا واسكوتلندا . وقرّ عزم الفرنسيين في نهايـة المطاف ، في عام ١٧٩٧ على وجه التحديد ، على شن هجـوم مباشر على انكلترا . واعتبر تون والارلنديون عامة هذه الخطـة مجرد مشروع وهمي ومضلل ، مصيره الفشل علـى الارجـح ، وعواقبه وخيمة بالنسبة الى قضيتهم .

حاول الفرنسيون مع ذلك ان يساعدوا الارلنديين المتحدين. ففي عـام ١٧٩٦ ، دخلت قـوة فرنسية عدادهـا خمسة عشر الف جندي ، من بينهم ولن تون ، الى خليج بانتري ، علـى الشاطىء الجنوبي الغربي لارلندا . غيـر ان الارلنديين المتحديـن

لم يكونوا قد نظموا انفسهم بعـد في هذه المنطقة ، ولم يتخذوا الاستعدادات اللازمة لاستقبال المحتلين الفرنسيين ، الذين حالت عواصف متواصلة دون نزولهم الى الشاطىء ، فأقفلوا عائدين بعـد انتظار دام ستة عشر يومـا . وفي عام ١٧٩٧ ، تجمعت قـوة فرنسية ـ هولندية عدادها خمسة عشر الف رجل في جزيـرة تكسل لتتوجه منهـا ، بمواكبة الاسطول الباتافي ، الـى بعض النقاط المحددة سلفـا على شواطىء اسكوتلندا وأولستر . وكـان الاسطول البريطاني في ذلـك الوقت شبه مشلول بسبب بعض حركات العصيـان . بيـد ان القوة الفرنسية ـ الهولندية راوحت مكانهـا لان الرياح لم تكـن مؤاتيـة ، ولم تمكنهـا من استغـلال الفرصـة السانحـة . وبعـد بضعة اسابيع جاء الانتصار البحري البريطاني في كامبرداون ليفوت على فرنسا هـذه الفرصـة نهائيـا . في كلتـا الحالتيـن اذن لعب عامـل الطقس لصالـح انكلترا ، كمـا اشار الى ذلـك تون ، وانقذها من أعظم خطـر احدق بها بعد خطر الاسطول الاسباني الذي عرف باسم أرمادا .

على الرغم من فشل محاولة الانزال في خليج بانتري ، فان قادة حركـة **الارلنديين المتحدين** توسموا فيهـا خيرا ، لانهـا أعطت الدليل على رغبة الفرنسيين الفعليـة في مد يد العون لهم . واستمرت حركـة التعبئة الشعبيـة في عام ١٧٩٧ ، وامس عدد الارلنديين المتحدين ينيف على المئة ألف في مقاطعـة أولستر وحدهـا . وقد أوفدت المحافل المحلية مندوبين عنهـا الـى الهيئات الاقليمية التي شكلت نوعـا من حكومة ظل جماعيـة مستعدة للاستيلاء على السلطة عندما يحيـن الظـرف المناسب للاعلان عن قيـام جمهوريـة من الجمهوريات الشقيقة لفرنسـا . وقد واجـه البريطانيـون هذا الوضع بتعزيز قواتهم في الجزيرة حيث بات لهم ما يقارب من ١٤٠ الف جندي ،أي خمسة اضعاف القوة التي زج بهـا الانكليز فيمـا بعـد في معركة واترلو .وقد اتخذ البريطانيـون سلسلة من الاجراءات القمعيـة بحق المحافل

التي أمست ثورية مئة بالمئة . وساد الجزيرة ارهـاب حقيقي : فقـد تعاقبت عمليـات التفتيش ، والاستجوابات والاعتقـالات، والمصادرات ، والحرائق ، والمشانق ، والنفي ، ناهيك عن الفظائع التي اقترفهـا الحكم تارة والعصابات المتعاديـة من المدنييـن المسلحيـن طورا والتي ما كانت تكـن لبعضهـا بعضا سـوى الكراهيـة والبغضاء . ولم يكـن الصراع وقتذاك صراعا بيـن كثالكـة وبروتستانتيين ، او بين ساكسونيين وسلتيين ، او بين الشمـال والجنوب : بل كـان صراعـا بيـن انصار قيام جمهورية ارلندية مستقلة وبين اعداء هذا المشروع .

على غرار ما حصل مع البولونيين في عام ١٧٩٤ ، اضطـر الارلنديـون المتحـدون الى شـن ثورتهـم قبـل ان ينجـزوا استعداداتهم لها ، بسبب الاجراءات التي اتخذت بحقهم بغيـة تحطيمهم واستئصال شأفتهم . ولم يدركوا ان الظرف لـم يكن مؤاتيـا للمساعدة الفرنسيـة التي كانوا يعتمدون عليها . اولـع فتيل التمرد في الاولستر في نيسان ١٧٩٨ ، وامتدت ناره بسرعة لتشمل ارجاء الجزيرة كافة . وفي أيـار من ذلـك العام توجـه بونابرت الى مصر ، على رأس جيش ضم القوات التي كانت تجمعت من قبل عنـد شواطىء بحر المانش . ولذلك لم يدعـم الثـوار الارلنديون ، حتى في أوج انتفاضتهم المسلحة ، الا بألف جندي فرنسي كـان الجنرال اومبير قـد انزلهم على الشاطىء الغربـي للجزيرة . وكانت قوة تتألف من عشرة آلاف نفر تقف على أهبـة الاستعداد للحاق بهم فيمـا اذا تكللت محاولتهم بالنجـــاح . واستطاع فرسان الجنرال اومبير ان يقطعوا بالفعل مسافة ستين أو سبعيـن كيلو مترا ، لكن المنطقـة التي اجتازوها كانت أقـل مناطق ارلندا تفاعـلا مـع منظمـة الارلنديين المتحدين . فكان ان هزم اومبير امـام التفـوق العددي الساحق للقـوات البريطانيـة واضطـر الى الاستسلام . وقد جـرت مبادلته فيمـا بعـد ، وعـاد الى فرنسا ، لكنـه لم يلبث أن بارحهـا

الى اميركا ، بسبب معارضته سياسة نابوليون ، وهناك خاض المعركة من جديد ضد البريطانيين في عام ١٨١٢ .

دارت المعارك بعنف شديد من اقصى ارلندا الى اقصاها ، بيد انها لم تبلغ ذروتها الا في وكسفورد ، في جنوب شرقي البلاد . ولم يؤيد الاساقفة الارلنديون ، الاكثر محافظة من زملائهم الايطاليين ، هذا العصيان المسلح ، بيد ان عدد الكهنة الذين شاركوا فيه كان مرتفعا الى حد حق معه للورد كاسلتريغ ان يقول عن الاحداث انها « مؤامرة يعاقبة تستعين ، لتحقيق اهدافها ، بأدوات بابوية » . ولم تكن «الاداة» في الحقيقة « بابوية » فحسب : فقد انضوى تحت لواء الثورة اثنا عشر قسا كلفانيا ، أعدم منهم ثلاثة . لكن هذه الثورة ، الواسعة الانتشار ، كانت تفتقر الى قيادة مركزية . وبما ان التنسيق كان مستحيلا ، والاتصالات مقطوعة ، فقد تعذر استغلال الانتصارات المحلية او تعزيز النقاط الخطرة . وقد تبخر كل امل في الحصول على مساعدة فرنسية . لذلك لم ينته الصيف الا وكان مد الثورة قد انحسر وحل مكانه القمع الشامل والمنظم الذي بلغ من الضراوة حدا حمل كورنواليس بالذات ، اي القائد العسكري الانكليزي ، على استنكاره ، وانحفر الى الابد في ذاكرة الشعب الارلندي . وقد نفي زهاء الفي عضو في منظمة الارلنديين المتحدين الى اوستراليا . واعدم العديد من قادتها ، بتهمة الخيانة . اما ولف تون ، الذي تسلل من فرنسا الى ارلندا في ابان المعارك ، والذي كان سيلقى المصير ذاته ، فقد اقدم على ذبح نفسه في السجن . ولو قدّر لهذا التمرد ان ينجح ، لاحتل ولف تون مكانه بين كبار القادة التاريخيين الذين خاضوا معركة تحرير شعوبهم . فالفارق بين التمرد والثورة يكمن بتمامه في الخاتمة . وكما قال ولف تون فان « واشنطن قد نجح في حين ان كوزيوسكو فشل ».

اسفر التمرد ــ او بالاحرى قمع هذا التمرد ــ عن **ميثاق**

**الوحدة** بين بريطانيا وارلندا ، الذي اقر في عام ١٨٠١ بعد عامين من المناقشات في البرلمان . واستمرت هذه الوحدة حتى الحرب العالمية الاولى . على الصعيد الاستراتيجي ، كانت هذه الوحدة ترمي اساسا الى تأمين الحماية ضد فرنسا. اما على الصعيد الاجتماعي ، فكانت تمثل ، في نظر بت ، حلا بناء للمسألة الارلندية . كان بت يأمل ، من وراء الغاء البرلمان الارلندي وتمثيل الارلنديين مباشرة في البرلمان الاتحادي للمملكة المتحدة ، في اضعاف الاوليغارشية الانكليزية ـ الارلندية القديمة ، وفي منح الكثالكة الارلنديين ، الذين امسوا يشكلون اقلية ضئيلة داخل عالم بروتستانتي واسع ، الحقوق السياسية بدون خطر . لكن الكثالكة الارلنديين ( او الانكليز ) لم يحصلوا ، رغم قيام هذه الوحدة ، على حقوقهم السياسية الا في عام ١٨٢٧ . فقد مني برنامج بت بالفشل ، من جراء المقاومة العاتية التي واجهه بها الملك جورج الثالث ، المدعوم من قبل الرأي العام اليميني المتطرف والمناهض للكثلكة وللنزعة اليعقوبية في انكلترا وفي ارلندا. وهكذا امست الوحدة مع انكلترا ، في نظر غالبية الارلنديين ، مدعاة اضافية للتذمر والسخط . ولئن اضطر الارلنديون الى كبت مشاعرهم الثورية ، فانهم لم يتحرروا منها اطلاقا . وغدت ارلندا ، بمعنى من المعاني ، بولونيا اوروبا الغربية . وسيلعب الارلنديون ، سواء من أقام منهم في مقاطعة لانكشاير للعمل في المصانع او من هاجر منهم الى الولايات المتحدة ، سيلعبون دورا بارزا في الحركات الديموقراطية التي ستشهدها انكلترا واميركا في القرن التالي .



في التسعينات من القرن الثامن عشر كانت المدن الاميركية الكبرى

كافة موانىء اطلسية . وكانت هذه المدن صغيرة بالمقارنة مع المدن الاوروبية ـ لم تكن فيلادلفيا ، أكبرها على الاطلاق ، تعد أكثر من سبعين الف نسمة ـ بيد انها كانت على اتصال وثيق ودائب بأوروبا . وكانت انكلترا هي القناة الرئيسية لانتقال البضائع والاخبار بين العالمين القديم والجديد . أما بالنسبة الى الصحافة الاميركية في تلك الايام ، فقد كان أسهل عليها الاستعانة بالصحف الاجنبية ونسخ ما تنشره من اخبار ومعلومات من الاعتماد على ما يكتبه محرروها المحليون. لذلك اعتادت صحف بوسطن ونيويورك وفيلادلفيا وشارلستون على ايلاء حيز كبير لاخبار اوروبا . وكان معظم هذه الاخبار ينقل عن طريق الصحافة البريطانية . وعندما عاد توماس جفرسون من فرنسا ، في اواخر عام ١٧٨٩ ، ذهل لدى معاينته ان الفكرة التي كوّنها الاميركيون عن الثورة الفرنسية مضللة لانها مستقاة من مصادر بريطانية ، فاتخذ اللازم من الاجراءات كيما تستقي واحدة من صحف نيويورك على الاقل معلوماتها من الصحيفة الهولندية **غازيت لايدن** .

في كندا ، كان السكان الناطقون بالفرنسية ، الخاضعون لتوجيهات كهنتهم ، يناصبون الثورة الفرنسية العداء ، وان ظلوا غير متعاطفين مع الهيمنة البريطانية التي فرضت عليهم منذ عام ١٧٦٣ . اما السكان الناطقون بالانكليزية ، فكانوا في معظمهم من اللاجئين المحافظين والموالين للنظام البريطاني ممن لاذوا بالفرار في ابان الثورة الاميركية . وبموجب ميثاق ١٧٩١ ، أقام برلمان كندا البريطاني حكومتين في كندا العليا وكندا السفلى ( اصبحتا فيما بعد أونتاريو وكيبك ) بغية تحاشي « المبالغات الديمقراطية » للثورتين الفرنسية والاميركية. وناهيك عن ذلك، ما كان البريطانيون اعترفوا بصورة نهائية بعد بالحدود الغربية للولايات المتحدة كما رسمتها معاهدة ١٧٨٣ . كان حاكم كندا العليا يزعم ان سلطته تمتد الى ما وراء البحيرات ، والى داخل ولاية ايلينوا ، وادعى في عام ١٧٩٤ ان هذه المناطق ، شبه البكر ، اضحت مرتعا « للجواسيس

اليعاقبة » . كان الكنديون البريطانيون ، المشتبهون في الكنديين الفرنسيين ، والمتخوفون من فرنسيي فرنسا ومن الاميركيين الصاخبين القابعين جنوبي حدودهم ، يبدون عن تعلق شديد بالتقاليد البريطانية . وقد تم تشكيل **جمعيات ولاء** ، على غرار ما حدث في انكلترا في عام ١٧٩٢ . كما اقر قانون ضد الاجانب الخطرين على شاكلة ذاك الذي اصدرته الولايات المتحدة في عام ١٧٩٨ . وقد تم بالفعل اكتشاف مؤامرة او اثنتين غير ذات أهمية على الاطلاق . وثمة اميركي ، يدعى دافيد ماكلين ، كان انغمس في احداهما ، أعدم شنقا وسحل بتهمة الخيانة العظمى في عام ١٧٩٧ . وكان ذلك أخطر مما حدث في انكلترا او في الولايات المتحدة بالذات في تلك الحقبة . والواقع ان النزعة المناهضة للاميركان التي انتشرت في كندا عززت مشاعر العداء ازاء الانكليز لدى الديمقراطيين الاميركيين .

يصعب علينا في الحقيقة تحديد انعكاسات ثورة سان دومنغ وجمهورية هايتي على الولايات المتحدة. الشيء الاكيد انها رسخت وعمقت مشاعر الخوف لدى البيض الذين كانوا يعيشون بين العبيد السود في جنوب الولايات المتحدة . فالجمعية التأسيسية الفرنسية كانت ، منذ عام ١٧٩١ ، منحت الزنوج الاحرار في المستعمرات الفرنسية حقوقا مساوية لحقوق البيض . وقد احتج المعمّرون البيض على هذا القرار، وعمت الاضطرابات صفوف الزنوج العبيد ، وتمخضت هذه التطورات عن تمرد ، فحرب اهلية ، ثم كان قرار **المجلس الوطني** الفرنسي في عام ١٧٩٤ القاضي بالغاء العبودية الغاء شاملا . وأن يصبح توسان اوفرتور ، الزنجي والعبد السابق زعيمابارزا،وان يعين جنرالا في الجيش الفرنسي، وأن يرتدي البزة العسكرية للجمهورية الفرنسية ، فهذا ما لم يرق لمعظم الاميركيين ، وكم بالاحرى للفرنسيين البيض في المستعمرات الفرنسية.وقد غادر معظم هؤلاء الاخيرين الجزر ، وعلى الاخص سان دومنغ ، اكبرها على الاطلاق . وعاد بعضهم

الى فرنسا ، في حين اختار بعضهم الآخر الاقامة في البر الاميركي. وفي عام ١٧٩٧ قدر عدد اللاجئين الفرنسيين في الولايات المتحدة بعشرين الفا ، جاء اكثرهم من سان دومنغ .

في عام ١٧٨٩ ، بدأت الحكومة الاميركية تنظم نفسها وفق الدستور الاتحادي الجديد . وقد ساد البلاد جو عام من التفاهم ، اذ ان الذين كانوا انتقدوا الدستور الجديد و عارضوه عندما كان لا يزال مشروعا ، اعربوا فيما بعد عن استعدادهم لتقبله . اما الخلافات التي نشبت لاحقا ، والتي سرعان ما اكتسبت حدة بالغة ، فلم تكن استمرارا للخلافات السابقة في الآراء والمواقف . لم يكن في اميركا مناهضون للثورة ، بالمعنى المفهوم في فرنسا او هولندا . اذ لم يكن يدور في خلد أحد العمل على اعادة الملك جورج الى الحكم او بعث النظام الذي سبق عام ١٧٧٦ . كل ما في الامر ان بعضهم كان يميل الى سلوك طريق أكثر ديمقراطية ، في حين كان بعضهم الآخر يرفض ذلك . بيد ان الخلافات التي تبلورت ، تحت تأثير الثورة الفرنسية ، في صورة حزبين سياسيين ، لم تعلن عن ظهورها بادىء ذي بدء الا كردة فعل على سياسة الحكومة الاتحادية الجديدة .

ان ما كانت تحتاج اليه البلاد الجديدة ، في نظر اتباع الكسندر هاملتون ، هو التطور الاقتصادي وسلطة مركزية اكثر توحيدا . وكان التطور الاقتصادي يقتضي توظيفات وقروضا داخلية واوروبية على حد سواء ، نظرا الى ان اوروبا ، الاكثر تطورا من اميركا من الناحية الاقتصادية ، كانت مصدر الرساميل وقتذاك . وانطلاقا من هذه الرؤية خطط هاملتون لكي تتحول الولايات المتحدة الى بلد أمثل لاستقطاب الاموال .

اما توماس جفرسون واتباعه ، فلم يكن يهمهم ان يشاهدوا الولايات المتحدة « تتطور » وفق هذا الاتجاه ، وتتمثل بأوروبا بمدنها الضخمة ، وحواجزها الطبقية واثريائها المتخمين وفقرائها المعدمين . وما كانوا يرغبون اطلاقا في أن يروا

الحكم يستعين بالمصالح المالية الخسيسة . فارهاق الشعب بالضرائب لتأمين المداخيل والارباح ، ثم تقديمها هدية للمضاربين واصحاب الاموال ، كل ذلك كان يبدو في نظرهم غير مبرر وغير مجد . كانوا يفضلون ان تظل البلاد زراعية في المقام الاول ، وان يحافظ عالما التجارة والمال على دورهما الثانوي . وما كان بلوغ هذا الهدف يفترض تعزيز الحكومة المركزية النائية . فخير ضمانة للحرية التي نادت بها الثورة الاميركية هي في توطيد الحكم المحلي ، او على مستوى الولاية . اما المساواة ، كما عرفت في الماضي ، والتي كانت الطابع المميز لاميركا منذ البداية ، فانها ستجد التربة الصالحة لاستمرارها ونموها في مجتمع من المزارعين ، يملك كل مزارع منهم ارضه الخاصة ، يهتم بشؤونه الخاصة ، ولا يخضع لقرارات صادرة عن اشخاص مجهولين وبعيدين ،من ارباب عمل، وتجار ، ومسلفي اموال ، ومحصلي ضرائب وموظفين حكوميين . ومجتمع كهذ كفيل بصيانة الاستقلال القومي الذي انتزع حديثا من انكلترا .

استطاع هاملتون ، بدعم من واشنطن ، ان يفرض سياسته خلال العامين او الاعوام الثلاثة الاولى من العهد الجديد . كان انصاره من سكان المدن اساسا ، ومن المنتمين الى دنيا الاعمال ، او كانوا من المزارعين المقيمين على تخوم المدن وعند ضفاف الانهر التي كانت تصلهم بالعالم الخارجي . كانوا يطلقون على انفسهم اسم « الاتحاديين » ، تأكيدا على رغبتهم في تعزيزالاتحاد الفدرالي . كان لهذه التسمية اذن معنى معاكس تماما للمعنى المتعارف عليه في اوروبا ، اذ ان « الاتحاديين » — او الفدراليين — في فرنسا اولا ، وفي الجمهوريات الشقيقة ثانيا ، كانوا دعاة الحؤول دون تمركز السلطة ، أي دون توطد السلطة المركزية . وكان هاملتون بالذات من انصار حكم مركزي قوي ، وكان يحبذ الغاء الولايات القائمة واستبدالها بمقاطعات تحددها الحكومة القومية .

اما خصوم هاملتون فقد تسموا ، مع الايام ، باسم

« الجمهوريين » . وكانوا في الواقع ديمقراطيين . ولم يكن هدفهم انتزاع حق انتخاب ما . فالمعركة التي خاضها الاصلاحيون في بريطانيا وارلندا ، ومن بعدهم اصدقاء المواطنين « السلبيين » في فرنسا بين ١٧٩٠ و ١٧٩٢ ، هذه المعركة كانت حسمت في الولايات المتحدة عندما اعترفت معظم الولايات لمواطنيها بحق انتخاب واسع للغاية . وكان ما يصبو اليه الجمهوريون تأمين مشاركة اكثر فعالية في الشؤون السياسية وفي الانتخابات من قبل الاشخاص العاديين الذين لم يكن حقهم في الانتخاب موضع جدل او نقاش . كانوا يودون لو ان الاشخاص العاديين ينتخبون اناسا مثلهم للوظائف العامة ، بدلا من ان يكتفوا ، كما كانوا يفعلون في الماضي، باختيار شخصيات تنتمي الى الطبقات العليا لتمثلهم. وكان للنداءات التي وجهها هاملتون الى مستلفي الاموال ، والصيارفة ، وكبار التجار ، والى الذين جمعوا الثروات او عقدوا العزم على جمعها ، اثرها البالغ في تعميق شعورهم الطبقي . فقد وجدوا انفسهم عرضة للتهديد من قبل القوى الجديدة لطبقة أرستقراطية . واشتموا في الحكم المركزي القوي خطر الاستبداد. وتخوفوا من ان تتمخض سياسة الحكم في مراعاة رجال الاعمال وفي خلق نخبة حاكمة ، عن ابتلاء البلاد بآفة الامتيازات .

كان هؤلاء « الجمهوريون » يتعاطفون مع الثورة الفرنسية . وقد أسسوا ، خلال عامي ١٧٩٢ و ١٧٩٣ ، عددا كبيرا من الاندية الشعبية . صحيح ان مراكز الحزب الجمهوري ، الذي كان بدأ يبرز ، نابت بعد فترة وجيزة مناب هذه الاندية ، بيد ان ظهورها يشير مع ذلك الى ميلاد حركة ديمقراطية جديدة . وتم تحديد هوية زهاء اربعين ناديا من هذه الاندية ، وكان جلها موزعا على المرافىء وعلى المناطق الحدودية . وكان نصف اعضائها من منشأ شعبي حقا ، اما النصف الآخر فقد تألف من محامين ، واطباء، وتجار ، ومالكين عقاريين . كان اعضاء هذه الاندية يكنون العداء « للطامعين الذين يحتكرون الوظائف العامة ، ولا يدعون ظرفا

يمر الا ويستفيدون منه ، ويقفون حجر عثرة في وجه أيلولة الحقوق الى أصحابها ، باستثناء حقوقهم هم ».وقد شبه تيموثي دوايت ، رئيس معهد يال ، اعضاء هذه الاندية بقطيع من الخنازير ـ وكأنه بورك يتكلم عن الديمقراطيين الانكليز ـ في حين رأى فيها وجيه آخر من نيو ـ انكلند « جمعية حقيرة من الميكانيكيين والفلاحين واصحاب الطنابر » .

فيما كان الاميركيون ينقسمون على انفسهم بصدد مسائل داخلية محضة ، كانت فرنسا تتعرض للاجتياح ، ثم تتحول الى جمهورية وتدخل الحرب ضد انكلترا . وقد انقسم الاميركيون ، وانحازوا ، بحماسة لم يعرفوها فيما بعد ازاء الاحداث الاوروبية ، منهم الى جانب انكلترا ومنهم الى جانب فرنسا . وكان في الموقف مفارقة حقيقية . فهاملتون ، الموالي لانكترا ، والمزدري بالثورة الفرنسية ، كان أكثر ثورية من جفرسون ، او على اي حال اكثر منه توجها نحو المستقبل ، وأشد منه رغبة في ان يرى حكما مركزيا قويا يقضي على المؤسسات والولايات القائمة . اما جفرسون ، المتعاطف مع الثورة الفرنسية ، فكان وجيها ريفيا ، معتدلا في مواقفه ، يكره بورجوازية المدن الكبرى وسوادها في آن معا . كان يتطلع ، من خلال دفاعه عن الحرية والمساواة ، الى الابقاء على بعض سمات الماضي الاميركي ، اي الحفاظ على حرية تستتبع أن يكون الحكم ضعيفا ، وعلى مساواة تعكس مجتمعا مثاليا وريفيا. والواقع ان المزارعين في اوروبا كانوا ألد اعداء الثورة الفرنسية عزما وتصميما . اما في اميركا فكانوا أشد انصارها حماسة . وفي حين كان أهل المدن ورجال الاعمال في اوروبا يميلون الى الآراء الثورية ، كانوا في اميركا على العموم يعارضونها . وقد نجم هذا التغيير في المواقف عن التفاوتات العميقة القائمة بين طرفي الاطلسي . فقد كان الشعور الطبقي مختلفا لان بنية اميركا الاجتماعية كانت مختلفة . فما من اميركي كان يدرك ان الثورة الفرنسية هي ، الى حد كبير ، حركة « بورجوازية » . وكان

رجال الاعمال الاميركيون الذين ساروا في ركاب هاملتون ، والذين ما كانت تعلو عليهم اي ارستقراطية حقيقية او حاشية ملكية ، يعتبرون انفسهم زهرة المجتمع. وكانوا يتوهمون ان الثورة في اوروبا هي من صنع رعاع جهلة . اما الديمقراطيون الاميركيون ، الذين يجهلون كل شيء عن بابوف ، ولا يعرفون شيئا يذكر عن اللامتسرولين ، فكانوا يبالغون في تشبيه انفسهم بالديمقراطيين الاوروبيين الذين ما كانوا مجرد مزارعين او محامين ريفيين .

في نيسان ١٧٩٣ ، ومع وصول نبأ اندلاع الحرب بين انكلترا وفرنسا الى اميركا ، كان سفير فرنسي جديد يحط الرحال في شارلستون ، في ولاية كارولينا الجنوبية . كان هذا السفير يدعى ادمون جينه ، وكان شابا كريم المحتد ، خدم قبل الثورة في وزارة الخارجية ، حيث عمل مع بنيامين فرانكلين في باريس . وقد تحمّس جينه للثورة ، وعارض ارستقراطيي روسيا وهولندا وفرنسا . وقد خصه الديمقراطيون الاميركيون ، خلال رحلته الطويلة من شارلستون الى فيلادلفيا ، باستقبال حافل . وراح جينه يعارض الارستقراطيين الاميركيين ، وينغمس في نشاطات مؤيديه الديمقراطيين ، ويرعى تأسيس اندية ديمقراطية جديدة ، ويجند رجالا من المناطق الحدودية للقيام بعمليات عسكرية في منطقة الغرب وفي فلوريدا ضد البريطانيين والاسبانيين الذين كانوا في حالة حرب مع فرنسا ، وانما في حالة سلم مع الولايات المتحدة . وقد حاول جينه ان يبرر مبادرته بمعاهدة التحالف الفرنسية ــ الاميركية ، المبرمة في عام ١٧٧٨ ، والتي كانت لا تزال سارية المفعول من المنظور القانوني . غير ان الرئيس واشنطن أصدر اعلانا بالحياد . الديمقرطيون الاميركيون ، الذين صدموا بصدور هذا الاعلان ، اعتبروه مناورة هاملتونية تخدم مصلحة بريطانيا . اما الاتحاديون ، فكانوا يعتبرون الاندية ــ « اندية جينه » على حد تعبيرهم ــ موالية لفرنسا مئة بالمئة ، ويعزون الاندفاع الديمقراطي الى الهيجان الفرنسي ، ان لم نقل الى مؤامرة ثورية

فرنسية . والغيت الاندية باعتبارها مراكز نشاط غير مرخص به ، وذهب واشنطن الى وصفها بأنها منظمات « خلقت نفسها بنفسها »، وكأنه ينعى عليهـا طابعها غير الرسمي . وعم الاستياء والاستنكار صفوف الديموقراطيين . وتخوفوا ، عن حق ، من ان يعاد النظر في مبادىء السيادة الشعبية والثورة الاميركية بالذات .

على ان الحكومة الفرنسية لم تلبث ان وضعت بنفسها حدا لمهمة جينه . فبما أنه كان صديقا للجيروندين المطرودين من **المجلس الوطني**، فقد ارتأت الحكومة الثورية انه شخص غير مرغوب فيه . ولما طلب واشنطن سحبه ، أسرعت توافق على ذلك بأمل الافادة من حياد الولايات المتحدة . وتزوج جينه من ابنة جمهوري بارز وعاش لاربعين سنة في ولاية نيويورك .

في كانون الثاني ١٧٩٣ أقيم مهرجان في بلايموث ، في ماساشوستس ، احتفالا بانتصارات الجمهورية الفرنسية في فالمي وفي بلجيكا . وفي بنسلفانيا شنت صحيفة لاغازيت دي بتسبورغ هجوما عنيفا على الانكليز ، وذهب الروائي هيو براكنريدج الى طرح هذا السؤال علنا : « ما دام الملوك يتحالفون من اجل دعم الملوك ، فلماذا لا تتحالف الجمهوريات من اجل مساندة الجمهوريات ؟ » . وفي عام ١٧٩٤ ، اعلنت **الجمعية الدستورية** في ماساشوستس ان سعادة البشرية بأسرها رهن بنجاح الثورة الفرنسية . حتى نوح وبستر ، الذي كان يقف الى جانب الاتحاديين ، لم يقو على تمني انتصار « رابطة الطغاة الحقيرة » في حربها ضد الفرنسيين . وفي خطاب القاه في نيويورك ، قال عن حكم **الارهاب** في فرنسا : « ثمة ظروف اخرى مجهولة في هذا البلد تعوض عن القسوة الظاهرية للزمرة الحاكمة » . وفي احتفال اقيم في بوسطن في الرابع من تموز ١٧٩٥ ، أي بعد عام على وفاة روبسبيير ، امتدح احد الخطباء لا الثورة الاميركية وانما الثورة الفرنسية ، ذلك ان النضال الاميركي لم يكن ، على حد تعبيره ، سوى « العمل الاول الذي قام به هرقل وهو في المهد

بالمقارنة مع الانجازات الرائعة التي حققها وهو في سن الرشد » .

باستثناء جفرسون وبعض الزعماء الآخرين ، كان الديمقراطيون سيرحبون بحرب جديدة مع انكلترا . لكن الولايات المتحدة وقعت ، في عام ١٧٩٤ ، على معاهدة مع انكلترا . وقد وافق البريطانيون على الانسحاب من المناطق الشمالية ــ الغربية ، بيد انهم رفضوا تقديم تنازلات اخرى . واستنكر الديمقراطيون هذه المعاهدة ، واعتبروها تهدئة مخزية . وناقش الكونغرس الاميركي مطولا التشريع الضروري لتطبيقها ، وانتهى الى التصويت لصالحها بواحد وخمسين صوتا ضد ثمانية واربعين .

من خلال المساجلات التي دارت بصدد هذه المعاهدة ، اي في النهاية بصدد الموقف الذي ينبغي وقوفه من الثورة الفرنسية والحرب في اوروبا ، استعد الحزبان الاتحادي والجمهوري،اللذان توضحت هويتهما وتبلورت تماما ، لخوض معركة الانتخابات الرئاسية لعام ١٧٩٦ . وكان المرشحان لمنصب الرئاسة ، أي لخلافة واشنطن ، هما جون ادامز وتوماس جفرسون . وقد اتهم كلاهما ، من قبل معارضيهما ، بانهما اداة لدولة اجنبية . فادامز في نظر الجمهوريين كان اوتوقراطيا وارستقراطيا . كان « بطل الرتب، والالقاب والتمييزات الوراثية » ، ومولعا بكل ما هو انكليزي ، ومغرما ب « الشكل الملكي البريطاني للحكم » . وكان جفرسون في نظر الاتحاديين ، مناصرا غير مسؤول لفرنسا ، مساواتيا ، اباحيا ، ملحدا ، ونصيرا لليعاقبة . ومن نافل القول ان هاتين الصورتين الكاريكاتوريتين لمرشحي الرئاسة مبسطتان الى حد الفظاظة . لكن يبقى صحيحا مع ذلك ان جفرسون كان أقوى ايمانا من ادامز بالحرية والمساواة ، وانه كان أكثر تسامحا مع الثورة الفرنسية . كما ان ادامز كان على الرغم من ازدرائه بهاملتون وكراهيته لرجال المال ، اكثر احتراما للدستور البريطاني ، حسب تصوره الشخصي له .

تدخل الفرنسيون في انتخابات ١٧٩٦ بكشفهم بصراحة عن انحيازهم الى جانب جفرسون . لكن ادامز هو الذي فاز في الانتخابات ، وحصل على ٧١ صوتا مقابل ٦٨ . وبموجب الدستور، اصبح جفرسون نائبا للرئيس ، مما ادى الى انقسام الادارة الاميركية على نفسها . وقد اعتبرت **حكومة الادارة** الفرنسية المعاهدة الاميركية ـ البريطانية ، ومن ثم انتخاب ادامز لمنصب الرئاسة ، دليلا على تحالف فعلي بين الولايات المتحدة وبريطانيا . وجاء نشر رسالة جفرسون الى مازاي في صحيفة **لومونيتور** ليولد لديها انطباعا بأن الحكومة الاميركية لا تمثل أماني شعبها . وفي أواخر عام ١٧٩٧ ، ركزت **حكومة الادارة** قواها ضد انكلترا ، بعد اتفاقها على الصلح مع النمسا ، ووضعت الخطط لاجتياح انكلترا او ارلندا ، وراحت تتعرض للسفن الاميركية في الاطلسي ، لان انكلترا هي التي امست تستفيد من الاسطول الاميركي التجاري . وقد دافعت السفن الاميركية عن نفسها ، وانشأ ادامز وزارة للبحرية . وهكذا تورطت فرنسا والولايات المتحدة في « شبه حرب » .

كان من المحتم ، في مثل هذه الظروف ، ان يشرع مد التعاطف مع فرنسا بالانحسار ، ولاسيما ان رجال الدين الاميركان الذين استفظعوا كتاب توماس باين **سن الرشد** تهيبوا من انتصار فرنسا الكاثوليكية على انكلترا الانغليكانية . وبدأت المؤلفات المناهضة للثورة ، والصادرة في انكلترا ، تنشر وتوزع في الولايات المتحدة ، وفي مقدمتها **تأملات** بورك. جون كوينسي ادامز ، ابن جون ادامز، الذي اوفد الى الجمهورية الباتافية كسفير للولايات المتحدة ، لاحظ بقلق شديد انتشار الثورة في اوروبا . ولما اكتشف صحيفة فردريك جنتز ، **هيستوريش جورنال** ، التي كانت تصدر في برلين بتمويل بريطاني ، بادر الى ترجمة احدى مقالات جنتز ونشرها في اميركا لمحاربة جفرسون العازم على خوض انتخابات عام ١٨٠٠ الرئاسية . وكان هذا المقال عبارة عن مقارنة بين الثورتين

الاميركية والفرنسية تهدف الى الكشف عن مساوىء الثورة الاخيرة .

اوفد الرئيس ادامز لجنة الى فرنسا للسعي وراء حل لـ « شبه الحرب » الدائرة بين البلدين . وقد عرض عليها عضو في الحكومة الفرنسية — وزير الخارجية تاليران في أغلب الظن — تسهيل المفاوضات لقاء مبلغ من المال يدفع نقدا . فرفضت اللجنة الاميركية هذا العرض . بيد ان الرئيس ادامز استغل هذه الحادثة لاضعاف اندفاع ديمقراطيي بلاده نحو فرنسا ، فنشر وثائق المفاوضات الفاشلة . وقد استبدلت اسماء المفاوضين الفرنسيين برموز حرفية : س،ع،ي . وقد اثارت وثائق « س. ع. ي » موجة سخط عارمة . وفي الواقع ، لم يكن المديرون الفرنسيون — اي اعضاء حكومة الادارة — منغمسين شخصيا في هذه الفضيحة . كما انلجوء الديبلوماسيين الى الابتزاز والاختلاس كان من التقاليد العريقة في اوروبا . ففي عام ١٧٩٧ كان وليم بت نفسه دخل في مفاوضات من هذا القبيل . غير ان هذه الحادثة جرحت الحس الخلقي الاميركي . فالجمهوريون صدموا وأسقط في أيديهم ، في حين هلل الاتحاديون ورفعوا راية النصر عاليا . فالفرنسيون ، على حد ادعائهم ، « أهانوا اميركا وطالبوها بتسديد جزية » .

فيما كانت الحرب غير المعلنة مستمرة في البحار ، كان هاملتون و « كبار » الاتحاديين — اي الذين كانوا يعتبرون ادامز معتدلا اكثر مما ينبغي — يخططون لجر الولايات المتحدة الى حرب سافرة . كانوا يحلمون بالتحالف مع بريطانيا في حرب صليبية ضد الجمهورية الفرنسية الملحدة . وكانت حرب كهذه ستسمح بتوجيه اصابع الاتهام الى الجمهوريين الاميركيين ، وبتحقيق فتوحات في الامبراطورية الاسبانية في القارة الاميركية . فكوبا وفلوريدا ونيو — اورليانز والتكساس والمكسيك كانت لا تزال تابعة لاسبانيا . وتصدى ادامز للروح الحربية التي رأى فيها الجمهوريون

خطرا مباشرا يستهدفهم . وفي عـام ١٧٩٨ ، أقـرت الغالبية الاتحادية في الكونغرس **قانون التجنيس** ، و **القانون حول اوضاع الاجانب** ، و **القانون حول التمرد** . وقد عكس القانونـان الاولان آراء الاتحاديين التي تتلخص كالآتي : ان المبادىء الديمقراطيـة مستوردة من الخارج ، وان أندية عام ١٧٩٣ كانت « أندية جينه » ــ أي اندية السفير الفرنسي ــ وان معظم منتقدي الحكم هم من « الاجانب اللاهثين وراء الاثراء » . وقد اباح القانون حول اوضاع الاجانب طرد كل اجنبي يتسبب في اثارة الشغب. ولم يطرد اي اجنبي في الواقع بموجب هذا القانون ، غير ان عددا كبيرا مـن اللاجئين الفرنسيين بادروا من تلقاء أنفسهم الى مغادرة البلاد بعد ان شعروا بأنهم في خطر . أما القانون حول التمرد فقـد طبـق لاغراض تحزبية سافرة . ذلك انه لم يكن ثمة اثـر للتمرد في الولايات المتحدة ، لا بمعنى السعي الى الاطاحة بالحكم ، ولا بالمعنى الموسع ، المستخدم عادة في بريطانيا ، والذي يعني نقد الدستور والحكم . ما كان يقصده الاتحاديون بكلمة « تمرد » هو الاختلاف مع سياستهم وبرامجهم وسلوكهم في الحكم . وقد وجهت تهمة التمرد الى خمسة عشر شخصا، وثبتت هذه التهمة بحق احد عشر منهم . وكان في عداد هؤلاء الجمهوريين الفعالين نائب وسـتة رؤساء تحرير صحف .

دب الذعر بالطبع في صفوف الجمهوريين . فقد بات واضحا ان الحكم عازم على تسخير القوانين الثلاثة لخنق كل نقد يوجـه للحكم ، وللقضاء على الحزب الجمهوري الجديد ، بل لجـر البلاد الى حرب حقيقية الى جانب انكلترا .

دافع الجمهوريون عن انفسهم بأسلحة خطيرة كان يمكـن ان تقضي على الدستور ــ الذي لم تكن سـنه تجاوزت العاشرة بعد ــ بل على وجود الولايات المتحدة بالذات . فقد استعانوا ؟ بتوجيه من ماديسون وجفرسون ، بقوانيـــن ولايتي فرجينيـا وكنتوكي ليعلنوا ان القوانين المهددة للحرية ، وعلى الاخص القانون

حول اوضاع الاجانب ، والقانون حول التمرد ، هي قوانين باطلة ولاغية ، وانها غير سارية المفعول في الولايات المعارضة .

كانت الولايات المتحدة ، على حد تعبير الرئيس ادامز الذي كان يعد نفسه خبيرا في الشؤون الاوروبية ، في طريقها الى الانغماس في « الانحلال على الطريقة البولونية » . وكان يقصد بذلك ان البلاد قد مزقتها الخلافات الداخلية ، وان بعض الجماعات فيها باتت تشعر بانها أقرب الى الغرباء منها الى مواطنيها بالذات ، وانه اذا لم يوضع حد لمناورات انكلترا وفرنسا فان هاتين الدولتين الكبريين ستتلاعبان بمصير الولايات المتحدة وستقودانها الى الهلاك من خلال صراعاتهما المتبادلة . ولئن كان أدامز يضمر العداء للثورة الفرنسية ، فانه ما كان يؤمن بالمقابل بقدرة البريطانيين ، او أي فريق آخر ، على القضاء عليها . كما انه لم يكن يرتاح على الاطلاق لفكرة عسكرة اميركا ووقوعها تحت سيطرة هاملتون. لذلك بادر الى ارسال لجنة سلام اخرى الى باريس . وأبدى الفرنسيون هذه المرة عن قدر اكبر من المرونة ، ولا سيما بعد ان تشكل ضدهم التحالف الثاني . فأقلعوا عن مهاجمة السفن الاميركية ، وخيم السلم من جديد على العلاقات بين الجمهوريتين . وجن جنون هاملتون واتباعه . فأمام الانتصارات التي احرزها سوفوروف في ايطاليا ، والانزال الروسي – الانكليزي في هولندا ، وانهيار الجمهوريات الايطالية ، و « التحرير » المرتقب للجمهورية الباتافية ، بدت نهاية الثورة الفرنسية آنذاك وشيكة ، ان في نظر الاتحاديين الاميركيين وان في نظر اعداء الثورة المتطرفين في اوروبا . لذلك اتهم الاتحاديون ادامز بخيانة مبادئهم ، ووصموه بالنزوع ، في قرارة نفسه ، الى مذهب اليعاقبة .

لم يعد انتخاب ادامز في عام ١٨٠٠ . فانسحب من الحياة العامة ، وامضى الاعوام الستة والعشرين اللاحقة في التعليق بسخرية على جنون الاتحاديين ، وفي اعادة توطيد الصداقة القديمة التي كانت قد ربطته بجفرسون ابان الثورة الاميركية .

تسلم جفرسون مهام الرئاسة في مطلع عام ۱۸۰۱ . ومع ان الاتحاديين كانوا يكنون البغضاء للرئيس « الثوري »، فانهم لم يتمردوا عليه ولم يتآمروا ضده . ولئن كانت الولايات المتحدة قد عانت من انقسام داخلي حاد ، فانها نجت مع ذلك من مصير بولونيا . واغلب الظن انها ما كانت ستنعم بهذا الحظ فيما لو جاورت فرنسا او انكلترا حدودها .

فيما كان نابليون يفرش هيمنته على فرنسا ، وبريطانيا تشيع حركتها الاصلاحية ، والحرب تستمر في اوروبا ، كان الاميركيون يديرون ظهورهم للصراعات الخارجية التي فقدت قدرتها على اجتذابهم . وبدأ يساورهم شعور سعيد بالعزلة ، بل بالتفوق على اوروبا المنكوبة التي بهت مجدها . بيد ان الولايات المتحدة ، في الصورة التي تجلت بها بعد عام ۱۸۰۰ ، لم تكن حصيلة الانعزال او الثورة الاميركية وحدهما ، بل قبست أيضا الكثير من ملامحها من مجمل ثورة الحضارة الغربية التي واكبت الثورة الفرنسية .

الفصل التاسع

# المانيا : الثورة ، مسلّمة فلسفية

ان ما كان يميز المانيا في ذلك العقد الثوري الاخير من القرن الثامن عشر افتقارها الى كل تجربة ثورية ، بل الـى كـل تجربـة سياسية . ففي فرنسا على وجه الخصوص ، وكذلك في بولونيا وارلندا ، امسك الرجال بزمام مصائرهم وتمردوا علنا على قادتهم . وشغلت الثورة والثورة المضادة مسرح الاحداث في الجمهوريات الشقيقة ، من هولندا الى نابولي ، وكذلك في بريطانيا والولايات المتحدة . وفي هذه البلدان قاطبة سعى رجال ، تجمع بينهم وحدة الرأي ، الى العمل معا لتحقيق اهداف تتصل بالمصلحة العامة . وفي هذه البلدان قاطبة بادر المهتمون بشؤون السياسة الى الانتماء الى الاندية ، الى تأسيس الجمعيات ، الى نشر البيانات ، الـى صياغة دساتير جديدة ، الى الادلاء باصواتهم في الانتخابات ، الى الانضمام الى الحرس الوطني ، الى التجمع في اطار المهرجانات الجماهيرية ، الى التظاهر في الشوارع ، أو الى الاصغاء الى الخطب

العامة على الاقل . بيد ان لا شيء من هذا القبيل حصل في المانيا .

لكن الالمان لم يكونوا مع ذلك غير مبالين بالاحداث الجارية . فمنهم من كان مع الثورة ومنهم من كان ضدها . كانوا يطالعون بغزارة ، والدليل على ذلك ان عدد الكتب والمجلات الصادرة في المانيا كان مرتفعا ، بل ربما كان أضخم فيها منه في أي بلد آخر . وكان جيل عام ١٧٨٩ العصر الذهبي للادب والفلسفة الالمانيين ، عصر غوته ، شيلر ، كانط ، فيختته ، هيغل ، هردر ، شليرماخر ، تييك ، نوفاليس ، الاخوين شليغل ، والاخوين هومبولت . وكان لهؤلاء الرجال جميعا أفكار حول العصر الذي يعيشون فيه . بيد انهم ظلوا ، اساسا ، من المشاهدين . فلم يكن ثمة ثوريون المان ، وانما جمهرة من فلاسفة الثورة ومن شراحها والمعقبين عليها . وكثيرا ما قيل ان الطلاق بين الفكر والعمل هو السمة المميزة للثقافة الالمانية . ولكن ليس هذا الانفصال ، في الواقع ، هو ما ميز المانيا في عالم الثورة الفرنسية ، وانما شبه انعدام العمل وفيض الفكر .

في السبعينات او الثمانينات من القرن الثامن عشر توجه الفكر في المانيا ، كما في خارجها ، نحو قضايا الحكم والمجتمع . لقد تسيس ، وانما على نحو غير سياسي . كان هنالك حرص شديد على النظر الى الدولة في سماء التجريد ، لا الى وضع خطط العمل . ولم يكن ثمة سعي لتحمل المسؤوليات ، أو لمحاكمة الامور من منظور الخيارات البديلة والنتائج ، او للتوجه الى اشخاص من لحم ودم ، أو لعقد التحالفات بواسطة المساومات التكتيكية . أمسى الفكر السياسي مثاليا ومطلقا . لم يكن يهتم بالمسائل الاختبارية بقدر ما كان يهتم بماهية السياسة : **الدولة في ذاتها** ، الحرية ، الحق ، القانون ، الكرامة الانسانية ، حركة التاريخ العامة . كان للالمان ميل شبه شعبي الى الميتافيزيقا . فكان اشعاع فلسفة كانط يتخطى قاعة المحاضرات . وكان مفهوم الآمر

المطلق ، الصوت الداخلي للواجب في المطلق ، دونما بحث في نوعية الواجبات ، قد أمسى شبه مذهب قومي . وكان هذا المفهوم ينوب عند بعضهم مناب الدين الصارم والمتزمت ، ويمنح بعضهم الآخر اخلاقية مماثلة للفكرة الفرنسية عن حقوق الانسان والمواطن .

كان تقاعس الالمان عن العمل السياسي ناجما عن طبيعة حكوماتهم وعن العلاقات بين طبقاتهم الاجتماعية . كانت « المانيا » مجرد تعبير جغرافي واثني . فعلى الصعيد السياسي ، كانت هنالك **الامبراطورية الرومانية المقدسة** التي لم يكن لها ، من حيث المبدأ ، أي سلطة . كانت تضم ما يقارب من ثلاثمئة دويلة ، بعضها يحكمها امراء وبعضها الآخر اساقفة او رؤساء اديرة ، بالاضافة الى خمسين مدينة حرة وألف فارس امبراطوري . وكان هؤلاء متحدرين من أسر ارستقراطية عرفت كيف تتدبر امورها ، قرنا بعد آخر ، للافلات من وصاية الحكم ، أيا ما كانت هويته . وكانت المدن الحرة ، على وجه العموم ، اوليغارشيات مغلقة من النبلاء بالوراثة . وفي دويلات الامراء ورجال الدين ، كان الحكم مناطا بموظفين محترفين ، لا يعيرون الرأي العام بالا . وفي بعض المناطق ، وعلى الاخص في الفورتمبورغ ، حيث كان النبلاء اعلنوا انفسهم فرسانا امبراطوريين مستقلين ، كانت « هيئات تمثيلية » من النمط القروسطي لا تزال تعقد اجتماعات بين الحين والآخر موفرة ظاهرا من الحياة البرلمانية .

كانت المانيا ، في مناطقها المتاخمة للحدود الفرنسية ، مجزاة الى ما لا نهاية ان جاز التعبير . فالضفة اليسرى للراين كانت تعج بمئة وخمسين سلطة قضائية . اما الشرق فكانت تحتله الدولتان الالمانيتان الهامتان الوحيدتان ، المملكة البروسية والمملكة النمساوية . وكانت كلتاهما تفرض هيمنتها على عدد من البولونيين ، ولاسيما بعد عمليات التدخل والتقسيم في عام ١٧٩٣ و ١٧٩٥ . وكان لكلتا المملكتين حكومة قوية وصارمة . وقد استعرضنا في الفصل الخامس مراحل ازدهار الحركة الاصلاحية

وأفولها في ممتلكات آل هابسبورغ . وقد ظلت روح التجديد ، بلا ادنى مراء ، اكثر فاعلية في بروسيا . ولم تكن تترجم عن ذاتها من خلال معارضة عامة للحكم ، وانما من خلال وجهاء الدولة البروسية .

كانت الطبقات الوسطى في بروسيا تثق في الملكية . ولئن كانت تتعاطف ، بوجه العموم ، مع الثورة الفرنسية ، فانها ما كانت تشعر بضرورة حصول انقلاب من هذا القبيل في بروسيا . ولم تكن الملكية في الحقيقة معادية للافكار الجديدة . ففي عام ١٧٩٤ قدّر الوفد البريطاني ، اللورد مالمسبوري ، ان سلك الضباط البروسيين اصابته « عدوى » الديمقراطية . في عام ١٧٩٥ ، عدلت بروسيا عن حربها مع فرنسا ومكثت على الحياد لمدة احد عشر عاما . وقد الغى الملك القنانة في المناطق الخاضعة لسلطانه ، أي في ممتلكات العرش . وكان الجيش محط رعاية خاصة وقبلة خطط اصلاحية عدة . ففي عام ١٧٩٧ ، استشهد احد الضباط بالامثلة الهولندية والاميركية والفرنسية ليؤكد ان الاشخاص المرتبطين عاطفيا بنظامهم السياسي يتفوقون على سواهم في المناقبية العسكرية . ودعا ضابط آخر الى الغاء الكرباج والضرب بالعصا وغيرهما من العقوبات المذلة التي تستنفد شجاعة الجندي واقدامه بتوجيهها طعنة قاسية الى عزة نفسه . وطالب ضابط آخر بأن يكون الجنود البروسيون من « المواطنين الفعليين » ( لا من المرتزقة القادمين من الخارج ) وبقبول ابناء الطبقة الوسطى في صفوف الضباط . صحيح ان معظم هذه الاقتراحات لم يطبق ، بيد ان الناس عامة كانوا يثقون بحسن نيات الحكومة .

كان يسود بروسيا ، واصغر الدويلات حجما ، احترام عظيم للسلطة ، وثقة أكيدة بالقادة وبمستشاريهم ، ونزعة الى اعتبار الهيجان الشعبي والضغط على السلطة ، بل مجرد انتقاد السلطة ، امورا غير لائقة . وكان هنالك تقبل أكيد لبنية الطبقات الاجتماعية . وكان اختلاط هذه الطبقات فيما بينها أضعف بما

لا يقارن مما عهدناه في ايطاليا وفي اوروبا الغربية عامة . وكان الفلاحون ، باستثناء المناطق الشرقية ، احرارا في نظر القانون ، وكانو ينعمون ، في بعض الاحيان ، بالرخاء والازدهار . لكن لم تكن ثمة مصالح مشتركة بينهم وبين المدن ، التي كانت امتيازاتها تجعلها تتفرد بوضع على حدة . ونادرا ما كان النبلاء يعقدون على نساء من الطبقة البورجوازية ، بل ما كانوا يرتبطون بالبورجوازيين بعلاقات عمل الا في حالات استثنائية . وكان البورجوازيون هم سكان المدن ، مدن جميلة وقديمة في آن معا . وكانت مدينة هامبورغ ، المرفأ التجاري الحيوي والعصري ، تشكل استثناء بارزا ، غير أن مواطنيها الاثرياء كانوا يتوجهون بنشاطهم وافكارهم نحو العالم الخارجي لا نحو المانيا . وفي هامبورغ والمدن الحرة الاخرى ، كان الوجهاء البورجوازيون يحكمون أنفسهم وسكان المدينة ورعاياهم في الارياف المحيطة . لكن لم يكن للبورجوازيين بالمقابل ، لا في المدن الحرة ولا في مدن بروسيا ولا في « دييت » فورتمبرغ ، فرصة للتحرك على مسرح اوسع او للتحالف مع النبلاء الريفيين لتحقيق اهداف مشتركة . وفي بروسيا ، كان الاقتصاد تابعا للدولة . وبشكل عام ، كان الالمان المنتمون الى الطبقة الوسطى من ذوي الشرط الاجتماعي الوضيع : موظفون محليون ، حانوتيون ، محامون ، معلمو الطوائف الحرفية ، اساتذة الجامعات ، كتاب ، موسيقيون ، صحفيون ، ناشرون ، قساوسة ومستخدمون لدى الحكومة . كانوا يتذمرون ، بين الحين والآخر ، من النبلاء ، بيد ان العلاقات بين الطبقتين كانت تتسم بالتحفظ وبتجنب الاستفزازات والتحديات . كان البورجوازيون الالمان يؤيدون حقوق الانسان ، ويتمنون سعادة البشرية ، ويعيرون اهتماما شديدا لـ « الانوار » الاوروبية ، غير انهم ما كانوا يضمرون أي شعور بالعداء الثوري ازاء أي كان . ولئن كانوا يتعاطفون ، بوجه عام ، مع الثورة الفرنسية ، فانهم كانوا يعزونها الى اسباب فرنسية نوعية بدون ان تراودهم فكرة تطبيقها على انفسهم .

في بلد منقسم على هذا النحو الشديد ، كانت الآراء الفكرية حول المسائل المجردة تتخطى الحدودية ، ولكن كان يتعذر على اي حركة تعكس شكوى ذات صلة بالواقع،وتدعو الى العمل ، ان تتعدى الحدود السياسية على بعد بضعة كيلومترات . فما يناسب منطقة بعينها ما كان يوافق حاجات منطقة اخرى . ولم يكن هنالك رأسمال ، ولا بنية فوقية ، ولا قادة مشتركون ، ولا هدف مركزي تتعاضد الجهود على بلوغه . كان النبلاء والبورجوازيون والفلاحون يعيشون في عزلة عن بعضهم بعضا . وكان نصف الالمان من البروتستانتيين ، ونصفهم الآخر من الكثالكة ، وكان بين الطرفين حساسية واضحة بالفروق . باختصار ، لم تكن المانيا « أمة » ، في زمن كانت فيه « الامة » أمة او المجتمع المدني واحدا من التصورات الثورية الرئيسية . فمن جملة ما تمثله الامة اضطلاعها بدور « وسيلة نقل » العمل البشري الجماعي . وقد افتقرت المانيا الى وسيلة النقل هذه .

على الصعيد العملي ، تركزت الاضطرابات الرئيسية في منطقة رينانيا . لكن قبل ان نستعرض هذه الاضطرابات ، سنلقي نظرة عابرة على ما حصل في مناطق أخرى .

في عام ١٧٩٠ ، اندلع تمرد فلاحي واسع في منطقة ساكس. فقد بلغ فلاحي هذه المنطقة ، المعانين الامرين منذ زمن بعيد ، والمكابدين من البؤس والاضطهاد ، نبأ قيام ثورة فلاحية في فرنسا . فتسلحوا بما تيسر لهم من وسائل دفاع بدائية ، وهددوا سادتهم الذين التجؤوا الى درسدن . واستطاعوا ان يفرضوا سيطرتهم ، لمدة اسابيع ، على مساحة قدرها الف وخمسمئة كيلومتر مربع . لكن ما من ساكن من سكان المدن تعاطف مع قضيتهم ، ولم يتخط عصيانهم حدود الساكس . لذلك سرعان ما اعادت القوات الرسمية الامور الى نصابها وقضت على حركتهم . وبعد ثلاثة اعوام ، في عام ١٧٩٤ على وجه التحديد ، وقعت اضطرابات مماثلة في سيليزيا ، المقاطعة البروسية المتاخمة للحدود البولونية ، وآلت

الى المصير عينه .

هامبورغ ، أكثر مدن المانيا تقدما من الناحية التجارية ، كانت ايضا أكثر مدن المانيا تعاطفا مع الثورة الفرنسية . كان فيها ، على ما يقال ، واحد واربعون مليونيرا ، وقد بادر احدهم ، ويدعى هنريك سيفكينغ ، الى تحويل بيته الى شبه ناد سياسي يؤمه الفرنسيون والهولنديون والارلنديون والاميركيون ووطنيون المانيون . ومع ان جماعة سيفكينغ كانت تتألف من اناس اثرياء ، فقد خصت الكاتب الثوري ، بل « الاشتراكي » ، ا.ج. ربمان باستقبال حار لدى مروره بهامبورغ في عام ١٧٩٧ . وكان لهامبورغ ايضا صحافتها اليسارية . وقد تأسست فيها أيضا أندية لاشخاص أكثر وضاعة ، كالشاب فردیناند بينيكه الذي عمّر بما فيه الكفاية ليعايش ثورة ١٨٤٨ .

كانت بلاد الراين ، في التسعينات من القرن الثامن عشر ، عبارة عن طريق جانبية غارقة في ثبات عميق ، غير متأثرة بعد لا بتجارة هامبورغ البحرية ، ولا بحركة التصنيع التي قدّر لها ان تعرفها فيما بعد . كانت مدنها عديدة ، وانما بائدة . كانت اكس – لا – شابيل وفرانكفورت مدينتين حرتين ، وكانت ماينز وتريفن وكولونيا مراكز اساقفة وعواصم دويلاتهم الزمنية . وكانت بون وكوبلانز تابعتين لاسقفيتي كولونيا وتريفن . وكان للثورة الفرنسية تأثيرها الفوري في هذه المنطقة من المانيا . فمنذ عام ١٧٨٩ بدأ المهاجرون الفرنسيون يتجمعون في كوبلانز ولئن حمل عبثهم وعجرفتهم بعض الرينانيين على التعاطف مع الثورة الفرنسية ، فان رواياتهم للفظاعات التي ارتكبت ووصفهم لحالة الفوضى التي عمّت فرنسا جعلت بعضهم الآخر يتشبث بآرائه المحافظة . وفي بعض المناطق، رفض الفلاحون دفع الاتاوات المولوية . وفي اكس – لا – شابيل ، اعرب البروتستانتيون عن استيائهم لان السلطات الكاثوليكية في المدينة رفضت الاعتراف لهم بحقوق مساوية لحقوق الكثالكة . وعبّر ادموند بورك في عام ١٧٩١ عن شعوره بان « ثورة

كبرى هي قيد الاعداد في المانيا » ، وبأن بلاد الراين ، على الاخص، أصابتها عدوى نظرية حقوق الانسان الوبيلة .

كانت الطبقة الوسطى في منطقة الراين تضم بحكم انعدام التطور الاقتصادي اعدادا كبيرة من المثقفين: رجال الدين الكاثوليكي، معلمين، اساتذة جامعات ، طلبة ، امناء مكتبـات ، ناشرين ، صحافيين وكتابا . وقد واجه بعضهم المتاعب قبل قدوم الفرنسيين . ففي ماينز، جُرّد ا.ج. دورش في عام ١٧٩١ من كرسيّه كاستاذ للفلسفة بسبب آرائه الكانطية . اولوجيوس شنايدر ، الذي كان له كرسيّ جامعي في بون ، فصل هو الآخر من منصبه لانه شكك في ألوهية المسيح . فارتحل الى فرنسا ، الى ستراسبورغ على وجه التعيين ، حيث انغمس في الثورة الفرنسية وأعدم فيما بعد بتهمة التطرف . وفي عام ١٧٩٢ ، وفي ماينز ايضا ، أسس جورج فورستر ، أمين مكتبة الجامعة ، والرحالة والكاتب المعروف ، ناديا سياسيا . وكان من بين اعضاء هذا النادي ا.ج. هوفمان ، الذي قام بمحاولة ثورية في جنوب غربي المانيا في عام ١٧٩٨ ، والذي عمّر بما فيه الكفاية لمعايشة ثورة ١٨٤٨ . وقد ألف « يعاقبة ماينز » الاوائل هؤلاء جمعية سرية بطبيعة الحال ، اذ ان القوات النمساوية والبروسية كانت تمر آنذاك بماينز في طريقها الى اجتياح فرنسا .

في تشرين الاول ١٧٩٢ ، أي بعد انقضاء شهر واحد على معركة فالمي ، دخلت الجيوش الفرنسية منطقة الراين . واتصل قائدها كوستين بجماعة فورستر التي بدت له قادرة على تجنيد اعضاء جدد . وخرج « يعاقبة » ماينز آنذاك من السر الى العلن فوجدوا المئات من الاشخاص يشاطرونهم افكارهم في العديد من امارات الضفة اليسرى للراين . ونظم هؤلاء الوطنيون في آذار ١٧٩٣ جمعية تأسيسية رينانية ـ المانية . وادّعت هذه الجمعية انها تمثل سيادة « الشعب الحر » لدولة جديدة ، عرّفت باسم « المنطقة الممتدة من لاندو الى بنغن » ، اذ لم يكن لها من

هويـة سابقـة . وبعد ثلاثة ايام ، صوّتت الجمعية التأسيسية لصالح اندماج هذا الشعب السائد الجديد بالجمهورية الفرنسية.

اقترنت هذه الخطوات بضم فرنسا للبلدان الواطئة النمساوية ولاسقفية لييج ، اللتين كانتا ، كلتاهما ، تؤلفان جـزءاً مـن **الامبراطورية الرومانية المقدسة** ، وتفتقران ، سوية ، للحيويـة السياسية . لـم يكـن مـن المستغـرب ان يسعى هؤلاء المتذمرون من الاوضاع السائدة في ديارهم وراء الاتحاد مـع فرنسا . فلم يكـن لبلجيكـا ولالمانيا من وجود بعـد كمنظومـات سياسيـة فعليـة . ولم يكـن الشعور القومي قـد تبلور بعد ، علاوة ان الفرنسية كانت لغـة مألوفـة . وبمـا ان البلجيكيين والرينانيين كانوا يلعنـون ذكـرى لـويس السادس عشر ، فقـد جعلتهم هذه الكراهيـة اكثر استعداداً للتماثل مع الشعـب الفرنسي الثوري الذي تحرر من نظامه الملكي وبدا وكأنه يمثـل تحرر البشريـة . وكان ثوار بلاد الراين ، على غرار الديمقراطيين البلجيكيين ، يتأملـون من الجمهورية الكبرى ، عندما يصبحـون مواطنيها ، تسامحـا اعظم ازاء آرائهم وضمانة اكبر لامنهـم الشخصـي .

لكن هزيمة دوموريه في نرفندن قلبت فجأة الاوضاع رأسا على عقب . فأخلى الفرنسيون بلاد الراين ، كمـا فعلوا في بلجيكا أيضا ، وساد في صفوف اعداء الثورة ، طيلة عام ١٧٩٣، تفاؤل باقتراب ساعـة انهيار الجمهوريـة في فرنسا .

بيد ان الفرنسيين عادوا ثانية ، وشهد عام ١٧٩٧ فـورة ثورية جديدة في بلاد الراين ، تبلورت في المطالبة باقامةجمهورية لرينانيا الغربيـة ، على غرار الجمهورية الباتافية او جمهوريـة الالب الغربية ، تضم ضفـة نهر الرايـن بأكملهـا ، مـن الالزاس وحتـى الحدود الهولندية . ولم يكـن انصار هـذه الجمهوريـة يتعـدون الالفيـن او الثلاثة آلاف . كانوا يتألفون اساسا مـن **يعاقبة ماينز** ، ومن بعض المستائين من عودة النظام القديم ، ومـن

بعض المتورطين مع الفرنسيين ، اي من المتعاونين مع سلطات الاحتلال الفرنسية . كانوا يصبون الى ثورة بلا « دموع » ، ثورة انسانية تتفق مع عقلية عصر **الانوار** ، والى جمهورية حرة وعصرية ، معصومة من تدخل الشعب وعنف الجماهير ، يضمن الجيش الفرنسي امنها ونظامها . لكن **حكومة الادارة** الفرنسية رفضت ان ترعى قيام جمهورية مستقلة لرينانيا الغربية . وابدى العديد من الرينانيين ، ممن انتابتهم الشكوك حول قدرة مثل هذه الجمهورية على الاستمرار والبقاء ، عن استعدادهم للموافقة على انضمام بلادهم الى فرنسا . وعمت بلاد الراين عرائض تطالب بالضم ، مذيلة بآلاف التواقيع . وكان الناس، في مطلق الاحوال ، لا يرون من حل بديل . وقد ضمت بلاد الراين الى فرنسا في عام ١٨٠٠ ، وظلت مندمجة بها ، حتى عام ١٨١٤ . وفي اثناء ذلك ، ألغيت الحقوق المولوية ، وسنّت القوانين ، وقنّن النظام الضريبي ، وحدّثت المحاكم والادارة . ثم أعيد الجزء الاكبر من هذه المنطقة ، بعد ان تجانست وتحدثت وتحررت ، الى بروسيا في مؤتمر فيينا .

حصلت بعض التحركات الثورية في الضفة اليمنى ايضا لنهر الراين ، تجاه الالزاس . فقد تأسست أندية لمناصري الثورة برعاية اشخاص ميسورين من ابناء الطبقة الوسطى : اطباء ، محامين ، تجار ، موظفين ، اشخاص يتمتعون بمداخيل مستقلة . وكان بعضهم شارك في المؤامرة التي كان للمبعوث الفرنسي بوتراتز يد فيها ، والتي شجعتها حكومة الادارة اول الامر ثم تنكرت لها في عام ١٧٩٦ . وعندما انطلقت شرارة الثورة في سويسرا في عام ١٧٩٨ ، حاولت مجموعة صغيرة من الالمان ، المقيمين في بال ، الاطاحة بحكومة بادن . وفي اثناء ذلك، تجددت الصراعات القديمة في مقاطعة فورتمبرغ . وطالب نائب ، يدعى باس ، بالتدخل الفرنسي . وطرح مشروع اقامة جمهورية سواب والدانوب . وفي عام ١٨٠٠، كشف النقاب عن مؤامرة

جمهورية في بافاريا . لكن ما من حركة من هذه الحركات حظيت بدعم فرنسا ، وما من واحدة من بينها دللت على قوة ذاتية تذكر .

باختصار ، لم تحمل التسعينات من القرن الثامن عشر في المانيا شيئا يذكر على صعيد الاحداث . مع ذلك ، ثبت ان التغيير الذي طرأ على المانيا في مستهل العصر النابوليوني اكثر تأصلا واقدر على الاستمرار من التغيير الذي عرفته معظم الاقطار الاوروبية . فالامبراطورية الرومانية المقدسة ، التي كانت معاهدة كامبو – فورميو ، التي ابرمتها فرنسا والنمسا في عام ١٧٩٧ ، قد وجهت اليها ضربة قاضية ، انطفأت تماما في عام ١٨٠٦ . وجرى ، تحت رعاية نابوليون ، تجميع كياناتها السياسية ، التي كانت تقدر بالمئات ، في اطار عشرين دولة . وتم « تثوير » ضفة الراين اليسرى ابان انضمامها الى فرنسا . وفي الجانب الشرقي من نهر الراين ، وفي الدويلات التي كان يرعاها نابوليون – بافاريا ، فورتمبرغ ، وستفاليا وغيرها – كانت الادارات الالمانية تتعاون تعاونا وثيقا مع الفرنسيين . وقد أجريت التغيرات الضرورية لاقامة مجتمع اكثر عصرية ، لكنها تمت على أيدي الحكومات القائمة ، اي دونما طعن في السلطة ، وبدون ان تخلف ذكرى شعب ناضل لتثبيت حقوقه ، وبدون ان تنفح الثقة في نفوس ابناء الطبقة الوسطى ، وبدون ان تقوض دعائم الاسر الارستقراطية القديمة التي حافظت ، عموما ، على موقعها المرموق حتى هزيمة المانيا في الحرب العالمية الاولى .

* * *

في ميدان الفكر كان اعمق الاثر الذي خلفته ثورة ١٧٨٩ في المانيا . فقد عززت ضربا من نزعة محافظة ، بل مناهضة

للثورة اكثر منها محافظة بالمعنى المتعارف عليه ، ومهدت الطريق امام النظرية القائلة ان الثورة ظاهرة كبرى من ظواهر التاريخ العالمي ، وتحرر شامل للعقل البشري ، وليست مجرد صراع عابر بين جماعات خاصة ترمي الى تحقيق اهداف خاصة .

في المانيا ، كما في خارجها ، سبقت النزعة المحافظة الثورة الفرنسية . بيد انها لم تكن في المانيا نزعة طبقة حاكمة صاحبة تجربة وخبرة ، كما في انكلترا مثلا . فالمذهب المحافظ في المانيا كان ، في المقام الاول، فلسفة مثقفين غرباء عن الاوساط الحاكمة . لقد صاغه ، بعد عام ١٧٧٠ ، مثقفون تبنوا موقفا معارضا من « الانوار » . وكان هذا المذهب يبرر، في بعض الاحيان ، الدويلات الصغيرة وخصائص الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ممتدحا المؤسسات القروسطية ، ومغتبطا لديمومتها عبر الزمن . وكان ، في احيان اخرى ، ينهل من معين الدفاع عن الدين ومناهضة الفكر العقلاني والنقدي . هكذا اصدر البروتستانتي هـ.م. كوستر في عام ١٧٧٧ صحيفة **عصر الدين الجديد** بهدف محاربة النزعة الى الفكر الحر .وفي التسعينات من القرن الثامن عشر ، هاجم الثورة ، معتبرا اياها حصيلة مؤامرة سرية . وقبس الاسكوتلندي روبنسون جزءا كبيرا من معلوماته من كتابات كوستر عندما وضع في عام ١٧٩٧ دراسته المعروفة بعنوان **ادلة حول مؤامرة تستهدف الحكومات والديانات كافة** .

وفي الاوساط الكاثوليكية الالمانية ، حملت جماعة من الآباء اليسوعيين القدامى على « الانوار » ، وعلى الاخص على « الاشراقيين » الذين اكتشف أمر تنظيمهم في بافاريا وقضي عليه في عام ١٧٨٦ . وكان **الاشراقيون** عبارة عن جمعية سرية ، وضع بعض اعضائها نفسه في خدمة الدولة البافارية وبعض الدول الاخرى ، وكانت تبغي العمل على تغيير العالم عن طريق الاقناع وغير الاقناع . ولم تكن ، بحد ذاتها ، ذات اهمية تذكر ، وقد قضي عليها على كل حال . وانما تكمن اهمية هذه

الجمعية في السيكولوجيا التي استثارتها . فان كانت الثورة تمثّل في نظر فريق من الالمان مرحلة عظيمة في تاريخ البشرية، فانها لم تكن بالمقابل ، في نظر فريق منهم ، سوى تدخل من قبل بعض المتآمرين في الشؤون العادية .

في عام ١٧٩٠ ، دعت حكومة دويلة ساكس ، التي هزتها الثورة الفلاحية التي أسلفنا الكلام عنها ، امين مكتبة دوق ساكس ـ غوتا ، هـ.أ.أ. رايشارد ، الى اصدار صحيفة تطعن في الآراء الثورية . فاستجاب رايشارد لهذا الطلب واصدر **تقويم الثورات** التي استمر صدورها حتى عام ١٨٠١ . وقد ملأ رايشارد صفحات جريدته بفيض من الوثائق والمقالات ، تدرج من نقد لوثر اللاذع للثورة الفلاحية الكبرى الى مديح الجمعية التي اسسها جون ريفز في انكلترا في عام ١٧٩٢ باسم **جمعية حماية الحرية والملكية ضد الجمهوريين والمساواتيين** .

وفي اثناء ذلك كان ل.أ. هوفمان يشن في **المجلة الفييناوية** حملة عنيفة على الجمعيات السرية ، المسؤولة في نظره عن الاضطرابات الثورية . وألف هوفمان ورايشارد وآخرون جمعية سرية مناهضة للثورة عرفت باسم **أودامونيست** Eudamonistes واصدروا صحيفة اطلقوا عليها اسم **اودامونيا** . وكان بعض أفراد هذه الجمعية من الماسونيين السابقين ، فزعموا انه تأتى لهم ، قبل سنوات ، ان يطلعوا بصفة شخصية على النشاطات التآمرية . وقد اتهموا وادانوا عددا من الشخصيات الحكومية ومن اساتذة الجامعات الذين كانوا في نظرهم **يعاقبة** متسترين خلف اقنعة كاذبة . وشنوا حملات قدح بواسطة الرسائل . وقد اضطر فيخته ، بنتيجة واحدة من هذه الرسائل ، الى التخلي عن عمله التعليمي في ايينا . وعندما وجهت في فيينا تهمة **الاشراقية** الى الرقيب ذاته ، بادر هذا الى منع **اودامونيا** في النمسا . واتخذت دويلات المانية اخرى اجراءات مماثلة ، فتوقفت الصحيفة عن الصدور في عام ١٧٩٨ .

وقف عدد كبير من الالمان من الثورة موقفا غير مبال : لم يكن متحمسا لها ، ولا كان يعاديها . وثمة فريق آخر آثر الحياد ، بمعنى انه كان يكره الثورة الفرنسية ، ويرتاب في الوقت نفسه في حركة تتزعمها انكلترا ، « قرطاجة الحديثة »، وسيدة البحار ، ولا يشعر باي تعاطف لا مع آل بوربون ، ولا مع المهاجرين الفرنسيين ، ولا مع الكنيسة الكاثوليكية .

كانت المواقف اللاسياسية شائعة بكثرة : فقد كانت السياسة ، في نظر الكثيرين ، ضربا من نشاط من مستوى ادنى. وكانت النزعة الاخلاقية هي الدُرجة الدارجة ، وكان هنالك من يدعي ان الحرية الحقيقية فضيلة روحية وداخلية ،وان النجاح لن يكتب لاي برنامج سياسي ما لم يطبّق من قبل اشخاص نابغي الفكر . فالاصلاح ، كما كان يقول التقوي (١) يونغ ستيلينغ، لن يكون الا من صنع عالم مسيحي طاهر وطيّع ، وليس من صنع « روح التمرد والثورة » . وكان بعضهم يعتقد ان الثورة ممتازة في مبدئها ، لكنها انحطت على ايدي الفرنسيين .

عندما بدأت الحرب ، في عام ١٧٩٢ ، نظم كلوبستوك نشيدا للثورة الفرنسية . وكان تييك الشاب يحلم بأن يحارب في صفوف دوموريه ، ويشبّه الفرنسيين بالاغريق في معركة ترموبيل (٢) . ولا يسعنا معرفة المشاعر التي اختلجت بها حقا نفس غوته في فالمي . فقد كان بين أفراد حاشية ملك بروسيا، وشاهد بأم عينه تقهقر الجيش البروسي الشهير امام لامترولي

(١) التقوي : من انصار التقوية ، وهي حركة دينية نشأت في المانيا في القرن السابع عشر وأكدت على دراسة الكتاب المقدس ، والخبرة الدينية الشخصية . « م » .

(٢) ترموبيل : مضيق جبلي في تساليا حاول فيه ليونيداس ، على رأس ٣٠٠ اسبارطي ، ان يوقف زحف الفرس بقيادة احشويروش سنة ٤٨٠ ق .م.

« م »

كليرمان . ولـم يتذكـر ، الا في وقت لاحق ، ما كـان تنبأ بـه في ذلـك اليـوم عندمـا قال: « هنا ، وفي هذا اليوم ، يبـدأ عصر جديد في تاريخ العالم » . وتجدر الاشارة بالمناسبة الـى تجرد هذه النبوءة . فقد كـان قصده ان يقول ان الحدث يرتدي اهميـة تاريخية فائقة ، لا ان قضية الفرنسيين هي الافضل .وقد حمل عهد الحريـة خيبات امل عظمى . ففي عام ١٨٠١ ، رأى شيلر ان لا ملجأ للحريـة ، لا على الارض ولا في الحياة العامة: « لا وجود للحريـة الا في عالم الاحلام، ولا تفتح لازهار الجمال الا في الاغاني » . اقـد تحاشى غوته وشيلر وفيلند وفلهلم فـون هومبولت الانغماس في المساجلات الكلاميـة المناهضة للثـورة . بيد ان العنف والتعصب اللذيـن تمخضت عنهما الثورة كانـا يثيران نفورهم . كانوا يخشون من ان يؤدي هذا الاهتمـام بالشؤون السياسية الى الحط من مكانة الثقافـة العليـا التـي كانت موضـع اهتمامهم . وكانوا يعتقدون ان الثورة الفرنسيـة خانت الحريـة وتنكرت لهـا . ذلـك انهم ما كانوا يسعون وراء الحريـة المدنيـة ، او حتى الفكرية ، بقدر مـا كانوا يبحثـون عن حريـة الفنان الخلاقة ، تلـك الحريـة التي علقت عليهـا الحركـة الرومانسيـة الجديدة أهميـة قصوى . اما المساواة ـ سواء أفيما يتصل بالحقوق الشرعية ، ام بالمشاركـة السياسية، ام بالارتقاء الى الوظائف والمناصب ، ام بالتربية ام بالثروة ـ فلم تكـن تشغل بالهم قط . فقيـم الحضارة ، وفضائل الشخصيات الرفيعـة الثقافـة ، كانت ذات مغزى اعظم في نظرهم. وكانوا يفوضون امر شؤون الدولة والحكم الى السلطات ، شأنهم في ذلك شأن الشعب المحيط بهم .

وجدت الثورة الفرنسية بالمقابل ، في العقد الاخير من القرن الثامن عشر ، من يدافع عنهـا بحرارة في الثلاثي الفلسفـي العظيم الشأن ، المتألف من كانط وفيختة وهيغل . ومع ان كانط لم يغادر قط كونيغسبرغ ، فقـد كان يتتبع عن كثب ، عن طريق

الصحف ، تطورات الاحداث الجارية في فرنسا . وقد عزا عنف حكم الارهاب الى تهديدات الثورة المضادة ، وابدى عن حذر وارتياب تجاه الانكليز .وما كتبه حول **السلم الدائم** في عام ١٧٩٥ اتخذ مبررا للحياد البروسي . وكان كانط يرى في المثل الاعلى للمساواة تطبيقا لمذهبه القائل انه يتعين على كل انسان ان يعيش على نحو يغدو معه مبدأ سلوكه قابلا للتحول الى قانون عام . كان يعتبر الثورة ، على جميع الاصعدة ، فعلا اخلاقيا، توكيدا من الانسان على حريته ، ومحاولة لخلق مجتمع تتاح فيه امام الجميع فرصة العيش ككائنات اخلاقية جديرة بالاحترام. وقد حاول بعض تلامذته ان يوظفوا آراءه في خدمة منظور يميني، فزعموا ان الثورة تعجز عن تحقيق اي انجاز ما لم يدلل قادتها على انكار مطلق للذات ، وما لم يكن المواطنون برمتهم متقدمين اخلاقيا . ولم يكن مذهب كانط بعيدا جدا عن مذهب روبسبيير ، الذي كان يقول انه ينبغي ان تكون « الفضيلة » حصيلة الثورة ، لا شرطها المسبق . لم تكن نظرية كانط تدعي الواقعية ، ولم تكن تنظر الى الثورة من زاوية تناحر قوى او مصالح متعادية ، ولم تكن تعطي اي توجيه سياسي . كانت تربط **الثورة** بمقتضيات العدالة وبالعالم كما يراه عمانوئيل كانط .

كان فيخته على اقتناع بأن الثورة الفرنسية هي التي اوحت له مباشرة بنظامه الميتافيزيقي . وقد كتب منشورا مطولا في عام ١٧٩٣ للدفاع عن الجمهورية الفرنسية التي كانت تخوض الحرب . وفي عام ١٧٩٤ نشر **نظرية المعرفة** . وفي عام ١٧٩٥ كتب يقول : « خلال تلك السنوات التي خاض فيها الفرنسيون الحرب ضد قوى خارجية دفاعا عن الحرية السياسية .. توهجت في ذهني القبسات الاولى لمذهبي » . واضاف يقول ان الفرنسيين « حرروا الانسان من القيود الخارجية » فحسب، في حين ان نظامه السياسي ، « نظام

الحريــة الاول » يحرر الانسان من اغلال **الشيء في ذاته** ، او من التأثيــر الخارجي ، ويعلله في مبدئه الاول ككائن مستكف بذاته. كانت حريــة فيخته مطلقــة وكاملة ، ضربا من الاكتفاء الكلي لا يتقيــد فيه **الأنا** بالواقع الخارجي ولا يتكيف معه ، وانما يستعين **باللاانا** ليشيد كونــا خاصا به . كانت هذه الحرية اقرب الى ان تكون استباقا للثوار الرومانسيين الذيــن ستعرفهم الثلاثينــات من القــرن التاسع عشر ، منهــا الى ان تكون تقنينــا لحاجــات الثوار الفرنسيين في عهــد فيخته . فقــد كان هؤلاء ، في عــام ١٧٩٠ وفي الاعوام التالية ، فــي حالة حرب مع خصوم معلنين ومحددي الهوية ، وكانوا يواجهون مصاعــب قابلــة لان تذلــل عــن طريــق العمــل السياســي والتشريعــي . كانــوا يتكلمون باستمرار عن « الحق » والواجبات المدنية ، وكان اللامتسرولون انفسهم يهتمون بالمستوى المعيشي ، وبالكرامــة الاجتماعية ، وبتربية اولادهم وبسقوط الارستقراطيين ، اكثــر مما يهتمون بتحرر الضمير البشري . كان فيخته مع ذلك يعتقد ان مذهبه يعبّر عــن المغزى الداخلي للثورة الفرنسية . وقــد لمح الى ضرورة اقدام الفرنسيين على تبني هذا المذهب رسمياً وان يقدموا لهفي فرنسا منصبالناطق الرسميباسم الجمهورية .

في عام ١٧٩٤ ، اصبح فيخته استاذا للفلسفة في ايينا . ونجح في استقطاب جماعة من الطلاب سحروا به . كان يلقــي المحاضرات ايــام الآحاد ، وينادي بالحريــة والمساواة ، ويهتــم بالشؤون الطلابية ، ويناقش علنــا طبيعــة الله . وارتفــع عــدد خصومه الى حد اضطر معه الى الاستقالة . ومال الى الاعتقاد بانه لم يتعرض للملاحقــة الا لكونه « ديمقراطيــا نذلا » . لذلك شعــر بالتقزز والنفور من المانيا ، واكد جازمــا ان هذا البلد لن يعرف طعم الحريــة ما لــم يطغ عليه النفــوذ الفرنسي ويهميــن . وعلّق آمالــه كلهــا حينذاك على بروسيا . فالى الوزير البروســي الاصلاحي ستروئنسه ، اهدى في عام ١٨٠٠ كتابه **الدولة التجارية**

**المغلقة** ، الذي عرض فيه الاطروحة القائلة ان الدولة « المغلقة » هي الاوفر حظا لتنمية الطابع الاخلاقي والنزاهة لدى المواطنين، بشرط ان تحدّ من علاقاتها الخارجية . وعندما سيطر الفرنسيون على المانيا فيما بعد ، في ظل حكم نابوليون ، طرأ تغيير عميق على تفكيره ،وامسى من أشد انصار النزعة القومية اندفاعا وحماسة ، كما تجلى ذلك في كتابه الشهير **خطاب الى الامة الالمانية** . فلا حرية حقيقية الا بالانصهار في **الانا** الجماعي للشعب الالماني، وبما ان النفوذ الفرنسي ، شأنه في ذلك شأن اي نفوذ اجنبي آخر، مصدر فساد، فالمطلوب تجنبه بأي ثمن كان .

كان لهيغل،اكثر من كانط وفيخته ، الفضل الاعظم في وصل الصلة بين الثورة الفرنسية وفلسفة القرن التاسع عشر الثورية ، وذلك بطرحه فكرتي الضرورة التريخية والاستمرارية،اي بصياغته « الجدلية » التي اعتمدها كارل ماركس فيما بعد . كان هيغل يتابع الاحداث عن كثب . وكان امضى في شبابه ، منذ عام ١٧٩٢ ، اربع سنوات في برن،حيث راقب بعين ناقدة تحركات الاوليغارشية السويسرية ، وتعاطف مع الحركة الثورية في مقاطعة فود . وفي عام ١٧٩٧ انتقل الى فورتمبرغ ، حيث تابع تطورات الصراع الدائر بين الدوق و « الدييت » . غير ان الثورة الفرنسية هي التي كانت تثير حماسته في المقام الاول . كان يأمل في ان تشهد المانيا تحررا مماثلا . ثم صب اعجابه على نابليون ، على غرار الكثيرين غيره من الالمان . لكنه اصبح من انصار الملكية في آخر سنيّ حياته وأيد الملكية البروسية بوجه خاص . بيد انه لم يتنكر يوما للثورة الفرنسية . ولم يكن عليه على كل حال ان يتنكر لها ، اذ انه كان بالامكان ، في اطار فلسفته الجدلية ، النظر اليها بعديا ك « مرحلة » من مراحل التطور البشري ، شكلّت في ايامها ، وان تم تجاوزها فيما بعد ، خطوة ضرورية الى الامام . وعندما اعطى في برلين ، في العشرينات من القرن التاسع عشر ، **دروسا في فلسفة التاريخ** ، كان لا يزال يؤكد ان « تاريخ العالم ليس سوى

تطور مفهوم الحرية » .

كانت الثورة الفرنسية ، في نظره ، اكثر من مجرد صراع بين اشخاص من لحم ودم وفئات اجتماعية ، في زمان ومكان محددين . كانت تجسد مفهوم الحق ، مسيرة الحرية ، حركة الروح . باختصار ، كانت حرية الثورة الفرنسية تعني الانعتاق المظفر **للروح** ، لا للروح الفرنسي فحسب ، او للروح البورجوازي، وانما **للروح** في ذاته، الروح الانساني ان اسم نقل **الروح** المطلق . وربما كان على حق ، من المنظور الفلسفي . وقد استطاع هيغل على كل حال ، وعلى الرغم من توجهه المحافظ في آخر سني حياته، ان يجمع بفضل مذهب الروح هذا آراء كنط وفيخته ، وان يبث فيها الحياة ، وان يجعل منها فلسفة للتاريخ ، سيرورة متواصلة عبر الايام ، يستخدمها ثوار الغد وفق هواهم . وعندما أكد ماركس ان « الروح » مشتق من الظروف المادية ، فان توكيده هذا كان مشتقا ، هو الآخر ، من الرؤية الهيغلية .

بعد عام ١٧٩٣ بدأت عجلة الثورة الفرنسية تتباطأ في دورانها. فقد كبحت الحكومة الثورية بنفسها جماح اللامتسرولين. واعتقل روبسبيير هيبرت ، ووضع **المجلس الوطني** حدا لحكم **الارهاب** . ولم تخنق **حكومة الادارة** صوت بابوف فحسب ، وانما ايضا الصوت العام المطالب بديمقراطية اكثر اتصافا بالطابع السياسي . وتعب المناضلون ودب اليأس في نفوسهم . واجهز بونارت على الثورة . ولئن استحدث بعض التغييرات، وعلى الاخص خارج فرنسا ، فانه لم يفعل ذلك تحت ضغط الثورة الشعبية . وفيما عدا بعض الاستثناءات الباهرة ، فان اليعاقبة الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة عندما عادت الملكية الى فرنسا لم يعودوا من الثوريين . ففي القرن التاسع عشر غدت فرنسا ، بالاجمال ، بلدا محافظا. وبانجاز مهام ثورة ١٧٨٩، توقفت عجلة **الثورة** تماما .

بيد ان فكرة **الثورة** بقيت حية . وقوتها استمدتها من الفلسفة التي ولدتها في المانيا بقدر ما استمدتها من ذكرى ما جرى في فرنسا .

الفصل العاشر

# الارث المتفجر : الاسطورة والتاريخ

هدات العاصفة الثورية بعد عام ١٨٠٠ ، لكن ذكراها بقيت ماثلة في الاذهان ، محفورة في الحافظة الجماعية ، كحدث ماض لا خيار لكل جيل الا ان يكون جزءا من ميراثه . بعضهم عاش على هاجس استيقاظ المارد الغافي ، وبعضهم الآخر علـى الامل في ان يأتي يوم يخرج فيه من سباته العميق . وكان فريق من النـاس لا يأتي بذكر الثورة الا ليعرب عن اعجابه الشديد بها ، في حين كان فريق آخر لا يتناولها لسانه الا بكلمات الازدراء والتحقير . كـان الفريق الاول يرى فيها السبيل الى الخلاص ، في حين كان الثاني يعتبرها من صنع قوى شيطانية . هكذا امست الثورة موضوع اسطورة وتاريـخ في آن معـا . وليس في هـذا مـن تناقض : فالاسطورة تسهم في نمو التاريخ بقدر ما يسهم التاريخ في نمـو الاسطورة .

ان « الاسطورة » ليست بكل بساطة تاريخا طفليا او كاذبا. فليس من المهم على الاطلاق ان يكون بروميثيوس او اوليسوس او اوديب قد وجدوا فعلا . وقد حفظت قصة سقوط آدم على كامل

مدلولها حتى بعد الاكتشافات البيولوجية ، كما ان تاريخية المسيح ليست هي المسألة الكبرى التي تطرحها الاناجيل . ان الاسطورة تطال حقيقة قد تكون اسمى من التاريخ أو قد لا تكون، حقيقة تظل مع ذلك وفي مطلق الاحوال منفصلة عن وجود كائنات واحداث خاصة ، وعن امكنة وأزمنة محددة . وثمة اساطير تحفز البحث التاريخي وتتأدى الى معارف تاريخية جديدة، تماما كما قادت حكايات هوميروس الى اكتشاف الحضارة الميقينية . وهذا شأن بعض « الاساطير » التي احاطت بالثورةالفرنسية. لكن ثمة اساطير اخرى تفتقر الى كل مضمون تاريخي واخلاقي ، وتعطي الدليل على بطلان معتقد الذين ابتكروها . ان قصة اغتصاب اوروبا من قبل زفس المتنكر في صورة ثور ، هي خير مثال نسوقه على هذا الضرب من الاساطير . ويمكننا ادراج بعضاساطير الثورة الفرنسية في اطار هذه الفئة . فهنالك اساطير جيدة وأخرى سيئة ، ويمكننا معرفة ماهية الناس من خلال الاساطير التي استخلصوا منها الدروس .

هنالك اسطورة غير ذات اهمية كبرى ، وانما ثابتة ، تقول ان الثورة الفرنسية لم تكن « فرنسية » على وجه التحديد . تلك كانت ، في القرن العشرين ، واحدة من افكار شارل مورا الاساسية والمأثورة . وتعود أبوة هذه الاسطورة الى مناهضي الثورة الفرنسيين الاوائل . وقد تبناها ادموند بورك الذي ادعى ، في عام ١٧٩٣ ، ان الشعب الفرنسي الحقيقي يتمثل في الثلاثين الف مهاجر فرنسي ، وان الثوار هم بمثابة لصوص دخلوا البيت بعد اقتحامه عنوة. فينظر مورا،الذيحكمعليه بالسجن المؤبد فيعام١٩٤٥ بتهمة التعاون مع الالمان ، كانت الثورة من صنع « دخلاء » : يهود ، بروتستانتيين ، ماسونيين، وغيرهم من الغرباء عن روح الحضارة الفرنسية الحقة . وكانت هذه الفكرة وجدت من يدافع عنها ، بعد عام ١٨١٤ ، في صفوف انصار عودة آل بوربون الى الحكم .

من الاساطير الاخرى التي تغلبت على محنة الزمن الاسطورة

القائلة ان الثورة الفرنسية آلت الى فشل . وقد اقام بعضهم معارضة بينها وبين الثورة الاميركية وزعم ان هذه الاخيرة نجحت لان اهدافها كانت محدودة . وتعود هذه الفكرة الى فردريك غنتز، ان لم نقل الى زمن أقدم . وقد تبنتها من جديد ، في الستينات من هذا القرن ، اميركية نشأت على الفلسفة الالمانية هي حنة ارندت . وقد زعمت أرندت ان الثورة الفرنسية « فشلت » بعد ان ضللها تمرد جماهيري ، مبتذل وأعمى ، على الفقر . وثمة وجه آخر لهذه الاسطورة ، أخذ به اليسار هذه المرة ، يدعي ان البورجوازية « خانت » الثورة . وينطوي هذا الادعاء في الواقع على قدر من الحقيقة . فالثورة لم تحقق جميع الاهداف التي كانت حددتها لنفسها ، كما لم تلب جميع الآمال التي أيقظتها . وقادة الطبقة الوسطى لم يلبوا ، ان لم نقل « خانوا » ، مطالب حلفائهم في الطبقة العاملة في عام ١٧٩٣ . غير انهم لم يخونوا الثورة ، التي كانت اساسا حركة الطبقة الوسطى ، او حركة بورجوازية ، كما نوه الماركسيون بذلك على الدوام . ان الثورة التي « خانوا » ــ هذا ان كان في الامر خيانة ــ هي ثورة خارج الزمن ، او ثورة لاحقة ، صنعت باسم العمال في مجتمع صناعي . لقد نجحت **الثورة** في اقصاء الملكية وطبقة النبلاء والكنيسة ، وفي تقويض البنى الاجتماعية والقانونية **للنظام القديم** . وأدخلت شكلا دولانيا عصريا وجديدا . ولا ريب في انها كابدت من الاحباطات والخيبات واضطرت الى المساومات . لكن اذا ما اصدرنا بحقها حكما قاطعا ب « الفشل » ، نكون قد اخذنا بقيم طوباوية محضة ، ودللنا على نزعة الى التخيل والحلم تفوق نزعة كوندورسيه او روبسبيير ، واشتكينا على غرار فيخته ، من انها لم تحطم الا القيود « الخارجية » ، وادعينا ، أسوة بما فعل بابوف ، انها لم تحقق « لكل واحد وللجميع » ، « فوائد واحدة » .

هنالك اسطورة اخرى ، أقل خواء ، تقول ان **الثورة** لم تكن تستحق كل الجهود والآلام التي رافقتها . فلو افترضنا ان الثورة

لم تقع فان الشروط التي كانت ستسود فرنسا ، بعد مرور نصف قرن على ١٧٨٩ ، ما كانت لتختلف عن تلك التي سادتها فعلا بعد انقضاء نصف قرن على الثورة ، هذا ان لم تكن أفضل . ويدعم أصحاب هذا الرأي موقفهم زاعمين ان شعب باريس ، الذي انهكته حركة التصنيع الوليدة ، والرأسمالية اللامسؤولة ، وشروط العمل اللاانسانية ، وتنامي السكان ، واكتظاظ الشوارع المطرد ، وافتقار البيوت الى ابسط الشروط الصحية ، كان ابأس حالا في عام ١٨٤٠ منه في عام ١٧٨٠ . ويضيف انصار هذا الرأي قائلين ان الجروح التي احدثتها الثورة كانت لا تزال تنزف بعد قرن من الزمن ، وان الفرقاء المتطاحنين لا يزالون يسعون وراء تدمير بعضهم بعضا ، وان جميع الانظمة التي تعاقبت ، حتى القرن العشرين ، كانت تفتقر الى الثبات والاستقرار ، وان اجماع الامة تحطم الى غير ما عودة . لكن حتى لو سلمنا لهذه الملاحظات بقدر من المصداقية ــ علما بانها تشكو من الشطط والغلو ، والدليل على ذلك ان فرنسا كانت راضية عن مصيرها وانها البلد الاوروبي الوحيد الذي لم يعان من الهجرات الجماعية في القرن التاسع عشر ــ فانها لا تندرج في نطاق معرفة ما اذا كانت الثورة تستحق الثمن الذي دفع لقاءها . ان الطريقة الوحيدة للاجابة عن هذا السؤال تكمن في التفكير بالثمانينات من القرن الثامن عشر بلغة الحلول البديلة ، وفي الاستعانة ب « الحساب الاسترجاعي للاحتمالات » الذي رأى فيه ريمون آرون ، قبل ثلاثين عاما ، الاداة الضرورية للمحاكمة التاريخية . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار انهيار الاوضاع المالية الملكية في عام ١٧٨٦ ، ومطالب الطبقتين صاحبتي الامتيازات في عام ١٧٨٩ ، وخطر الاجتياح الذي انذر به بيان برونشفيك في عام ١٧٩٢ ، والدعوة الى اعادة النظام الملكي التي اعلن عنها في بيان فيرونا لعام ١٧٩٥ ، فهل كان بالامكان ان يكون الحال افضل مما كان ؟ هل كانت هيئة الطبقات الثلاث المنقسمة الى ثلاثة مجالس،كما شاء ذلك لويس السادس

عشر وطبقة النبلاء في حزيران ١٧٨٩ ، ستتمكن من الحكم بحكمة وتعقل ، ومن الاستمرار في الحكم حتى عام ١٨٤٠ ؟ ان اجل ، فهل كانت هيئة الطبقات الثلاث ستنجح في نزع فتيل الصراع الطبقي الذي التهب حالما دعيت هذه الهيئة الى الانعقاد ؟ ولو تعذر على هذه الهيئة ان تحكم ، ولو رفض الشعب ان يستمر في تقبل هيمنة النبلاء ورجال الدين ، فبأي وسائل سلمية وتدريجية كانت هذه الهيئة ستصفى او تحول ؟ لا يسعنا في الواقع ان نعطي أي جواب يقيني عن هذه الاسئلة . كل ما نعرفه هو ان الثورة جاءت لها بجواب . وان كان يجوز لنا ان ننظر الى الثورة على انها ضرب من المأساة ، فانه لا يحق لنا بالمقابل ان نعتبرها ضربا من الجنون او الحماقة او العمل غير المجدي . ولئن ثبت أن ثمنها باهظ ، فهذا شأن من شؤون التاريخ .

نلمس ايضا عنصرا من عناصر الاسطورة ، او على الاقل غلوا وشططا ، في الفكرة القائلة ان الثورة كانت ، على وجه الاخص، تهجما على المسيحية وعلى الديانات كافة . ان حملة هذا الرأي يتجاهلون ان العديد من الكهنة الكثالكة ، في فرنسا وايطاليا ، في بولونيا وارلندا ، لعبوا دورا فعالا في الثورة ، وان القساوسة البروتستانتيين في اميركا امتنعوا عن ادانة الثورة الفرنسية ، وانهم شاركوا في العصيان المسلح في ارلندا . والواقع أن الصراع اللاحق بين العلمانيين والاكليريكيين ، والنزعة المادية الهجومية للنظرية الثورية والاشتراكية هما اللذان تحكما برسم مثل تلك المبسطة لثورة ١٧٨٩ .

هنالك ايضا بعض الاساطير الاكثر انصافا بحق الثورة . فسعيا وراء دحض الرأي القائل ان الثورة « لم تكن فرنسية » ، أصر مؤرخون ليبراليون ان يجعلوا منها الحدث الاكثر « فرنسية » في مجمل تاريخ فرنسا ، وعلى اعتبارها تمرد « الامة » الفرنسية على الطبقات صاحبة الامتيازات . ويرسي هذا الرأي جذوره في المقالة الشهيرة التي كتبها سييس في عام ١٧٨٩ ، والتي ماثل

فيها بين الطبقة الثالثة والامة ، معتبرا طبقة النبلاء أقليــة غيــر مجدية . وقد رأى هؤلاء المؤرخون فيها ، أي في الثورة ، خاتمة صراع سحيق القدم ، كانت بدايته الاولى ازدهار المدن والثقافة البورجوازية في العصر الوسيط . ومن هذا المنظور ، الذي وجـد في غيزو ، في العشرينات من القرن التاسع عشر ، من يعرضه في بلاغة ووضوح ، يغدو مجمل تاريخ فرنسا قبل عام ١٧٨٩ قصة صراع طبقتين ــ الشــعب والنبلاء ــ صراع كــانت **الثورة** آخــر معاركه . وكان الثائر الشاب بارناف ، الذي صعد الى المقصلــة في عام ١٧٩٣ وهو لا يزال في الثانية والثلاثين ، قال الشيء نفسه في بحث تاريخي عن الثورة لم ينشر الا في عام ١٨٤٣ .

في«اسطورة» غيزو والمدافعين عن الثورة،نجمت هذه الظاهرة عن اسباب بعيدة تراكمت جيلا بعد جيل . وربما كــانت هــذه الاسطورة خاطئة . وربما وجدنا في الاسباب القريبة والمباشرة تعليلا افضل . وربما لم تكن الثورة امرا محتوما لا منــاص منه . وقد عالجنا هذه المسألة في الصفحات الاولى من هذا الكتاب . لكن ما هو أكثر « اسطورية » بعد في رؤيــة غيزو ، مــا يمكننا اعتباره ضربا من الاسطورة البورجوازية ، هو يقينه بأن أي ثورة لاحقة هي أمر غير محتمل وغير مرغوب فيه،وأن الحرية والمساواة اللتين تم الظفر بهما في عام ١٧٨٩ كافيتان لارضاء الجميع .

لكن ان لم تكن الثورة الا آنا من آناء سيرورة طويلة ، فلماذا كان يفترض في هذه السيرورة ان تتوقف؟ وهل كان بالامكان ، خلال العقدين الثاني والثالث من القرن التاسع عشر ، الافتراض بأن شعب فرنسا ، او شعب اي بلد آخر ، قد تحرر فعلا ؟ وان لا ، **فمن** الذي تحرر ، **ومن** الذي كان لا يزال يترقب تحرره فــي المستقبل ؟ لقد تمخضت أسئلة من هذا القبيل عن مولد ليبرالية الكسي دو توكفيل القلقة . والاجوبة عن هذه الاسئلــة تمخضت بدورها عن ميلاد أقوى الاساطير على الاطلاق : اسطورة الثورة المستمرة او الدائمــة .

* * *

بعد انقضاء ثلاثين عاما على الثورة ، كان بعض متطرفي التسعينات من القرن الثامن عشر لا يزالون على قيد الحياة ، وكان بعضهم لا يزال يناضل. وللمرة الاولى، ظهر الثائر المحترف. فالانسان الذي تتلخص مهنته في العمل من اجل الثورة كان عنصرا شبه مجهول في ثورة ١٧٨٩ ، حيث كان المشاركون في الثورة يضطلعون على حين غرة بأدوار غير مرتقبة ولم يستعدوا لها . ومن بين ثوار الماضي الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة ، كان هناك فيليبو بيوناروتي ، رفيق بابوف في عام ١٧٩٦ . وقد اصدر ، في عام ١٨٢٨ ، كتابا يجمع بين التاريخ والذكريات بعنوان **مؤامرة المساواة المعروفة باسم مؤامرة بابوف** . وقد زعم فيه ان روبسبيير عقد العزم في عام ١٧٩٤ على اقامة نوع من الاشتراكية أو من الديمقراطية الاجتماعية ، وانه أعدم بسبب خطته هذه ، وان بابوف وتلامذته ، الذين رفعوا بدورهم المشعل الذي سقط من بين يدي روبسبيير ، عينوا لانفسهم كمهمة ان يضعوا الحرية والمساواة موضع التنفيذ من خلال الغاء الملكية وتحقيق المساواة في الثروات . وقد كان لهذا الكتاب تأثيره العظيم على الجيل الصاعد من الاشتراكيين الفرنسيين . وترجم على الفور الى الانكليزية واطلع عليه **الميثاقيون** . وساور حتى الذين رفضوا « شيوعيته » انطباع بان ثمة ديمقراطية حقيقية كانت ستتحقق لولا الخيانة في اللحظة الاخيرة ، وبأن عجلة الثورة الكبرى اوقفت قسرا وعلى نحو مباغت ، وبأنه من المحتم ان تتابع مسيرتها .

عاش ضحايا التحول الاقتصادي ، في فرنسا وانكلترا ، سنوات بؤس ويأس. ولئن اعادت ثورة ١٨٣٠ التأكيد على مبادىء ١٧٨٩ ، وطردت آل بوربون من الحكم الى غير ما عودة ، فانها لم تسفر في نهاية المطاف الا عن اقامة ملكية لويس ــ فيليب الاورليانية ، تلك الملكية التي قمعت بشدة مظاهرات الطبقة العاملة واضراباتها وزرعت المرارة في نفوس المثاليين الجمهوريين. لقد افرزت الثلاثينات من القرن التاسع عشر مزيجا متفجرا من ضائقة

اجتماعية عميقة ومن اعادة اكتشاف لاحداث ١٧٨٩ و ١٧٩٣ الكبرى . فبعد صدور كتاب بيوناروتي اعيد طبع خطب روبسبيير ، كما صدرت مجموعة المنتخبات الضخمة ، التي اشرف على نشرها بوشيه و رو تحت عنوان : **التاريخ البرلماني للثورة الفرنسية**. وقد تضمنت هذه المجموعة ، الواقعة في اربعين جزءا ، معلومات تاريخية جمة . ومن خلال هذه المطالعات كوّن الاشتراكيون والجمهوريون والعمال والمثقفون تصورهم للتاريخ الحديث . وقد راجت صورة ايجابية عن روبسبيير في صفوف الجمهوريين الالمان ، وكذلك في اوساط الحركة الثورية الوليدة في روسيا بفضل كتابات بيلنسكي في عام ١٨٤٢ . فبما ان ثورة عظمى حدثت قبل جيل ، وثورة صغرى في عام ١٨٣٠ ، فقد كان من المنطقي التفكير بان ثورة أخرى ستحدث عما قريب .

ان ابتكار مصطلحات اجتماعية جديدة مطلق الجدة أماط اللثام عن ان عقلية ثورية جديدة هي رهن التكون. فقد أطلق سان سيمون مصطلح « الطليعة » الذي كان يعني ان نخبة ضئيلة ستتولى قيادة الجماهير الخاملة نحو عالم المستقبل المتجدد . وسرعان ما طبق هذا المصطلح على السياسة الثورية وعلى الفنون في آن معا . وبعد المحاولة الثورية الاولى التي قام بها بلانكي في عام ١٨٣٩ ، أعيد طرح فكرة بابوف حول الثورة الاجتماعية التي تقودها نخبة صغيرة من المناضلين في شكل جديد ، تولى لينين تطويره فيما بعد . وثمة مناضلون آخرون ، ومنهم ماركس الشاب ، استخدموا كلمة « استلاب » للتعبير ، على نحو اكثر حداثة ، عن العبودية وغياب الحرية . وامسى مصطلحا « اليمين » و « اليسار » دارجين ، وكانا يشيران الى الموقفين السلبي والايجابي من الحركة المستمرة على طريق الثورة . وقد شاع استخدام كلمتي « البورجوازيين » و « البروليتاريين » الى حد بات معه وجودهما ضروريا في كل بحث او نقاش . وما كان برناف وصفه ، في عام ١٧٩٢ ، بالثورة الديمقراطية ، وما صوّره غيزو ومشليه تحررا للشعب ، بات

يعتبر ثورة بورجوازية لا تؤدي الا الى ديمقراطيــة بورجوازية ، تضمن التحرر للبورجوازي لا العامل . وكان لويس بلان من بيـن الاوائل الذين طرحوا هذا التصور الجديد في فرنسا . وكـــان الالماني لودفيغ بورنه قد قال الشيء نفسه في الثلاثينات مـن القرن التاسع عشر : « لم تعد الثورة الفرنسية بالفائدة الا على البورجوازية » .

كانت كلمة « بروليتاريا » تناسب تماما الطبقة العاملــة في الاربعينات من القرن التاسع عشر ، أي في عصر انقسام فرنســا وانكلترا دزرائيلي الى « أمتين » ؛ عصر تحول اجراء الصناعــة الى منبوذين من قبل حضارة بلادهم . أما كلمة « بورجوازي » ، فقد اتسمت منذ البداية بمدلول غامض ، ملتبس . وقد استخدم هذا المصطلح للاشارة الى شريحــة اجتماعيــة لا تنتمي لا الـــى الارستقراطية ولا الى سواد الشعب ، شريحة اصحاب المهـن الحرة ، والتجارة ، والموظفين ؛ والاشخاص المتثقفين المتمتعين بوضعية ثابتة وبمداخيل شبه مستقرة . والواقع ان هذه الفئــة من الناس كانت شكلت الدعامة الرئيسية لثورة ١٧٨٩ في الاصقاع الاوروبية كافة .

غير ان كلمة « بورجوازي » أخذت أيضا مدلولا مختلفا عــن المدلول الذي أعطى لها في عام ١٨٣٠ . فقد امسى البورجوازي جديرا بالاحتقار ، باعتباره انسانا غير مستنير ، مبتذلا ، يعوزه الارهاف الذي هو وقف على الطبقات الراقية الحقة. وامسى ايضا جديرا بأن يحسد بصفته رب عمل ؛ بصفته شخصا ينعم بفوائــد اقتصادية غير مستحقة وبمستوى حياة راق . وفي نظر كارل ماركس فان البورجوازي كائنا من كان ، امبتذلا ام مرهفا ، أسوقيا أم نبيلا ؛ هو من يملك وسائل الانتــاج ويستفيد مــن استغــلال الشغيلة . باختصار ؛ أضحى البورجوازي الهدف المعين للثورة المقبلة .

هذه الثورة اعلن عنها **البيان الشيوعي** الذي اصدره ماركس

وانجلز قبيل ثورة ١٨٤٨ . وقد تنبأ هذا البيان بثورة أوسع واشمل بكثير من الاحداث الثورية التي شاءت المصادفة ان تعقب صدوره . ثورة لم تحدث قط ، اللهم الا في روسيا بعد تصرم حقبة مديدة وفي شروط مختلفة كل الاختلاف . كان **البيان الشيوعي** في جوهره ، شأنه في ذلك شأن كتابات ماركس اللاحقة، عبارة عن تحليل للمجتمع البورجوازي القائم . وقد عكس معرفة انجلز بشروط الطبقة العاملة في انكلترا ، ومشاهدات ماركس في فرنسا في الاربعينات من القرن التاسع عشر،المعززة بدراسته للثورة الفرنسية . وقد تبنى ماركس آراء غيزو حول الصراع الطبقي الدائم الذي صنع تاريخ فرنسا ؛ بيد انه لم يكن يهتم بالثورة في فرنسا فحسب ، بل اعتمد على الفلسفة الالمانية، وعلى نظريات تاريخ العالم ، وعلى الاخص على هيغل ليبيّن أن القوى الفاعلة في المجتمع القائم ستتمخض لا محالة عن ثورة شاملة . فبعد الثورة البورجوازية ، لا بد ان تأتي ثورة بروليتارية .

كان من المفترض ان تتحقق الثورة المرتقبة على يدي طبقة مضطهَدة، مقصية عن المجتمع المتحضر ؛ وانما مثقفة ومسيّرة من قبل طليعة حازمة، قادرة، في اللحظة المناسبة، على انتزاع السلطة من بين الايدي الواهنة للبورجوازية الآفلة ، وعلى اعلان الملكية العامة لوسائل الانتاج ، وعلى تحقيق الحرية والمساواة الفعليتين ؛ الى جانب اضطلاعها بالسلطة السياسية للدولة المرشحة للزوال من تلقاء نفسها في خاتمة المطاف . والحال أن مجرى ثورة ١٧٨٩ كان مختلفا تماما . فقد كان ثمة طبقة قوية وواثقة من نفسها ( « البورجوازية » بالمعنى غير الماركسي ) ، لا تحتاج على الاطلاق الى طليعة ثورية ؛ وتنعم بالمقابل بفوائد الحضارة ، وجدت نفسها مدعوة على حين غرة الى نجدة حكم كان يتخبط في مأزق شديد . فاصطدمت بطبقة صاحبة امتيازات لم تكن قيد الافول ولم تظهر ميلا الى الزوال . وقد حظيت بدعم قوي من قبل الطبقة الفلاحية ( التي لم تخصها الثورة البروليتارية بأي دور ) وعملت يدا بيد ،

على الرغم من ظروف الحرب والغزو ، مع سواد الشعب ، مع اللامتسرولين الذين كانت حماستهم وطنية واجتماعية معا . وبدلا من ان تطلب الفوضى أو تحرر الشخصية الانسانية الذي نادت به الفلسفة الالمانية والرومانسية ، شيدت شكلا من السلطة العامة اكثر فعالية وانصافا ، وبنت دولة اكثر عصرية . لقد كان كل من **البيان الشيوعي** و **العقد الاجتماعي** تكلم عن «الاغلال» . لكن في حين وعد ماركس بتحطيمها ، اكتفى روسو ، الاكثر واقعية ، بالدعوة الى جعلها « مشروعة » . والحق انه بقدر ما كان ماركس واقعيا في تحليله للمجتمع ، كان بالمقابل طوباويا في تنبؤاته للمستقبل .

ان ما حدث في القرن التاسع عشر لم يكن استمرارا للثورة وانما مثلنة لها . صحيح انه حدثت ثورات في اقطار عديدة عام ١٨٤٨ ، كما قامت عامية باريس عام ١٨٧١ . بيد انها تهاوت بسرعة فائقة . على أن انتصار الثورة المضادة بالذات ، والضراوة التي قمع بها العمال اليائسون والجمهوريون المتحمسون وأبيدوا بلا رحمة ، أبقيا في الواقع على النفس الثوري . والحق ان المتطرفين من اليسار واليمين كانوا يقوون بعضهم بعضا . ومع تطور الصناعة ، وزيادة الاجور ، والتخفيف من حدة التناقضات الاجتماعية ، وقبول الطبقة العاملة في اقتراع ديمقراطي بقدر أو بآخر ، فقدت القوى المؤهلة للقيام بثورة حقيقية قوتها بالتدريج ، وامست في أواخر القرن التاسع عشر في حال من الوهن لم تعرفه اطلاقا من قبل . وبعيد وفاة ماركس وانجلز ظهرت « التحريفية » و« الانتهازية » في صفوف الماركسيين . وفي الحرب العالمية الاولى ثبت أن التضامن القومي اقوى من النداء الى ثورة بروليتارية اممية .

في عام ١٩١٨ ، وبعد بضعة أشهر على قيام ثورة اكتوبر ، شيد لروبسبيير تمثال بجوار الكرملين . غير انه صنع من مواد غير متينة ، فتهاوى بعد فترة وجيزة ولم يصر الى استبداله بتمثال آخر . وان دل غياب التمثال على شيء فانما على ان الثورة الروسية ما عادت تحتاج الى الاحتفاء برواد من بلدان نائية بعد ان اصبحت

واقعا ملموسا . بيد ان تخليد ذكرى روبسبيير في عام ١٩١٨ يعني ان لينين كان يفترض أن حركته الخاصة ، رغم طابعها الماركسي ، تتحدر من الثورة الفرنسية الكبرى .

ان انتصار لينين وقيام الاتحاد السوفياتي جددا الايمان بالثورة في اوروبا الغربية . وقد تنكر بعض الماركسيين للينينية ، ومن ثم للستالينية ، وظلوا اشتراكيين او اشتراكيين — ديمقراطيين وانما غير ثوريين ، اللهم الا من حيث عداؤهم للمجتمع البورجوازي . واعترف بعضهم الآخر بماركسية الثورة الروسية واصبح شيوعيا . وصفق لها بحرارة ، وعلى الاخص في فرنسا ، لانه رأى فيها استمرارا عصريا للحركة المجيدة التي انطلقت في عام ١٧٨٩ . وعد الشيوعيون **يعاقبة** القرن العشرين ، دونما تدقيق في الفروق وأوجه التباين .

كانت التوتاليتارية اليمينية ، بأشكالها الفاشية المختلفة،هي الرد على الشيوعية وعلى انبعاث الروح الثورية لدى اليسار . وقد عملت على تجريد الثورتين الفرنسية والروسية من هالتهما. وعلاوة على ملايين الضحايا الذين أبادتهم،أنكرت على الملايين من سكان اوروبا الشرقية حق المواطنية والمساواة الذي كانت اقرت لهم به فرنسا الثورة والجمهوريات الشقيقة . وفي عام ١٩٤٠ أتلفت حكومة فيشي جميع نسخ كتاب **تسعة وثمانون** للمؤرخ الفرنسي الشهير جورج لوفيفر ، وهو كتب كان صدر في العام السابق بمناسبة الذكرى المئة والخمسين لثورة ١٧٨٩ .

★ ★ ★

كان لهذه الاساطير كافة تأثيرها على صياغة التاريخ . ومن نافل القول ان ما من تاريخ كان ايديولوجيا خالصا . لكن كل تاريخ بالمقابل يعكس روح كاتبه وآراءه ، وما من مؤرخ بقادر على وقوف موقف غير مبال بالثورة ، ولا حتى محايد . لقد كان غيزو ، على

سبيل المثال ، لسان حال الطبقة الوسطى البروتستانتية والليبرالية ، وكان ميشليه منشد الديمقراطية ومدّاح « الشعب ». اما لوي بلان ، احد مؤسسي الاشتراكية الفرنسية ، فكان أول مؤرخ قدّم ثورة ١٧٨٩ — في اثني عشر جزءا — على انها « ثورة بورجوازية » . وفي الخمسينات من القرن الثامن عشر برز توكفيل، الارستقراطي الحائر ، الذي كان يؤمن بحتمية الديمقراطية ويرى فيها هبة من العناية الالهية ، لها ما يبررها اخلاقيا ، ولكنها هبة محفوفة بالمخاطر ، يُخشى معها أن يغدو حكم فرنسا بحكم المستحيل بسبب انقساماتها المزمنة ، حتى وان تكن مسؤولية الاوضاع القلقة تقع على ملكية آل بوربون و **النظام القديم** ، لا على **الثورة** . وفي السبعينات من القرن التاسع عشر ، جعل هيبوليت تين ، الذي اخرجته **عامية** باريس عن طوره ، من تاريخه بيانا ايديولوجيا للثورة المضادة . وكان أولار ، في العقد التاسع من القرن التاسع عشر ، اول مؤرخ « علمي » للموضوع . لكن عندما انفجرت فضيحة دريفوس طفحت مشاعره الجمهورية الجياشة من خلف واجهة العلم . اما منافسه الشاب ماتييز فقد رأى ان الثورة بلغت ذروة الديمقراطية الاجتماعية في شخص روبسبيير الذي اسيء فهمه. بالمقابل ، فان لوفيفر ، خليفة ماتييز ، والمتقدم على جميع سلفائه من حيث عمق التحليل وتوازن التفكير ، كان اول من نظر الى الثورة من زاوية المشاركين في الصراع ، وأوّلها تأويلا ماركسيا ، وقد عُد ، بوجه العموم ، اعظم مؤرخ للثورة الفرنسية أنجبه القرن العشرون .

بعد الحرب العالمية الثانية ارتفع صوت يسار جديد . ففي كتاب عن ثوار الطبقة العاملة الذين اعلنوا عن وجودهم بين عامي ١٧٩٢ و ١٧٩٥ ، اعطى دانييل غيران عن روبسبيير صورة البورجوازي ، وصديق العمال المزيف ، وادرج بعجرفة وازدراء كلا من لوفيفر وماتييز في عداد مقرّظي البورجوازية . وبادر لوفيفر ، وقد جرحت مشاعره، الى الرد على غيران بهدوء ووقار ،

منوها بأصله العمالي وباعجابه الدائم بجان جوريس ، الديمقراطي العظيم والماركسي غير الثوري الذي كتب **التاريخ الاشتراكي** للثورة وحصل على دعم من الحكومة لاجراء بحث منظم حول المشكلات الثورية . في عام ١٩٥٤ ، القى الفرد كوبّان ، الذي كان يشغل كرسي التاريخ الفرنسي في جامعة لندن ، محاضرة مثيرة بعنوان : « اسطورة الثورة الفرنسية » . والاسطورة التي يعنيها كوبان هي أسطورة كل من رأى في الثورة الفرنسية انتصارا للطبقة « البورجوازية » على الطبقة « الاقطاعية » . وقد شكك كوبّان ، ضمنا ، في امكانية استخدام المقولات الماركسية في تأويل الثورة الفرنسية . ولمح الى ان اهمية هذه الثورة قد بولغ فيها في مطلق الاحوال . ولئن كانت « بورجوازية » ، فذلك فقط من حيث ان صغار موظفي الدولة عرفوا كيف يتدبرون امرهم للتخلص من طبقة نبلاء كانت تقف حجر عثرة امام تقدمهم وترقّيهم .

رد لوفيفر على كوبّان ردا مقتضبا . فاستعرض المعاني العديدة التي اتخذتها الحرية والمساواة في نطاق الثورة ، والتي اهمل كوبّان التنويه بها ، كما اشار الى ان الثوار ، وان لم يعملوا بصورة واعية على تمهيد الاجواء امام تقدم الرأسمالية ، فانهم طالبوا ، « للمرة الاولى في تاريخ اوروبا » ، بحرية اقتصادية لا يحدها قيد ، اللهم الا ما يقتضيه الامن العام . لقد شقت الثورة الفرنسيةالطريق اذن،على حد قول لوفيفر ، امام مجتمع رأسمالي وبورجوازي .

بعد عام ١٩٦٠ ، أجمع مؤرخو الثورة الفرنسية ، على مختلف جنسياتهم ، على اطلاق صفة « الثورة البورجوازية » على أحداث عام ١٧٨٩ والاعوام التالية . وأولت مجموعة من المؤرخين ، من ذوي الميول اليسارية بوجه عام ، اهتماما خاصا لدور الطبقة العاملة في تلك الاحداث ، لان الموضوع ، من جهة اولى ، اكثر جدة وغير معروف نسبيا ، ولان الطبقة العاملة ، من جهة أخرى ، عارضت البورجوازية ابان الثورة ومارست ضغطا

عليها . هذه المجموعة ، التي ضمت كلا من روده وكوب وهوبسبوم في انكلترا ، كان يتزعمها في باريس البير سوبول . ولاسباب مماثلة ، علق مؤرخون في فرنسا وايطاليا والمانيا الديمقراطية والاتحاد السوفياتي اهمية خاصة على بابوف ، على افكاره ، وعلى « شيوعيته » وعلى المؤامرة التي كان حاكها في عام ١٧٩٦ . وفي عام ١٩٦٠ كرست في ستوكهولم ، ضمن نطاق **مؤتمر الدراسات التاريخية** ، ندوة خاصة لبابوف بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لميلاده . وكان اتفاق على القول ان بابوف لم يكن من الوجوه المركزية للثورة الفرنسية . وجرى التمييز بين الحركة الجماهيرية الفعلية التي شهدتها فرنسا خلال عامي ١٧٩٢ و ١٧٩٣ ، وبين الطابع الاكثر سرية والاقل شعبية لتنظيم بابوف العابر الذي غلبت عليه النزعة النخبوية الثورية . وتكمن اهمية هذه الدراسات في الحاحها على ان البورجوازية ، حتى في أوج ثورتها على « الاقطاعية» والارستقراطية،تعرضت للتشكيك والنقد من قبل الناطقين بلسان الطبقة العاملة ، التي لم تكن قد اصبحت « بروليتارية » بعد . بتعبير آخر ، تكمن أهمية هذه الابحاث في كشفها ، داخل رحم الثورة البورجوازية ، عن جنين ثورة بروليتارية .

أجرى مؤرخون آخرون ، أقل انشغالا بالجانب الايديولوجي، استقصاءات احصائية ليحددوا بدقة هوية « البورجوازيين » في القرن الثامن عشر من حيث الدخل ، والحرفة ، والعمل ، والزواج ، والحراك الاجتماعي . وشكك مؤرخون آخرون ، ومنهم كوبّان والعديد من الاميركيين ، في ان يكون تحليل الطبقات الاداة المثلى لفهم الثورة الفرنسية . فهم يميلون الى الاعتقاد بأن الطبقات الفاعلة في الثورة لم تكن ، خلافا لما تفترضه الماركسية وفكرة الثورة الدائمة ، طبقات متمايزة عن بعضها بعضا من حيث هوية ما تملك او نتيجة تفاوتات ذات اهمية اقتصادية .وهنالك اجماع، في المدارس كافة ، على الاعتقاد بأن الرأسماليين لم يكونوا لا المحرّكين للثورة ولا عملاء قادتها . لكن بما ان مصطلح

« البورجوازية » يستتبع عادة مصطلح « رأسمالية » ، فقد تمنى بعضهم التخلي عن تعابير «البورجوازية» و« الثورة البورجوازية »، و « البورجوازي » ، ما دام استخدامها قد يوحي بأفكار خاطئة. ومن الطبيعي ان يكون هذا الاقتراح قوبل بالمعارضة من قبل كل حريص على المأثور الماركسي . لكنه يبدو مع ذلك معقولا اذا ما اخذنا بعين الاعتبار أن مصطلح « بورجوازي » لم يكن رائجا في ابان الثورة التي يتنطع لتوصيفها . لكن ليس من السهل ، حتى بالنسبة الى غير الماركسي ، ان يتخلى عن مفهوم البورجوازية التي ليست هي بالضرورة ، في التحليل الاخير ، بورجوازية الجدلية الماركسية . فكلمة « بروتستانتي » (١) لم تعرف الرواج الذي عرفته الا بعد انقضاء فترة طويلة على القطيعة مع روما . لكنها ظلت ، مع ذلك ، مفيدة ومعبرة .

★ ★ ★

تبقى اسطورة اخيرة،ذات صلة وثيقة بهذا الكتاب، وقمينة بتوضيح هذه المسائل . انها تقف على طرفي نقيض من الاسطورة المحافظة القائلة ان ثورة ١٧٨٩ لم تكن فرنسية . فهي لا تدعي ان هذه الثورة كانت فرنسية فحسب ، بل كانت ، اولا واخيرا ، فرنسية ، وان ما حصل في الاقطار الاخرى لا يستحق أن يسمى ثورة . انها تنفي واقع الحركة الثورية الاوروبية في القرن الثامن عشر . تدحض ما اسماه المؤرخ الفرنسي جاك غودشو بالثورة « الاطلسية » ، وتنظر بعين الحذر والارتياب الى الفكرة التي وجهت كتابنا ، أعني تصور انقلاب ثوري مشترك شمل اوروبا واميركا ، أو ما كان يشكل آنذاك الحضارة الغربية . ويتخوف ، انصار هذه الاسطورة من أن تفقد **الثورة الفرنسية** مدلولها ومن الا

---

(١) بروتستانتي Protestant تعني اصلا المحتج او المعترض . «م»

تأخذ كامل ابعادها اذا ما نظر اليها على انها جزء من تحرك أرحب وأوسع . وتنطوي هذه الاسطورة ، اسوة بالاساطير الاخرى التي اتينا بذكرها ، على عنصر من الحقيقة التاريخية . فالثورة الفرنسية ، شأنها في ذلك شأن جميع الاحداث البشرية ، تميزت بسمات فريدة . كانت أكثر ثورية ، بما لا يقارن ، من جميع الثورات او المحاولات الثورية التي جرت في الاقطار الاخرى . لكن اسطورة ثورة فرنسية خالصة وحصرية تبقى تحديدية . أما اذا نظرنا الى الثورة الفرنسية من زاوية حركة رحبة شاملة ، بدت لنا أعظم شأنا بما لا يقاس. وبالمثل، فان موجة الغليان الثوري التي اجتاحت اوروبا واميركا تصبح أسهل على الفهم والادراك اذا ما نظرنا اليها من زاوية رد الفعل على الاحداث الفرنسية .

كان معاصرو **الثورة** يدركون تماما ان طابعها يتخطى الحدود القومية . وقد عزا بابوف نفسه ثورة ١٧٨٩ الفرنسية الى واقع « ... قيام ثورة في اميركا الشمالية وحركات شعبية في هولندا وبلجيكا » . ورأى فيها محافظون من أمثال بورك وباروبل عدوى كونية . وفي فرنسا كان الثوريون ، كتلامذة مجتهدين لفلسفة الانوار ، يحاكمون الامور من منظور الانسانية المطلقة . فمن كميل ديمولان الى الديموقراطيين المتقدمين في زمن **حكومة الادارة** ، ومرورا ببريسو والخطباء اليعاقبة والمتطرفين من انصار بابوف ، دعا رجالات الثورة باستمرار الشعوب كافة الى اعلان الحرب على ملوكها . وقد وجد في جميع الاقطار اناس متعطشون الى احداث تغييرات ثورية تندرج في خط الثورة الفرنسية ، وان تأملوا في تحاشي العنف الذي وقعت فيه هذه الاخيرة . وما كانت الفكرة التي تقول ان الثورة فرنسية خالصة الا لتبعث على العجب والدهشة في عام ١٧٩٠ .

مع ذلك راجت فكرة مؤداها أن ما من ثورة ذات شأن حدثت خارج فرنسا . وقد غدت هذه الفكرة « اسطورة » طاغية في السنوات الاخيرة ، اسطورة نهلت من أكثر من معين ، ووجدت من

يمدها بالادلة والبراهين حتى في صفوف الثوار .

فعندما طوقت فرنسا ، في عام ١٧٩٣ ، بتحالف عسكري رجعي ، لم يبادر شعب من الشعوب الى مؤازرتها . لقد ارتفعت بلا ريب أصوات تعبّر عن احتجاجها على الحرب وعن معارضتها لها ــ في انكلترا وهولندا وبروسيا والامبراطورية النمساوية على سبيل المثال ــ بيد انها لم تجد فتيلا . وبقي الفرنسيون في حالة من العزلة ، حتى راودت الكثيرين منهم ، بمن فيهم روبسبيير بالذات ، مشاعر الازدراء نحو الثوار المزعومين في الاقطار الاخرى، ومشاعر الافتخار والاعتزاز بالفرنسيين الذين انفردوا دون سواهم من الشعوب في التصدي بشجاعة للقوى الرجعية في اوروبا . وبعد عام ١٧٩٥ ، انقلب العديد من الثوار خارج فرنسا ــ في الجمهوريات الشقيقة على الاخص ــ على الفرنسيين ، لانهم ذاقوا مرارة الاحتلال العسكري الفرنسي ، واعمال السلب والنهب ، والمصادرات ، والمناورات الدبلوماسية لحكومة الادارة ، وان ظلوا يؤيدون التحول الاجتماعي في بلادهم . وراح الناس ، هنا وهنالك ، يرددون بأن على كل شعب ألا يعتمد الا على نفسه لتحقيق ثورته . وجاءت فكرة « الامة » ، وهي فكرة ثورية ، تعزز هذه النزعة وتطورها .

حيثما منيت الثورة بالفشل ، وصمدت المؤسسات القديمة على الرغم مما واجهته من معارضة ، كان من السهل طي صفحة بعض الذكريات . فالثورة الفاشلة ليست ثورة . فما حدث في ارلندا في عام ١٧٩٨ كان عصيانا ، وما حصل في بولونيا في عام ١٧٩٤ كان تمردا . وفي القرن التاسع عشر ، الذي تنامى فيه الشعور القومي والولاء للوطن ، بات الناس يشعرون بالخجل والارتباك لدى تفكيرهم بان اجدادهم تعاونوا مع اجانب ، أو عبّروا عن تحمسهم للثورة الفرنسية . وعمد الديمقراطيون انفسهم الى طي صفحة هذه الذكريات . فقد نسي الناس او تناسوا ان « يعاقبة » ساخطين عاشوا في انكلترا واسكوتلندا . وفي الولايات

المتحدة ، ما عاد التحمس الشعبي للثورة الفرنسية يوصف الا بأنه ضرب من الجنون المؤقت . وفي هولندا وبلجيكا والمانيا وسويسرا وايطاليا ، راجت فكرة مفادها أن بعض المتهورين فقط تعاونوا مع الفرنسيين أو دعوهم الى احتلال البلاد . فالجمهوريات الشقيقة فرضت فرضا من قبل الفرنسيين ، وهي ان كانت تشهد على شيء فانما على السياسة « التوسعية » للثورة الفرنسية ، لا على بزوغ القوى الثورية في أكثر من منطقة في اوروبا . ولئن ضم الفرنسيون بلجيكا والضفة اليسرى لنهر الراين فانهم ، في خطوتهم هذه ، تصرفوا كغزاة فحسب ، أي كما كان سيتصرف لويس السادس عشر فيما لو استطاع ذلك . هكذا امست اسطورة الثورة الدائمة تقابل باسطورة اللامبالاة الدائمة بالمحاولات الثورية وبأسطورة الامم المستقلة عن بعضها بعضا . وبالتوازي مع هذه الاسطورة تحول التاريخ نفسه الى تاريخ قومي ، وصار المؤرخون لا يتعاملون الا بالوثائق المكتوبة بلغة بلادهم ويحصرون تنقيبهم بما حدث في اقطارهم . ولكن هذا لا يمنع وجود استثناءات . وفي منتصف القرن العشرين على وجه التحديد ظهرت دراسات تاريخية عدة تتناول الثورة كظاهرة عامة في القرن الثامن عشر ، وهذا الكتاب يدين لها بالشيء الكثير .

لكن طردا مع النظر الى الثورة من منظور جغرافي واسع النطاق ، يتحتم ان تظهر هذه الثورة بمظهر الثورة « البورجوازية » بالمعنى الملتبس الذي كان لهذه الكلمة فيما مضى . وقد لا يكون كافيا ، ولا حتى صحيحا اعتبار الثورة فصلا من فصول ميلاد الراسمالية . بل ربما كان الاصح القول بأن الثورة اخرت نمو الراسمالية في فرنسا . لكنها بالمقابل كانت حدثا حاسما في تاريخ الملكية والطبقات المالكة. فحيثما طبقت الافكار الثورية ، اي في فرنسا وفي الجمهوريات الشقيقة ، ومن ثم في الامبراطورية النابوليونية ، اعيد تعريف الملكية . فقد جرّدت ملكية الارض من سماتها الاقطاعية وأسقط حق البكورة الارستقراطي . ولئن يكن

للثورة من سمة مميزة فهي أنها أعطت الفرد ، اي فرد كان ، حق الملكية ، وجعلت السلطة العامة والقضاء وقفا على الدولة . وعلاوة على ذلك ، فان مصادرة أملاك الكنيسة واعادة بيعها أدت ، في فرنسا وفي خارجها ، الى اعادة توزيع الملكية على نحو أضحى معه العديد من الاشخاص من ابناء الطبقات كافة ، بمن فيهم الفلاحون ، مالكين عقاريين . هكذا تكون الثورة ، على الرغم مما تميزت به من صخب ، أوجدت القاعدة الاقتصادية للنزعة المحافظة الحقيقية في فرنسا . وكذلك قاعدة المجتمع البورجوازي في جزء كبير من اوروبا .

وكما رأينا في الصفحات السابقة كان النبلاء في بعض الاقطار، في ايطاليا على سبيل المثال ، في عداد القادة الثوريين الفعالين . وفي اقطار اخرى ، حيث كان يطغى الشعور القومي او كراهية الاجانب ،كما في بولونيا او ارلندا ، انضوت الطبقات كافة تحت لواء الحركة الثورية . وقد تبنى الكثيرون من رجال الدين الافكار الثورية . وتميزت الولايات المتحدة عن سواها بما ابداه سكانها الريفيون من ميل الى التعاطف مع الثورة التي لم تقابل الا بفتور من قبل سكان المدن . اما فرنسا فقد انفردت بثورتها الشعبية الجماهيرية، على الاخص خلال عامي ١٧٩٢ و ١٧٩٣ ، وهي ثورة كان رائدها التطلع نحو المزيد من العدالة الاجتماعية . ولهذا السبب بالذات ، وبالنظر أيضا الى حجم فرنسا وتعدادها البشري الضخم ، اختلفت الثورة الفرنسية عن جميع الاحداث والتغييرات التي حصلت من حولها . كان نجاح الحركات الثورية الاخرى مرهونا بمساعدة الفرنسيين ، وفي فرنسا وحدها كان يمكن استشفاف بداية حركة ثورية لاحقة موجهة ضد البورجوازية . من هذا المنظور ، كانت الثورة الفرنسيةهيوحدها الثورة «الحقيقية» في ذلك العصر . بيد انه لا يوجد تعارض بين فكرة الثورة الفرنسية « الفريدة » وفكرة الموجة الثورية التي اجتاحت اوروبا واميركا في الوقت عينه .

المتعاطفون مع الثورة كانوا ، في كل مكان ، اناسا من الطبقة الوسطى ، متحررين من الاعمال اليومية الخسيسة ، متنعمين بفوائد التعليم والبحبوحة ، وانما على هامش الفئات صاحبة الامتيازات من ارستقراطيين أو وجهاء أو احبار الكنيسة . وقد انضم اليهم نبلاء في بعض الاحيان ، ودعمهم ، في كثير من الاحيان ، اشخاص ينتمون الى طبقات أدنى وأقل رخاء . وكان انصار الثورة ، في المقام الاول ، من المحامين والموظفين والاطباء والصيادلة والتجار ورجال العلم والتقنيين والحانوتيين واصحاب المصانع والصحفيين والناشرين والاساتذة والمعلمين والكتاب والمثقفين ، بل من الصيارفة ايضا . في بعض الاحيان ، كان يظهر في صفوفهم بعض المزارعين ، وفي أحيان اكثر بعض المالكين العقاريين ، وفي غالب الاحيان أبناء الذين كانوا أكثر انشغالا او اكبر سنا او اكثر حذرا من التورط بصفة شخصية في المغامرة الثورية . وبالاختصار ، كانوا يشكلون بورجوازية ثورية .

لم يتمردوا فحسب ، وانما خططوا ايضا لشكل جديد من الدولة والمجتمع . ادخلوا فلسفة **الانوار** الى ميدان السياسة العملية . ورغبوا في عالم يتطلع نحو المستقبل اكثر مما يتطلع نحو الماضي . عالم يكون الحكم الدستوري فيه اكثر من مجرد مشورة المجالس التمثيلية القديمة ، بل شيئا مغايرا تماما . لقد رفعوا في وجه حقوق الملكية المزعومة والسلطات الوراثية حق الشعب في السيادة . وجعلوا المواطن بديلا عن الرعية ، وابتكروا فكرة المواطنية القومية . طالبوا بحرية الرأي والتعبير والمعتقد والتجمع ، وبحرية المبادرات على انواعها ، بما فيها المبادرة الاقتصادية . عارضوا القيود القديمة بالحرية ، واشكال التمييز السابقة بالمساواة . وكان لديهم من الغيرية ما يجعلهم يحلمون بالتآخي مع كل من ينضم الى صفوفهم . وقد كرّسوا برنامجهم في **اعلان حقوق الانسان والمواطن** الصادر في عام ١٧٨٩ . ومنذ ذلك التاريخ جرت المطالبة بحقوق جديدة لاكبر عدد ممكن من الناس . وكان

التصدي للحقوق الجديدة ومقاومتها تاريخيا مستمرا هو الآخر . والموجات التي انبجست في عام ١٧٨٩ كانت صاخبة تارة ، واكثر هدوءا طورا ، بيد انها لم تكن على الاطلاق ساكنة سكونا مطلقا ، واغلب الظن انها لن تعود الى الانحسار يوما .

# ثبت المراجع

## ١ ــ دراسات عامة حول عصر الثورة

FUGIER ( André ) , *La Révolution française et l'empire napoléonien* ( Histoire des relations internationales , Vol . IV ) . Paris , 1954 .

GODECHOT ( Jacques ) , *La Grande Nation : L'expansion révolutionnaire de la France dans le monde,* 1789-1799 , 2 vol., Paris, 1956 . Du même auteur : *Les Révolutions,* 1770-1799 ( Collection « Nouvelle Clio » ), Paris , 1961 . *La Contre-révolution : Doctrine et action* , 1789-1804 , Paris , 1961 . *La pensée révolutionnaire en France et en Europe* , 1780-1799:*textes choisis* (Collection « U » ) , Paris , 1964 .

LEFEBVRE ( Georges ) , *La Révolution française* ( Peuples et civilisations ) , Paris , 1951 .

PALMER ( R.-R. ), *The Age of the Democratic Revolution : A political history of Europe and America,* 2 vol., Princeton , 1959 et 1964 .

RAIN (Pierre), *La Diplomatie française de Mirabeau*

*à Bonapàrt* , Paris , 1950 .
SOREL ( Albert ) , *L'Europe et la Révolution française,* 8 vol., Paris 1885 - 1904 .

## ٢ ـ الثورة في فرنسا

علاوة على مؤلفات مشليه ولوي بلان وتوكفيل وتين واولار وماتييز التي تقدم ذكرهـا في الفصل العاشر من هذا الكتـاب ، يمكـن الرجوع الى المؤلفات الاحدث عهدا التالية :

*Actes du colloque Robespierre : XIIe Congrès international des sciences historiques à Vienne, 3 Septembre* , 1965 . Paris , 1967 .

BOULOISEAU ( Marc ) , *Le comité de salut public,* 1793-1795 , Paris , 1962 . Du même auteur : *Robespierre: Discours et rapports à la convention* , Paris , 1965 .

COBB ( Richard ) , *Les armées révolutionnaires , instrument de la Terreur dans les* departements, avril 1793- *floréal an II,* 2 vol ., La Haye , 1961 et 1963 .

*Colloque international de Stockholm* , 21 *août* 1960 . *Babeuf et les problèmes du babeuvisme* , Paris , 1963 .

FURET ( Fançais ) et RICHET ( Denis ) , *La Révolution* , 2 vol ., Paris , 1965 et 1966 .

LATREILLE ( André ) , *L'Eglise catholique et la Révolution française* , 2 vol., Paris , 1946 .

MARKOV ( Walter ) , *Maximilien Robespierre* , 1758 - 1794 , *Beitrage zu seinem* 200 *Geburtstag* ,Berlin , 1958 .

MAZAURIC ( Claude ) , *Textes choisis de Babeuf,* Paris , 1965 .

REINHARD ( Marcel ) , *Le grand Carnot* , 2 vol ., Paris , 1950 et 1952 .

SOBOUL (Albert), *Précis d'histoire de la Révolution Français,* Paris , 1962 . Du même auteur : *Les sans-culottes parisiens de l'an II : mouvement populaire et gouvernement révolutionnaire* 2 *juin* 1793-9 *thermidor an II,* Paris , 1958 . *Les soldats de l'an II,* Paris, 1959 .

## ٣ ـ الحركات الثورية في الاقطار الاخرى

BRUNSCHWIG ( H. ), *La crise de l'Etat prussien à la fin du XVIIIe siècle et la genèse de la mentalité romantique* , Paris , 1947 .

CHAPUISAT ( E.) , *La Suisse et la Révolution française* , Genève , 1946 .

DECHAMPS ( J. ) *Les îles Britanniques et la Révolution française* , Bruxelles , 1949 .

DE CONDE ( Alexandre ) , *Entangling Alliance : politics and diplomacy under George Washington* , Durham , N.C. 1958. Du même auteur : *The Quasi-war: the politics and diplomacy of the undeclared war with France* , 1797-1801 , New York , 1966 .

DESCALAKIS ( A. ) , *Rhigas Velestinlis : la Révolution française et les préludes de l'indépendance hellénique* , Paris , 1937 .

DROZ ( Jacques ) , *L'Allemagne et la Révolution française* , Paris ,1949 . Du même auteur : *La pensée politique et morale des Cisrhénans* , Paris , 1940 .

FUGIER ( André ) , *Napoléon en Italie* , Paris , 1947 .

CHISALBERTI ( Carlo ) , *Le costituzioni « giacobini »* , Varèse , 1957 .

LEFLON ( J. ) *Pie VII : des abbayes bénédictines à la papauté* , Paris , 1958 . Excellent ouvrage sur la Republique cisalpine .

LESNODORSKI ( B. ) , *Les jacobins polonais* Paris , 1965 .

MANGER ( J. - P. ) , *Recherches sur les relations économiques entre la Frances et la Hollande pendant la Révolution fraçaise* , Paris , 1923 .

MONTFORT ( Henri de ) , *Le drame de la Pologne : Kosciuszko* , 1764 - 1817 , Paris , 1945 .

REINHARD ( Marcel ) , *Avec Bonaparte en Italie , d'après les lettres inédites de son aide de camp, Joseph Sulkowski* , Paris , 1946 .

STEINER ( E. ) , éd., *Korrespondenz des Peter Ochs,* 3 vol ., Bâle , 1927-1937 . La majeure partie est écrite en français .

STRANGE ( M.-M. ) , *La Révolution française et la société russe* , Moscou , 1960 .

TASSIER ( Suzanne ) , *Les démocrates belges de* 1789 : *étude sur le Vonckisme et la Révolution brabançonne* . Bruxelles , 1930 . Du même auteur : *Histoire de la Belgique sous l'occupation française en* 1792 et 1793 , Bruxelles , 1934 .

VERHAGEN (D.-R.-C.),*L'influence de la Révolution française sur la première constitution hollandaise du* 23 *avril* 1798 , Utrecht , 1949 .

WANGERMANN ( Ernst ) , *From Joseph II to the Jacobin trials : government policy and public opinion in the Habsburg Dominions in the period of the French Revolution* , Oxford , 1959 .

ZAGHI ( Carlo ) , *Bonaparte e il Direttorio dopo Campoformio : il problema italiano nella diplomazia europea* 1797-1798 , Naples , 1956 .

# فهرس

دار الطليعــة تقدم :

# سلسلة

# الثورات الكبرى في التاريخ

بعيدا عــن الهذر الايديولوجي الذي لا يفلسف التاريخ الا لانه يجهل بوقائعه ، فان الهدف الذي ترمي اليه هذه السلسلة ليس مديح الثورة بحد ذاتها ، ولا وصفهــا او التأريخ لها بتجرد كاذب ، وانمــا الوصول الى معرفة علمية بأعم قوانين الثورة من خلال الاجابة عن سؤال محدد : كيف ولماذا ومتى يبدأ مجتمــع من المجتمعات بالاعتقاد بأن لا حل للمشكلات التي يواجهها الا بالثورة؟

وخلافا لكل ميتافيزيقا سوسيولوجية تفترض هذه السلسلة ان الثورة ليست مصادفة ؟ ولا قضاء وقدرا ، وانما هي ظاهرة تاريخيــة كبرى ونتيجــة ضرورية ؟ بل طبيعية ، لتطور المجتمعات ولنمو التناقضات الاجتماعية .

ومن ثم فان كل جزء مــن اجزاء هذه السلسلة لن يكتفــي بدراســة الاسباب البعيدة والقريبة ، العميقة والمباشرة ، لكــل ثورة مــن الثورات علــى حدة ، وانمــا سيتناولهــا ايضا فــي شموليتهــا ، كظاهرة لا ينحصر اثرهــا في القطــر الذي حدثت فيه ، بل يتخطى مفعولهــا الحدود السياسية والزمانية معا ليسم

بميسمه عصرا بكامله على صعيد قارات بأسرها ، ان لم يكن على صعيد العالم قاطبة .

صدر من هذه السلسلة :

**١٧٨٩**
**الثورة الفرنسية وامتداداتها**
تأليف روبرت بالمر

**١٨٤٨**
**ثورات القومية والديموقراطية والرومانسية**
جان سيغمان

وسيصدر على التوالي :

**الثورة الصينية**
**من القومية الى الاشتراكية**
لوسيان بلانكو

**عسكر العالم الثالث**
**الثورات العسكرية في بلدان آسيا وافريقيا في القرن العشرين**
بيير روندو

٣٠٠٠/٨٢/٩٢٩

# هذا الكتاب

□ خلافاً للتصورات الشائعة فإن ثورة ١٧٨٩ لم تكن فرنسية خالصة ، ولا برجوازية خالصة . ففي جميع أقطار اوروبا ، ووصولاً الى الشرق البعيد واميركا ، انداحت موجة الاحداث الثورية لتحمل الى كل مكان مبدأ الحرية والمساواة وتصوراً جديداً للدولة والمجتمع والمواطن .

□ وهذا الكتاب يقدم لوحة متكاملة . نابضة بالحيوية والجدلية ، لثورة ١٧٨٩ التي كانت للشعوب قاطبة مدرسة كبرى للحرية السياسية ولتجديد الفكر الاجتماعي .

★ ★ ★

□ مؤلف هذا الكتاب ، روبرت ر . بالمر من مواليد شيكاغو ١٩٠٩ ، استاذ كرسي التاريخ في جامعة برنستون ، ومحاضر في جامعات شيكاغو وكولورادو وواشنطن ، وحامل دكتوراه فخرية من جامعة تولوز ، وعضو في عدة أكاديميات للدراسات التاريخيـــة ، ورئيس جمعية دراسات التاريخ الفرنسي . وقد أقام في فرنسا فترة طويلة لاستكمال وثائق دراسته عن الثورة الفرنسية . وأشهر كتبه **تاريخ العالـــم الحديث** ( ١٩٥٠ ) و **عصر الثورة الديمقراطية** ( ١٩٥٩ ) .

**الثمن : [illegible]**
**او ما يعادلها**

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

روبرت بالمر
١٧٨٩ الثورة الفرنسية وامتداداتها
دار الطليعة